الدكتور: عمر بن قينة

اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة

ديوان المطبوعات الجامعية

الدكتور: عمر بن قينة

أستاذ الأدب الجزائري الحديث
بجامعة الجزائر المركزية

اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة


ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية ـ بن عكنون ـ الجزائر

رقم النشر: 4.09.4144

رقم ت.د.م.ك (I.S.B.N) 9961.0.0117.6

الإهـــداء

إلــى

بلد الحبّ.. والإباء، بلد العطاء من دون منّ ولا أذى..
إلى (الجزائر) التي قدّمت مليوني شهيد.. على جبهات القتال.. والفكر.. بالبندقية والقلم.. على امتداد قرن واثنتين وثلاثين سنة.. وزيادة. تقاوم.. اليوم.. مثل الأمس.. ترفض المساومة في لعبة (الخفافيش) و (جماعات الضغط) والابتزاز، لفصلها عن محيطها الحضاري.

إليها.. قلعة حبّ وصمود.. في مجال حضاري مشعّ.. منذ أربعة عشر قرنا .. بدين التوحيد، ولغة التنزيل

وإلى كلّ كلمة.. مخلصة صادقة من دون نفاق ولارياء.

(عمر)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شغلني الاهتمام بموضوع هذا البحث فترة طويلة من الوقت، وقد مضى حرصي عليه يزداد اطّرادا مع مرور الأيام، خاصة حين اتّضح لي أنه موضوع بكر لم يحظ بدراسة مستقلة جادّة، وان جاء الحديث عنه جزئيا في بحوث محدودة جدا(1) رغم أنه لون أدبي مستقل، له مكانته الأدبية المعتبرة في حضارتنا الإسلامية، ثم النثر العربي، ومنه النثر الجزائري.

وقد تمكنت من نفسي رغبة شديدة في اجلاء صورة واضحة عن هذا اللون كتيار أدبي بدا منسيا أو هامشيا في أحسن الحالات، قابعا ينتظر الاهتمام الجاد، خاصة في النثر الجزائري.

وهكذا فإنّني لم أكد أشرع في البحث حتى بدأت أدرك ثراء المادة وتنوّعها، والتصاقها بمعاناة الكاتب والانسان الجزائري عموما،

---

(1) وهي بحوث توزّعتها فترات مختلفة للأساتذة التالية أسماؤهم بالخصوص: أولا: الدكتور أبو القاسم سعد الله؛ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص 83،279، 351، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978؛ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ص 243، 337، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986؛ تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 390، 407، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ — 1981م؛ ثانيا: الدكتور عبدالله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، ص 48، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1398هـ — 1978م؛ ثالثا: الدكتور عبدالملك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931 — 1954. وقد كتب عن الموضوع هنا تحت عنوان (المذكرات والسيرة الذاتية).

في القرن العشرين، فحصرت مجال البحث فيه، وقد لاح لي من الخطوات الأولى ان الكاتب بات لسانا معبرا عن هموم الانسان الجزائري، ومعاناته تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، كما بات ـــ عموما ـــ صاحب قضية واضحة يرتبط فيها الهمّ الذاتي بالهمّ الوطني العام، وهو يصوغ رحلاته في نسيج متطوّر يصف بعمق الواقع الاجتماعي في مختلف امتداداته، والقضايا والانفعال بها، كما يصف المواقع والمواقف ويحدّد وجهة النظر فيها سلبا أو ايجابا.

وهكذا يتضح من البداية أن في مقدمة الدوافع لاختيار هذا الموضوع للبحث: ثراء مادته، وارتباطها بالقضايا الوطنية والانسانية، وتنوعها، وقلة الاهتمام به أو تجاهله، بينما حظيت ألوان أخرى باهتمام، ربما مفرط، وفي مقدمتها: الشعر والرواية.

هذا الاجحاف بشكل خاص في حقّ أدب الرحلة شجعني إذن أكثر على الاهتمام بهذا الفن خلال القرن العشرين، ونمّى لديّ رغبة شديدة في الكشف عنه مادة وقضايا، كما غذّى حرصا أيضا على اغناء المكتبة العربية والانسانية عموما بإضافة جادة ـــ كما نرجو ـــ في جناحها الجزائري، تتمثل في نوع أدبي يصف أوضاعا كما يحمل هموما، ويعبّر عن قضايا، فعمدت إلى تناول ذلك تصنيفا ومعالجة وتقييما كما سيتضح عبر فصول هذا البحث.

ولابراز هذا الإسهام الجيد لكتاب الرحلة في هذه الفترة كان عليّ أن احتمل المعاناة في جمع المادة الموزّع معظمها في جرائد ومجلاّت ليس من الهيّن الوصول إليها، وقد مضى على بعضها أكثر من خمسين سنة، كما توزّع عدد من هذه الرحلات في طيات كتب عامة قد يأتي الحديث عن بعضها عرضا أو جزئيا في هذه الكتب.

وقد ضاعف الاحساس بالمعاناة هنا ندرة البحوث كما سبقت الاشارة إلى ذلك، إضافة إلى صعوبات البحث العامة في وطننا، وما أدراك ما صعوباته في الوطن العربي كله!

فجمع المادة إذن تطلب مني جهدا كبيرا، كما تطلب اعدادها وتصنيفها ثم دراستها جهدا آخر في ظروف صعبة تجعل العمل في محيط عام غير صحي: نضالا ضاريا وتضحية كبيرة، كان علي أن أقدمهما سعيدا راضيا من أجل إبراز هذا اللون الأدبي المهمّش، فهان في سبيل هذا الهدف كل صعب بالارادة الثابتة والصبر الدائم، كما تضاءلت المعوّقات المختلفة ليكون هذا البحث في شكله هذا، وقد اتخذت في بحثه منهجا تاريخيا تحليليا نقديا(*) منطلقا من الرحلات الأساسية العامة لتحديد الاتجاهات في رحلات الكتاب والقضايا التي انعكست من انطباعاتهم على أقلامهم، فقسمته إلى ثلاثة فصول مسبوقة بتمهيد بعد هذه المقدمة.

فتحدثت في هذا التمهيد عن المعالم العامة في مسار فنّ الرحلة في النثر العربي عموما منذ القرن الثالث الهجري، ومنه النثر الجزائري منتهيا بمطلع القرن العشرين مجال البحث في الأدب الجزائري، مذكرا خلال ذلك ببعض الجهود الخاصة أيضا بالدراسات العربية والأجنبية في أدب الرحلة العربي، ولم أتعرّض في هذا التمهيد للحديث عن الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، لأنه جانب تكرّر الحديث عنه كثيرا، بالخصوص في بحوث جامعية أخرى مختلفة(**).

(*) ونحن في غنى عن شرح التنوع في الدلالة لهذه الكلمات، لقارىء نزيه ذكي جاد.

(**) انظر بالخصوص: 1 ــ الحركة الوطنية الجزائرية، جزآن: 2، 3، د. أبو القاسم سعد الله، معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية، ط 2، القاهرة، 1977؛ 2 ــ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، د. أبو القاسم سعد الله، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ؛ 3 ــ الشعر الديني الجزائري الحديث: د. عبدالله ركيبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1401هـ ــ 1981م؛ 4 ــ تطور الأدب القصصي الجزائري، 1925 ــ 1967، عايدة أديب بامية، ترجمة: د. محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982؛ 5 ــ الديسي حياته وآثاره وأدبه، عمر بن قينة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980؛ 6 ــ الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، د. نور سلمان، دار العلم للملايين، بيروت، 1981؛ 7 ــ فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931 ــ 1954، عبدالملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

وكان أوّل هذه الفصول في رصد اتّجاهات الرّحالين الجزائريين عن (الرحلة الداخلية) التي شملت كلّ مناطق الوطن: شرقا وغربا، جنوبا وشمالا، وكتب فيها معظم الرحالين. تلاه فصل ثان عن (الرحلة في اتجاه الوطن العربي والإسلامي) حيث كان الحديث عن الرحلة إلى معظم الوطن العربي، وبرز في ذلك من العالم الإسلامي غير العربي (أندونيسيا) و (باكستان) بالخصوص، وقد عالج الرحلة في هذا الاتجاه أشهر كتاب الرحلة في هذه الفترة. وخصصت الفصل الثالث للحديث عن (الرّحلة في اتجاه أوروبا) وهو ما كتب فيه أغلب الكتاب المعروفين في هذا المجال خلال هذه الفترة، فكانت مادة الرحلة غنية بدورها في هذا الاتجاه: فكريا وأدبيا.

وهكذا ركزّت البحث في المادة الأساسية، فشمل الحديث مختلف الرّحلات العامة في كلّ الاتجاهات «ولكلّ وجهة هو مولّيها»(٭). ماديا ومعنويا، كي يكون عمدة بالخصوص لكلّ عمل جادّ في هذا الإطار خلال الفترة موضوع البحث، لذا أثريته بالمادة، وتوسعت فيه عرضا وتحليلا، لأن التعامل مع النصوص يستدعي استنطاقها للاقناع(٭٭)، وليس الاكتفاء بمخاطبة القارىء بآراء وأحكام قد تغدو في حالات لدى بعض أقرب إلى مراسلة برموز رياضية أو «شفرة» لمعالجة أمور سرية، وهذا كي أتخذه أيضا منطلقا لجهد آخر(٭٭٭)، فحرصت على الشمولية التي تتبعت فيها الجزئيات المهمة كذلك لضرورة الأمثلة الايضاحية، والتفاصيل التي تمنح الفكرة حيوية، وتقربهامن الأذهان كما تضفي عليها رونقا وتمكّن لها في نفس القارىء لتأكيد صحة حكم أو استنتاج، إيمانا منّي بأهمية الموضوع البكر وضرورة الشمولية في التعامل مع مادته التي تغني — كما آمل —

(٭) قرآن كريم، سورة: (البقرة) من (الآية رقم: 148).

(٭٭) هذا التعبير يثير بعضا من الذين ألفوا العيش بالدجل اللفظي كغطاء ايديولوجي رخيص، تحت ضروب من التعمية والتضليل والتمويه ايعازا بأهمية وهمية كاذبة.

(٭٭٭) أهمّه حتى الآن (التّشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة)، دار الأمة، الجزائر، 1995.

الباحث والطالب والمهتم بالبحث في المادة التي يعسر الوصول إليها حتى درجة الاستحالة موزعة بين كتب وجرائد ومجلاّت.

لقد طمحت إلى ضرب من الشمولية من دون التوقّف عند انتقاء معيّن محدود، ورغم ذلك اعتقد ان هناك رحلات أخرى بقيت بعيدة عن النظر واليد في النهاية(1)، إلاّ بعد الفراغ من إعداد البحث فلم استطع الاهتداء إليها لأسباب قد تتعدّد، عزائي أن ينوب في التعبير عنها ما توفرت عليه هنا: جمعا وتصنيفا ودراسة، معتذرا لمن لم يشمله البحث رغم الجهد في التقصّي راجيا استدراك ذلك مستقبلا.

لهذا ــ استكمالا للبحث ــ أدرجت في آخره فهرسا للتّراجم، وفهرسا شاملا للرحلات التي استطعت حصرها في مختلف المصادر: كتبا ودوريات ويوميات، ما ذكر منها في البحث وما لم يذكر، وأتبعتهما بفهارس أخرى رأيت أنّها ضرورية في مثل هذه البحوث، وهي فهارس الأعلام، والأماكن والبلدان، والهيئات والجمعيات والمنظّمات والمؤسّسات، والمصادر والمراجع، ثمّ فهرس الموضوعات.

وبالله التوفيق

عمر بن قينة

الجزائر في 1992/12/28م

---

(1) مثل رحلتي (محمد الصالح رمضان) و (علي مرحوم) إلى الصّين، وسواهما مما سنعمل على استدراكه بإذن الله، في عمل آخر، أو عند إعادة طبع هذا العمل إن شاء الله.

تمهيد

عرفت الرحلة في الأدب العربي منذ فجر النّهضة كفنّ أدبي بعد ما كانت مجرّد ممارسة في الجاهلية تجارة أو بحثا عن كلإٍ وماء.

وقد بدأ العربي بعد الفتح الإسلامي يتطلّع إلى ما وراء الجزيرة العربية، بل تمكّن منه الشوق إلى معرفة مختلف الأوطان ما فتح منها، وما لم يفتح، قرب أو بعد.

فلم تلبث الرّحلة حتى صارت فنّا عربيا أصيلا في النثر العربي بسماته التّاريخية والجغرافية، واهتمامه بحياة النّاس وتقاليدهم، وأنماط عيشهم، وبمضمونه الفكري والاجتماعي، وأسلوبه الأدبي المتميّز غالبا عمّا سواه.

وتتعاضد في الرحلة التجربة الواقعية مع الخيال، من دور تغييب تام لدى بعض في الاعتماد على مصادر ومراجع تنير جوانب الموضوع وتثريه.

من هنا يبرز التّنوّع في الرّحلات، لا بمستواها الأدبي فحسب، بل بمنحاها التاريخي أو الجغرافي أو (الاثنوجرافي)[1] في قوالب يتآزر فيها الجانب التعليمي بالإمتاع الأدبي.

---

(1) الاثنوجرافيا كمصطلح «كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة». انظر: د. حسين محمد فهيم، أدب الرحلات (دراسة تحليلية من منظور اثنوجرافي) ص: 49، سلسلة: عالم المعرفة، رقم: 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شوال: 1409هـ (يونيو 1989م).

وقد قطع فنّ الرحلة في الأدب العربي مسيرة طويلة، منذ انطلاقته الأولى في القرن الثالث الهجري على يد (أبي العباس أحمد بن يعقوب)[1] المعروف باسم (اليعقوبي) بكتابه «كتاب البلدان» وكذلك (البلاذري)[2] بكتابه «فتوح البلدان». الذي يغلب في عمله التاريخ على الجغرافيا[3].

وقد تبعه في القرن الرابع الهجري (المسعودي)[4] بكتابه «مروج الذهب» عن «أخبار الزّمان... وهيأة الأرض ومدنها... وأخبار غياظها وأصل النّسل وتباين الأوطان»[5].

فاهتمّ بفنّ الرّحلة، وشجّع على ممارسة التّرحال، لأهمية المشاهدة، والاستنتاج من المعايشة[6]؛ كما أعطى أيضا اعتبارا للقالب الأدبي الأنيق[7]. ثم يأتي (البيروني) كهمزة وصل بين القرنين الرابع والخامس من الهجرة، وهي فترة نضج، زخرت فيها الرّحلة بابداع وتطوّر كحركة، باتت ذات استقلالية كنوع أدبي[8].

---

(1) المتوفي سنة 284 (أو 292).
(2) المتوفي سنة 279هـ (892م).
(3) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ت: د. صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، ص 161، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1962.
(4) توفي بالقاهرة سنة 346هـ (956م).
(5) المسعودي، مروج الذهب، ج1، ص 3، موفم للنشر، سلسلة الأنيس، الجزائر 1989.
(6) المصدر السابق، ص 7.
(7) كراتشوفسكي، ص 181.
(8) د. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص 16، المكتبة الثقافية الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.

وسرعان ما يعمّ هذا اللّون منطقة (الغرب الإسلامي) فيستلم المشعل في القرن السادس الهجري بجهود مختلفة يتقدمها عمل (الإدريسي)[1] بكتابه المعروف «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي يعتبره بعض متميّزا «بغزارة مادته في جغرافية المغرب وصقلية»[2].

وجاءت بعده شخصية أخرى معتبرة هو (ابن جبير)[3] المعروف بعمله (رحلة بن جبير) وقد خطت الرّحلة بعده خطوات متقدّمة، خصوصا برحلة (ابن بطوطة)[4] الذي عبر أوطانا وقارات؛ فاحتلّت رحلته أهمية كبيرة باتّساع رقعتها أولا وبمستواها الأدبي ثانيا، وبما حظيت به من اهتمام عالمي في النّهاية.

وقد جاء بعد ابن بطوطة (الحسن بن محمد الوزان)[5] المعروف باسم (ليون الافريقي Léon l'Africain) الذي ضاقت مساحة رحلته (وصف إفريقيا-Description de l'Afrique)[ ] عن سابقها، لكنها أخذت أهميتها بالخصوص من شخصية صاحبها وحياته التي عرفت اضطرابات

---

(1) 493 — 550هـ (1100 — 1160م).
(2) الدكتور زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص 65، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ — 1981م.
(3) ولد في بلنسية (الأندلس)، ربيع الأول: 540 — 614هـ (1145 — 1217م).
(4) 703 — 779هـ (1300 — 1377م).
(5) 888 — 957هـ (1483 — 1550م).
( ) أصل الكتاب بالعربية في حكم المفقود، عرف في ترجماته الأوروبية نقلا عن الايطالية التي تعتبر ترجمة أصلية للكتاب بقلم المؤلف نفسه، وقد أعيد الكتاب إلى أصله العربي بترجمة عن الفرنسية قام بها الدكتور محمد حجي، والدكتور محمد الأخضر.
صدر الكتاب في طبعة ثانية عن دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983م.

كثيرة خاصة بعد أسره(*)، لذلك تعتبر رحلته ذات أهمية بموضوعها وبالظروف التي كتبت فيها لأنه جاء في فترة وظرف حيث «يكاد يعدّ بوجه عام آخر المؤلّفين الكبار في محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب»(1) وهو بذلك خاتمة فترة معينة في مسيرة أدب الرحلة قبل عصر النهضة، برز فيها الرّحّالون المغاربة بنشاط واسع إلى جانب غيرهم من الرحالين المشارقة سواء ممن سبق ذكرهم في الأولين أو من الذين لم نذكرهم في الآخرين، أمثال (ياقوت الحموي)(2) صاحب (معجم البلدان).

وبعد ركود، خصوصا في القرن العاشر الهجري (16م) عادت الرحلة للانتعاش في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الهجرة (17م) و (18م) بشيوع الطباعة التي بدأت تقوم بدور مهم، في نشر بعض الآثار، ومنها الرحلة؛ فاستأنفت منطقة المغرب العربي الإسلامي دورها،

(*) يرجّح أن المؤلف ولد في (غرناطة) ونشأ في (فاس) بعد الهجرة إليها حين سقطت (غرناطة) في حكم النصارى. قام بعدة رحلات في إفريقيا ومنها إفريقيا الشمالية، وكذلك الشام و (أرمينيا) و (مصر) و (مكة) وفي عودته من رحلة (مكة) وقع في أيدي قراصنة صقليين، حملوه إلى (نابلي) حوالي (1520م) ثم حملوه إلى (روما) وأهدوه إلى (البابا) ليون العاشر، فأجبر على اعتناق المسيحية، واتخاذ اسم وليّ نعمته الذي شجعه لاجادة الايطالية واللاتينية والاسبانية، وانتهى من ترجمة كتابه (وصف افريقيا) من العربية إلى الايطالية سنة (1526م) ثم تمكن حوالي سنة 1528م من الفرار في ظروف غامضة إلى شمال إفريقيا عائدا إلى وطنه ودينه.

راجع مزيدا من التفاصيل في:

ـــ (وصف إفريقيا) للحسن بن محمد الوزان) تـ : د. محمد حجي، ود. محمد الأخضر، ص: 5 ـــ 14، ط: 2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983م.

ـــ تاريخ الأدب الجغرافي العربي، اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشوفسكي، تـ: صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ، (تاريخ الطبعة الأصل 1957 بموسكو).

(1) كراتشوفسكي، ص 450.

(2) ولد سنة 575هـ (1221م).

في فن الرّحلة، بأعلام مثل (العياشي) (أبو سالم عبدآلله بن محمد بن أبي بكر)[1] الذي دون رحلته (العياشية) تحت عنوان ثان هو «ماء الموائد» ويعتبر نموذجا «لجميع مولّفي هذا العهد الأخير الذي لم يطرأ فيه أيّ تقدم في الميدان»[2] وينتهي القرن (18م) بالجزائريين (ابن حمادوش)[3] و (الورتلاني)[4] مؤلف «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» وبدخولنا القرن التاسع عشر الميلادي نجدنا أمام وضع جديد، بدأ فيه مجال الرحلة يتسع، كما تتخذ لها وجهة متميّزة نحو أوروبا؛ فكان في مقدمة الرّحالين عربيا هنا (رفاعة الطهطاوي)[5] في رحلته إلى (باريس) و (خيرالدين التّونسي)[6].

وقد تعدّد الرحالون العرب مشرقا ومغربا، كما اتسعت مجالات الرحلة، بعد احتلال فرنسا الجزائر (1830م) وتونس (1881م) وقد شرع الاستعمار الأوروبي يستغلّ بعض الرّحالين، كما عكست ذلك رحلة

(1) 1037 — 1090هـ (1628 — 1679م).
(2) كراتشوفسكي، القسم الثاني: ص 732.
(3) المولود سنة (1107هـ ــ 1695م) انظر: رحلة ابن حمادوش الجزائري، تحقيق (سعدآلله) الجزائر، 1983.
(4) المولود في بني ورتلان، 1125 ــ 1193هـ (1713 ــ 1779م) يرد (الورثلاني) و (الورتلاني) حسب النطق المحلي، لكن النطق بالتاء أكثر شيوعا وأخفّ، وهو الشكل الذي وجده محقق الرحلة في كل النسخ باستثناء النصّ المتداول. انظر الهامش، في ص 2(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) تحقيق وتقديم: محمد بن أبي شنب، ص: أ، مطبعة بيرفونتانا الشرقية، الجزائر، (1326هـ (1908م).
(5) 1216 — 1290هـ (1801 — 1873م) ورحلته هي: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974.
(6) 1225 — 1308هـ (1810 — 1890م) ورحلة (خيرالدين التونسي) بعنوان (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) تقديم: المنصف الشنوفي، ص، 24، 25، الدار التونسية للنشر: تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

(ابن الدين الأغواطي)(1) التي كتبها لطلب من مساعد القنصل الأمريكي في (الجزائر) السيد (ويليام هودسون) قبل الاحتلال الفرنسي بأقلّ من خمس سنوات، مثلما عكست هذا الاتجاه في خدمة الاستعمار الأوروبي رحلتان جزائريتان بعد الاحتلال الفرنسي، تمّتا على نفقة الادارة الفرنسية في الجزائر التي شرعت تنظم رحلات خاصة للجزائريين بالخصوص إلى فرنسا من أجل التأثير والابهار في خدمة الدعاية والاشهار للمحتلين الذين اصطدمت حضارتهم الغازية بحضارة مقاومة بعنصري اللغة والدين. انتهجوا ذلك من ضمن خطط الاحتلال وصولا إلى اقناع المواطن الجزائري بأن خيره مرهون بالتمكين لفرنسا في الجزائر، بجيوشها وإدارتها والتعاون معها لبسط سيطرتها، وايعازا باستحالة النجاح في مقاومتها والوقوف أمام إرادتها.

في هذا الاطار تمت هاتان الرحلتان اللتان اتّجه صاحباهما من (الجزائر) إلى (باريس) في فترة ست وعشرين سنة (من 1852 إلى 1878م) وكانت الأولى بعد اثنتين وعشرين سنة من بداية الاحتلال (الذي جرى سنة 1830) وتمّت الرحلتان معا برعاية خاصة من الحكّام العسكريين الفرنسيين في (الجزائر) و (فرنسا)(2).

أول هاتين الرحلتين رحلة (سليمان بن صيام إلى بلاد فرانسة)(3) أو الرحلة الصيامية) من (مليانة) إلى (الجزائر) العاصمة في اتجاه (باريس) حيث بدا الرجل فرحا كثيرا بالمهمة التي اعتبرها عيدا له «كان ذلك عندي كالموسم الجديد، وركبت من مليانة دار السكنى إلى الجزائر الغراء، دخلتها

---

(1) ان كانت عائلة (ابن الدين) معروفة في الأغواط، فان المعلومات عن حياته لا تزال نادرة، وأن الذي يهمّ هنا رحلته التي كتبها في نهاية العشرينات ونشرت بالانكليزية سنة 1830م، وأعادها إلى العربية الدكتور: أبو القاسم سعد الله. أنظر ابحاث وآراء، في تاريخ الجزائر، ج 2، ص 244 ـــ 248.

(2) نشرتا مع ثالثة، بعنوان (ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس) من تقديم خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت، 1979.

(3) طبعت بالجزائر في السنة نفسها (1852م) التي كانت فيها الرحلة.

حماها آلله يوم 23 من أبريل سنة اثنين وخمسين وثمانية عشر مائة»(1) فيذكر أن سفره كان مع غيره من الأعيان في (قسنطينة) و (وهران) وغيرهما «جماعة من رؤساء العرب مأمورين مثلي بالسفر لهاتيك البقاع والمنازل»(2).

ويشرع ابتداء من يوم السفر في 25 أفريل 1852 يصف ما يتركّز عليه النّظر في الأرض الفرنسية مع اعجاب شديد بسياسة فرنسا في شق الطرق البرية وشبكات السكة الحديدية ومد خطوط الهاتف، فيقول عن الجهد في تذليل شبكات الطرق «ذلك أغرب ما يكون مع استواء الطريق ووزنها بموازين الهندسة، بحيث لا يعلو موضع على الآخر بشيء ما، ومهما تعرض لهم جبل شاهق في الطريق يمنعهم المرور دخلوا تحته بالثقب، فيكون حيطان تلك الثقبة من حجر منحوت وسقف كذلك»(3).

وحين يشاهد مشدوها الاتصالات الهاتفية تجري بين (باريس) و (ليون) يصفها بإعجاب ينهيه بانبهار واضح «وهذا من أغرب ما رأيت، والأمر لله من قبل ومن بعد»(4) وهو تعبير جلي عن العجز التام في إدراك تلك القدرة التي بدت له سحرية، ينجز بها القوم آلات وأعمالا، وهو الاحساس الذي تردّد لدى الكاتب في مواضع كثيرة استحسانا وذهولا أمام انجازات عظيمة في (فرنسا) التي جعلتها سياستها هذه في معاملة الأعيان، خير بلد، وملوكها أفضل الناس، عظماء وسياستها أحسن السياسات، وتلك نتيجة حتمية للنجاح في المهمة السياسية لخبراء الغزو، غزو الأرض وغزو النفوس حتى ينقلب في النظر الباطل حقا والظلم عدلا والقهر والابادة رفقا

(1) ثلاث رحلات جزائرية، ص 25 — 26.
(2) المصدر السابق، ص 26.
(3) المصدر السابق، ص 27.
(4) المصدر نفسه، ص 32.

وعدلا «اعلم أن ملوك فرانسة لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية لما حصلوا على تحصيل بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعدد(*) وغير ذلك ممّا لا يمكن حصره»(1) وهي دعاية سافرة تحقّق الغرض الذي (جلب) لأجله القوم من (الجزائر) إلى (باريس) التي لم يصلوها برّا حتى أدركوا كثيرا من أوجه خاصة بحسن السياسة الاستعمارية في تعمير الأرض واستصلاحها «منذ دخلنا هذه البلاد بأسرها لم نر بها موضعا خاليا من الغراسة والحراثة»(2) وكذلك في إشاعة العدل «في مدة إقامتنا ما رأينا انسانا مدَّ يده لأخذ الصدقة»(3).

هكذا يعود صاحب (الرحلة الصيامية) مبهورا بما رأى، معجبا بحسن السياسة الفرنسية في (فرنسا) التي خيّل إليه بفعل (الكرم) الفرنسي انها السياسة نفسها التي تجد امتداد لها في وطنه خارج (فرنسا). فماذا قال الرحالة الذي جاء بعده بنحو ستّ وعشرين سنة السيد (أحمد بن قاد) من ممثلي المنطقة الغربية من الوطن (وهران) في رحلته (الرحلة الفادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية»(4)؟

من المقدمة نعلم أن (أحمد بن قاد) قام برحلتين سابقتين إلى (فرنسا) وكتب عن رحلته الثالثة التي كانت للمشاركة في (مهرجان ـــ معرض) دولي وبدا فيها شوقه الشديد المبّرح «لمّا تعلّق القلب بزيارة فرنسة مرة ثالثة واشتاقت النفس للتّمتّع برؤية تلك المدن العظيمة والأمصار والمعاطن

(*) هكذا في النص.

(1) المصدر السابق، ص 41.

(2) المصدر السابق، ص 32.

(3) المصدر السابق، ص 42.

(4) المصدر السابق، ص 55، وقد تركت شكل الكلمة (فرنسة) كما وردت في النص، بينما وردت في (الرحلة الصيامية) هكذا (فرانسة).

والبساتين والديار، رجوت أن أكون مع من حضر، وقلت لعلّ غرس التّمنّي يثمر»(1).

يستفاد من هذا أنه الذي ألحّ على أن يكون مع الوفد الذي يمثّل منطقة الغرب من الوطن، فكان له ذلك بفضل ــ كما يقول ــ «حاكم عمالتنا الوهرانية سيادة الجنرال سيريس(*) المحبّ الخير للرعية المجتهد في صلاحها»(2).

من بداية الرحلة في الجزائر لا يلتفت الرجل إلى ما حوله، كان مأخوذا شوقا إلى (باريس) مدينة «الحسن والاحسان» كما يقول في الفصل الأول: «إننا ركبنا البحر من مرسى الجزائر في غرة شعبان المطابق لشهر غشت 1 سنة 1873 في جماعة من أعيان العرب قاصدين المدينة العظمى باريس التي اجتمع بها ما افترق في غيرها من الحسن والاحسان، وضمّت ما تشتاق إليه الأنفس وترغب في سماعه الآذان، فاستقبلنا أهلها بالبشاشة الدالة على المروّة، ذو وجوه كثغرة الصباح سميحة وعقول ثابتة صحيحة، وصدور سالمة سميعة، فنزلنا بأحسن المنازل الرفيعة مفرشة بالأفرشة البديعة، ولم يزالوا متفقّدين لأحوالنا تفقد المرضعة لرضيعها»(3).

يلاحظ إذن تركيز الكاتب على مظاهر الحفاوة وحسن الاستقبال في المدينة الجميلة، ولم يشد انتباهه إليها عبر المدن بشكل جاد إلاّ شعار الثورة الفرنسية، تنتصب حروفه عملاقة على جدران المدن «فكلما مررنا بمدينة وقرية من مرسيلية إلى باريس الاّ ورأينا على حيطانها كتابة غليظة كقوائم الابل يستخرجها الأعشى من بعيد فضلا عن صحيح البصر، لم نعرف حقيقتها، فسألنا عنها قيل لنا هي ثلاث كلمات: ليبرطي، اقاليطي، فرطرنيطي(**).

---

(1) المصدر السابق، ص 57 ــ 58.

(*) le général Cérès

(2) المصدر السابق، ص 61.

(3) المصدر السابق، ص 59.

(**) Liberté-Egalité-Fraternité

أعني الحرية والأخوة والمساواة. يالها من كلمات يحق أن تكتب بماء الذهب، وياليت الناس تعرف قدرها ويعلم ما ضمته من المعاني، وحقيق أن الخير مجموع بها إن عمل بها، فلما استفسرناها وتأملناها ازدادت قلوبنا تعلقا بمحبة الدولة الفرنسوية(1).

لا يلبث (أحمد بن قاد) حتى يسقط صريع اعجاب شديد جدا بما يشاهد في المعرض: «المجتمع فيه غرائب الصناعات الفائقة والاختراعات البديعة الرائعة فوجدناه أمرا عجيبا(٭) يحتوي على أصناف نتائج الزرع ونتائج الضرع والمعادن والتحف، كل شيء منها على حدة، موضوع بالاتقان والتحكيم، وكل شيء يستخرج بالالآت والحركات العقلية، فترى الصوف مثلا في محلّ محملها تخرج خيطا ثم يصير ملفّا جيدا ومتوسطا وأدنى، فتقول: أين المشط؟ وأين المغزل وأين المنسج وأين الخُلاّلة والشيء المتناول باليد؟ وترى أنواع الأقمشة من حرير وكتان بأنواع التّطريز المذهّب الملّون وأصناف الحاشية العريضة والضيقة تخرج كثرة بأدنى كلفة ولا عمل يد»(2).

ثم تكبر دهشته أكثر وهو يشاهد آلات التبريد «أغرب من هذا أن النار والماء ضدّان، والضدان لا يجتمعان، فرأينا الثّلج يستعمل من نار وماء بالآلات والحركات العقلية، فلو سمعنا بهذا لما صدقه العقل، لكن ليس الخبر كالعيان فوقفنا باهتين»(3).

وقف الكاتب مبهورا في غياب فرنسا الاحتلال التي تمارس بطشا في وطنه عمي عنه في حضور الصورة اللماعة والوجه البّراق لفرنسا الأخرى

---

(1) المصدر السابق، ص 61.
(٭) في الأصل هكذا: (فوجدناه أمر عجيب).
(2) المصدر السابق، ص 85.
(3) المصدر السابق، ص 67.

غير الاستعمارية، فسقط الكاتب صريع حبّ جارف لفرنسا (الحرية ــ العدالة ــ المساواة) وهو الشعار الذي لم يدرك الكاتب أنّه في السياسة الاستعمارية غير قابل للتحويل إلى بلاده، أو هو ممنوع التداول في سياسة الاحتلال بالجزائر، لم يدرك ذلك بعمق لما يحوطه به هو وأمثاله الاحتلال الفرنسي من رعاية وتبجيل ليخدموا سياسته في الأرض المغتصبة، لذا لا نعجب حين نراه يودّع (باريس) يوم الرحيل عائدا إلى وطنه مضطرب الفؤاد دامع العينين: «لمّا آن وقت الرّحيل جرعنا كأس الفراق بعد حلاوة التّلاق، ولم يصبنا يوم خروجنا من وطننا مثل ما أصابنا يوم الخروج من فرنسة، فانصرفنا والعيون ملتفتة إليها، وسفرنا والقلب مقيم بها، لكن صبرنا بالأماني أنفسنا، وقلنا لعلّ القضاء أيضا يجمعنا، ثم قلنا توديعا من صميم الفؤاد: سلام عليكم يا أهل الودّ والوداد»(1).

غير أن ذلك الاعجاب والودّ لم يحل نهائيا في الآخر بين الكاتب وبين جانب من الصورة الأخرى لوجه الاحتلال الأسود وظلمه، فتغيب شعارات ثورته في أرض الجزائر حتى في معاملة أعوانه الذين يخدمون سياسته، فيهمشون وتطلق أيدي اليهود والمعمرين في أمور الجزائريين، فحاول لفت نظر المحتلين لجانب من هذا الوضع تحت عنوان (عرض حال) من دون أن ينسى تأكيد الولاء المطلق «المرجو حسن التفاتة نحو العرب من رجال الدولة وأوتادها الذين ارتبطنا معهم زمنا طويلا... فالمأمول من السادات أن لا ينسونا في رفع المضرة علينا، فلنا حقّ عليهم أن لا يتركوا أمة مشهودة أودعها الله أمانة بأيديهم في زوايا الاهمال، ولهم حق علينا في الطاعة واتباع الأوامر على كل حال»(2).

وهي نظرة ذات طابع تقييمي أملتها في الأخير المقارنة التي أتاحتها له الزيارات المتكرّرة إلى فرنسا، حتى بات يتمنّى ألاّ يعود إلى الجزائر

---

(1) المصدر السابق، ص 81.

(2) المصدر السابق، ص 82.

فينكسر فؤاده للبون الشاسع بين طبيعة الحياة في الجزائر وطبيعتها في فرنسا، الأمر الذي جعله يحنّ في شوق جارف للذهاب إلى فرنسا وينقبض صدره في العودة منها إلى الجزائر، رغم أن ذلك كله لم يهده إلى حقيقة السياسة الفرنسية بمكرها ودهائها في الابقاء على التخلف في الجزائر كمصدر استغلال ولضمان التبعية العمياء للمحتل.

إذن فان رحلة (ابن قاد) تتفق مع رحلة (ابن صيام) في الانبهار بالحياة الفرنسية بوجهها السياسي والصناعي والاجتماعي، كما تتفق معها في الدعاية السافرة للاحتلال، لكن بإضافة لدى (ابن قاد) تتمثّل في النقطة التي كتب فيها تحت عنوان (عرض حال) الذي ختم به الرحلة ظنّا منه أن ذلك الحيف في الجزائر هو من فعل اليهود والمعمرين الذين يستغلون الأرض والانسان، يصادرون تلك ويضطهدون هذا ويشرّدونه وليس من خطط الاحتلال الذي ينجز كلّ شيء بحساب، حتى زيارة (ابن قاد) وأمثاله هي بحساب لتكريس «فضائل» الاحتلال و «تلميع» وجه المحتلّ.

لكن مهما كان الجانب السلبي في هاتين الرحلتين فإنهما تبقيان من مظاهر الاحتكاك بالحضارة الغربية، وان لم يدع كاتباهما إلى مشروع فكري ذي طابع حضاري مصيري فان انبهارهما عكس حاجة شديدة في وطنهما إلى يقظة فكرية عامة لمقاومة الاحتلال عملا من أجل الحرية والسيادة في اطار حضاري للأمة والوطن غير الاطار الحضاري الأوروبي الذي سعى الاحتلال لفرضه عبر سياسة التمسيح والفرنسة لغة وانتماء في النهاية.

هذه الوقفة المتأنية قليلا أخيرا عندهاتين الرحلتين بالخصوص نعتبرها ضرورية للحديث عن الرحلة في الفترة الموالية مباشرة، ابتداء من مطلع القرن العشرين.

لم يكن إذن هدفنا هنا دراسة هذه الرحلات أو الرحلة في القرن التاسع عشر بقدر ما رأيناها تمهيدا ضروريا نجنح به في النهاية من فكرة

عن أدب الرحلة في النثر العربي عموما إلى أدب الرحلة في النثر الجزائري خلال القرن العشرين، وقد تهيأت معطيات حديثة لرحلة متطورة فكرا وأسلوبا، ذات سمات مختلفة عن سابقاتها، فصارت عموما ذات قضية، تحمل هموما مشتركة، امتزج فيها بشكل عام أيضا الهمّ الوطني بالهمّ الشخصي للرحالة مع تراجع واضح للعنصر الأخير.

لقد نمت الرحلة الداخلية في القرن العشرين، كما اتّسعت الرحلة الخارجية، وانفتحت أكثر على الوطن العربي والعالم الاسلامي بوجه سياسي نضالي، خاصة أن الوضع الجديد بعد الحرب العالمية الأولى قد فرض على الرحالة والمفكر عموما الدخول في معركة ذات جبهات مختلفة: معركة في مواجهة البؤس والأمية والضلال الديني والسياسي والتخلف بشكل عام النتاج الحتمي لسابقه، ومعركة أخرى في مواجهة سياسة الاحتلال ذات الأوجه المختلفة، تلك السياسة التي مضت تكرّس الوضع السابق، وتحاصر لغة الوطن ودينه وانتماءه الحضاري في النهاية، إلى آخر ما هنالك.

لم تعد الرحلة إذن نزهات خالصة ولا معلومات تاريخية أو جغرافية بحتة، بل غدت ضربا من النضال لمصارعة البؤس والظلم والاحتلال، وللتعريف بحال الوطن والمواطن حتى في سياق الحديث عن الأوطان الأخرى على سبيل المقارنة بشكل مباشر أو غير مباشر بحثا عن سبل الخلاص ووسائله والعمل على بث وعي وطني في الأمة.

أمسى الرحالة عموما مهموما بوضع أمته، يصفه في الداخل كما يقارن بين حال البلدان التي يزورها وحال وطنه، فلا يكاد يمضي في وصف الأوضاع التي يشاهدها في تلك الأوطان حتى يحضر في ذهنه وطنه.

هكذا بات الوطن حاضرا لدى معظم الرّحالين في الداخل أو في الخارج، في لحظات السعد وفي لحظات الضيق توقا إلى وطن حرّ كريم، باتت قضاياه وهمومه السياسية والثقافية والاجتماعية وغيرها أمرا يكاد لا يفارق الرحالة، وهو يسجل رحلته أو انطباعاته أو خواطره، وقد يتّسع مجال تلك القضايا ليشمل التفكير في أوطان أخرى في العالم الاسلامي أو الوطن العربي والحديث عنها. كل ذلك وهذا سأحاول رصده ومناقشته ان شاء الله في فصول هذا البحث(*).

(*) هناك جهد آخر، لنا، تتآزر مادته مع مادة هذا الكتاب: فكريا وفنيا؛ فينير جوانب مختلفة فيه من زاوية أخرى، وهو بعنوان: «الشكل والصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة» نشر: دار الأمة، الجزائر، 1995م.

الفصل الأول

الرحلة الدّاخليـــة

كثر نشاط الرحالين الجزائريين في القرن العشرين، خاصة منذ الحرب العالمية الثانية، وقد بدأ يتّضح لهم ــ في الوقت نفسه ــ أكثر فأكثر الوجه البشع للاحتلال الفرنسي، كما بدأت تتعدّد اتجاهاتهم في رحلاتهم ودوافعهم فيها، فمنها ما كان داخل الوطن ومنها ما كان خارجه: سواء في الوطن العربي والعالم الاسلامي بشكل أعمّ أم في أوروبا، كما تعدّدت الأغراض في ذلك واختلفت بين رحلات الخارج ورحلات الداخل. وهذه الأخيرة هي موضوع هذا الفصل الذي نعرض فيه لبضعة كتّاب عالجوا في رحلاتهم أوضاعا مختلفة وقضايا كثيرة أثناء الحديث عن رحلاتهم وتسجيل انطباعاتهم منذ العشرينات من هذا القرن حتى سنة تسعين وتسع مئة وألف، وأول ما نستهلّ به الحديث عن الرحلة الداخلية رحلات الشيخ (عبدالحميد بن باديس) مراعين في الترتيب ــ عموما قدر الامكان ــ الأسبقية في النشر سواء أكان ذلك في جريدة أم في كتاب.

رحلات (عبدالحميد بن باديس):

دوّن (ابن باديس) من رحلاته داخل الوطن وخارجه سبع رحلات، كانت خمس رحلات منها داخل الوطن، وأول رحلة من هذه شملت مدنا وقرى في الجهة الشرقية من الوطن سنة 1929، واتجه في الثانية إلى منطقة القبائل سنة 1930، وقادته الثالثة إلى مدن من وسط الوطن وغربه سنة 1931 تبعتها رحلة رابعة إلى (بسكرة) سنة 1932 وعاد في خامسة إلى غرب الوطن في السنة الأخيرة نفسها (1932) وكان يعنون كل رحلة من هذه

الرحلات عند نشرها بعنوان خاص بها، فالرحلة الأولى حملت عنوانا عاما هو «للتعارف والتذكير» وحملت الثانية عنوانا خاصا «جولة صحفية» بينما كان عنوان الرحلة الثالثة «في بعض جهات الوطن» وللرابعة عنوان «ثلاثة أيام ببسكرة» أما الرحلة الخامسة فهي وحدها التي حملت لفظ الرحلة في عنوانها: «رحلتنا إلى العمالة(•) الوهرانية باسم الجمعية» بينما يرد هذا اللفظ نفسه وما شابهه في غيرها أثناء الحديث عن الرحلة فقط خاصة في مقدمتها.

انطلاقا من هذا الترتيب ــ في زمن الرحلة وتاريخ نشرها ــ نعالج رحلات (ابن باديس) الداخلية، نتلمّس فيها ما كان يشغله، همومه واهتماماته وانطباعاته المختلفة عن وضع أو قضايا أو أشخاص أو غير ذلك مما تمكن ملاحظته في سياق الرحلة ونسيجها.

أول رحلة إذن لابن باديس هي رحلته الشخصة عبر مدن وقرى في الناحية الشرقية من الوطن بعنوان «للتعارف والتذكير»(1)وهي توحي أولا بالرّغبة في الاتصال بالناس ومعرفة أوضاعهم وتوجيههم في أمور حياتهم ودينهم مسترشدا في ذلك بقول آلله تعالى ﴿**وذكّر فانّ الذّكرى تنفع المؤمنين**﴾.

ونحن ندرك بوضوح من السياق في المقدمة ما كان عليه المواطن الجزائري من حسن تقدير للعلم ورجاله أولا، واستعداد تام لاتّباع ما

(•) (العمالة) المصطلح الاداري السابق في عهد الاحتلال الذي خلفه بعد الاستقلال مصطلح (الولاية) وقد كانت الجزائر تتكون إداريا من ثلاث (عمالات).

(1) نشرت مجلة (الشهاب) هذه الرحلة في حلقتين اثنتين:
ــ الحلقة الأولى في ج 7، م 5 الصادر في أول ربيع الأول 1348هـ (أوت 1929م).
ــ الحلقة الثانية في ج9، م 5، الصادر في أول جمادي الأولى 1348هـ (أكتوبر 1929م).
ضمّتهما الصفحات (297 ــ 305) من كتاب (ابن باديس: حياته وآثاره) ج 4، أعداد وتنصيف: عمّار طالبي، مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ط 1، الجزائر، 1388هـ (1968م).

يقترحه رجل العلم أو يأمر به حين يكون قدوة في سلوكه، صادقا في أقواله. ممّا يمنحه التأثير، ويكون به حسن الاستجابة من الجميع «ما حللت بقعة الاّ التفّ أهلها حولي يسألون ويستمعون في هدوء وسكون»(1).

هذا الانطباع العام من الكاتب أتى نتيجة منطقية لحكمه الايجابي على الناس يومئذ حين يجدون رجل الدعوة المخلص في عمله المسترشد بعلمه وحسن خلقه ونضجه الفكري في التعامل مع الناس ودرايته بهم وبالمنهج العلمي السليم في توجيههم واسداء النصح لهم «عرّفتني تنقّلاتي في بعض قرى ما في قلوب عامة المسلمين الجزائريين من تعظيم للعلم وانقياد لأهله إذا ذكّروهم بحكمة واخلاص»(2).

فما هي هذه القرى والمدن؟ وماذا كان من أمر (ابن باديس) فيها مع الناس ومحيطهم؟

الحديث عن خطة سيره يبدأ من قرية (الحروش) فعزابة، سكيكدة، العلمة، مجاز الدشيش، سيدي مزريش، عين مليلة، أمّ البواقي، عين البيضاء، فمسكيانة(*).

يتنوّع شكل الحديث في كلّ محطة من هذه الرحلة أو الرحلات، كما أنه يتّسع في محطة ويقصر في أخرى، فعندما بدأ الحديث عن قرية (الحروش) لم يقل لنا: كيف وصلها؟ وفي أية ساعة؟ بل هو يحدّثنا مباشرة عن مسجدها حيث رأى أن «القرية تقتضي جامع جمعه، فذكّرناهم في شأنه واتفقت كلمة الجمع»(3) للنهوض بدعوة الناس لبنائه، أين ذكّرهم بذلك؟

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره، ج 4، ص 297، إعداد وتصنيف عمار طالبي، مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ط 1، الجزائر 1388هـ (1968م).

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(*) وهذه المدن كلها في شرق الوطن بالداخل، باستثناء (سكيكدة) الواقعة على البحر في الشمال الشرقي من الوطن.

(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

متى؟ ربّما كان ذلك في المسجد، ربّما كان في المجالس العامة التي ذكرها من دون تحديد، لكنه يحدّد موضوع حديثه بعد صلاتي الظهر والعصر، بدرس ــ بعد الظهر ــ عن «تكبيرة الاحرام والسلام»(1) أما بعد العصر فبدا في قالب محاضرة تركزت على آيات قرآنية.

بدت مهمة الرحالة في هذه المحطة عملية في التعليم والتوجيه والحثّ على أعمال البر، وهي نفس المهمة التي قام بها في المحطة اللاحقة (عزابة) فذكر ان درسه بعد صلاة العشاء من مساء حلوله بهذه القرية كان حول الآية القرآنية ﴿**إِنَّمَا المؤمنون إخوة**﴾ داعيا إلى الوحدة والتآزر على الخير، والتعاون على البّر، فيذكر العبرة من مظاهر الأخوة في الصلاة حاثا على تشييد المساجد «ذكّرناهم بإتمام ما كانوا وضعوا أساسه من بناء جامع الجمعة»(2).

والظاهر أنّ إقامة الشيخ امتدت أكثر من يوم هنا، لأنه يذكر دعوته مع غيره من أحدهم إلى منازله خارج (عزابة) حيث استمرت دروس الشيخ (ابن باديس) وتوجيهاته القوم الذين كانوا معه والذين توافدوا للمناسبة في ضيافة صاحب الدعوة الذي قال عنه (ابن باديس) ثناء «كان الشيخ قائما بنفسه على خدمتنا داعيا أتباعه إلى الاهتداء بما أمليناه عليهم من دلائل الكتاب والسنة»(3).

كما لبّى (ابن باديس) دعوة من أحد الأعيان التابعين للادارة الفرنسية: لكنه «مرضي عليه من جميع الناس هنالك في دينه وأخلاقه»(4).

---

(1) المصدر السابق، ص 298.
(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(4) المصدر السابق، ص 299.

النقطة الجديدة شكليا في هذه المحطة من الرحلة تتعلق بمظاهر الحفاوة والاستقبال ذات الطابع الرسمي، حيث كان في انتظاره بمحطة القطار في (عزابة) قاضيها وبعض النواب البلديين وأعيانها في سيارتين اثنتين، وهو لا يذكر توّجهه أولا إلى المسجد بل إلى حانوت أحد المثقفين «الأديب جلواجي، وحانوته مجمع أهل الفضل من القرية ونواحيها»(1).

وان اختفى شكل الاستقبال (الرسمي) في المحطة التالية من الرحلة (سكيكدة) فان (الحانوت) يبرز فيها أيضا، حيث كان حانوت نائب بلدي هو النادي الذي استقر فيه (ابن باديس) يحاور الناس ويستقبل «جميع طبقاتهم للسؤال وسماع التذكير»(2) أما اللقاء للدرس العام بالمسجد فلم يتحقق لقصور من المكلف باعلان ذلك والدعوة إليه.

أما في المحطة التالية (العلمة) فقد كان درس الوعظ والتذكير «في مجلس عام بالسوق»(3) بعد لقاء بعض من فضلاء القوم، قال عنهم «ينسى أسماءهم الذهن ولا ينسى ودّهم القلب».

وبعد لقاء الناس في (مجاز الدشيش) وتذكيرهم بأثر القرآن في العرب الذين تطوّروا به وتوّحدوا بفضله انتقل إلى قرية (سيدي مزغيش) حيث هبّ الناس إلى لقائه، فتعدّدت جلسات الوعظ ومجالس التذكير والدروس الدينية في المسجد وخارجه، وقد أثنى ثناء عطرا على شخص يدعى (القائد عمار) وهو الذي أسّس المسجد من ماله و «حبس عليه ما يقوم بنفقته» وهو الذي امتاز بالتواضع الجمّ واحترام الناس الأمر الذي جعل الكاتب يعلّق على ذلك بقوله: «ان الاحترام الحقيقي هو احترام القلوب التي لا تملك إلا بالاحسان»(4).

(1) المصدر السابق، ص 298.
(2) المصدر السابق، ص 299.
(3) المصدر السابق، ص 299.
(4) المصدر السابق، ص 300.

ثم يذكر لنا الكاتب في مرحلة (عين مليلة) أنه وصلها (يوم سباق) والمرجّح أنّه سباق خيل، وهو الشائع يومئذ، فكانت المدينة لذلك «تموج بالخلق موجا، وكان نزولي بالمكتب القرآني.... اجتمع علي بذلك المكتب أعيان البلدة وأهل العلم الذين صادفتهم»(1).

وقد قضى (ابن باديس) يومين في المدينة مدرّسا ومحاضرا تشمله العناية والاحترام من الجميع خاصة من مثقّفي المدينة الذين ألقي بعضهم خطبا عن «أهداف هذه الرحلة والدعوة إلى الاستفادة منها» كما قال فيه أحدهم قصيدة عبّرت بوضوح عن كثير مما نذر (ابن باديس) إليه نفسه من عمل جادّ هادىء لبعث وعي في النفوس وارشاد الناس في دينهم وحياتهم، قال فيها صاحبها (دنيا زيدان)(*):

أعرني بيانا — أيها الحبر — كافيا يكون لديّ الشعر منه مؤيدا
فيالك من شيخ حكيم مفضّل نضا لخطوب الدهر سيفا مجردا
وقام بدين الله في كل موقف ينادي ألا يا قوم سيروا إلى الهدى
فصان حقوق الله من كل جائر ولم يخش قول المفسدين من العدا(2)

أما أهمّ ما سجّله (ابن باديس) في المحطة التالية من رحلته (أم البواقي)(*)، فهو الصراع القبلي بكل سلبياته التي يزداد الاحساس بسوئها وعواقبها السلبية حين يشمل المتعلمين «الذين ينتظر منهم إزالتها فكانوا من صلاتها» بدعوى تجنّب الأذى الذي قد يصيبهم من جماعاتهم ان سعوا في صلح أو أظهروا تسامحا ومرونة «ولو كان لهذه القرية جامع لأمكن بإذن الله تقريبهم من بعضهم بتذكيرهم بالله»(3) لكن جامع القرية هو «رمال

(1) المصدر السابق، ص 301.
(*) يبدو أنه مثقف جزائري من رجال التعليم الحر.
(2) المصدر السابق، ص 301.
(*) سجّلها الكاتب هكذا «أم لباقي» حسب النطق في التعبير الدارج.
(3) المصدر السابق، ص 302.

وحجارة مكدّسة على قطعة أرض منذ سنوات حالت أدواء الفرقة بين القوم وبين المبادرة في بنائه»[1].

والقرية غارقة أيضا في الاستسلام من جهة أخرى للدّجل والشعوذة التي كان يمارسها أحدهم في هيئة وليّ، مما كان موضوع درس (ابن باديس) غير أن الصورة تتعدّل في (عين البيضاء) بجامعها العامر ورجالها العاملين من المثقفين المستنيرين، حيث بدا الجو مشجعا أوحى بدبيب حركة الاصلاح في المجتمع للنهوض به ومكافحة المفاسد والبدع، فوصف الكاتب رجال المدينة من العلماء بأنهم أهل فضل جادّون في العمل على نشر الفهم الصحيح للدين حريصون على تهيئة ظروف ملائمة، حريصون على المسجد كموقع مناسب للوحدة بين الناس والنهوض بالمجتمع.

وفي (مسكيانة) آخر محطة من هذه الرحلة الأولى لقي (ابن باديس) حفاوة واحتراما وتقديرا، فذكر الأشخاص الذين قابلهم من أعيان البلدة والذين دعوه ضيفا عليهم كما ذكر التقاءه الناس في المدينة مذكرا واعظا «وبالغ أهلها في الاحتفاء والاعتناء، وكانت لنا مجالس في عدد من محلاّتهم التجارية لم تخل من تعليم وتذكير»[2].

هذا إضافة إلى دروسه المسجدية فيها حيث ذكر وهو يشرح سورة (المدثّر) «حاجة الأعمال العظيمة إلى الجدّ والنهوض والصبر والثبات، وان أعظم محصّل للصبر هو اخلاص العمل لله»[3].

لقد جاءت هذه الرحلة في فترة بدأ الشعب الجزائري يدرك ظلم الاحتلال وجبروته، كما بدأ يدرك مالحقه من أذى في دينه ومساجده ولغته، إضافة إلى الأذى في أرضه المصادرة وحريته المغتصبة.

---

(1) المصدر السابق، ص 303.
(2) المصدر السابق، ص 305.
(3) المصدر السابق، ص 305.

ومن سبل العودة إلى الذات استعدادا للنهوض ينبغي الاهتداء بالدين والتسلّح بالعلم، والتّعاون الجاد لخدمة الأمة والوطن.

من هنا كانت أهداف الرحلة واضحة من خلال مسارها ونشاط صاحبها، ومن عنوانها نفسه (للتعارف والتذكير) فهو يسعى في كلّ مرحلة من رحلته إلى أن يعرف الحالة الدينية والاجتماعية في كل مدينة، ومدى اقبال الناس على التعليم أو فتورهم تجاهه، ودرجة حرصهم على بناء المساجد وعمارتها، ووضع المكاتب القرآنية وحجم الاقبال عليها. يريد أن يعرف أيضا ما يشغل اهتمام الناس أكثر متحسّسا أوضاعهم وعلاقاتهم، كما يريد من جهة أخرى أن يعرف الناس آراءه ومواقفه ليسهل عليه في النهاية وعظهم وارشادهم وتذكيرهم، وهو تذكير بأعمال الخير والاحسان والعمل الصّالح، تذكير بأحكام القرآن والحديث في أمور كثيرة، وما جاءت به التعاليم الالهية لصالح حياة الناس في دنياهم وآخرتهم.

بدا الرّحالة ذا رغبة شديدة في فهم الناس وحرص على حسن توجيههم متلمّسا في ذلك مخاطبة الوجدان والحس الديني لدى الانسان الجزائري، لذا كان الحديث والقرآن نصّا: محور حديثه ومنطلقه وسنده في أحكامه وتوجيهاته للناس، في حسن أداء الفرائض الدينية، وفي ضرورة الوحدة والتآزر، في نبذ خرافة ومقاومة مشعوذ، كما لاحظنا في أمر الدجّال الذي كان يزعم أنه وليّ. وكان ذلك يجد صداه في الناس لصدق صاحبه وقوّة بيانه وقدرته على الاقناع «كنت أذكّرهم بهذا كلّه، وأقرأ على وجوههم سمات القبول والاذعان، وأنا على يقين من بقاء أثر نافع لذلك بصدق وعد قوله تعالى ﴿**وذكّر فانّ الذّكرى تنفع المؤمنين**﴾[1].

---

(1) المصدر السابق، ص 297.

ومثلما أعطت الرحلة الكاتب انطباعا جيدا عن المنطقة وهي تبحث عن نور اليقين في معرفة دينها وسبل الخلاص من الجهل إلى رحاب المعرفة والعلم وسبل التكافل في أعمال الخير فإنها أعطت انطباعا آخر سلبيا عن الروح العشائرية التي ما تزال تفتك بالمجتمع في القرية الواحدة، فتفتت جهده وتضعف تآزره ووحدته كما تحدّ من قدرته على انجاز الأعمال الخيرية والوطنية.

تركّز اهتمام الكاتب على المساجد وأوضاعها والتعليم القرآني مذكّرا الناس بأهمية ذلك في نشر التعليم واشاعة الفهم الصحيح للدين.

جاءت الرحلة في شكل أقرب إلى شكل المذكرات اليومية. يذكر ما قام به في كل محطة من رحلته وما شاهده، فنشعر أن ذلك يمكن أن يكون يوما أو يومين أو ثلاثة أيام باختلاف القرى والمدن التي يحلّ بها، وكثافة نشاطه الديني ــ الثقافي أو قلّته، ولم يرد في ذلك التحديد التقريبي إلا مرة واحدة في مرحلة (عين مليلة) حيث ذكر أنه قضى فيها يومين من دون أن يحدّد تاريخ ذلك «مكثت يومين في البلدة ضيفا على السيد أحمد بن المولود ودعيت للغداء في اليوم الثاني عند السيدين: بكير وسليمان وأبناء الشهيد ابراهيم وهما من أصدق من رأيت في محبة التآخي والاتحاد»(1) لكنّه كان يذكر الفترة التي يلقي فيها دروسه وخطبه: بعد الظهر، أو العصر، المغرب، أو العشاء.

وقد كان تنقله مفردا بالقطار في أغلب المراحل، من دون أن يقول لنا كيف غادر هذه المدينة أو تلك القرية إلا مرّتين: واحدة في الانتقال من (مجاز الدشيش) إلى (سيدي مزريش) في السيارة الخاصة نفسها التي

(2) المصدر السابق، ص 302.

لستقبلته للانتقال إلى (المجاز) ومرة في انتقاله من (عين البيضاء) إلى (مسكيانة) حيث ذكر ذلك بوضوح من دون تحديد التاريخ ولا الوقت: «أخذني من البيضاء إلى مسيكانة الشاب المهذب الماجد السيد السعيد بن زكري خوجة حاكمها ونزلت في بيت جامعها»(1).

لكنه كان في أكثر المراحل يذكر أسماء مستقبليه من متعلمين ومثقفين أو من محبي الثقافة المتدينين خاصة، من الموظّفين في القضاء أو في البلدية أو غيرهم.

وإذا كان طابع الرحلة تسجيلي فإنه لم يخل من وصف حرارة اللقاء بالناس وغبطته بحسن الاستقبال والاهتمام الخاص من المثقفين والأعيان، ومبادرتهم العمل بتوجيهاته ونصائحه للتضامن وبناء المساجد، كما توضّح شيئا من ذلك هذه الفقرة عن نشاطه في (عزابة) «كان الدرس العام بعد العشاء بالمسجد ــ وهو محل مكترى ــ في قوله تعالى: ﴿**انما المؤمنون إخوة**﴾ واستطردنا إلى مظاهر تلك الأخوة في الصلاة وحكمة بناء المساجد، وذكّرناهم بإتمام ما كانوا وضعوا أساسه من بناء جامع الجمعة. وقد علمنا بعد سفرنا أنهم شرعوا في العمل، وفقهم ٱللّٰه»(2).

هكذا عكست الرحلة جانبا مما بدأ يسري في المجتمع من حركة وحيوية توحي باستعداد المجتمع لاعتناق الفكر الاصلاحي وحرصه على فهم دينه وقابليته للتطور ليغيّر ما به من مساوىء تطلّعا إلى الأفضل.

الرحلة الثانية لابن باديس كانت عبر أهمّ المدن والقرى في منطقة (القبائل) في شهر صفر 1349هـ (جويلية 1930) انطلاقا من (سطيف)

---

(1) المصدر السابق، ص 305.
(2) المصدر السابق، ص 298.

فتوقف في (برج بوعريرج) ثم مضى إلى (تازمالت) و (أقبو) (سيدي عيش) (بجاية) (عزازقة) (تيزي وزو) (دلس) (تيقزيرت) (أزفون) (الأربعاء بني راثن) (عين الحمام).

وقد حاول فيها (ابن باديس) أن يقوم بعملية اختراق هادئه لمنطقة باتت تحت سيطرة الآباء البيض. حيث كان الحظر قائما على نشاط الحركة الاصلاحية، كما كان الحرص على منع التعليم العربي والاسلامي فيها أكثر شدة.

لذا فان استطاع (ابن باديس) أن يدخل المنطقة، ويلتقي البعض فان سلطات الاحتلال الفرنسي منعته من القاء الدروس المسجدية أو المحاضرات في المجالس والنوادي، فحرم المواطن الجزائري في هذه المدن والقرى علمه وتوجيهاته. لكن الاتصال المباشر وتبادل الآراء والأفكار العامة في هذا الاتصال يبقى ذا أهمية أيضا خاصة أن (ابن باديس) مضى يتنقل للتعريف بمجلة «الشهاب» وجمع الاشتراكات لها، والحديث عنها وما تنشره وما تعانيه في محيط التضييق عليها يبقى بدوره حديثا في قضايا الدين والحياة الاجتماعية والسياسية أيضا بشكل ما، وربما يأتي تصريح (ابن باديس) للمواطنين وهم يلحّون عليه لالقاء دروس بأن ذلك محظور عليه دعما له وللقضية الوطنية ولجهوده الاصلاحية والتوجيهية وتحريضا غير مباشر على سلطة الاحتلال التي باتت تخشى ضياع هيبتها في النفوس وانجذاب الناس لحركة الفكر الديني التربوي الاصلاحي الذي يكون الموقف من السياسة احدى نتائجه في تفكير الناس وتعبيرهم ثم سلوكهم «ما كان أشدّ أسف الناس في جميع هاته البلدان لمّا كنت أردّ طلبهم من القاء بعض الدروس الدينية معتذرا بالمنع الحكومي»[1].

---

(1) المصدر السابق، ص 306.

ورغم المسافة الكبيرة التي قطعها الكاتب والمدن والقرى التي حلّ بها فإنه لم يحدّثنا عن شيء ذي أهمية خاصة غير تلك الصورة التي أثنى فيها على المنطقة شاكرا لأهلها حسن الاستقبال وكرم الضيافة «لقد لقينا في كل محلّ دخلناه ما عرف به شعبنا الجزائري العظيم من كرم وأريحية»(1) هذا إضافة إلى الصورة السابقة التي جسّدت حبّ المواطن دينه ورغبته في معرفته معرفة صحيحة.

وإذا قام (ابن باديس) بالرحلتين الأولى والثانية في مناطق من شرق الوطن ووسطه بمفرده فان رحلته الثالثة كانت رفقة تلميذين له إلى مدن أخرى في غرب الوطن ووسطه، كان التلميذان هما (الفضيل الورتلاني) و (محمد آل الصادق الجندلي) أما المدن فهي (مليانة) (خميس مليانة) (الشلف) التي كانت تحمل اسم (الأصنام) (غليزان) (مستغانم) (أرزيو) (وهران).

تمت الرحلة في صيف 1350 هـ (1931م) وهي بعنوان «في بعض جهات الوطن» ونشرت في حلقتين بمجلة (الشهاب)(2).

من الناحية الزمنية أن الرحلة تأتي بعد تأسيس (جمعية العلماء)(*) ببضعة أسابيع في عطلة صيفية فرغ فيها الشيخ من دروسه في (قسنطينة) كما أنها من ناحية الدعوة والتنظيم ــ فيما يخص الجمعية ــ سبقت انعقاد مجلس إدارة جمعية العلماء الذي قدم له (ابن باديس) تقريرا شفهيا عمّا «كان من نشر دعوة الجمعية وما كان من اقبال الناس عليها وما كان من شبه عرضت لبعض فيها فأز لناها لمّا سألونا عنها»(3).

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(2) الحلقة الأولى في عدد (رجب) 1350هـ (نوفمبر 1931م) والحلقة الثانية في عدد: (شعبان، ديسمبر) من نفس السنة.

( ) تأسست جمعية العلماء في 5 ماي 1931 وانتخب ابن باديس رئيسا لها.

(3) ابن باديس: حياته وآثاره، ج4، ص 316.

ذكر الكاتب في المقدمة انهم اتجهوا من (قسنطينة) إلى (الجزائر) العاصمة حيث قضوا بضعة أيام، ثم كان الشروع في الرحلة التي استغرقت عشرين يوما، كان الموضوع الأساسي للحديث فيها عن (جمعية العلماء) ودورها «كنّا نرى في جميع المجالس اقبالا وقبولا ممّا لا شكّ معه في بقاء الأثر الطيب في القلوب إن شاء آللّه»(1).

وكانت أول محطة في بداية الرحلة بعد العاصمة مدينة (مليانة) ثم (خميس مليانة) اللتين بدا اهتمام الكاتب فيهما منصبّا على وضعهما الثقافي، ففي كلتيهما رجال علم، لكن في (مليانة) رغبة عن العلم أو فتور فيه، بينما في (خميس مليانة) رغبة فيه واقبال عليه، مما جعل الرحالة يخرج بانطباع سلبي عن المدينة الأولى وانطباع ايجابي عن المدينة الثانية، ورد الجمع بين الانطباعين في هذه الفقرة التي يتحدث فيها عن (خميس مليانة) بقوله: «عقدنا مجلسا عاما للتذكير حضره جمع غفير من الناس، فأزال عنا ما شاهدناه في الخميس من النشاط والرغبة والاقبال ما حملنان من الهم من فتور عامة مليانة وخمودهم»(2).

والانطباع الايجابي نفسه يطّرد وان بمستوى أقل عن (الشلف) ذات القبول الحسن للتعليم، وعن رجالها من العلماء ذوي النشاط الملحوظ، فهي ذات كرم بقومها ونشاط مقبول في شؤون الثقافة الدينية يقوم به رجالها، كما يطّرد الانطباع الايجابي عن (غليزان) المدينة العامرة برجال العلم وكرم أهلها، فهي كما يقول الكاتب «مثل بلدة الأصنام من ناحية التجارة بل أكثر ومثل مليانة من ناحية المعارف»(3).

---

(1) المصدر السابق، ص 308.
(2) المصدر السابق، ص 309.
(3) المصدر السابق، ص 311.

وان جاءت المقارنة هنا عفوية فانها في الوقت نفسه عكست إحساسه بمستويات الأوضاع في تجارة أو درجة اهتمام بثقافة وتعليم، فالمدينة (الشلف) أو (الأصنام) كما كانت تسمى: عامرة بعلمائها مثل (مليانة) لكننا من المقارنة ندرك تقدم (مليانة) عليها، ومعياره في ذلك هو اقبال الناس على التعليم وليست العبرة برجال علم وتعليم فقط دون تجاوب نشيط من المحيط.

أما أهل (غليزان) فقد استقبلوا الداعية المصلح بترحاب لاعتباره شخصية وطنية، يجتمع بالعلماء وينزل ضيفا عليهم، كما يبادر إلى تلبية الدعوات الكريمة من المواطنين «استدعانا اخواننا المزابيون إلى محلّهم وأقاموا لنا احتفالا حضره جميع أفرادهم واستدعوا بعض أعيان البلد، فشاهدنا من أدبهم وكرمهم وحسن اقتبالهم لجمعية العلماء ما سرّنا بهم كثير السرور»[1] كما يدعوه بعض مواطني (تيهرت) في (غليزان) بالحاح إلى زيارة مدينتهم (تيهرت) ويرحب به في (غليزان) نفسها «شيخ الزاوية بها... من شيوخ الزوايا الذين لهم رغبة في نشر العلم وهداية الناس وسعة صدر في سماع الحقّ وأدلّته»[2].

ومن المدينة نفسها صحبهم في متابعة الرحلة أحد الطلاب الزيتونيين «فرافقنا إلى تمام الرحلة بوهران ورأينا منه آدابا وأخلاقا شريفة»[3].

تأتي بعد (غليزان) مدينة (مستغانم) التي خصّها الكاتب بأكبر مساحة من الحديث، وهي أهمّ محطة في هذه الرحلة: أولا للجهد الكبير الذي بذله (ابن باديس) فيها للتعريف بجمعية العلماء وأهدافها مدافعا عن الفكر الاصلاحي المستنير في محيط طرقي. وان بدت طرقية كما صورها

---

(1) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق، ص 310.
(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(ابن باديس) متفتحة ذات قابلية للحوار حرصا من شيوخها على تجنّب ما قد يضايق الزائر ويحرجه كما يوضّح ذلك انطباع (ابن باديس) عن الشيخ (أحمد بن عليوه) الذي أقام حفل عشاء على شرف (ابن باديس) حضره نحو مئة شخص، فقال عنه (ابن باديس): «بالغ في الحفاوة والاكرام، وقام على خدمة ضيوفه بنفسه، فملأ القلوب والعيون وأطلق الألسنة بالشكر... ومما شاهدته من أدب الشيخ مضيفنا وأعجبت به أنه لم يتعرّض أصلا لمسألة من محلّ الخلاف يوجب التعرض لها علي أن أبدي رأيي وأدافع عنه»(1).

كما أنها أهم محطة ثانيا للرجال الذين التقاهم (ابن باديس) من ذوي الصلة بالتعليم والشؤون الدينية، ومن أهمّهم (ابن عليوه) نفسه صاحب الزاوية العليوية، وكذلك (الأعرج بن الأحول) أحد شيوخ الطريقة القادرية، وكذا دعوته لزاوية الشيخ (ابن طكوك) إضافة إلى غيرهم من رجال القضاء والافتاء وحاكم المدينة نفسه الذي سبق له العمل كاتبا عاما في دار الولاية (العمالة) ثم هي أهم محطة ثالثا عمّا أسهمت به من تعريف بجمعية العلماء ومقاصدها في مدينة طرقية الأمر الذي حبّبها إلى البعض كما فرض احترامها واحترام رئيسها، وجعل الطرقّي نفسه يقدم التبرّع للجمعية ذاتها ـــ كما حدث في زاوية (ابن طكوك) ـــ كما أنها أهمّ محطة أيضا للمناقشات المختلفة التي جرت فيها بروح سمحة جعلت (ابن باديس) يقول «أن لا نجعل القليل مما نختلف فيه سببا في قطع الكثير مما نتّفق عليه... وذكرنا الدواء الذي يقلّل من الاختلاف ويعصم من الافتراق وهو(٠) تحكيم الصريح من كتابه والصحيح من سنة رسوله... والحق أن أغلب الناس ممّن رأينا صاروا يشعرون بألم الافتراق وينفرون منه، ويصغون إلى دعوة الوفاق والتّحاب»(2).

---

(1) المصدر السابق، ص 312.

(٠) في الأصل (هم) لكنني لم أر له وجها.

(2) المصدر السابق، ص 311.

وقد اتّسمت المشاعر هنا بالرزانة والتحفّظ والحذر حتى في وصف اللقاء بين الرّحالة ومستقبليه تجنبا للاحراج وحذرا من بواعث الاستفزاز. لذا رأينا (ابن عليوه) نفسه يحرص على تجنّب ما فيه خلاف في الرأي، فأنكر لذلك على أحد التجار الحاضرين اندفاعه في وصف المصلحين بالمفسدين الذين ينكرون «الولاية» كما ردّ (ابن باديس) نفسه ردّا مهذّبا، لم يهاجم فيه تيارا خاصا أو معسكرا معينا وانما بدأ يشرح للتاجر الجاهل الجريىء مدلول كلمتي «الاصلاح» و «الولاية»(1).

وقد بدا (ابن باديس) في تعامله مع الموقف سياسيا مرنا وفقيها متفتّحا ومجادلا ذا أخلاق فاضلة، يسعى إلى الاقناع بالمنطق والحجة المستمدة من القرآن والسنة وسيرة الاتقياء. فهو يحرص على الارشاد من وحي الدّين ويدعو بالحسنى للتعاون والتآزر في الخير العام. كما يحرص أيضا من جهة أخرى على اتقاء المضايقات من رجال الاحتلال أنفسهم، لذا قام بزيارة الحاكم في المدينة للتعبير غير المباشر على أنّ مهمته ليست سياسية، بل دينية اجتماعية إصلاحية، وهذا تحسّبا لما قد ينسجه المتآمرون على الجمعية والحاقدون على حركة الفكر الاصلاحي من أكاذيب تأولها سلطة الاحتلال لتمارس أسلوب التضييق على الحركة الاصلاحية فتحول بينها وبين مهمتها في المجتمع.

وبعد (مستغانم) تميزت مرحلة (أرزيو) بدرس بعد صلاة الجمعة، وبلقاءات مع المواطنين الذين توافدوا من النواحي المجاورة، وبات الجميع ضيوفا على إمام مسجدها الذي وصفه الكاتب بذي الفصاحة وصحة الادراك واستقامة الفكر والأدب «معترف له بالعلم والفضل»(2) وقد كتب قصيدة في مدح (جمعية العلماء).

---

(1) أنظر الصفحتين 312 و 313 من المصدر السابق.

(2) المصدر السابق، ص 315.

وان لم يحدد الكاتب الفترة التي قضاها هنا مع مرافقيه فيبدو أنها لم تتجاوز يوما واحدا، أما في (وهران) المحطة الأخيرة فقد حدّدها بيومين اثنين «ما كان اليومان اللذان أقمناهما بتلك العاصمة الكبيرة ليكفيا في التعرف عليها وكمال الغرض من الاجتماع بفضلاء أهلها»(1).

وكما رأى في رجالها علما وفضلا رأى عموما في أهلها أيضا «تعطشا للعلم واقبالا على سماعه»(2) أما خارج هذا الانطباع فلا نجد غير حديث مختصر جدا عن دروس الوعظ ولقاءات الذكر وحفلات الطعام بلغة تفتقر إلى الحركة والحياة في الوصف، فبقي كلامه حديثا تسجيليا خالصا، يعكس بشكل خاص حسّ عالم أو رجل دين يسجّل الحدث كما جرى، لا شعور أديب يبعث في الحدث حياة وحركة في الصلة بالمحيط والناس.

أما رحلة (بسكرة) فقد جاءت بعد الرحلة السابقة بعنوان «ثلاثة أيام ببسكرة»(3) قام بها (ابن باديس) لزيارة شعبة جمعية العلماء في (بسكرة) التي كان يرأسها (الأمين العمودي) وكذا (مدرسة الاخاء)(*)

---

(1) المصدر السابق، ص 316.

(2) المصدر السابق، ص 315.

(3) الشهاب، ج2 م: 8 شوال 1350هـ (فيفري 1932م) وهذه الرحلة من الأعمال التي لم يتضمنها كتاب (ابن باديس: حياته وآثاره).

(*) وهي المدرسة التي أنشأتها (جمعية الاخاء) ذات الأهمية الوطنية، في اطار تنويع سبل النضال من أجل نشر التعليم العربي، وقد تحدث عنها الشيخ (محمد خير الدين) في مذكراته قائلا: «تنفيذا لقرارات الرواد بقسنطينة سعيت في تكوين جمعية دعوناها (جمعية الاخاء) وتأسيس (مدرسة الاخاء) للتربية والتعليم ببسكرة عام 1350هـ و 1931م. واتقاء للعراقيل التي ما فتئت تقيمها السلطة في طريق التعليم العربي الحر اقترحت أن يكون مجلس إدارة المدرسة متكونا من أعضاء لهم نفوذ لدى السلطة المحلية حتى يتيسر للمدرسة سبيل القيام بدورها في نشر الثقافة العربية والاسلامية»؛ انظر (مذكرات) الشيخ محمد خيرالدين، ج1، ص 92، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر؛ وقد أنشأ الشاعر (مفدي زكرياء) قصيدة في المناسبة بعنوان (قف للعروبة حييها ببسكرة) تحية للمبادرة وابتهاجا بها، وهي قصيدة طويلة حافلة بالمشاعر الانسانية النبيلة، منها قوله: (=)

المؤسسة حديثا إضافة إلى لقاءاته الأخرى ذات الطابع الثقافي للتعريف بالجمعية ونصح الناس وارشادهم.

وقد سجل الكاتب انطباعه وما قام به في صفحتين ونصف فقط من المجلة، برز فيها حرصه على تعميق روح التعاون والتآخي في خدمة الخير العام ومصلحة المجتمع والوطن. فبعد المهمة الخاصة بتنصيب (شعبة الجمعية) كانت هناك الزيارة الخاصة لمدرسة (الاخاء) التي نهض بأمرها المواطنون، فلمسنا ابتهاج الكاتب بروح التعاون والتآزر الذي جسّده اسم المدرسة نفسه كما قال (ابن باديس) وهو يتحدث عنها «تسمية مدرستهم بمدرسة الاخاء هو أثر مما تنطوي عليه قلوبهم من معنى الأخوة الصحيح التي ربطها به الاسلام، وتشاهد روح التضامن والتآخي بادية في إدارة المدرسة»(1) ثم شرع يتحدّث عن جدية أساتذتها واجتهاد تلاميذها ولقائه بمجلس إدارتها وبعض المواطنين في صحنها حيث أسهم في خطب تحثّ على «المودّة والنصح والتنشيط».

هذا التآزر في الأمور الخيرية والوطنية ذات الأثر الكبير في رقيّ الأمة وازدهارها جعل الكاتب يخرج بانطباع ايجابي بدا فيه منشرح الصدر سعيدا

(=) كذا يطيب الجنى ولتشد ألحان وليصغ آثارنا في الترب قحطان
ولتبلغ الشمس من آيات نهضتنا للشرق والغرب أنباء لها شان

....

لله فتية صدق، سادة نجب حرّ الضمائر، فعّالون، فرسان
تآزروا باخاء في نهوضهم شعارهم (كلّنا في الله اخوان)
فشيّدوا بصحيح العزم مدرسة طابت مغارسها دوح وأغصان

....

فلتحي بسكرة الزهراء رافلة بالعز يكلؤها بالحفظ رحمان

ـ انظر نص القصيدة كاملا في كتاب: (مفدي زكريا شاعر النضال والثورة). الدكتور: محمد ناصر، ص 191، 192، 193، نشر (جمعية التراث) العطف، غرداية، مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالرغاية، الجزائر 1989م.

(1) الشهاب، ج 2، م 8، شوال 1350هـ (فيفري 1932م).

بتعاون المواطنين وتكاثفهم «من أعظم ما يدخل السرور على قلب المسلم أن يرى اخوانه المسلمين يمثلون معنى الأخوة الاسلامية تمثيلا عمليا مثل ما شاهدته في بسكرة من مالكيتها واباضيتها، فجماعتهم واحدة ورأيهم واحد، وشوراهم في المصالح العامة واحدة»(1).

ثمّ يتحدث عن ذهابه صحبة (العمودي) إلى نائب شيخ البلدية لاطلاعه على مقاصد الجمعية، كي يأذن أيضا في النهاية لابن باديس بالقاء خطاب على المواطنين في مقرّ البلدية، وقد «أجاب بارتياح» فغصت مساء «رحاب دار البلدية بالناس» ثم يسجّل زيارته رفقة (محمد خيرالدين) إلى (شيخ العرب) كما قال: «بوعزيز بن قانة في داره لنقدم له الجمعية، فتلقّانا بلطف وحفاوة عظيمين وأبدى سرورا كبيرا بالجمعية ومقاصدها، وأعجبه بوجه خاص وودّ لو يبدأ به قبل غيره تأسيس الكلية الاسلامية الجزائرية التي في عزم الجمعية السعي لتأسيسها، ووعد حضرته أن يكون في عون الجمعية بما يكون في استطاعته، فشكرنا له فضله وشعوره وودعناه معجبين بأدبه وحسن أخلاقه»(2).

ثم يتحدث عن الدعوات الخاصة لموائد الطعام التي أسماها «موائد الكرم» عند الأشخاص والجماعات، ومنهم رجل زاوية نفسه (الشيخ بنعزوز ابن الشيخ المختار) الذي خصّه بذكر طيب في نهاية رحلته قائلا «أحد أبناء الزوايا الناهضين، ذو أخلاق وكرم ومعرفة بمسائل الفقه وبذل في سبيل الخير، ومن داره سرنا للمحطة في جمع من اخواننا البسكريين الأفاضل، فودّعناهم وركبنا القطار إلى قسنطينة حاملين لهم الودّ والشكر والاعجاب»(3).

---

(1) المصد السابق.
(2) المصدر السابق، ص 114.
(3) المصدر السابق، ص 114.

خرج الكاتب في النهاية بانطباع عام عن (بسكرة) التي يتآخى فيها الجميع من المواطنين ويتعاونون، يشجعون الحركة التعليمية والثقافية ويبدون جميعا بمختلف فئاتهم الاجتماعية الاستعداد إلى العمل لمساندة (جمعية العلماء) في مشاريعها الدينية والعلمية والثقافية بشكل عام.

صاغ الكاتب آراءه وانطباعاته وأخباره في رحلته هذه بلغة تقريرية لكنها لم تقعد بمشاعر الكاتب في الاعراب عمّا شاع في المحيط من مظاهر الودّ وروح التعاون وسمات الصفاء والطيبة في القلوب الخيّرة الطاهرة عموما.

والرحلة الخامسة والأخيرة ممّا دوّنه بنفسه من رحلاته في الداخل شملت مدنا في الجنوب والوسط والغرب تحت عنوان «رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية»(1) وكانت تلك المدن هي: المدية، البرواقية، قصر البخاري، الجلفة، الأغواط، آفلو، سوقر، تيارت (تيهرت)، فرندة، معسكر، سعيدة، البيض، وهران، سيدي بلعباس، عين تموشنت، تلمسان، مغنية، الغزوات، ندرومة، آرزيو، مستغانم، ومن هذه زار (زاوية ابن طكوك) ثم غليزان.

وقد دامت هذه الرحلات أو الرحلة المضنية أكثر من شهر، انطلق فيها من العاصمة في 27 من المحرم 1351هـ (جوان 1932م) وقد ذكر أنها تنفيذ لقرار (جمعية العلماء) الخاص بإرسال أفراد إلى نواحي الوطن للوعظ والارشاد تصديا للآفات الاجتماعية، وكان البدء بهذه المناطق التي أسندت المهمة فيها إلى رئيس الجمعية نفسه (ابن باديس) كي «يقوم بذلك، وأن يستعين في رحلته بكلّ من يكون في طريقه من أهل العلم فقبلت بذلك واستعنت بالله»(2).

---

(1) نشرت الرحلة في الشهاب، ع: ربيع الأول 1351هـ (أوت 1932م) وتضمنتها الصفحات 317، 324 من كتاب (ابن باديس: حياته وآثاره).
(2) ابن باديس، حياته وآثاره وأدبه، ج4، ص 317.

اختلف منهجه في هذه الرحلة عن منهجه في الحديث عن الرّحلات السابقة: فهنا بدا أشد ميلا إلى تقديم عرض عام، فنلمس أنه حصر القضايا التي يلقي فيها دروسه أو يحاضر أو يعظ أو يرشد، فيتكرّر معظمها في تلك المدن في محور أساسي كما أعلنه في خطة عمله تحت عنوان «موضوع الدرس ومادته» في الرحلة: «كانت الدروس كلها حثّا على الفضائل وتنفيرا من الرذائل وبيانا لحقائق الدين... حثّا على التآلف والتعاون مع جميع السّكان... وكانت مادة الدرس دائما آية من كتاب آللّٰه مشفعة بحديث رسوله عليه وآله الصلاة والسلام، وكنت بعد الدرس أعرّف الناس بالجمعية ومقاصدها.... وألخص لهم وصايا الجمع في هذه الكلمات الثلاث: تعلّموا، تحابوا، تسامحو»[1].

وكانت أول نقطة في برنامجه يحرص عليها غالبا: أن يبدأ بزيارة المسجد في المدينة التي يزورها عملا بالسّنة أولا وتنبيها لحرمة المسجد وفضله ثانيا، للوقوف فيه أمام آللّٰه في لحظات الشدة والضيق، وفي ذلك درس عمليّ لمحاربة بدع متفشية وصرف الناس عن ضلال شائع «فان العامة فيما رأيت في كثير منهم يفزعون إلى البناءات المضروبة على الأضرحة ويظهرون فيها من الخشوع والخضوع ما لا أراه منهم في بيوت آللّٰه، ومن ذا الذي يسوّي بيت الخالق ببيت المخلوقين لولا انتشار الجهل وكثرة الغفلة والسكوت عن الحق وقعود من لا يجوز لهم القعود عن التعليم والتّبيين»[2].

أما موضوع حديثه فإنه ينطلق من النقطة السابقة دفعا لبدعة أو تعريضا بضلال و «حثّا على الفضائل وتنفيرا من الرذائل وبيانا لحقائق الدين» التي يشوّهها الجهلة، كما يحاول البعض الاساءة إلى جمعية العلماء بالاشاعات

---

(1) المصدر السابق، ص 318.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الباطلة حتى «أشاعوا عنها كل إشاعة شنيعة ورموها بكلّ نقيصة ورذيلة»[1]، مما نجد (ابن باديس) يدرجه ضمن دروسه أو محاضراته، فينجح في الاقناع. وكان من الانشغالات ذات الطابع الديني في المجتمع موضوع (الكرامات) و (الولاية) و (التصوف) مما اقتضى من (ابن باديس) جهدا للغربلة واجتثاث الاعتقاد بالباطل من بعض النفوس اعتمادا على القرآن والسنة، كما كان من أهمّ الانشغالات الاجتماعية لديه العمل من أجل رصّ الصفوف في الأمة وتنمية روح التآزر والتعاون معتمدا في ذلك أيضا القرآن والحديث، فوصف الاستجابة لدعوته وتشجيعه في عمله: حبّا للعلم وتقديرا لرجاله واكراما لهم ممّا يعتبر من تراثنا الأخلاقي والاجتماعي الذي يجدر الاعتزاز به «لقد كان تنازع الناس على ضيافتنا كتزاحمهم على دروسنا ومجالسنا، وكان تسارعهم إلى اكرامنا يضاهي تسارعهم إلى مقابلتنا، وقد كان أكثر البلدان يتلقّانا أهلها قبل الوصول إليها ويشيّعوننا إلى البلدة التي تليها، فللّه هذه الأمة المسلمة العربية في تعظيمها للعلم واكرامها للضيف تراثا جليلا حافظت عليه أجيالا وأحقابا»[2].

لقد بدا الرّحالة سعيدا باستجابة مواطنيه، وأثنى على اهتمام الصحافة الفرنسية برحلته مثلما أثنى على العناية التي خصّه بها الجميع، ومنهم أفراد فرنسيون لم يتخلّفوا عن حضور بعض حفلات (القهوة) و (الشاي) حتى ولو كان ذلك منهم لرصد ما يصدر عنه وما يبوح به في تلك الجلسات الخاصة التي كثيرا ما تظهر فيها الشخصية على حقيقتها تفكيرا وسلوكا، في إشارة أو رأي.

نجد له احساسا بالرّضى عمّا قام به من عمل وعمّا حالفه من توفيق في القيام بالواجب نحو الأمة «خدمنا الأمة الاسلامية بما دعوناها إليه من علم

---

(1) ابن باديس، حياته وآثاره وأدبه، ج4، ص 319.
(2) المصدر السابق، ص 321.

وفضيلة ومحبة وتسامح، وما عرضناه على أسماعها من علوم القرآن وهدايته وما رغبنا فيه من قراءته وتفهمه والعمل به، وخدمنا المسلمين وغيرهم بما دعونا إليه من اتحاد وتعاون وتراحم وتفاهم»[1].

وخلص إلى نتيجة جوهرية تتمثّل أساسا في «استعداد الأمة لكل خير»[2] وهو ما يوحي باليقظة التي باتت تسرى في المجتمع واستعداده لاحتضان كلّ الدعوات الوطنية التي تدعوه للنهوض خاصة حين تكون منطلقات تلك الدعوات من تراث الأمة الفكري الحضاري بعنصريه الأساسيين: اللغة العربية والدين الاسلامي.

صاغ الكاتب رحلته بأسلوب عالم يعرض صورة لوضع الأمة خاصة في جانبه الديني والاجتماعي، فهي أمة متشبثة بقيمها العربية الاسلامية في التآلف والكرم والتّعاون، ذات استعداد تام لما يأمر به دينها وما يدعو إليه مصلحوها. وهذه هي العناصر التي تركز عليها وصف الكاتب وصفا مباشرا من دون الاحتماء بزخرف لفظي ولا امتطاء خيال يتوق إلى أوضاع مثالية، لأن الرجل كان مشدودا إلى واقع أمته الذي يؤرّقه، وهو حر يص على أن يعبر عن ذلك مباشرة بقلم رجل دين تعنيه الحقيقة المجرّدة، لا بقلم أديب يجنح بالحقيقة إلى أشعة الخيال، وطلاوة التعبير.

مهما يكن من شيء فان رحلات (ابن باديس) الداخلية جسّدت حرصه الشديد على فهم المواطن الجزائري لمعرفة ما يشغل باله، همومه واهتماماته، ومدى استجابته لما تعمل (جمعية العلماء) له من أجل النّهوض والتطوّر مما يأتي الحسّ الشديد بالانتماء الحضاري عنصرا جوهريا فيه بوجهيه اللغة والدين.

---

(1) المصدر السابق، ص 323.

(2) المصدر السابق، ص 324.

كان يجري الاتّصالات مع رجال الدين والثقافة من أجل تشجيعهم وتحفيزهم، ويحرص على إرشاد عامة الناس وبثّ الوعي في نفوسهم ودفع الشبهات التي يلصقها الخصوم بجمعية العلماء، ودعوة الجميع إلى التآزر والتآلف ونبذ كلّ أشكال الخلاف الهامشي الذي كثيرا ما يسمّم العلاقات بين الناس ويملأ نفوسهم ريبة وحذرا وبغضاء مما لا يخدم النّاس في دينهم ولا في دنياهم.

وعلى سبيل المجاملة وحذرا للمضايقات التي كثيرا ما تختلقها إدارة الاحتلال بشكل مباشر أو غير مباشر كان (ابن باديس) يزور أحيانا مسؤولي المدينة التي يحلّ بها، سواء كان جزائريا أم أوروبيا، مثل رئيس البلدية أو رئيس الدائرة أو غيرهما، لتكون إدارة الاحتلال على علم لسدّ الباب أمام الاحتمالات التي قد تتذرّع بها الادارة لمنع الرجل من مهمته. وهذه النقطة من بين الأسباب المختلفة أيضا التي جعلته يحرص على نشر رحلاته لاقناع إدارة الاحتلال بأن جولاته ثقافية دينية اجتماعية اصلاحية وليست سياسية، وهذا رغم توفّر القضايا السابقة على عنصر العمل السياسي في شكله غير المباشر.

رحلات الفضيل الورتلاني:

رحلات (الورتلاني) نشر بعضها باسمه الصريح في مجلة «الشهاب» سنة 1353هـ (1934م) بعنوان «رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة»[1] ونشر بعضها الآخر باسمه المستعار (الفتى القبائلي) في جريدة «البصائر» سنة 1355هـ (1936م) بعنوان «رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين بعمالة قسنطينة وما يلاحظ فيها»[2].

(1) مجلة (الشهاب) ج 7، م: 10 غرة ربيع الأول 1353هـ (14 جوان 1934م).
(2) جريدة البصائر الأعداد: 16، 17، 18 السلسلة الأولى، صفر 1355هـ (أفريل، ماي 1936م).

وهي رحلات كان يسجّل فيها نشاط الوفد في مدن المنطقة بأفكاره ولغته وتعبيره وانطباعاته الخاصة عن الأماكن والأشخاص، متحدثا في بعضها عن الجانب التاريخي أو الجغرافي أو غيرهما، كما يتحدّث غالبا عن وضع المنطقة اجتماعيا وثقافيا إضافة إلى نشاط الوفد في القاء المحاضرات وتنظيم اللقاءات والمناقشات وجمع الأموال لبناء المساجد والمدارس وغيرها.

شمل القسم الأول من هذه الرحلات (عين مليلة) و (سطيف) و (باتنة) ثم (بوقاعة) فكانت أول مدينة تتعرض لها الرحلة إذن في هذا القسم (عين مليلة) وكان الوفد برئاسة (ابن باديس) الذي اختار «يوم الخميس من أيام الأسبوع لمناسبة الرّاحة للطلبة فيه، ووقع استدعاء عام لأعيان الحوز المتفرقين في العروش، وكان موعد الاجتماع المكاني المسجد والزماني الساعة العاشرة، فحضر الجميع للزمان والمكان المعنيين وعلائم النشاط تبدو على وجوههم وآثار الهمم العالية تنطق بها ألسنتهم»(1).

والرحلة ذات طابع اخباري، تحدث فيها الكاتب عن وصول الوفد لأمر يخص مسجد المدينة والاتفاق مع الجميع على جمع الأموال له وتأسيس جمعية تنهض بأمره. وبعد تناول الغداء على مائدة أحد الأعيان في المدينة ألقيت خطب استهلها (ابن باديس) بخطاب «خاض فيه بأبلغ عبارات التأثير.. حتى أبكى غالب الحاضرين... وكان الناس يظنّون أن المالية تجمع ساعتئذ، فأخذوا يمدون بالمئات والخمسمئة الأمر الذي دلّ دلالة قطعية على استعدادهم للبذل في سبيل الله والتضحية من أجله»(2) فكان همّ النهوض بأمر المسجد القضية التي استأثرت بكلّ الاهتمام، وأسفرت الجهود عن تأسيس جمعية أسندت رئاستها للشيخ (ابن باديس) «ومن نحو ثمانية عشر عضوا من مختلف الأعراش». صاغ الكاتب ذلك في شكل اخباري، فيه تعاطف كثير مع الموضوع، مشيدا بتكاتف الجهود، وروح الاصلاح التي تغتذي من حسّ ديني مكين في النفوس.

---

(1) مجلة (الشهاب) ج 7، م 10، غرة ربيع الأول 1353هـ (14 جوان 1934م).
(2) المصدر السابق.

وفي الحديث عن الرحلة إلى (سطيف) يعطي الكاتب في البداية صورة منكرة عن ماضي المدينة القريب التي كانت قد تحولت إلى وكر للآفات الاجتماعية، استشرى فيها البغاء، وإدمان الخمور والعكوف على القمار، وهو في ذلك يصف أمرين اثنين فيها: أرضها الطيبة الخصبة وبساتينها الواسعة ومبانيها الجميلة من جهة ثم انسانها من جهة أخرى الذي انزلق إلى الحضيض حتى حق فيها (أرض طيبة وعبد كفور) وهما ــ كما يقول ــ «كلمتان جمعتا بين التعريف بطبيعة موقعها وبيئة انسانها» فالأرض موقعا ومناخها «بلغا في الحسن غايتهما» أما الانسان فقد كان الانحلال بلغ منه مستوى وضيعا جدا في المدينة حيث كانت المرأة سببا أساسيا في مسخها «ذلك أن كل فتاة من البلدان البعيدة فضلا عن القريبة إذا قدر لها أن تخلع جلباب الحياء وتعرض نفسها بما حرم ٱلله للتجارة لا تختار في الغالب إلا (سطيف) لما يسمع عنه من تمهيد الطرق لهذا المنكر، فأصبح ملجأ يرده كل فاجر ومربطا يربط فيه كلّ حيوان، ونشأ عن هذا ما أنسى الناس في أمر دينهم ودنياهم، وسوقوا إلى هوة الضلال قضهم وقضيضهم حتى صار اخفاء الزينة عند الفتاة والعجوز أيضا شيئا منكرا، وتبرج الجاهلية الأولى سنة متّبعة» لكنه حين ينظر في حاضرها يجدها أحسن حالا، فمع بقاء شيء من ماض فانّ الحاضر» فيه أمة جديدة من الشباب الناهض يشتغل حماسا ويتوقّد غيرة ويحمل راية العلم باليمنى وراية العمل باليسرى، وعلى رأسه تاج الاخلاص بارق لامع» جاء وفد (الجمعية) برئاسة (ابن باديس) تلبية لدعوتهم، فحل بالمدينة يوم خميس قضاه الوفد في المناقشات العلمية والدينية، كما دعا في منتصف النهار (فرحات عباس) الوفد «إلى مكتبه الجميل، فقدم لنا أنواعا من الحلويات وأصنافا من المشروبات وفنونا من الذكريات، ومعنا جماعة من الأصدقاء والأعيان، قضينا في المكتب نحو ساعتين ونصف كلها أنس وسرور، وقد كانوا أعدوا للاجتماع العام الذي يسمع فيه الناس المحاضرة المسرح البلدي، وعلى الساعة الثامنة ونصف ليلا موعد الزمان اكتظت الشوارع المحيطة بالمسرح».

وقد نمّ هذا الاستعداد لصوت الاصلاح، والاقبال على سماع محاضرة من أحد رجاله وشهود محاورات عن تحوّل جذري في حال المدينة، فبدأت تنتقل من مدينة تشيع فيها الآفات الاجتماعية وتزورّ عن العلم إلى أخرى يشيع فيها الاصلاح فتتراجع الصور السلبية لتحلّ محلّها صور ايجابية بمدينة ناهضة من سباتها في حركة وحيوية، بفعل حماس الشباب المؤمن بوطنه المتمسك بعقيدته وأخلاقه، وقد غلب على أسلوب الكاتب هنا طابع الوصف الذي أشاع في الموضوع شيئا من الحيوية مقارنا بين حالين للمدينة، مما يشي في النهاية بأن فعل الفكر الاصلاحي واليقظة الوطنية كانا في تصاعد بهذه المدينة على مرّ الأيام، وهو ما يعود إليه الكاتب في رحلة أخرى لاحقة، كما سيأتي ذكر ذلك في إبانه.

والرحلة الثانية في هذا القسم كانت إلى (باتنة) وقد كان الوفد يتكوّن من ثلاثة عشر عضوا، منهم الرئيس (ابن باديس) وكاتب الرحلة. وقد بادر الكاتب بإعطاء لمحة جغرافية سريعة عن موقع المدينة مذكرا بماضيها القريب الذي كان متدهورا تشيع فيه البدع، ويطبع الحياة فيه الكسل والقعود عن طلب العلم، حتى جاء حاضرها الذي أنعشته الحركة تحت لواء الجمعية فـ«انبلج فجر الاصلاح في القطر الجزائري وطلعت شمسه وذهبت بتلك الظلمة الحالكة وتوزعت أشعتها في نواحي مختلفة، ومن بين تلك الأشعة سلك أصاب هذه المدينة (باتنة) فأضاء شعبها الخفية فضلا عن الربى الشاهقة، فامتلأ جوّها نورا»(1) ذاكرا بعد ذلك بعضا من الشخصيات العلمية في المدينة التي قامت بدور هام في اشاعة المعرفة ونشر الفكر الاصلاحي باخلاص ينهض على العلم وحسن التوجيه، خاصة رئيس (شعبة جمعية العلماء) ونائبه شاكرا للرجال العاملين المخلصين جهودهم.

---

(1) المصدر السابق، وكل الفقرات الواردة هنا من نفس العدد.

فسجّل الكاتب تقدير الجمعية لكل العالمين الجادين، كما وقفت (الجمعية) إلى جانب واحد من أعضائها: رئيس (الشعبة) في (باتنة) فيعبّر الكاتب عن ذلك بحماس معربا عن موقف المؤازرة لذلك الرجل من جهة والتشهير بخصومه من جهة ثانية «من واجب الجمعية أن تقدم الشكر» لأنصارها في شخص هذا العالم وأن تقيم مظاهرة ضد من تعرّض للعلم ونشره ليعلم من لازال من أعداء العلم غرا تحدثه نفسه بالهجوم عليه: ان ثغوره عامرة بجنود لا قبل لهم بها، وأن حراسه اليوم ممّن يرون فداءه بالنفوس مكرمة» وهذا يعطي صورة عما كان يدور في المدينة من حيوية ونشاط تعليمي ديني إصلاحي وعما كان يواجه رجال الدين والاصلاح من صعوبات مختلفة تجعل النضال لتذليلها مسؤولية أخرى، كما تقتضي المسؤولية الصمود في وجه الاشاعات والضغوط التي تمارسها إدارة الاحتلال أو العراقيل التي يختلقها أذنابهم ومن تبعهم.

وقد وصف الكاتب الاقبال الكبير على وفد الجمعية وصفافيه كثير من الحيوية، يرّحب به الجميع ويتسابقون إلى اكرامه حيث قضى يومي الخميس والجمعة، كما يسارعون إلى متابعة المحاضرات والمناقشات وقد أقبل ليلة الجمعة خاصة «خلق كثير لم يسعهم النادي بجميع بيوته ورحابه وفنائه، فاكتظّ النهج في الخارج، ومن حسن الحظّ أن كان السيد الدكتور ابن خليل أعدّ آلة التسميع فنصبها على منضدة تقابل المحاضر ووضع مكبّر الصوت وموزّعه على حرف الباب الخارجي فعّمت الفائدة».

استطاع الكاتب أن ينقل للقارىء جانبا من تعطّش للعلم والمعرفة من أفواه الرجال الثقاة المخلصين، كما عبّر عن ذلك بشكل خاص الاندفاع في معانقة الفكر الاصلاحي والرغبة الشديدة في التقاء (ابن باديس) والاستماع إليه ومعرفة آرائه وأفكاره، والاستفادة منها وممّا ينصح به الناس.

وصف الكاتب ذلك بغبطة وسرور وصفا اقترب من تجسيد لوضع الناس وحركاتهم واندفاعهم، فأعطى صورة حيّة عن مدينة تنهض من كسل للنشاط، تنبذ الركود إلى عالم تشيع فيه الحياة وطلب العلم، لذا اعتبر الكاتب

رحلة (باتنة) يوما مشهودا، مثلت فيه المدينة «مظهرا عظيما من مظاهر العلم والدّين، فأهاليها قد ضربوا مثلا أعلى في التضامن والاتحاد على رفع منار الاسلام جهد المستطاع، وقد حازوا قصب السبق في القيام بواجب عظيم».

ورغم أن معظم تعابير الكاتب هنا تعابير معروفة، بل جاهزة مثل قوله «ضربوا مثلا أعلى» فإنه استطاع أن يصور الجوّ الذي جرت فيه الرحلة ومظاهر الاستقبال والحفاوة وصفا حيّا عبّر بشكل خاصّ عن جهود (جمعية العلماء) واخلاص رجال الفكر والعلم والاصلاح في (باتنة) وحرارة الاستقبال وحسن الترحيب من المواطنين.

ثم تأتي رحلة (بوقاعة) آخر رحلة في هذا القسم من (رحلات الورتلاني) في وصف ما يقوم به وفد (جمعية العلماء) من نشاط أثناءها إضافة إلى وصف ظروف الاستقبال والمدينة التي يحلّ بها.

في الحديث عن (بوقاعة) يخصّص الكاتب حيّزا معتبرا عن جغرافيتها العامة وجانب من تاريخها ووضعها: وانسانها أيضا في مثل قوله: «فالرّجل عندهم إما أن يشبّ على العمل أو العلم فلا تجد إلا القليل من بينهم عاطلا لا يشتغل بأحدهما، أما أوصافهم الثابتة فالشهامة والاباء والصلابة والاقدام، والذين غرسوا فيهم هذه الأوصاف المحمودة هم من يسمّونهم في عرفهم بالمرابطين». واتخذ من هذا الاسم الذي استمدّ من مسمّاه التاريخي الشرعي (الرباط) ليجلّ قيم البذل والتضحية التي قدمتها موجات السلف التي فتحت البلدان والقلوب «حدّثنا التاريخ عن أولئك الأبطال أنهم قاموا بنشر العلم وباسم العلم لا غير لا لقب ولا شعوذة ولا تدجيل، فبلغ بهم الشعب في العزّ شأوه، ونال منهم من الأخلاق والآداب حظّه».

أخذ منه الحديث في هذا الموضوع أكثر من نصف النصّ في وصف رحلة (بوقاعة) شمل الحديث عن بعض منتوجات المنطقة وجهودها العلمية في القديم وما أصاب المنطقة من فقر وما لحقها من عناء حتى «طلعت شمس

الاصلاح وقيّض الله أفرادا من نفس المرابطين، عرفوا الحق فنصروه، وأدركوا الباطل فخذلوه، وشرحوا لاخوانهم معنى الرباط الذي عمّ صيته أجدادهم به الآفاق... فوفّقوا بحمد الله أخيرا إلى تأسيس جمعية عظيمة أسموها (جمعية التربية والتعليم الاسلامية)... فبهذه المناسبة استدعوا رئيس جمعية العلماء المسلمين ليحضر اجتماعهم العام فلبّى دعوتهم بكل ارتياح، وصحب معه جماعة من أعضاء الجمعية» منهم (الورتلاني) وأربعة غيره، وصل هؤلاء المدينة يوم الأربعاء مساء كي تتهيا لاستقبال (ابن باديس) صباح يوم الخميس. فوصف (الورتلاني) مظاهر الاعداد للقاء والاستعداد للمناسبة، كما وصف الجو العام الذي ألقى فيه (ابن باديس) خطابه في المواطنين الذين امتلأت بهم ساحة السوق.

وصف الكاتب ذلك الجوّ أولا وصفا عاما ابتداء من لحظة وصوله مع رفاقه الأربعة مساء الأربعاء حتى وصول (ابن باديس) وانهاء خطابه صباح الخميس فيقول: «وجدنا البلدة ضاقت... قضينا ليلة الأربعاء كلها في المفاوضات على المشروع»(*) وانتهى في وصفه ثانيا إلى الحديث عن الشخصيات المختلفة التي صار يتكّون منها المجلس الاداري لجمعية «التربية والتعليم الاسلامية» تلك متحدثا في الأخير عن الكرم في الضيافة معلنا في النهاية عن أمل كبير في حركة علمية ثقافية في المنطقة.

وصورة الترحيب بالوفد عامة و (ابن باديس) خاصة كما عالجها الكاتب عكست الاحساس في ذلك الوسط بالحاجة إلى رجال ذوي همّة يأخذون على كواهلهم مهمة توجيه الناس في حياتهم العامة، من علماء الدّين المتمكّنين المخلصين، كما عبرت عن ذلك صورة الاندفاع الجارف في استقبال (ابن باديس) والاقبال الشديد على الاستماع إليه: رمزا للعلم والعلماء، والاصلاح والمصلحين.

(*) المشروع الخاص بجمعية التربية والتعليم الاسلامية، قانونها الأساسي، والمرشحون لمجلسها الاداري.

ويدرك القارىء بوضوح في هذا القسم من (رحلات الورتلاني) ذلك العمل الدّؤوب الذي كان ينهض به (ابن باديس) خاصة، وجمعية العلماء عامة فهذه النشاطات التي صورها الرحالة حصر (ابن باديس) برمجتها في يومي العطلة الأسبوعية لطلبته في (قسنطينة) أي (الخميس والجمعة) ليستغل هو ذلك مضحيا بالرّاحة لاجابة دعوات وتنفيذ مهمات دينية وثقافية بين هذه المدن يشدّ أزر الرجال العاملين ويشجع المواطنين على النهوض بالجانب الديني المسجدي والتعليمي وغيره مما كانت تنشط فيه الحركة الاصلاحية وتعمل له.

وقد أحسن الكاتب تصوير ذلك الاخلاص لدى المواطين ورجال التعليم وفي مقدمتهم (ابن باديس) كما أجاد تصوير الاقبال الشديد من الناس على شؤون دينهم واهتمامهم بالتعليم والعلم ورجاله.

أما القسم الثاني من (رحلات الورتلاني) فهو يتضمّن وصف رحلات أخرى قام بها أيضا وفد (جمعية العلماء) بعد الرحلات السابقة بنحو سنتين إلى (عنابة) و (قالمة) وعاد فيها الوفد إلى (عين مليلة) و (سطيف).

كانت بداية الرحلة (عين مليلة) تنفيذا لخطة (جمعية العلماء) في إرسال بعض من أعضائها لتفقّد مناطق من الوطن «ليقفوا على سير الحركة في أنحاء القطر فيوقظوا النائم وينبّهوا الغافل ويشجّعوا العامل ويرشدوا الضال فيتقبلهم الشعب أينما حلّوا بقبول حسن، فكانت الثمرة المقصودة ووجدت الضالة المنشودة من نشر الدعوة وابلاغ الأمانة وتنظيم الشعب»[1].

وقد نبّه الكاتب في بداية هذه الرحلة إلى اغفاله هذه المرّة (في هذا القسم من رحلاته) الحديث عن الجانب الجغرافي للمنطقة، لأنّ الرّجوع

---

(1) جريدة (البصائر) السلسلة الأولى، ع: 16، 2 صفر 1355هـ (24 أفريل 1936م).

إلى المصادر الأساسية في الجغرافية أولى في رأيه، كما أعرض عن ذكر الأشخاص وما قابلوا به الوفد من حفاوة واكرام «لكثرتهم اليوم بخلاف الأمس».

ثم يتحدث عن الجمعية الدينية التي سبق تكوينها في (عين مليلة) — كما ورد ذكرها في الرحلة السابقة — وأسندت رئاستها إلى (ابن باديس) كما يتحدّث عن مشكلة مسجد بالمدينة أشاع المغرضون بأن الصلاة لاتجوز فيه فيقول الكاتب «لهذه الأسباب وغيرها زار الأستاذ أخيرا (عين مليلة) واجتمع بالأمة مع بقية أعضاء الادارة، فخطب فيهم خطابا هائلا جمع بين الوعظ والارشاد، وبين تبيين حقيقة المسجد من وجهته القانونية بقراءة العقد عليهم، والقانون الأساسي للجمعية، ومن وجهته الدينية الفقهية، وان الصلاة فيه ليست فقط جائزة بل هي واجبة على من توفّرت فيه شروط الوجوب، ثم تلا قول آللّه تعالى ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾ من أجل أن يكشف لهم الحجاب عن الخنّاسين الذين يكيدون لهذه الأمة من وراء الستار، فهم إذا غاب العلم حضروا وجاسوا خلال الديار — ديار العامة — بخيلهم ورجلهم، وإذا حضر العلم غابوا وخنسوا»(٥).

وهذه الرحلة ذات الغرض الديني الاجتماعي الاصلاحي تركز حديث الكاتب فيها على الموضوع الأساسي الخاص بما كان هنالك من جدل حول المسجد وجواز الصلاة فيه أو بطلانها، فاستطاع أن يصف ما كان للشيخ (ابن باديس) من قدرة على الاقناع، وما كان من حسن اصغاء إليه وسرعة استجابة للعمل برأيه واتّباع نصائحه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نقلت الرحلة جانبا مما كان يدور في المحيط من جدل في أمور الدّين وقابلية هذا المحيط لانتشار الاشاعة مثل قابليته للاقتناع بآراء رجال الاصلاح الذين لم تكن مهمتهم سهلة تماما في

( ) تأخروا، تواروا.

محيط يطبعه التخلّف والشعوذة والدّجل السياسي الذي يستغله الاستعمار لمناهضة كل بارقة صادقة من الأمل للنهوض والتحرر.

وقد بدا أسلوب الرحلة خبريّا وصفيا مع قليل من التحليل للتوعية والتوجيه الديني والاجتماعي.

وفي رحلة (سطيف) يذكّر في المقدمة برحلته السابقة إليها حيث كانت تغادر الابتذال في حياتها إلى الجدّ ليؤكّد في هذه المقدمة ضرورة الحرص على بناء الشخصية الوطنية للإنسان «الجزائري المسلم العربي. ولا طمع له في ذلك بحال ما لم يدرس الاسلام والعربية درسا يعرّفه بحقيقة دينه الانساني وعروبته الشريفة، وهو بغيرهما لا ينظر إليه كشخص في أمة»(1).

فحيّا شباب المدينة الناهض وجهود رجالها من الحركة الوطنية واخلاص رجال الاصلاح منهم الذين كان لهم اسهامهم الكبير في نبذ هذه المدينة «منضدة الدومينو» وطاولة (الحانة) واحتضان حلقات المسجد وجلسات النادي «قد فتح ٱلله هذه البلدة بفضل ما بذرته الجمعية فيها من حبوب مثمرة، وعلى يد رئيسها ونائبها المحترم السيد فرحات عباس وزملائه، فلئن قلنا فيها يوما (انها بلدة طيبة وعبد كفور) فهي اليوم (بلدة طيبة ورب غفور)...»

وهو لم يطل كثيرا في حديثه هنا عن رحلة (سطيف) كما لم يطل بعدها كثيرا أيضا الحديث عن (عنابة) لأنه أساسا كان مشغولا بهدف محدد جعل كلامه يبقى محصورا في الحوار مع أهالي (عنابة) لتأسيس مدرسة عربية «حاجتنا عند العنّابيين هي مدرسة تؤسس لأولادهم بصفة عامة وبكيفية

---

(1) البصائر، السلسلة: الأولى، العدد: 17، ليوم 9 صفر 1355هـ (1 ماي 1936م).

مشتركة على أساس منظّم حتى يتفرّغ المتعلمون لتربية أفلاذ الكبد وانقاذهم من الخطر المحدق بهم، فأولادكم المتشرّدون في الأزقة أنتم المسؤولون أمام آلله عنهم».

وقد اتّسم الحديث في الرحلة بالسرد والتعليق عن اللقاءات والمناقشات التي كان يقوم بها مع المواطنين والأعيان وبعض المسؤولين الجزائريين في إدارة الاحتلال منبّها إلى زيارة لاحقة لابن باديس ليشهد ما وعد به أبناء (عنابة) من تأسيس مدرسة لابنائهم حيث تمّ «الاتفاق على وجوب تعليم أبناء المسلمين لغتهم ودينهم».

أما في رحلة (قالمة) فتتألّق روح الكاتب وينحو أسلوبه نحوا أدبيا أكثر بعد المقدمة التي ذكر فيها المناسبة، وهي زيارة وفد (جمعية العلماء) الذي كان يتكوّن من أربعة أشخاص برئاسة (ابن باديس) استجابة لدعوة أهل المدينة الذين هبت جموع منهم «نواب وطلبة وأعيان ينتظرون في المحطة بفارق اشتياق»(1) فكان أول لقاء بالمواطنين في نادي المدينة حيث تدقّ مشاعر الكاتب وتسمو عواطفه ونظره يجول في القاعة بين الملامح والعيون، فيلوح له مستقبل الجزائر باسما وهو يرى شبابها يؤم النادي فيملأه «كنت أشاهد بين الجدران شبابنا ذا دم طاهر كاد يناجيني بما يخشاه من خطر الدخيل... لقد أبكاني وعن غير قصد، فلا مؤاخذة وبكيته بدموع خفية يحسّ بها القلب فقط لأنه مجراها» لكنه يؤاخذ هذا الشباب على ملامح اليأس «لأنه الداء العضال والمرض الفتّاك والقاضي على الآمال والموقف للسّاعين دون الكمال» وهو لذلك يحذّرهم منه ويذكّرهم بأمر آلله في قهره والثورة عليه وعلى خداعه كي يحثوا الخطى «فدونكم السّلاح أيها الشباب ولا تستسلموا لهذا العدو الداخلي الخبيث وتعرفوه جيدا فإنه أخفى من كل دقيق حتى انه ليأتي الواثق بالله ثم من النفس في صورة أنصح الناصحين، ويضمّ

(1) البصائر، السلسلة الأولى، العدد: 18، ليوم 16 صفر 1355هـ (8 ماي 1936م).

اليتيم المسكين إلى الصدر ضمّة الأمّ الشفوق الحنون، فالعنوه بلعنة آلله من وسواس وخنّاس ماكر، وقاوموه بأنواع الأعمال والعاقبة للعاملين».

وقد تحدث الكاتب عمّا جرى من حوار ومناقشات ثقافية دينية في النادي كما وصف الجو الذي ساد المحاضرة التي ألقاها (ابن باديس) بعنوان «الاحترام» بعد الظهر في «دار الأفراح» فلاحظ «ما كان من هدوء سائد وقت الالقاء ونظام مبدع [كذا] عند الخروج» وقد وصف الاعجاب الشديد بالمحاضرة الذي جعل الالحاح كبيرا على المحاضر باعادة الحديث مرة ثانية ليلا في أحد المستودعات» كان الاجتماع ــ محل العجب ــ في قراج(*) لكتلة من الشبان سائقي العربات، فهذا القراج ــ قابل لاستحالته محلّ عبادة حرّة بينما المسجد بازائه لا يقبل إلا العبادات الرسمية(**)، رحماك اللهم رحماك! ضاق بالناس القراج ولكن لم يضق الناس به» فان اكتظ هذا المستودع بالناس حتى الاختناق فقد هان عليهم هم ذلك للظفر باحدى الفرص النادرة، ممّا يعكس من جهة حاجة إلى العلم والتوجيه والارشاد ومن جهة أخرى دورا مؤثرا للثقافة في كلّ حركة.

ثم يصف الكاتب مشهد حوار له مع بعض الشباب عن الانتماء للأمة العربية والاسلامية يعقب عليه بفقرة تؤكّد نصّ الحوار الشائق الذي جرى بينه وبين الشباب وتزكية بشكل آخر ليكبر ايمان الشباب بهويته الحضارية ويتعمق، وترسّخ قناعته بأنه منبوذ في سياسة الاحتلال والمحتلين عملا ولو قبل به المحتلون ظاهريا «على أنني أزيدكم ما ربما يخفى عليكم، وهو أنّكم عرب جبرا وبطبيعة الحال، لأن الغير لا يرضاكم إخوانا له أبدا لترفّعه عنكم بدعوى أنكم منتنون مقملون قذرون. فكونوا أحرارا وادرسوا لغة جنسكم

(*) (قراج) هي كلمة أجنبية Garage استخدمها الكاتب بشكل عفوي خضوعا للتعبير الجاري، أو رغبة في الوضوح التام، أو ربما عدم اهتمام بفعل السرعة لانجاز الحديث عن رحلته ونشره.

(**) يقصد بها الصلوات التي يؤمّ الناس فيها أئمة موظفون تابعون إداريا لدولة الاحتلال التي لا ترخّص دائما بممارسة الأنشطة الدينية والثقافية في المساجد.

وآدابه وتاريخه، ثم تشرّفوا بالتسبة إلى العرب بحق»[1]، ليؤكد لهم الحقيقة الأزلية في انتماء وطنهم الجزائر وهي العروبة والاسلام كوجهين لعملة إسمها (الجزائر) فحيّا لذلك جهود العاملين المخلصين ونبّه الغافلين واليائسين وعرّض بالمتخاذلين الذين قعد بهم عن العمل كسل، وجمود أو وعود احتلال كاذبة.

تركز في الرحلة الحديث عن الجانب الديني الاجتماعي الوطني بعمق سياسي، علا فيها صوت الكاتب المفكر المسؤول الذي يتلّمس مواطن الضعف في الانسان ليجتثّها، ويستغل بذرة العقيدة والوطنية ليمدّها بأسباب النماء والانتشار، فينفخ فيها روح التضحية ويشحنها بالأمل الفاعل الوقّاد، فاستحوذت على اهتمام الكاتب ملامح الانسان الذي يتطلّع إلى ما ينير له الدرب، فبرز في ذلك أيضا حسّه الوطني، وشعور الكاتب بالمسؤولية الفكرية بعمق ديني سياسي في الحاضر وعملا للمستقبل.

وصف الكاتب اقبال المواطن على ما يهمّه في دينه وحياته وما يعمّق حسّه القومي الفيّاض. وصف ذلك وصفا أدبيا، فيه صدق وكثير من الحرارة فعكس ذلك موقفا وطنيا صلبا واحساسا موشّى بالشعور الديني والصياغة الأدبية بين واقع الأمّة الجزائرية النائمة بالأمس وعملها لتجاوزه من أجل النهوض والعزة والكرامة في ظلّ انتماء الجزائر لمجالها الحضاري: عربيا — إسلاميا.

ورحلات (الورتلاني) عموما عكست بدورها الجهود المعتبرة التي كانت تبذلها (جمعية العلماء) في النهوض بالحركة التعليمية الثقافية عموما، والحركة الدينية خصوصا، كما عكست حسن التجاوب من المواطنين وما بدأ

(1) البصائر، السلسلة الأولى، العدد: 19، 23 صفر 1355هـ (15 ماي 1936م).

يشيع في المحيط الاجتماعي من حسّ وطني مشبع بخلفية دينية، وحاجة غدت شديدة إلى ذلك.

اختلف منهج الكاتب في القسم الثاني من رحلاته عن الأول، كان اهتمامه في الحديث بالقسم الأول من رحلاته يشمل عموميات من الجانب الجغرافي العام كما يشمل الحديث عن المستقبلين والمشيّعين وأصحاب الدعوات إلى المآدب في قليل من التفصيل. تراجع هذا الجانب في القسم الثاني وصار الحديث يقتصر عن جوّ الرحلة العامّ وقضاياها. أهو الملل ورغبة الكاتب في التجديد؟ أم هو شعوره بأنّ الحديث عن ذلك قد يكون فيه قصور أو تقصير؟ قد يكون هذان العنصران معا، يضاف اليهما أنّ معالجة القضايا التي بدأت تطرحها اللقاءات صارت بكثافتها تمارس ضغطا على نفس الكاتب يشغله عن تلك الجوانب الأخرى، رغم أنه يعلّل انصرافه عن الجانب الجغرافي بضرورة رجوع القارىء إلى كتب الجغرافية، كما يعلّل اغفاله في القسم الثاني ذكر الأشخاص لقلّتهم سابقا في القسم الأول، وكثرة المستقبلين والمضيفين والمشيعين في القسم الثاني مما يتعذّر معه ذكر كل ذلك.

قد يكون للكاتب عذره في هذا لكنّ قارىء الرحلة كأثر فكري فني يطمح لنسيج عام تبرز فيه مشاعر الكاتب وانطباعاته عن المنطقة: طبيعة وانسانا ومحيطا عاما، لذا بقيت الظلال الجغرافية العامة أمرا محببًا إلى النفس حسبما يمليه الموقف ومسار الوصف في حديث الرحلة، عن طبيعة المنطقة وموقعها ووضعها الاجتماعي والاقتصادي وعاداتها وتقاليدها أو غيرها مما ينبغي أن يعثر عليه القارىء في نسيج الرحلة ولا يبحث عنه خارجها، من دون أن يتحوّل ذلك إلى درس أو محاضرة في أيّ نوع من أنواع الجغرافية، لكنه يعتبر إثراء لفكر القارىء واغناء لتجربته مهما تنوّع المنهج بعد ذلك في درجة الاهتمام.

رحلات مبارك الميلي:

رحلة الشيخ (مبارك الميلي) بعنوان «تفقّد الشُّعب» أدرج تحته عنوان آخر هو «حياة الاصلاح في البلدان التي زرتها» وقد أسندت إليه عملية التفقّد

هذه في الجلسة الادارية لجمعية العلماء بتاريخ 14 صفر 1355هـ (6 ماي 1936م) فزار فيها (سطيف) (العلمة) (القرارم) (الميلية) (جيجل) (القلّ).

حين أنهى جولته بدا من كلامه متعبا وهو يحدّث (ابن باديس) عنها فألحّ عليه هذا في الكتابة عنها غير آبه بما شكاه إليه من «الضعف الذي اعترى جسمي واحتلّ فكري» كما يقول، فعبّر عن حاجته إلى الراحة لما اعتراه من ضعف نتيجة الجهد، غير أن الحاح (ابن باديس) جعله يقبل على تدوين رحلته لكن على مضض «لم يسعني حينئذ الاّ أن أكتب ولا عليّ، فان لم يجد القارىء ما يهمّه فالمسؤول عن عنائه هو الآمر بالكتابة المباشر لها»(1) وقد اتّخذ ذلك ذريعة فقط لما قد يلمسه القارىء من قصور في نقل تجربته أو في طريقة التعبير عنها، لأنه لا يمكن أن يتحمّل مسؤولية أيّ عمل فكري أو أثر أدبي أو غيره سوى صاحبه الذي وقّعه بإسمه ويرتبط به.

نشر الكاتب رحلته في أربع حلقات من جريدة (البصائر)(2) في سلسلتها الأولى، وقد أبدى انزعاجه في الحلقة الأولى ممّا كانت تدبّره الطرقية من مكائد له خاصة مستغلّة في ذلك الحسّ القبلي نفسه «لم أر الطرقية اشتدّت في حربي وبثّ الدعايات الواسعة ضدي واختلاق الأقاويل المنفّرة منّي كما رأيته في هذه السنة، ولكنّ الثقة بالله أجدى من دعايات المفسدين... وقد تمنّوا أن يوقعوني في قبضة الحكومة»(3) فلم يفلحوا يومئذ في ذلك كما لم يفلحوا في استفزاز أنصار الجمعية في (ميلة) وأهلها وأعيانها الذين كانوا مهتمّين باطعام الطعام سرورا بشروعهم في بناء المسجد الجامع «وقد ذكر أن بعض عناصر من الطرقية حاولت في المنطقة تصويره محرّضا

(1) البصائر، السلسلة الأولى، العدد: 28، في ربيع الثاني 1355هـ (15 ماي 1936م).
(2) صدرت الحلقة الأولى في العدد 28، في 27 ربيع الثاني 1355هـ (15 ماي 1936م) وصدرت الحلقة الرابعة الأخيرة في العدد: 31، الصادر في 19 جمادي الأولى 1355هـ (7 أوت 1936م).
(3) البصائر، السلسلة الأولى، العدد: 28.

على الفتنة بخلفية عشائرية ممّا دفع الكاتب إلى الاتّصال بمختلف السكان في المداشر بالجبال «لنريهم كذب مضلّليهم، ولنري مضلّليهم أنّا لا نرهب الاّ قوّة الحق».

يسجّل الكاتب خروجه يوم الأربعاء (3 جوان) من (ميلة) إلى (جيجل) في سيارة مع مرافقين له «بعضهم ممّن لهم علاقات بسكّان تلك الجبال، وعرّجنا في طريقنا على الميلية فأصحبنا منها السيد محمود ربوش معلّم القرآن بها، وقصدنا أيضا قرية الشقفة فاسترحنا بها قليلا واجتمعنا ببعض أهلها ثم ذهبنا إلى جيجل».

فماذا عن (جيجل)؟

لقد بدأ الكاتب يتحدّث عنها بفكر المؤرخ والجغرافي موقعا وتاريخا «جيجل من مراسي الوطن الجزائري الشهيرة، تقع شرقي بجاية عاصمة بني حمّاد، وكانت من غرر الدولة الحمادية... ثم أصبحت قاعدة لغزوات عروج وأخيه خيرالدين»(1) كما تحدث عن بعض من أشهر أسرها ورجالها وتمسّكها بالاسلام وحرص مواطنيها على تعليم العربية لابنائهم.

هكذا رسم الكاتب من البداية صورة جيدة للمدينة بمكانتها التاريخية ودورها الذي بدأ يكبر في خدمة الاسلام والعربية، «فهي مدينة جزائرية عرفت ما تحافظ عليه من القديم وما تأخذه من الجديد، وما زلنا نقول لها في الخير هل من مزيد» فأعطى الكاتب انطباعه الايجابي عن المدينة تستقبله، ويلتقي (شعبة) جمعية العلماء فيها، فيوصي أهلها بالجد والمثابرة في العمل، كما يحاضر ويجيب عن أسئلة المواطنين المختلفة بعد صلاة العشاء حيث سدّت أبواب المسجد بالواقفين الذين اكتظّ المسجد قبلهم، فكان ذلك واحدا من الدلائل ــ كما يذكر ــ على تمكّن الفكر الاصلاحي في المدينة.

(1) البصائر، السلسلة الأولى، العدد: 29، الصادر في 5 جمادى الأولى 1355هـ (24 جويلية 1936م).

من (جيجل) انتقل الكاتب في اليوم الموالي (الخميس) إلى قرية (سوق الشقفة) فتلفت نظرنا في هذه المرحلة ثلاثة عناصر أساسية: أولها استمرار الاهتمام بالجانب الجغرافي في حديث الكاتب حيث نراه يحدّد موقع القرية الجغرافي الطبيعي «الشقفة قرية على ربوة شرقي قرية الطاهير، قريبة منها وتحت جبال بني يدير... وتحت القرية سوقها الشهير الذي يقصده كل يوم خميس قبائل كثيرة من سكّان تلك الجبال، وتقريب القول فيه أنه كفهرست للقبائل من سكان الجبال الساحلية».

أما العنصر الثاني فهو الحضور في يوم سوق، والنزول خارجها في موقع طبيعي جميل كان الانطلاق منه مع المستقبلين لاجتثاث بذور الفتن القبلية والعشائرية «نزلنا خارج السّوق تحت ظلال شجر الزيتون المتناثر هنالك على الضفة لواديها الكبير» حيث استقبله البعض وصحبوه إلى داخل السوق لمعرفة ما كان يشغل الناس خاصة من إشاعات عن إساءة سكان (ميلة) لأتباع (مرابطين).

من هنا يأتي العنصر الثالث الذي تركز عنه حديث الكاتب الذي طلب منه الناس كلمة في الوعظ، فكانت فكرته الجوهرية الدّالة في توجيه الناس وإرشادهم في دينهم ودنياهم قوله: «أعرف ربّك، طهّر قلبك، أخش ذنبك» وهي عناصر ذات صلة بطلب العلم والحث على الأخلاق الاسلامية، فكان ذلك مفتاحا للقلوب الكريمة بفطرتها ليتراجع فيها الاحساس بالسوء ويتبرعم الحبّ والسلام والأمان، فتنطلق تبحث عمّا ينفعها في حياتها ودينها، فتنشرح النفوس وتتّسع قلوب المواطنين الذين اشتدت رغبتهم في أن يكون بينهم من يعلمهم شؤون دينهم في حياتهم، ثم اتّسع المجال أمام المواطنين لطرح الأسئلة الدينية على الزائر خاصة منها ممّا كان يشغل المحيط الوطني العام يومئذ، مثل قراءة القرآن علي الميت، فكانت إجابته الدينية معلّلة مقنعة، وقد عقب الكاتب على هذا السؤال بقوله: «لم يخل مكان من الأمكنة التي زرتها في جولتي هذه من هذا السؤال عن هذه المسألة» وهو مما تصدّى له الفكر

الاصلاحي حتى لا يكون القرآن احدى السبل التجارية، وهو عكس من جانب آخر ما بات لهذا الفكر من دور في إثارة الاستفسارات واهتزاز بعض المسلمات، وبروز حيرة في بعض القضايا التي ارتبك المواطن تجاهها ان كانت من الدين أو بدعة، مما عبّر أيضا عن جانب من خلفية الصراع بين التخلّف الاجتماعي وقوى الاستعمار والجهل الرابضة وراءه وبين ريح اليقظة والاصلاح في المجتمع الجزائري.

ثم يحدثنا الكاتب عن انتقاله مساء إلى (الميلية) حيث يقضي الليلة ويشرف على تأسيس (شعبة) جمعية العلماء، وقد اقتصر حديثه عن وضع المدينة التاريخي والجغرافي والاجتماعي «الميلية قرية حدثت في العصر الفرنسي تقع شمال ميلة بنحو خمسين ميلا... والقبائل المحيطة بها كسائر القبائل الجبلية قعد بهم الفقر وعمهم الجهل وتمكّن منهم الجبن من الموظفين وأضرّت بهم الثقة بالمرابطين المضلّلين... وفيهم من يتعرف إلى الحياة ويحبّ الاصلاح ويبحث عن الحق»[1].

أما في (القرارم) المرحلة التالية فقد كانت صلاة الجمعة متبوعة بمحاضرة عن موضوع: «الدين النصيحة» وفيها تناول طعام الغداء لدى أحد أغنيائها المتديّنين المصلحين «لو كان عشر أغنيائنا مثله لكانت حالتنا الدينية والعلمية في أحسن حال» ثم أتبع ذلك بكلمة موجزة عن موقع القرية وتاريخها وصلته بتاريخ المنطقة عموما، تبعها الحديث عن رحلة (العلمة) التي يلقي درسا في مسجدها ويصف موقعها الجغرافي ودورها التاريخي حيث كانت المنطقة «مبعث الثورة على الأغالبة ومنبع الدولة العبيدية» وبنفس الطريقة تحدث عن (سطيف) التي التقى علماءها كما وصف موقعها القديم الموالي للأغالبة الرافض للحكم العبيدي الذي خرّبها «فلم يتجدّد عمرانها الاّ في العهد الفرنسي» كما وصف طبيعة هوائها الجيد ومائها العذب.

---

(1) البصائر، السلسلة الأولى، العدد: 30، الصادر في 12 جمادى الأولى 1355هـ (31 جويلية 1936م).

ولم يتحدّث كثيرا عن نشاطه في (القل) حيث اكتفى أولا بذكر موضوع درسه في مسجدها الحرّ وثانيا بنظرة عامة عن موقعها الجغرافي ومكانتها التاريخية، وقد قال عن المنطقة عموما «هنا لاحظنا أن كلّ مدينة أو قرية دخلناها في جولتنا هذه لم تخل من جمع إصلاحي يستطيع أن يحمي نفسه من فتن المفسدين وأن يبلغ كلمة الحق والخير إلى الرّاغبين، وأن كل مركز إصلاحي به مدرّس حرّ غير طماع تجد فيه الاقبال على وفود الجمعية ودروسهم أقوى وأرجح ثمرة».

ثم أنهى الكاتب رحلته هذه باستطراد الحديث عن بعض من قرى المناطق التي مرّ بها في المناطق الجبلية «الساحلية فيما بين الميلية وجيجل إلى أطراف فرجيوة شمالا، وذلك بدرسي سوق الشقفة والجمعة، وكان إدخال الدعوة الاصلاحية إلى تلك الجبال أهمّ لأمرين: أحدهما أن بقية النقط التي زرناها مدنا وقرى قد سمعت قبل اليوم على تفاوت دروسا من أعضاء الجمعية، وثانيهما ان سكان الجبال ذوو صلابة في دينهم، فإذا عرفوا الحق تمسّكوا به وثبتوا عليه وأورثوه أعقابهم، لأنه لا ملا هي لديهم ترقّق دينهم ولا رفاهية تفسد عليهم خلق التواضع فيستكبرون عن دعاة الهدى»[1].

لقد طغا الاهتمام عموما لدى (الميلي) بالمحيط الديني والاجتماعي، لما تكابده حركة الاصلاح في الوصول الى مخاطبة المواطن لانارة فكره كي يفهم دينه فهما صحيحا، وعلاقة ذلك بحياته الاجتماعية مع الاهتمام الكبير بالجانب الجغرافي والتاريخي للمنطقة، ولأول مرّة نلمس في الرحلة الداخلية بوضوح حديثا عن الحس القبلي العشائري حتى كاد ذلك يجعل الكاتب طرفا فيه، وهو الحسّ الذي استغله بعض الطرقيين السذّج وأشباههم وأتباعهم من مشعوذين ودجّالين، وقد تصدّى الاصلاحيون لذلك بسلاح

(1) البصائر، السلسلة الأولى، العدد: 31 الصادر في 19 جمادى الأولى 1355هـ (7 أوت 1936م).

الدين نفسه لقبر الفتن بنصّ القرآن والحديث النبوي، ولغة العقل لادجل المشعوذ والطرقي المتخلّف، وهكذا نلمس في النهاية تراجع الحسّ القبلي أمام الحسّ الوطني بعمق ديني في حضور رجل الدين والعلم والاصلاح.

وقد انتهج الكاتب في تسجيل انطباعاته عبر المدن والقرى طريقة أقرب إلى شكل المذكرات، فيذكر غالبا الأيام والتواريخ ــ بالحساب الميلادي ــ دون أن نلمس أنه يعتمد مذكرات، بل هو يكتب من الذاكرة مستحضرا الأيام وتواريخها، يعتمد السّرد والشرح في قالب اخباري لا يخلو من وقفات تحليلية، يذكر في ذلك كله العناصر الأساسية في كلّ مرحلة من رحلاته والأشخاص الرئيسيين الذين التقاهم أو الذين رافقوه من مكان إلى آخر. يصف ذلك وصفا عاديا نادرا ما نلمس فيه التناول الفني الجيد، ذلك التناول الذي لا نعثر عليه إلا قليلا في فقرة وهو يهيىء للقاء أو وهو يصوّر حالة أو موقعا أو منظرا: كحالة استنفار عشائري في سوق، أو كجلسة علمية تحت أشجار الزّيتون في جوّ من الودّ والصفاء، أو ظلال موقف في قاعة اكتظّت بالحاضرين فسيطر مع ذلك صمت من الجلال والجمال الروحي على الموقع أو المكان.

وإذا كان الحديث عن الأماكن والأشخاص: اسما ومنصبا أمرا اشترك فيه (الميلي) هنا مع (ابن باديس) و (الورتلاني) فان اهتمامه بالجانب التاريخي الجغرافي بدا فيه متميزا، بحكم اهتمامه بكتابه تاريخ الجزائر(*)، وهو في ذلك لم ينقل من كتب تاريخ أو جغرافية، بل يصف أو يسرد بلغته معلوماته التي تحمل أفكاره وآراءه وأحكامه كما تحمل عواطفه وتقييمه الخاص، ولم يذكر مصادر ومراجع في سياق رحلته إلا في مواضع قليلة جدا تخصّ أمورا فقهية لا تاريخية ولا جغرافية، تتعلّق بما كان يستدلّ منه في دروسه ومحاضراته.

(*) له كتاب (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) في جزأين، طبع عدة طبعات مختلفة، منها طبعة في مجلد واحد، في (888) صفحة، نشر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1396هـ (1976م).

ومهما يكن من شيء فقد اسهمت رحلات (الميلي) عبر القرى والمدن المذكورة في عكس صورة الجهود التي كان يبذلها الرجال من جمعية العلماء وتضحياتهم في معاناة السفر وتحمل المضايقات والمتاعب والتحرّشات أيضا من إدارة الاحتلال أو أعداء الحركة الاصلاحية من أجل الوصول إلى الناس لارشادهم في أمور دينهم وحياتهم، وبثّ الوعي فيهم، لكن أسلوبه بقي محصورا في قالب ديني محدود التأثير أدبيا في رحلات بدت تقليدية عادية لا تكاد تختلف عموما عن عرض حال لزيارات ذات طابع ديني اجتماعي ونكاد لا نلمس مسحة الفن إلا في مواقع قليلة في تصوير الطبيعة أو وصف مشاعر الودّ والوئام في اللقاء والحوار.

غير أن الواضح هو أن هذه الرِّحلات عكست بدورها جوانب مما كان يمور به المحيط اجتماعيا واصلاحيا بالخصوص، وبعض الجهود الجماعية والفردية في ذلك، كما عكست جانبا من شخصية الكاتب الدينية والاصلاحية بحسّها التاريخي والاجتماعي والسياسي.

رحلات مالك بن نبي:

رحلات (مالك بن نبي) عموما من الرحلات التي نلمس فيها حس الأديب المفكّر وروحه، فهو يصف محيطه غالبا وصف أديب كثيرا ما يتأثّر حتى بالأشياء الصّغيرة وينفذ ببصيرته إلى عمق ما توحي به المواقف الانسانية المختلفة، وقد أعطانا صورا كثيرة عمّا كانت تمور به نفسه من آمال وأشواق شخصية ووطنية من جهة، ومن جهة أخرى عن المحيط الجزائري الرازح تحت نير الاحتلال الفرنسي خاصة في العشرينات والثلاثينات وحركة اليقظة الوطنية وانتشار حركة الاصلاح من (قسنطينة) بخاصة عندما كان تلميذا في المدرسة الحكومية منذ مطلع العشرينات في واقع ينذر بالتحوّل حيث «كان يكلّمني أكثر ما يكلّمني عن المستقبل، ولا سيما عندما أصبح الاحتكاك بين المدرسيين وبعض تلاميذ الشيخ ابن باديس أوثق في

قهوة ابن يمينة»[1] وقد سجّل الكاتب انجذابه لهذا الوسط الاصلاحي في أكثر من موضع كما سجّل ذلك التلاحم الأخوي بين أبناء الوطن من الشباب توقا إلى التغيير «ان قهوة ابن يمينة غدت حيّ المدرسيّين العام، وعلى بضع خطوات من هنالك كان مكتب الشيخ عبدالحميد بن باديس، كان يستقبل فيه أصدقاءه وتلاميذه... كان حينا العام على وجه التقريب إذن من ذلك المكان الذي غدا مهد الاصلاح وتردّد تلاميذ الشيخ عبدالحميد أمام قهوة ابن يمينة عقد صلات بيننا، وأظن أنه في تلك الفترة انما عرفت الشيخ حمّا العيد[*] شاعرنا العظيم المقبل حين لم يمض غير قليل على تركه حلقة معلّمه ومعه زاد لغوي علمي قديم طبعه شعور عالم وطني بطابعه السياسي: كان ذلك هو ابن باديس على وجه الخصوص، وهذا العلم ذو الطابع السياسي كان يتصل في قهوة ابن يمينة بالتيار الناشىء في المدرسة بقدوم بعض أتباع ابن باديس.... وأعتقد أن هذا اللقاء هو الذي يكوّن المقدّمة التاريخية ــ ان لم تكن الرسمية ــ لما غدا من بعد: الحركة الاصلاحية من جهة والحركة الوطنية من جهة أخرى»[2].

ورحلات (مالك بن نبي) الدّاخلية يمكن أن نحصرها في أربع رحلات أساسية، أول رحلة منها هي تلك التي وصفها عندما انتقل من (تبّسة) إلى (آفلو) سنة 1927م للالتحاق بوظيفته عدلا في محكمة (آفلو)[3] والثانية هي التي وصف فيها شعوره في الجزائر العاصمة وعودته إلى (تبسة) من (باريس) سنة 1932[4]، والثانية وصف فيها العودة إلى

---

(1) مذكرات شاهد القرن، سلسلة (مشكلات الحضارة) مالك بن نبي، ترجمة: مروان القنواتي، ص: 144، دار الفكر، بيروت، 1969م.
(*) محمد العيد آل خليفة (1904 ــ 1979م).
(2) المصدر السابق، ص: 145 ــ 146.
(3) تضمّنتها الصّفحات: 305 ــ 328 من كتابه (مذكرات شاهد القرن) (ج 1).
(4) تضمنتها الصّفحات: 81 ــ 97 من الجزء الثاني، من (مذكرات شاهد القرن) الطالب.

(تبسة) مرة أخرى من (عنابة) قادما من (باريس)[1] سنة 1933م، أما الرحلة الرابعة فقد كانت إلى (ميزاب) بعنوان «في ضيافة ميزاب»[2] سنة 1968م.

في الرحلة الأولى صوّر الكاتب احتكاكه بالمحيط في الجنوب من الوطن بالطبيعة والانسان وخصائصهما، فكانت التجربة مثيرة مبهجة بعمقها الانساني الدافىء النظيف. لقد كان في نفسه توق دائم إلى «الآفاق البعيدة» كما يقول، منذ كان في سنته الثانية بمدرسته في قسنطينة لانجاز أحلام أو مشاريع زراعية أو غيرها في (استراليا) أو في (تومبوكتو) التي بدت (آفلو) مرحلة نحوها. وقد اختار محكمة (آفلو) في رغباته للادارة فقال وقد أبلغه قاضي (تبسة) قرار تعيينه «فأخذتني نشوة من الفرح»[3] وهي أول تجربة يخوضها في مناطق من غرب الوطن وجنوبه. لذا فإنه أحسّ في البداية بشيء من الوحشة ابتداء من (غليزان) وهو يغيّر القطار ليأخذ قطار (تيارت) «كان الناس الذين ركبوا معي في غرفة الدرجة الثالثة الخالية من الأرائك الوثيرة يقولون (واه) يعنون بها (نعم) أما في منطقة قسنطينة فنقول (هيه) أو (نعم) على حسب درجة الثقافة، فبدت تلك الـ(واه) لي غريبة كل الغرابة، وينبغي أن لا أكتم أنها جاوزت في غربتها حدّا جعلها تبدولي متوحّشة»[4].

وهو أمر طبيعي في أول احتكاك بمحيط خاص لأول مرة، لأن سبل الاتصال وظروف التنقل المحدود يومئذ بين أرجاء الوطن البعيدة عن بعضها

---

(1) تضمنتها الصفحات: 118 ــ 138 من المصدر السابق.
(2) انظر: مكانة الاباضية في الحضارة الاسلامية، إعداد: دكتور محمد ناصر، وقد نشرت أصلا في مجلة (الثورة الافريقية) Révolution Africaine, n° 274. Mai 1968, Alger, pages 23-24.
ــ انظر أيضا نصّها الأصلي في كتاب حول فرية مدن جزائرية أقيمت على قصص حبّ، عبدآلله بن محمد كنطابلي، جمعية التراث، غرداية، المطبعة العربية، غرادية، 1990م.
(3) مذكرات شاهد القرن: ج 1، ص 304.
(4) المصدر نفسه، ص: 5.

أسهمت في خلق ذلك الشعور بالغربة لأول وهلة، لم يلبث حتى تراجع لتحلّ محلّه مشاعر أخرى خاصة لشاب ذي حس أدبي مسكون بشيء ما من روح المغامرة بحثا عن جديد مغر ممتع لذيذ «العشرة الحسنة للناس الذين رحّبوا بي في آفلو طمأنتني وبلغ بها الأمر أن شغفتني حبّا»(1).

بدأ يتكرّس هذا الاحساس الايجابي منذ ليلته الأولى في (آفلو) ضيفا على قاضيها الذي دعا آخرين ليكونوا معه على مائدة الطعام اكراما، وهي من عادات الجنوب الجزائري تعبيرا من جهة أخرى أيضا عن روح الكرم التي هي أصيلة في الانسان العربي عموما. وقد بقي طعام تلك الليلة في دار القاضي ذكرى جميلة لدى الكاتب «اني ما أزال أحلم بكسكسي آفلو اليوم»(2) فسجّل بودّ ظاهر إلى جانب صفة الكرم انطباعه عن شخصية قاضي المدينة هذا في هيئته وملامحه» أكثر ما لفت نظري كان سلوك سيد القوم الذي ينمّ عن مهابة وطيب محتد وعن روح اسلامية، فكان القاضي شيخا كبيرا جميلا ذا وجه مستدير، يلبس عمامة من نوع (تباني) تدع جبينه محدودبا احديدابا وسطا يظهر من تحتها. كانت نظرته واضحة تحت حاجبين غليظين أبيضين وكان ربعة ويداه تمتلئان لحما مثل يدي شيخ سليم صحيح، ويمكن أن نقول: كانت لبسته أنيقة جدا، (برنسان) جميلان منسوجان نسجا دقيقا ناعما فوق (قندورة) من الجنس نفسه... بقي القاضي في معزل عن ضيوفه أثناء الطعام، ثم أكل في الطبق نفسه بعدهم، وكانت هذه سمة كرم نقلها الزمان في دمه خلال أجيال وأجيال»(3).

كما صور الكاتب من البداية تواضع هذه الشخصية صوّر كرمها ومكانتها المادية والمعنوية وقدّمها على أنها شخصية ذات اعتبار بمكانتها الاجتماعية والدينية.

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(2) المصدر السابق، ص 306.
(3) المصدر السابق، ص 307.

في هذا المحيط الانساني الوديع النظيف حلّ في نفس الكاتب شعور بالطمأنينة والسلام، جعله يحسّ أنه يعيش حلما لذيذا وقد اكتشف في منطقة من الجنوب الغربي شيئا جديدا «شعرت منذ تلك العشية أني أعثر على جزائر ضائعة مفقودة... كنت في عالم احلامي، ولقد نسيت منذ العشية الأولى أنه يقال (واه) حولي وأخذت أحب ذلك العالم»[1].

نقل الكاتب صورة حيّة عن حياة الانسان الجزائري في الجنوب الذي عبّرت عنه هنا منطقة (آفلو) بطبيعتها العذراء ولطف إنسانها وعاداته المختلفة التي يأتي الاهتمام الخاص بالضيف منها، فللضيف بيت يستقبل فيه، ويتناول طعامه ويجد فراشه، كما أنه حين يحلّ بالمكان لمدة تقصر أو تطول يصير ضيفا على الجميع خاصة ممّن قربوا منه، ويتحوّل الأمر إلى واجب غير قسري عليهم وغير مدوّن إلا في الذاكرة الشعبية والسلوك الاجتماعي، ولن يكلف الضيف نفسه شيئا من مشقة التدبير لأمر طعامه إلا بعد قيام الجميع حسب المستطاع بذلك الواجب. لكنّ الكاتب يضيف هنا عنصرا جديدا غير شائع كثيرا هو إصرار قاضي المدينة على أن يكون الرجل ضيفه الدائم من دون حرج، وهو ما أحسن الكاتب التعبير عنه بوضوح ودلالة على تلك الروح الانسانية التي تعمر قلوب الناس:

«منذ نهاري الثاني غدوت ضيف أعضاء المحكمة جميعا وبعض وجهاء المركز الواحد تلو الآخر. وعندما نفذت قائمة الدعوات جاء السيد عمر، ولد القاضي الذي يصيخ له الناس اصاخة عظيمة فأخذني من المحكمة عند الزوال دقيقة بدأت أشغل نفسي بإيجاد وسيلة ما لتلبية حاجتي إلى الغداء في تلك القرية حيث لم يكن خان ولا مطعم. ومنذ تلك اللحظة غدوت النزيل الضيف على بيت سفرة الشيخ ابن عزوز الذي كان يحمل بفخار تقاليد الكرم... ولا يفوتني أن أذكر أني سرعان ما صرت صديق ولده

---

(1) المصدر السابق، ص 308.

السيد عمر وكانت صداقتنا كالعروة الوثقى لا انفصام لها، في ساعات الطعام كنا نولي وجهنا شطر الدار من غير أدنى تكلّف كما كنت أولي وجهي شطر داري في تبسة، كان ذلك كذلك عظمة من غير كلمات معسولة ولا آيات تضخيم وتعظيم»[1].

ويستنتج من هذا أن ظاهرة الكرم هذه جزء من شخصية الانسان في المنطقة تعطي حياته نكهة خاصة، لا يفتعل ذلك ولا يمارسه رياء أو تملّقا بل يراه واجبا محببا يلتصق بوجوده وحياته ويسعد به، وهذا ذو ارتباط وثيق أيضا بالخصال العربية منذ العصور القديمة. كما تبدو ظلال الحياة العربية القديمة نفسها أثناء جولة قام بها فريق المحكمة في البادية حيث يزداد عنصر الكرم وضوحا في عين الكاتب نفسه «يبلغ ذلك الكرم درجة مثيرة تحرّك النفس أحيانا، فقد رحلت المحكمة يوما مع القاضي الشيخ ابن عزوز والرّهط الذي يكوّنه أعضاؤها. كانوا يجتازون مروجا مخضوضرة وسهولا تغطيها الحلفاء يتغدّون هاهنا ويتعشّون وينامون هنالك، وحيثما كنا نستقبل كان الضأن المشوي بكامله على نار الحلفاء ظهر مساء، وكان الظرف ولا سيّما العشية يفسح المجال لمجتمع تحت خيمة شيخ القوم، وفي السهرة بعد إذ أكل الرعيان معنا المشوي و(الكسكسي) برقة الأسياد بدأ الشيوخ والشباب في قصّ النوادر والملح... وكانوا جميعا قاصين يأتون بالقصة على وجهها»[2].

وكثيرا ما تكون تلك القصص أو الحكايات ذات طابع شعبي اجتماعي لتزجية وقت في التسلية والترفيه مع «غاية أخرى وراء ذلك: ربّما كانت ترسيب معرفة أو تأصيل قيمة انسانية أو تأكيد مثل اجتماعي أو أخلاقي»[3]. وهو ما يجد صداه في النفس الانسانية ذات الاستعداد الخاص

(1) المصدر السابق، ص 310.
(2) المصدر السابق، ص 317.
(3) الحكاية الشعبية، الدكتور: عبدالحميد يونس، ص 84، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ـــ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، من دون تاريخ.

لتلقّف ما يجود به خيال القاص في إشباع حكايته بحكمة هنا ومثل هناك مفسحا المجال أمام عناصر غيبية تتدّخل، فتتجاوز طاقة الانسان الذهنية وقدراته العقلية وهو ممّا هيأ لواقع الدروشة قديما وحديثا، وقد لمس الكاتب جانبا من هذا في تنقله عبر بادية (آفلو) عموما حيث تكرّس الخضوع «للروح المرابطية بأشكال مختلفة» كان الشيوخ المرابطيون يأتون على كل زكاة المنطقة التي كانت غنية جدا وكريمة جدا»[1].

وقد استغل المشعوذون الطرقيون كما وصفهم الكاتب في رحلته هذه طيبة الانسان البدوي التي صارت غفلة في غياب مناخ صحي ينمو فيه وعي فكريّ ثقافي اجتماعي، وتنافسوا في ابتزازه حيث ذكر الكاتب أن النّاس كانوا «يشهدون في آفلوا كلّ عام وصول موكب القادرية المهيب الضخم، راياتهم منشورة وعلى رأسهم ولد شيخ الطريقة... وكان رجلا يتخبطه الشيطان من المس يعرف أن يبتزّ من سرعة تصديق الجمهور.... وكان ثمة شيخ مرابطي آخر يأتي من الأغواط حيث اختار مقامه، وكان يمثل الرحمانية طريقة قاضينا الفاضل، وكان مشعوذا أدهى وأمكر وأمرّ من الأول، فكان يعرف كيف يستولي على خيال معتنقي طريقته المريدين بأساليب بسيطة»[2].

أعطى الكاتب انطباعه السلبي هنا على هذه الأساليب المنحطة للاستغلال والتضليل، واسهامها في ابقاء الانسان قابعا في التخلف، تلك الأساليب التي وجدت في طيبة ذلك الانسان الرّيفي حقلا خصبا ممّا هيأ جوّا كاد يجعل من كاتب هذه الرحلة نفسه (مرابطا) كما يقول: «كدت أنا نفسي أتخذُ شيخا (مرابطيا) في منطقة آفلوا، فبينا كنا في رحيل يوما جاء رجل.... يقبّل ركبتي وربّما كان ذلك للبستي الغريبة الفريدة»[3].

---

(1) مذكرات شاهد القرن، مالك بن نبي، ج1، ص 323.
(2) المصدر السابق، ص 323 — 324.
(3) المصدر السابق، ص 326.

كل ذلك كان يجري بعيدا عما كان يتفاعل من مجريات الحياة في (قسنطينة) بفعل الحركة الاصلاحية فيها «فالهرج والمرج اللذان بدآ يتكوّنان في منطقة قسنطينة لم يكونا بعد مسّا منطقة وهران... ولم يكن الشيخ الابراهيمي وصل بعد إلى تلمسان، وأظن أني أنا الذي أدخلت العدد الأول من مجلة الشهاب إلى آفلو حيث كنت أقرأها مع السيد عمر ولد القاضي الذي لا أنسى أنه لم يكن يتقبّل محتواها كلّه بقبول حسن»[1].

من هنا وفي دوامة من المشاعر والأحاسيس المختلفة التي كانت تتفاعل في نفس الكاتب قرّر أن يسهم بقسطه في انارة الرأي العام ذي الاستعداد الخاص أيضا لقبول النصح الصادق، ولو بكلمة توجّه فلاّحا، كما حدّثنا عن ذلك وهو يستعدّ لانهاء كلامه عن رحلته في منطقة (آفلو): «كنت أخشى أن يجيء المستعمر إلى منطقة آفلو يعيث فسادا في تلك العجينة الانسانية الطيبة التي تنطوي على سذاجات وخامات بدوية وفضائل عظيمة أيّما عظمة... فعزمت على بذر الخوف أينما ولّيت وجهي وحيثما رحلت، وبين المشوي... و (الكسكس)(*) كنت أسرد نظريتي للمضيف الذي كان يحتفي بنا، وكانت تلك النظرية بسيطة:

ــ يجب أن تحرث أكبر مساحة حتى توجد حقّك في الأرض التي تملّكك إيّاها الطبيعة التي تنبت العشب والكلأ الضروري لقطعانك. وكنت أقول للمضيف: يجب عليك أن توجد حقك الاجتماعي في الأرض التي تصبح هكذا ملكك الشخصي وشيئا يرثه ولدك.

كان المضيف على وجه العموم يصاب بالدهشة من سماعه حديثا كهذا عن طبيعة حقه في أرض لم يجادل فيها أحد أجداده وأسلافه خلال

---

(1) المصدر السابق، ص 322 ــ 323.

(*) أثبت هذه الكلمة حسب وضعها في النص، فهي ترد أحيانا «الكسكسي» وأحيانا «الكسكس».

الأجيال. وكنت أدفع نظريتي حينذاك أبعد، فأقول: والاّ فالمستعمر سوف يجيء يحتلّ الأرض التي تضرب هذه الخيمة عليها، وأنت سوف تضطرّ إلى الرحيل من هنا، لأنك لست ملاّكها في نظر الحقوق الفرنسية.

وما كنت أدري أكان لنظريتي أساس من الصحة في الحقوق المدنية، ولكن ما كان يثير اهتمامي انّما هو أثرها في من أتحدث معه. وكنت أدرك وأنا مرتاح مغتبط أنها كانت تلقي الرعب في قلبه وتعكسه على وجهه.

وقد حدث لي أن أبذر ذلك الرعب في الذّهاب وأن ألحظ أثره في الاياب أثناء الرحيل بعينه.

فكنت أسرد نظريتي في الذهاب وأجد مضيفنا بعد أربعة أيام أو خمسة يحرث الأرض»[1].

وهو موقف أملاه على الكاتب حبّه لهذا الانسان في البادية، ووطنيته واخلاصه في ذلك، وهذا إضافة إلى مقته الاستعمار الذي لم يعد يخفى عليه انه كلّه شرّ.

ولم يضف الكاتب بعد ذلك في هذه الرحلة إلا بضعة جمل عبّر فيها عن شوقه إلى الأهل في (تبسة) وأجوائها وهو يفكر في الرجوع إلى هنالك.

جاءت هذه الرحلة إذن خلاصة تجربة للكاتب في منطقة (آفلو) حيث قضى سنتين اثنتين، لم يسجّل فيها يوميات لكنّه شدّ إلى ظواهر مختلفة، وعادات وتقاليد بارزة عرفت بها المنطقة، فأعطى انطباعاته العامة عن ذلك بعمق انساني جذاب، فوصف المنطقة الخصبة الغنية بمواشيها، الطيبة الكريمة

(1) المصدر السابق، ص 327 ــ 328.

بانسانها، الوديعة في كلّ ذلك حتى درجة السذاجة التي أتاحت للشعوذة النجاح، فخشي الكاتب لذلك نجاح المحتل الفرنسي أيضا عند التوغل هناك بأجهزته ورجاله من المعمّرين الشرهين.

وهذه الرحلة من أمتع الرحلات وألذّها، لدفئها الانساني وطابعها ذي العلاقة الحميمة بالأرض الطيبة والانسان الذي لم تشوّه حياته قيم المدن السطحية، وعلاقاتها الناهضة على أشكال من الرياء والنفاق، وهو تصوير فيه إفادة لرجل التاريخ وكثير من الغنى لعالم الاجتماع باحثا ومقارنا، حيث التحمت ملامح البيئة في ثرائها وعطائها بملامح الانسان بغناه الروحي والمادي وكرمه الواسع وطيبته غير المحدودة.

وإذا كان «الموضوع الذي يعجز تماما عن توصيل انفعال إلى أيّ شخص لابد أن يكون... عديم القيمة وبالتالي لا يكون جديرا بالكلام عنه»(1) فان الكاتب هنا على العكس من ذلك تماما، قد نجح في نقل انفعاله بهذا المحيط أرضا وانسانا، فأشركنا في معايشة خاصة لمسار رحلته، بشكل يجعل القارىء ينفعل بالجو الذي جرت فيه الرحلة كما ينفعل بردّ الفعل الايجابي لدى المؤلف في احتكاكه بالمحيط في بيئة صحراوية عذراء لم يلحق روحها أذى وما أصاب طبيعتها تشويه في تفكير وسلوك أو غيره.

بدت هذه البادية كما وصفها الكاتب خاصة أثناء تنقّل المحكمة خارج قرية (آفلو) بادية عربية أصيلة، في عاداتها وتقاليدها، حيث يضحّي العربي بآخر شاة له اكراما للضيف، وقد اعتبر الكاتب «ظروف ذلك الترحّل جميعا عيدا لي» مستمرا بالانتقال من مكان الى آخر، ويقدّم من ذلك مشهدا مؤثرا من خلال حركة من مواطن اغتاظ من تجنّب فريق المحكمة ــ المتنقل ــ

---

(1) النقد الفنّي، دراسة جمالية وفلسفية، جيروم ستولنيتز، ترجمة: دكتور فؤاد زكريا، ص: 259، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة ثانية، بيروت، 1981م.

المبيت عنده، فعمّقت تلك الحركة بعدا من الأصالة العربية البدوية كما أثرت تجربة الكاتب الشعورية والفكرية في تعامله مع هذا المحيط «فالقاضي يسأل رهطنا أن يولوا وجوههم عن مضرب الخيام حتّى نتجنّب المبيت فيه ففعلنا، وما كنت أفهم السبب، فإذا بفارس جاء من مضرب الخيام يتتبع أثرنا يسابق جواده الريح، فحيانا وخاطب القاضي قائلا:

ـــ ياه يا شيخ ابن عزوز مضرب خيامنا إذن مقبرة تجتنبونها..

كان الرجل في الأربعين ذا هيئة تنمّ عن حسب ونسب على جواده الذي لا رحل له. ولم يكن صوته محتدا حانقا بل كان يعبّر عن الملامة، فرأيت الشيخ في موقف حرج جعله يستجيب قائلا:

لا ! لم نتجنب مضرب خيامك حتى لا نجيء إلى خيمتك ولكن لأننا نستعجل العودة ونعلم أنك تحتجزنا فتمنعنا منها، فأمسى الرّجل حازما وقال:

ـــ أرجوكم أن تعودوا أدراجكم لقضاء الليل تحت خيمتي. فأطاع الشيخ ولم يعص له رجاء، فتبعناه.

وإدراكا لدلالة المشهد سألت في الطريق عون المحكمة الحاج(*) محمد الذي كنت أرجع إليه بين الفينة والأخرى في أشياء المنطقة وأهاليها فقال لي:

ـــ كان ذلك الرجل يملك قرابة خمسة آلاف من الأغنام، ولكن وباء حلّ منذ عامين ذهب بعشر قطيعه، وكنّا نريد اجتناب خيمته حتى لا نكلفه نفقات فنزيد في الطنبور نغما ونزيد الطين بلة.

(*) في الأصل (الحج) ولا وجه لذلك، لعلّه خطأ مطبعي، وهو أغلب احتمال.

استقبلنا الرجل أميرا تحت خيمته التي تشهد على الثروة الماضية، فأدلى كلّ بدلوه في الحديث وما كان قبالتي أن أموت في المحاكم تلك الفترة، وكان مشروعي الا وسترالي ما يزال يأخذ برقبتي، فتحدثت إذن عن مشروعاتي الخيالية الوهمية، فمضت السهرة من قصة إلى نادرة.

وعندما كنا على وشك الارتحال في الغداة كما جرت العادة بدأ الشيخ يعد نفسه ليمتطي صهوة جواده، فتدخل مضيفنا وقال:

ـــ لا، وآلله! لن تسافروا، فستغدّون لديّ.

فلم تجد أية ذريعة من لدنا فتيلا، وكانت الغداة تملأها الشمس والبقعة مملوءة أودية، وكنت أود لو أخرج من حول مضارب الخيام وأتيه قليلا في ذلك الريف الذي لم تطأه قدم المستعمر بعد. ولم يقلب محراثه الأرض التي كانت ما تزال بكرا عذراء.

وخروج المضيف مع ضيفه انما هو سمة أدب ولياقة وأنس ولطف، وهو طابع أريافنا جميعا، فخرج مضيفنا معي إذن، تهنا معا بين أكوام الحلفاء ونحن نتحدث فإذا بمضيفي يقول:

ـــ أتريد أن تأخذني معك عندما تسافر إلى أورستراليا؟

وها هو ذا يبحث هو أيضا عن أفق بعيد ويؤمن بوهمي.

وشرح الحاج محمد لي أنه لم يبق له الاّ عشرة خراف، وأنّه ضحّى اثنين منها احتفاء بنا.

ففهمت مأساته، ومأساة ذلك المجتمع البريء الذي ما يزال لا يعرف الشر معرفة بلاء وخبرة»[1].

لقد وصف (مالك بن نبي) في رحلته هذه جانبا من الحياة في البادية الجزائرية، وتركز وصفه بشكل خاص على الانسان: عادات وسلوكا

---

(1) مذكرات شاهد القرن، (ج1) مالك بن نبي، ص 318 ـــ 320.

وتفكيرا. واتّسم هذا الوصف بالحيوية مكتسيا طابعا اجتماعيا بخلفية سياسية، فاعطانا في النهاية صورة معبّرة عن بعض الجوانب من الحياة الاجتماعية في منطقة (آفلو) بكل امتداداتها وظلالها، كما أعطانا جانبا من صورة عمّا كان يشغله هو من هموم وطنية واهتمامات شخصية. نقل ذلك بحسّ الأديب وروح السياسي الذي يعتنق الفكر الاصلاحي، ويناهض الاحتلال والمحتلين.

الرحلة الثانية في الداخل التي قام بها (مالك بني نبي) كانت صيف (1932م) من (الجزائر) العاصمة إلى (تبسة) في عودته من (باريس) حيث يسجل من البداية ملاحظته عن عاصمة الوطن وسكّانها «لم يكن الجزائري يشعر في العاصمة عند وصوله إليها أنه في منزله وعقر بيته، إذ كان القوم بالأحياء الشعبية يتكلمون فيها لغة هجينا من مفردات عربية واسبانية وفرنسية، أما في الأحياء الأخرى فيتكلمون اللغة الفرنسية»(1).

لكن الأمر الذي لفت نظر الكاتب هو ما هنالك من ملامح تغيير ابتداء من تعامله مع (الشيال) الذي اكتشف أنه من مريدي (الطيب العقبي) وكذا اللافتة التي رآها تحمل اسم (نادي الترقي) مما كان يعني «شيئا واحدا هو أن موجة الاصلاح قد وصلت إلى هنا»(2).

وقد أتى هذا الانطباع بعد نحو خمس سنوات من افتتاح (نادي الترقي) ونحو سنة من اعلان تأسيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في رحابه ، وقد بات الاقبال على التعليم ظاهرة واضحة لفتت نظره وهو يسعى لالتقاء (العقبي) في (نادي الترقي) حيث يقول «فوجدته في درسه اليومي وسط حلقة أكثرها من عمال الميناء ومن صغار صيادي السمك، بينهم بعض وجوه

---

(1) مذكرات شاهد القرن، الطالب (ج 2) مالك بن نبي، ص: 81، ط 1، بيروت (لبنان) 1970م.
(2) المصدر السابق، ص: 82.

الجزائر من الأسر القليلة التي انضمّت تحت لواء الاصلاح، في الوقت الذي كان فيه يعرّض نفسه لسخط الادارة خصوصا إذا تبّرع المتبرّع بماله لـ (مدرسة البنين) التي كان يديرها الشاعر الجزائري الكبير حمّ العيد(*)، وكان الأبناء يؤمّونها كلّ يوم، بينما يؤم آباؤهم كل مساء حلقة الشيخ العقبي»[1].

وهكذا وهو يصف إحساسه من (الجزائر) العاصمة حتى (تبسة) ندرك من البداية ان جوّ الاصلاح بطابعه الثقافي العام هو السمة التي طبعت رحلة الكاتب، واستقطبت الحركة الاصلاحية مختلف فئات الأمة المسلمة الجزائرية، فانضوى «تحت لواء الاصلاح حتى عرابدة تبسة ومدمنوها العاكفون على الخمر»[2]، وقد احتل (نادي الشبيبة الاسلامية) في (تبسة) موقعا في «الميدان الرئيسي حيث أصبح يزاحم المقاهي الأوروبية الكبرى، وبالتالي كانت الملامح الاجتماعية كلها تتغيّر في المدينة»[3] فتسربت فكرة الاصلاح حتى إلى صفوف الطرقيين، وكما وصف الكاتب ما أخذ يعتري الحياة في المدن من تغيّر وصف الطريق التي كان يعبرها القطار من العاصمة إلى (تبسة) حيث كان ينتظره أبوه وزوج أخته: «استمر القطار يدفدف عبر سهل تبسة حيث لا زال في تلك الساعة بعض الفلاحين يقيمون حصادهم أكواما صغيرة ينقلونها على ظهر البغال والحمير، بينما كانت المواشي ترعى في الحقول المحصودة... بينما الهدوء والسكينة تخيّم على هذا المنظر العتيق.

وكنت أشوق ما كنت لأرى أمّي... فوجدت والدي في انتظاري بالمحطة مع بعض أصدقائه. وعندما تولّينا مثل العديدين نحو المدينة... كانت أفكاري وصهري يواصل الحديث كأنها ترقص في أحشائي من الفرح لأن كلّ شيء كان بخير والحمد لله»[4].

(*) (محمد العيد آل خليفة) الشاعر المعروف (1904 — 1979).

(1) المصدر السابق، ص: 83.

(2) المصدر السابق، ص: 90.

(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(4) المصدر السابق، ص 85.

امتزجت هنا فرحة التقاء الأهل بفرحة العودة إلى الوطن حيث لاحت فيه معالم تغيير يسهم فيها فكر اصلاحي على أرضية تعليمية ثقافية أساسها العربية وعلوم الدّين وصلتهما بحياة المجتمع. وقد مضى ذلك يجتذب العناصر الوطنية من أبناء المدرسة الفرنسية نفسها الذين كان منهم (مالك ابن نبي) وكذلك صديقه (حمود بن السّاعي) الذي أقدم على القاء محاضرة في (نادي الترقي) في تلك العطلة الصيفية بعنوان (السياسة والقرآن) فأثلجت صدره وكان لها صداها، وقد حضرها (الطيب العقبي) نفسه، فسجل (مالك بن نبي) هنا في المناسبة ملاحظة في آخر رحلته هذه عبّرت عن حرصه الشديد على ضرورة الثقة في النفس شخصيا ووطنيا والتشجيع الضروري للتمكين لتلك الثقة كشرط لأية إضافة ابداعية في مجال التفكير والتعبير كما هو الشأن بالنسبة لغيرهما، فقال يعلق على رأي العقبي في محاضرة صديقه (بن الساعي) خلال هذه الرحلة: «صدمة صغيرة عكّرت سروري عندما سألت الشيخ العقبي ففاجأني برأي غريب: انني لا أعتقد أن هذه المحاضرة من تحرير حمودة بن الساعي ولا من بنات فكره، فبعض جملها سبق وتكرّر على مسمعي كأنني طالعتها في احدى المجلاّت الشرقية.

لم أكن قد عرفت بعد أنها حالة مرضية تعتري غالبية حاملي الثقافة عندنا، فان كانت ثقافتهم تقليدية فمثلهم الأعلى في الشرق، وان كانت عصرية فمثلهم في فرنسا. وبالأخرى لم أكن أعرف أن هذه الحالة المرضية تعتري كل مثقفي العالم الاسلامي، إذ تراهم يعانون مركب نقص نحو الثقافة العربية وانما تمتد عندنا هذه الحالة ازدواجية بسبب ما يعاني الشباب الجزائري تجاه طه حسين من ناحية وتجاه فرانسوا فانون من ناحية أخرى، لأن التكوين غالبا ما يكون أدبيا. وهي بالتالي ظاهرة عامة: ان كلّ مجتمع فقد حضارته يفقد بذلك كلّ أصالة في التفكير أو في السلوك أمام أفكار الآخرين»(1).

---

(1) المصدر السابق، ص: 97.

وهكذا عكست هذه الرحلة الانتعاش المطّرد في الحياة الثقافية والفكرية حذو المد الاصلاحي في مطلع الثلاثينات، كما عسكت هموم الكاتب الخاصة والوطنية وأشواقه المختلفة في أسلوب تراوح بين السّرد الخاص بأحداث، والتصوير لمواقف، وهو ينزل أمتعته من الباخرة في ميناء الجزائر، وهو يتأمل ريف (تبسة) أو يغادر القطار، ويعانق في شوق وحنين خاصة مدينة (تبسة).

أما الرحلة الثالثة فهي تلك التي يصف فيها مشاعره وأحساسيه من (عنابة) إلى (تبسة) عائدا من (باريس) صيفا أيضا سنة 1933، وصف (عنّابة) التي بدت له منكمشة في عزلة عن الاصلاح، كما وصف (تبسة) التي اطّرد انتعاشها: ثقافيا واصلاحيا وسياسيا، مثلما وصف وصفا أدبيا ممتعا الطريق بين (عنابة) و (تبسة).

ومن البداية تعمّد «جسّ نبض عنّابة» كما قال التي بدأت تفقد حسّها الوطني والديني، تدمن الكحول، وتستسلم للاغتصاب الاستعماري «كان السّكون يخيّم تحت سمائها، لا تتحرّك تحته العاصفة التي اجتاحت معظم نواحي قسنطينة، ولا يهبّ تحته روح الاصلاح كأنه لم يصل إليها بعد، بل ما زالت الطرق الصوفية منتشرة فيها»[1].

هذه الوقفة في (عنابة) جعلته يخرج بانطباع يصوّرها مدينة لحقها كثير من التشويه، فلا هي حافظت على طابعها، ولا التقاليد الأوروبية تأقلمت فيها، بل ان التقاليد الأوروبية نفسها تتصدّع في اصطدامها بتقاليد أخرى محلية، وهو ما نقل الكاتب صورة منه في حديثه عن موظف فرنسي استأجر سيارة لعودته إلى (تبسة) من (عنابة) صحبه فيها الكاتب كفرصة «بفضل السائق الجزائري، فبدا لي منذ أوّل لحظة ما يشذّ في سلوكه بالنسبة

---

(1) المصدر السابق، ص: 119.

للذوق الفرنسي، إذ رأيته يركب جانب السائق لا تواضعا ولكن كبرياء، مثل عالم من علماء الاصلاح الجزائري، لم يتواضع أن يركب معي من خلف، ثم بدأ يكلّمني في وضع غير مريح، فيضطر للالتفات، ثم كلّما تعجز العبارة عن أداء فكرته أراه يكملها بحركات جسده، حركة اليد والرأس وحتى الرجل، فكانت الملاحظة تلفت اهتمامي لدور الحركة كوسيلة تعبير في سنّ الصغر وفي أوساط متخلّفة بحيث كان السيد الموظف في نظري أثناء السّفر صورة لتخلّف الوسط الاستعماري بالنسبة إلى سير الحضارة الغربية نفسها»(1).

ثم بدا ان الصمت لم يلبث عبر الطريق إلى (تبسة) حتى ساد في السيارة بين ركابها الثلاثة مما أفسح المجال أمام الكاتب لتأمل الطبيعة حوله، وامعان النظر في فضائها الواسع حتى بدت كلوحة زيتية تأسر النظر وتداعب شغاف القلب، كما تبارك الجهد والجد وحبّ الأرض التي أخذ الاستعمار أجودها وترك لابن الوطن غيره، فلم يبخل في رعايته بجهده وعرقه، بنظرة باسمة، يغذوها حبّ الأرض والأمل في المستقبل «كانت السيارة تسرع وتعرض ذات اليمين وذات الشمال مناظر الطبيعة الصيفية بينما كان السائق في شغل مع طرف من عمامته مصممة لكي يرفعها بيد على جبينه فتسقط مرّة أخرى على عينيه. ان الوجود الاستعماري ينتهي مع الاقطاعات الكبرى الممتدّة من سهول (عنابة) إلى تلول بوشقوف، ثم من سوق أهراس تبتديء حقول صغيرة يمتلكها مع بضع القطعان من المواشي الصغيرة من غنم ومعز الفلاح الجزائري الذي يسكن أكواخا سقفها من الديس منفردة أو متجمعة على هيأة مداشر وقرى صغيرة لم يكن يصلها ببعضها البعض سوى مسالك لم يعبّدها الا حافر البغل والحمار، وتصلها الآن سيارات سيتروان التي تولت مسؤولية التعبيد والتوسيع لتلك الدروب بعجلاتها.

---

(1) المصدر السباق، ص: 121.

ثم رويدا رويدا ينتهي مجال النبات وتنتهي الغابة الكثيفة من شجر الزين إلى شجيرات من الصنوبر، قليلة ضئيلة، موزّعة هنا وهناك، ومنذ قرية العين الصافية يتغير المنظر تماما، ويترك الكوخ مكانه إلى بيت الشعر، وتنتهي الحياة المستقرّة العمرانية التعيسة تعقبها حياة الأجداد الرحل.

لقد احتفظت حياة الرحل على عكس حياة سكان الأكواخ بكل كرامتها رغم مضايقة العمران الاستعماري لها من ناحية الشمال، وزحف الصحراء عليها برمالها من الجنوب، فاحتفظت على الأقل بكرامتها وجمالها في جوّ غامر من الإيحاء الشعري تُبرِزُ فيه كصور للجلال والسكينة الجمالَ ذا الخطوات الهادئة كأنها موزونة على نسق حياة لا تقدر بالدقائق والثواني. وفي هذه اللوحة الزيتية ترى الناس مشمرين في السّهل يجمعون حصيلة حقولهم، حصيلة قليلة من شعير وقمح اغتصبوها بكدّهم من أرض فقيرة عقوق، ولكنّهم سيعودون بعد حين عند غروب الشمس إلى منازلهم حيث تنعقد بعد العشاء حلقاتهم للاستماع إلى ذكريات القبيلة التي تناقلتها عن الجدود»(1).

وهكذا، عمدت إلى عرض النص بطوله هذا كي يتجلّى لنا ذلك الالتحام الرّوحي بالأرض والانسان في نظرة ذات ظلال رومانسية من جهة، وكي تتأكد لنا من جهة أخرى طبيعة النظرة لتلك الأرض وذلك الانسان بعد غياب يجعل العائد إلى وطنه يحسّ بشوق خاص إليه، وحبّ متميز تبرز له فيه حتى الأشياء الصغيرة التي لم تكن تلفت النظر في الطبيعة وفي حياة الناس، وهذا يعكس من دون شك أصالة الكاتب وروحه الوطنية، فلا يشتاق إلى وطن ما ويحبّ انسانه وأرضه من لا يحبّ ذلك الوطن وانسانه.

---

(1) المصدر السابق، ص: 122 — 123.

«ان هذا الجو يأسرني أيضا كلّما أرجع من غيبة طويلة... إن مدينة تبسة تتجلّى أكثر للمسافر عندما يأتي عن طريق سوق أهراس، من الاتجاه الذي تأتي منه قوافل الصحراء لأنه يراها بأكملها مسطحة تحت جبل بورمان»(1).

فينقل عند الوصول صورة الأطفال وهم يهرعون إلى بيت العائد يعلنون وصوله، وكذا استقبال الأهل وفي مقدمتهم الأمّ بكل عطفها وحنوّها، ولا يلبث الكاتب حتى يلمس ذلك الاطّراد في التحول الذي كانت تعيشه (تبسة) فيقول: «لا أدري كيف يعبر اليوم بعض (التقدميين) في بلادنا الاسلامية عن هذا التحوّل الاجتماعي، لعلّهم يسمّونه (التقهقر)، كنت متعطشا تلك الليلة للاصلاح في هذا الجو المنقّى الذي لم تلوّثه بعد الجرائم المصالية ولا الأكاذيب الفدرالية، حتى أعلم ما أستطيع عمّا يدور فيه. فتحدّثنا على أشياء كثيرة تخصّ تلك المرحلة التي أصبح فيها الشعب يتخذ من كل حجر وسيلة لبناء مدارسه ومساجده وأنديته، ومن كلّ حطب عصيًا في وجه الاستعمار»(2).

ويندفع الكاتب يتحدّث بودّ وسعادة عن هذا التحول الايجابي في المدينة التي صار فيها (القمّار) مناضلا في حركة الاصلاح، كما أقلع عن الخمر بعض مدمنيها مطلّقين تشردهم واستهتارهم إلى حياة جدّ نظيفة، مما يعطي المدينة في عين الكاتب صورة وضيئة مبهجة، فيصف نتائج هذا الاحساس وصفا أدبيا نديّا في لحظة معينة من التأمل «كانت سماء تبسة تشعّ فوق رؤوسنا ونحن في الحديث جمالا مشرقا، ونجومها تصبّ في قلبي ابتهاجا لا أستطيع التعبير عنه»(3).

---

(1) المصدر السابق، ص: 124.
(2) المصدر السابق، ص 128 — 129.
(3) المصدر السابق، ص: 129.

والقول «لا أستطيع التعبير عنه» عكس من دون شك قوّة الشعور بتلك السعادة الغامرة التي عجزت المفردات في ترجمتها إلى الكلام.

وضمن هذا السياق من سمّو في المشاعر ودقّة في الأحاسيس يأتي الحديث عن حج والدته التي عادت من البقاع المقدّسة أكثر اشراقا وأبهى، وهي تقصّ عليه أخبار حجّتها بغبطة وسعادة غامرة شاركها فيها الكاتب ونقلها بأسلوب أدبي فيه مرونة وطـلاوة «كانت والدتي تختار في قصتها النبذة ذات الدلالة»[1].

وإذا تجلّت (عنابة) في هذه الرحلة قابعة في عزلة عن الاصلاح تكثر حاناتها وتكتظ، فان (تبسة) تعانق الاصلاح ويقلع عن الخمر مدمنوها بفضل عمل رجالها. وما كانت لترد هذه الرؤية للكاتب عن التقييم الواضح بهذا الجلاء لو لم ير المنطقة بعدسة جديدة، في اللقاء بالطبيعة والانسان معا، لأن حياته كواحد من العالم العربي الاسلامي في بيئة غربية صارت تبرز إلى عينيه كثيرا من الأشياء ذات الطابع الحضاري، وفي الحياة اليومية خصوصا، فيدرك فروقا تفرض عليه المقارنة وتجعله يتأمل صورة أو موقفا قديما كأنه يراه للمرة الأولى، أو يراه بعدسة جديدة.

وقد اكتست اهتمامات الكاتب طابعا سياسيا اجتماعيا من وحي المرحلة بخلفية ثقافية وتاريخية أيضا في الصراع الحضاري بين غرب محتل له أساليبه في الاحتلال وقيمه في الحياة، وشرق له أيضا أساليبه في المقاومة والكفاح للاحتلال الغربي ورفض قيمه في الحياة العامة.

وانصبّ الحديث خلال ذلك بشكل خاص عن الحركة الاصلاحية الفاعلة خاصة ببعدها الديني والثقافي عموما، ومهمتها الاجتماعية في توعية الناس ومكافحة الآفات الاجتماعية، بلغة أدبية ذات ارتكاز سياسي، اتّسمت برقة الشعور وحرارة التعبير.

---

(1) المصدر السابق، ص: 131.

عبّر الكاتب في هذه الرحلة داخل وطنه عن حنينه الدائم إلى وطن حرّ متطوّر، كما عبّر عن ميوله الاصلاحية ومناوأته لأساليب المزايدة في القيم الأخلاقية والوطنية التي تباع كما يقول «بالمزايدة الديماغوجية» الحزبية، فبدا موقفه إذن من الحركة الاصلاحية التي تزداد انتشارا في المجتمع الجزائري موقف المناصر المتحمّس العامل بأسلوبه الخاص على المستوى الفردي حسب الظرف والمناسبة.

والرحلة في النهاية صورة حيّة عمّا كان يجري في المحيط السياسي والثقافي والاجتماعي والجهد النضالي الذي كان يخوضه المفكرون والمصلحون، كما أنها صورة عن بعض من جوانب في فكر (مالك بن نبي) كما سبقت الاشارة وحسّه الديني والوطني.

أما رحلته الأخيرة هنا فهي: «في ضيافة ميزاب» التي جعلته يعود مرة أخرى إلى جنوب الوطن، فيصف في رحلته إلى (ميزاب) الطريق، كما يصف بعض الجوانب الاجتماعية والثقافية في المنطقة.

وقد حدّد الطريق إليها من العاصمة عبر (الجلفة) التي وصلها بالقطار، فوصف الطريق انطلاقا من العاصمة «فالمسافر يستطيع أن يشاهد في ساعات قليلة تلك المناظر النموذجية من التل ومن النّجود ومن الصحراء وهي تتلاحق أمام عينيه، انه الخط والطريق الذي يبرز ثرواتنا السياحية المختلفة، ولا سيما في هذا الفصل من السنة حين يمدّ الربيع زربية خضراء تغطي كلّ المناطق السهلية منها والجبلية، انه يقدم للمسافر طيلة الطريق مركبا من الزهور الرائعة المختلفة التي تحيّي المسافر وتستقبله وكأنّها فرقة شرقية»(1).

لكنه مع المضيّ في الطريق بعد (الجلفة) يتّسع الأفق أمامه حيث يذكر أن المسافر يحسّ لقلة العمران بشيء من الاغتراب وهو يقطع المسافة العارية

---

(1) مكانة الاباضية في الحضارة الاسلامية، إعداد: الدكتور محمد ناصر، مخطوط.

الخالية، وحين يصل، يشرع يتحدّث عن المنطقة ومدنها ودورها في الحضارة العربية الاسلامية في (الجزائر) كما يتحدث عن بعض المظاهر في الحياة العامة، والعلاقات الاجتماعية المختلفة، خاصة في المدن التي زارها، وفي مقدمتها (غرداية) فيتحدث عن بعض أعلام المنطقة في الدين خصوصا، وأثر (معهد الحياة)(*) الاسلامي في (القرارة) في النهوض بالحركة التعليمية في المنطقة، ودوره في حركة التعريب، فاتّصل عدة مرّات بتلاميذ المعهد، وأثنى على الشبيبة المجتهدة الحريصة على حماية التقاليد الأصيلة المتفاعلة مع قضايا العصر، كما أثنى على جدّ المواطن وتفانيه، وروح التكافل الاجتماعي في الأمور الخيرية والوطنية ذات النفع العام المشترك «ففي (العطف) حين تضررت الطريق المؤدية إلى غرداية بفعل فيضانات السيل، فان الشبيبة قامت على الفور باصلاح ما فسد، وفي (القرارة) حين تقرر بناء مسجد جديد قام الشباب على الفور بالعمل التطوعي، ان التطوع هنا من أهمّ قواعد العمل لاجتماعي»[1].

وهكذا أعطى الكاتب صورة معبرة عن انطباعاته الايجابية في المنطقة، كما أعطى صورة واضحة عمّا شعر به من متعة في معرفة المنطقة: طبيعة انسانا ووضعا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ودينيا بالخصوص، حيث يحكم لحسّ الديني علاقات الناس، فتخضع حياتهم لقيم اجتماعية في صالح الجماعة الفرد معا، يكون فيها الأمان النفسي والمادي في محيط صحي عام.

حلات توفيق المدني:

توفيق المدني من أهمّ الكتاب في فنّ الرحلة وأنشطهم، تعددت رحلاته لخارجية واتّسعت كما تعددت رحلاته الداخلية وتنوّعت، ضمَّ هذه الجزء

(*) أشهر معهد في المنطقة، درّس فيه أعلام، كما تخرّج منه الكثير من رجال الحركة الفكرية والدينية في الجزائر.

1) مكانة الاباضية في الحضارة الاسلامية، اعداد الدكتور محمد ناصر، مخطوط.

الثاني خاصة من كتابه (حياة كفاح)[1] وضمّ تلك الجزء الثالث منه[2] سواء في ذلك ما نشر قبلا في الصحف أو ما نشر لأول مرة في الكتاب بعد فترة من زمن الرحلة طويلة أو قصيرة يصل بعضها إلى نصف قرن.

في رحلاته الداخلية تنوّع الحديث باختلاف الدواعي لرحلاته، رحلات سياحية أو للقيام بمهمات ثقافية أو في اطار (جمعية العلماء) أو غير ذلك. في احدى رحلاته الأولى حين حلّ بالجزائر العاصمة للمرة الأولى قادما من (قسنطينة) يبرز التعبير عن حرارة اللقاء وقوة الأمل الممزوج بالحيرة والقلق، كما صوّر الكاتب ذلك وهو ينزل بمحطة القطار في (الجزائر) تعتريه مشاعر مختلفة، تلفه الحيرة ويبّرح به القلق و لم يجد قريبا له في انتظاره، ضاعف من ثقل هذا الاحساس رجل المخابرات الذي بقي يراقبه، فما كان من الكاتب إلا أن تجاهله وانطلق في أثر الناس نحو حديقة تسمى (ساحة بورسعيد) التي لم يكد يشرع في وصفها حتى انصرف إلى وصف معاناته «تتبعت خطى الناس حتى خرجت من المحطة.... فوقفت إلى جانب حديقة غنّاء باسقة الأشجار حسنة التنظيم أحاط بها سوار من المنازل الرفيعة المتناسقة، ورأيت من بينها مقهى حسن الهيئة بديع العرض وكان الجوع والأعياء قد نالا مني منالا فقصدت المقهى واستويت على مقعد وثير...»[3].

لكنه سرعان ما يلاحظ (الجاسوس) غير بعيد عنه، بل تجرّأ هذا ودعاه إلى (دار العمالة) كي يتعرّف عليه ضابط الشرطة، وهو ما أجّل الاستجابة إليه قبل اختيار فندق يستريح فيه قليلا. و لم يكد يخرج من الفندق

---

(1) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977م.
(2) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.
(3) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج2، ص: 25، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977م.

بعد الاستراحة حتى وجد في بهوه قريبين له مع صديق لهما في انتظاره فتغيرت الصورة كما وصفها بتغيّر الوجوه والمشاعر «وجدتني بينهم في سيارة فاخرة تجوب بنا طرقات المدينة، وأنا متعجّب لذلك النظام ومندهش لتلك النظافة، انما رأيتني وكأنني في باريس أو ليون لا في مدينة عربية ولا سكان عرب ولا شيء من الشّرق»(1).

فهناك الصورة الايجابية في النظافة ولكن هناك الأخرى التي جعلته يحسّ بتراجع الحياة العربية بكل امتداداتها وبروز الوجه الأوروبي في المباني وحياة النعيم للاستعمار، معه في ذلك فئة قليلة جدا من طبقة موسرة من المواطنين ممّن اطمأنّوا لودّ مصطنع تبديه فرنسا لهم، فتكسب ولاءهم أو صمتهم أو رضاهم، وهو مما شغل الكاتب في ليلته الأولى ضيفا على أقاربه (آل الموهوب) في «القصر الفاخر والرياش الثمين والزرابي المبثوثة والتحف الأثرية والأرائك المزخرفة.... جلسنا على مائدة حولها نحو العشرين من رجال العائلة ونسائها، وقدمت لنا أحسن الأطعمة في أفخر الأواني حتى خلت نفسي في بلاط هرون الرشيد أيام كان يقول في خيلاء للسحابة العابرة امطري حيث شئت فسوف يأتي خراجك»(2).

تلك الفروق الطبقية الصارخة بين فئة اجتماعية محدودة إلى جانب طبقة المحتلّين، وبين المواطنين المحرومين جعلت الكاتب يعبّر عن احساسه الشديد تجاهها بالضيق، وهو ان لم ينكر كثيرا بشكل مباشر على المترفين بذخهم فإنه استنكر الظلم وشظف العيش الذي تعانيه أغلبية «تمددت فوق السرير... وأخذت أدير في مخيلتي ذلك اليوم الأول بعاصمة الجزائر، وانقلاب الوضعية من رجل مشرد غريب يجب أن يتصل بالشرطة لتملي عليه ما تشاء من الشروط إلى (بورجوازي رغم أنفه) في قصر منيف بين أفراد

(1) المصدر السابق، ص: 27.
(2) المصدر السابق، ص: 27 — 28.

أسرة من أشرف الأسر وأكثرها .رفاهية وأوفرها جاها. وأخذت أتأمل الغرفة وما فيها وأذكر السيارة الفاخرةِ والألبسة الأنيقة، وما رأيته وما كان حولي من وسائل التّرف والنعيم. قلت في نفسي: بمثل هذا ملكت فرنسا البلاد ووطئت أكتاف العباد»(1). أما حين يخرج في جولة حول المدينة (العاصمة) عبر حدائقها وشاطئها فان المناظر تأسره بحسنها ورونقها، فيصفها وصفا أدبيا شائقا، عكس جمال طبيعة ورفاهية حياة تعيشها الطبقة الأوروبية المتسلّطة «خرجت مع رفقاء الأمس في نزهة حوالي المدينة، فكنت أنتقل من رياض غنّاء كأنها اقتطعت من جنّات الخلد، أخلدت إلى السكينة بين أفنائها وأغصانها قصور يدلّ ظاهرها على أنها من تراث الأجداد والأمجاد، إلى مقاصف رصّعت فوق رمال صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين حول ساحل بحر فيروزي متعدّد ألوان الأمواج، وقد تسرّبت إليه حوريات من البشر ألبسهن آلله حلل العافية والهناء، وأضفى عليهن جمال الطلعة وبهاء الوجوه واستقامة العود وقد تسربلن شعورا فضفاضة تتراوح ألوانها بين سواد الليل وصفرة الذهب وشعاع الشمس، كنّ يمرحن سابحات بين الأمواج تارة ومستلقيات فوق الرمال تارة أخرى»(2).

وقد خرج الكاتب بعد هذا الوصف الدقيق مباشرة بحكم قاطع يختصره قوله «تلك كانت حياة الجزائر سنة 1925» حياة بذخ وجمال ونعيم يرتع فيه الأوروبي بشكل خاص. وهو حكم يتضمن نتيجة قيّم فيها انطباعه عن الوضع عموما كما شاهده «الخير والرزق والبركة والنعيم والجمال والعمل والكسب والحكم والسلطان للأوروبي خاصة، مهما كان جنسه ومهما كان عمله، والبؤس والشقاء والحرمان والمرض والجهل والجوع والمهانة والعدم

---

(1) المصدر السابق، ص: 28.
(2) المصدر السابق، ص: 30.

للجزائري المسلم المسكين الذي سلب منه كل شيء حتى القدر الأدنى من الكرامة، واغتصب منه كلّ شيء حتى الشبر الأخير من الأرض المنتجة»(1).

ولم يهمل الكاتب بعد ذلك الحديث عن مظاهر التفسّخ والانحلال خاصة في أوساط الشباب اللاّهي من أبناء الأسر الموسرة من الجزائريين.

وصف الكاتب حياة الرفاهية والبذخ التي يعيشها الأوروبي في الجزائر هانئا منعّما، وتنال فئة قليلة من الجزائريين التّابع معظمها لادارة الاحتلال بشكل ما كثيرا من ذلك أيضا، فهو واقع ضجّ ظلما وفسادا لن تغيّره الفئة الجزائرية الغارقة في الرفاهية، لأنها سعيدة بوضعها راضية بمصيرها.

تركز وصف الكاتب على ابراز الحيف الذي لحق أغلبية مقهورة من المواطنين صامتة تعاني، إلى جانب طبقة أوروبية وفئة جزائرية محدودة تعيش في بحبوحة من النعيم.

لكن الأناقة في العمران والحياة وجمال الطبيعة تبقى تمارس فعلها في روح الكاتب وعلى مشاعره، فبدا لذلك في وصفه الطابع الرومانسي الرقراق، اتسم التعبير فيه بالطلاوة والسلاسة في تصوير المناظر والاحساس تجاهها. وان بدت الأوصاف مألوفة فإنها مع ذلك أوصاف تشعّ حركة وحيوية في تجسيد الصورة الخارجية في منظر أو موقف، في الافصاح عن الاحساس الداخلي تجاه ذلك في وضعه ونتائجه.

فالعاصمة الجزائرية في عين (توفيق المدني) الذي يراها لأول مرّة هي من جهة مدينة الجمال والبذخ والرفاهية والنعيم للأوروبي وفئة جزائرية موسرة، ومن جهة أخرى مدينة الانحلال والفراغ المؤذي للرجال والشباب

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الذي يجعلهم عبيد نزواتهم في حضيض التهتّك والاستهتار، ولا يجعل الجزائريين منهم رجال قضية يخدمون وطنهم. انتهى هذا الوصف بالكاتب آليا إلى مقارنة بين (العاصمة) و (قسنطينة) الجادة الفاضلة: «قسنطينة مدينة عزّ وشرف ومجد أمام هذا الابتذال الذي رأيته سائدا عميقا عند هذه الطبقة البورجوازية وفي قمتها أزواج بنات عمّي، لا أستثني منهم إلا المفضال الجليل سليل آل بن عمار الأندلسي السيد أحمد أبو الركائب، وقد كان أبعد الناس عن الفساد وأقربهم إلى المعرفة وأكثرهم انغماسا في الاصلاح»(1).

تراجعت صورة الجمال والحسن في المباني والحدائق وعلى الشاطيء أمام صورة قاتمة لمدينة اكتست طابعا أوروبيا، احتاج معه الكاتب إلى وقت لتفتح له فيها كوّة ذات يوم يتدفّق منها ضوء يملأ أرجاء الفؤاد أملا وبشرا عندما كان يجوب مرتفعات المدينة، فقال «سمعت أصوات صبيان كثيرين يردّدون سورا من القرآن الكريم. ماذا؟ أيمكن أن يبقى وجود لتلاوة القرآن وحفظه في مثل هذا الوسط الاستعماري الموبوء الفاجع؟ وفاجأتني الآية **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** وتتبعت الأصوات بنفس مطمئنّة وقلب منشرح، فإذا بي أمام باب مهلهل لمنزل يكاد يكون خربا، وقد ارتفعت فوق الباب لوحة رسم عليها بالخط العربي الجميل (مدرسة الشبيبة الاسلامية) يا آلله؟ هذا وجه جديد للجزائر العربية المسلمة، هذا مقام سجود وعنوان خلود، وجدت نفسي منساقا من حيث لا أدري إلى ولوج ذلك الباب... كان نحو المئة من صغار الطلبة بين ذكور واناث يحتلون مقاعد الغرف حول مكاتب مدرسية حديثة، ويتلقّون عن شيوخ أجلّة القرآن وعلوم الدين وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف... هذا هو المستقبل الذي كان بالأمس مجهولا لديّ، فإذا بي أراه الآن قائما على قدميه، هذه هي حياة الغد، هذه هي نسمة المستقبل... هناك رأيت الجزائر الخالدة وجها

---

(1) المصدر السابق، ص: 32.

لوجه، هنالك رفع آلله عن عيني غشاوة عابرة، فرأيت المستقبل باسما زاهرا سعيدا، هنالك وهنالك فقط لا في قصور ذوي الثروة والجاه، ولا حول موائدهم السخية الدسمة عرفت الحقيقة وعرفت الشعب وعرفت المآل»(1).

تعدّل هنا ذلك الانطباع الأسود الذي نعقت في سمائه غربان اليأس، وصدحت بدلها في الفؤاد بشائر الأمل والثقة في المستقبل الوضيء الناهض من أعماق هذا المحيط بظلاله الحضارية التي جسّدها الانكباب على حفظ القرآن وعلوم العربية للابقاء على العنصر الجوهري في الهوية وحمايته، للانطلاق منه نحو مستقبل سعيد يرتبط حاضره المقاوم الصامد بمستقبله الباسم.

وقد عبّر الكاتب بقوّة وصدق عن دفء الاحساس وسرعة الانجذاب حين تلقّى سمعه الأصوات التي كانت تتلو الآيات القرآنية، وحين دخل على التلاميذ ومعلّميهم بدا أنه صعبت عليه السيطرة على مشاعره الايجابية: «فأحسست حالا بروحي تختلط بأرواحهم، وشعوري بشعورهم وكياني بكيانهم... أخذت أقبل عن غير وعي جماعة المعلمين الذين التفّوا حولي وصغار التلاميذ الذين تركوا الدراسة وأحاطوا بي، وألفيت نفسي فجأة بين عائلتي وأقاربي»(2).

ان التعبير بهذه الصورة عن الموقف أوحى بوطأة الاحساس الشديد بتلك الغربة الرّوحية التي شعر بها الكاتب منذ اللحظة التي حلّ فيها بمحطة (الجزائر) العاصمة قادما من (قسنطينة) فوجد في هذا الموقف دفئه وسلامه الروحي في محيط ديني نما فيه بتونس نفسها، تلاوة القرآن الكريم واللّسان العربي المبين، وكلاهما رمز انتماء عزيز يثلج الصدر ويوفّر الاحساس بالثقة والأمل والسلام والأمان.

---

(1) المصدر السابق، ص: 38 ـ 40.
(2) المصدر السابق، ص: 39.

الرحلة الثانية لتوفيق المدني داخل الوطن هي رحلته إلى (بوسعادة) بالجنوب الجزائري تلبية لدعوة من الرسام الفرنسي المعروف (اتيان دينيه)(*) الذي اتخذ في تلك المدينة مقرّا له، مفتونا بطبيعتها شديد الأنس بأهلها الذين بادلهم الوّد، فأفسحوا له مكانا في قلوبهم كما في مدينتهم «التي سكنت قلبه وخلبت لبّه، بل أصبحت جزءا من حياته ومن كيانه الفني والعلمي طول حياته»(1).

غادر الرحالة (العاصمة) يوم 13 مارس 1926 في سيارة خاصة مع أحد أقاربه يسمى (جابرا) فوصلا (بوسعادة) بعد نحو ست ساعات حيث وجدا في انتظارهما أمام مرسم (اتيان دينيه) رفيقه (سليمان بن ابراهيم) وقد أعدّ الخيل لمتابعة الرحلة خارج المدينة، إلى البادية حيث الخيام مضروبة و (المشوي) يعد لضيوف (دينيه) على شرف (المدني) فيصف الكاتب احساسه وهو يعتلي ظهر جواد لأول مرة وصفا عبّر عن سعادة غامرة بالتجربة الجديدة في الصحراء رغم معاناة التعب والحرّ «الخيول أمامنا والخوان ينتظرنا، والأستاذ ديني يحسب الوقت كي يأمر بوضع الخرفان فوق المشوي العربي التقليدي، قلت لـ (جابر) يا لله! وأسرعت نحو أجمل فرس وأعانني قوم من العرب على اعتلاء ظهره، وخيّل لي وأنا أمتطيه أنّني قد أصبحت (أبا الطيب المتنبي) لا في شاعريته، بل في فروسيته... وما أن استويت فوق سرج فاره وأمسكت بالمقود بيدي حتى سار اجواد وراء الدليل وسارت خلفنا بقية الرّكب. وما كنت واللّه أسوق جوادي بل

(*) رسام فرنسي، ولد في (باريس) سنة 1861، لأب يعمل في القضاء، بدأ يتردّد على (الجزائر) ابتداء من 1885م واستقر نهائيا في (بوسعادة) سنة 1904م، وقد بدأت المنطقة تنعكس في لوحاته، حيث اشترى بيتا أقام فيه مرسما، ثم تعلّم العربية واعتنق الاسلام الذي كتب أكثر من كتاب للدفاع عنه، وحمل اسم (ناصر الدين دينيه) ثم أدّى فريضة الحج سنة 1929م، وقد توفي في نهاية هذه السنة نفسها، ودفن في (بوسعادة) حيث يوجد ضريحه.

(1) الحبيب السالمي: (صفحة مطوية عن الرسام الفرنسي ناصرالدين دينيه، استهوته صحراء الجزائر. واعتنق الاسلام) مجلة: كل العرب، عدد: 133، مارس 1985م.

كان هو الذي يسير بي الهوينا تارة والخبب تارة أخرى، يصعد فوق التلال وكأنه عصفور متين الجناح ويهوي في بطون الوادي كأنه غواص ماهر، ويثير تحت حوافره عثير الرمال فتحيط بنا ذراتها الذهبية الملتهبة»(1).

لقد حدّد الكاتب زمان الرحلة و لم يحدد مكانها من بادية (بوسعادة) فلم يذكر الاّ أن ذلك كان على مسافة نحو ساعتين على ظهور الأحصنة، لكن يبدو أن ذلك كان في الجهة الجنوبية الشرقية لقرينة أساسية انه من ذلك المكان انطلق إلى زاوية (الهامل) حيث قضى ليلته هناك، وسجّل انطباعاته عن المكان والانسان.

هذه التجربة الخاصة بالخروج من المدينة إلى البادية في رحلة على ظهر حصان للمرّة الأولى أعطت الكاتب احساسا خاصا بطبيعة البادية وظروف العيش فيها، وهو الذي لم يسبق له قبلا كما قال أن ركب «بغلا أو حمارا فضلا عن فرس مطهّم».

فوصف ذلك وصفا عبّر عن غبطته، كما وجد في ذلك الجو طمأنينة النفس وسعادة بالألفة النامية بينه وبين محيطه بوجهه العربي: عادات وتقاليد، في أجواء الصفاء النفسي والطيبة المطلقة تفكيرا وسلوكا، وصف الكاتب احساسه بالانسجام التام مع المحيط، كما وصف تقديره للرسام (اتيان دينيه) وكرم هذا الأخير وحسن استقباله، فنجد خلال ذلك وصفا عاما لجلسة الطعام داخل الخيمة «وصلنا الخيام، فنسينا تعب ساعتين فوق ظهر الجياد، وتلقّانا الأستاذ اتيان دينيه وضيوفه الذين دعاهم من أجلي وكانوا نحو العشرين من فضلاء البادية، ودخلنا الخيمة وتفيّأنا ظلالها، وانبسطنا فوق الأرائك... وقصّ علينا أفاضل العرب نوادر الفروسية وأسرار حياة البادية وقصص غرام شبان وبنات الخيام، فكنّا وهم يقصّون نتذكّر في الخيال عنتر

---

(1) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج2، ص: 90.

وعبلة وكثيِّر وعزة وقيس بن الملوح وليلى، وغيرهم من كبار العشاق الفحول الأمناء ومن كبيرات المدلّهات الشريفات العفيفات»[1].

هذا الجو بظلاله الخاصة في البادية وطبيعته الفاتنة ببساطتها وطهرها وملامحها الشعبية حتى في ذلك الحديث داخل الخيمة عن اعلام الغزل العذري في الحياة القديمة بالجزيرة العربية جعله يحسّ احساسا عارما بأنه في محيط عربي، تملأه الروح العربية بكل ملامحها في الانسان الجزائري بالبادية التي لم يمسخها احتلال ولا جرّدها من قيمها وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية، فقال على إثر انطباعه عن جلسة الطعام في الخيمة في حالة انتشاء «يالله! هذه العروبة الصادقة، هذه الفروسية الدافقة هذه الهمم الباسقة، هذه الأحاديث الشائقة تقع في قلب الجزائر التي خال الاستعمار أنه قضى منذ أمد بعيد على ما فيها من حياة ومن احساس ومن كيان عربي متين، فإذا بعروبتها الأصيلة شابة مترعرعة وإذا باحساسها الشريف قائم عملاق كالطود المتين، وإذا بحياتها الحرّة تخفيض نورا سرمديا يضيء من حولها الآفاق»[2].

والمدني في أوصافه ومشاعره المتدفقة يعطي القاريء انطباعا بأن (اتيان دينيه) ذو ثقة واعتزاز بالعروبة والاسلام، وهو فيما يبدو ضرب من مبالغات الشيخ (المدني) التي عرف بها، فهو مثلا ينقل ــ في هذه المناسبة ــ على لسان (دينيه) يخاطبه «لو أتيحت لي فرصة اهتبلتها في مستقبل الأيام لأريتك أكثر مما ترى الآن من حياة العروبة والاسلام. فكن مطمئنا ان العروبة لم تمت ولن تموت في هذه الديار»[3] وان كنّا لا نشك في الودّ بينه وبين محيطه العربي الاسلامي فان التحفظ يخصّ مستوى هذه وذلك الاعتزاز وصدقه فيهما بهذا القدر الذي وصفه (توفيق المدني).

(1) المصدر السابق، ص: 91.
(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(3) المصدر السابق، ص: 92.

لكنّ المؤكّد أن هذه الرحلة أتاحت للكاتب لأول مرة في الجزائر اكتشاف جانب مهمّ من الوجه المشرق للجزائر الصامدة التي ترفض حضارة الاحتلال وتبقي في إباء على كلّ ما يجسّد انتماءها الحضاري، بعاداتها وتقاليدها وقيمها اضافة إلى عنصري اللغة والدين، كما جعلته يحسّ بألفة كبيرة وشعور أخوي فيّاض لا أثر فيه لأكوام ثلج أو صفائح جليد، كما عبّر عن ذلك وهو يودّع (اتيان دينيه) وضيوفه في هذه المرحلة قبل الانطلاق إلى زاوية (الهامل) «فشكرت (اتيان دينيه) وأثنيت وتواعدنا على لقاء آخر في الجزائر قريبا، وودّعت وجوه العرب الأمجاد وكأنني بعد جلسة ثلاث ساعات أودّع أهلي واخوتي»(1).

وقد وضع (دينيه) تحت تصرّف (المدني) حصانين ودليلا يصحبه إلى زاوية (الهامل) الشطر الثاني من رحلته، وهو مشروع جديد لرغبته النامية في تقصي بعض الجوانب من وجه الجزائر التي لم تشوّهها كثيرا سياسة الاحتلال. أما مرافقه (جابر) فقد عاد إلى (بوسعادة) كي ينتظره في اليوم التالي للعودة إلى الجزائر، فاتجه الرحالة ودليله إلى (الهامل) التي وصلها قبل الغروب، فوصف الحفاوة التي لقيه بها طلبة الزاوية وشيخها، كما انشرح صدره للمهمة التي تنهض بها الزاوية في الحفاظ على العربية والاسلام «سمعت من الشيخ ومعاونيه ما أثلج صدري وملأني بهجة وسرورا، وزاد ايماني ويقيني بمستقبل الاسلام والعروبة وبمستقبل الجزائر الخالدة»(2).

ثم يعطي لمحة تاريخية مميّزة عن الزاوية، لكنه لم يحسن وصف جانب من الجو العامّ لنشاط الطلبة في حلقات الدرس وتلاوة القرآن تلك الليلة وصباح اليوم التالي الذي غادر فيه المكان. وقد خرج بانطباع ايجابي

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(2) المصدر السابق، ص: 93.

منحه الثقة والأمل في مستقبل الجزائر كما ملأه حبّا لهذا المعلم الثقافي الذي اعتبره «معقل العروبة والاسلام» فقال: «لا يزال قلبي يهفو إلى ذلك المعقل من معاقل العلم والهدى والنور الصحيح، ولا أزال ولن أزال أذكر ما بقي في رمق ليلة من ليالي الأنس والبهجة الروحية قضيتها في روضة من رياض الجنة»(1).

وهذا أهم انطباعاته عن زاوية (الهامل) وأكثرها تركيزا وأقواها تعبيرا عن احساسه وحبه هذا المعلم العلمي، وتقديره الكفاح الذي يخوضه الطالب من أجل تعلّم لغته ودينه والسخاء الذي يبذله المواطن في التبرّع للزاوية، والجهد الذي يبذله المخلصون من رجالها في تسييرها ورعاية شؤون تلاميذها في التعليم.

ان ظلال البادية بطابعها الرومانسي في هذه الرحلة جعلت الكاتب يحسّ بنشوة غامرة من الفرح، فعبّر عن مشاعره بحرارة تتراصّ فيها الأوصاف وتتلاحق الكلمات والمترادفات، ويكتسي وصفه طابعا أدبيا في بعضه مرح، في حديثه عن الجلسة أمام أكواب القهوة والخروف المشوي، أو في طوافه بين حلقات الطلبة في (الهامل) يتلقّون دروسهم أو يتلون القرآن، أو في وصف جواده صاعدا هابطاً بين كثبان الرمل أو حتى في حديثه عن السيارة التي حملته مع قريبه من العاصمة إلى (بوسعادة) «ممتطين سيارة أثرية كان يجب أن يكون مقرّها متحف السيارات العتيقة منذ أمد طويل، لكنها كانت وفية مخلصة لصاحبها وقد ألف الدّهر بينهما»(2).

اكتست الصياغة إذن طابعا أدبيا بمضمون وطني سياسي، فلم يستوقف الكاتب في زيارة (الهامل) مثلا تقصّي الجانب التاريخي في نشأة

(1) المصدر السابق، ص: 95.
(2) المصدر السابق، ص: 90.

الزاوية وتطوّرها بقدر ما استحوذ على اهتمامه ما يبشّر به واقعها من اقبال على التعليم واخلاص فيه تأصيلا للحسّ الوطني والانتماء الحضاري تطلّعا أيضا إلى مستقبل وطني في التحرر والاستقلال، هويته الوطنية: العربية والاسلام، وهذا غير مفصول عن المناخ العام وما يشيع من عادات وتقاليد ايجابية: من مودّة وتآلف، كما نلمس ذلك في لقائه مع ضيوف (اتيان دينيه) وهو رافد آخر يشبع ذلك الانتماء القائم على قطبيه الجوهريين: العروبة والاسلام.

أما رحلته الثالثة فقد كانت في 1926 انطلاقا من العاصمة إلى (قسنطينة) و (بسكرة) ثم (المسيلة) بعنوان «سفرة بحث واستطلاع»[1]، ويبدو أنّها كانت ذات أغراض مختلفة منها الظاهر ومنها غيره، فالمعلن هو التقاء رجال العلم والثقافة والاطلاع على بعض المواقع التاريخية وآثار بعضها الآخر اضافة إلى الاطلاع المباشر على بعض الجوانب الجغرافية والملامح الاجتماعية لكلّ منطقة، أما غير المعلن — ولو على هامش الرحلة — فهو البحث عن زبائن له من التجار لتموينهم من دكانه ذي البضاعة التونسية الصوفية الحريرية الذي كان بصدد اعداده، صحبه في هذه الرحلة ثلاثة أفراد ذكر أسماءهم. وكانت أول محطة (قسنطينة) التي أقام فيها يومين، أطلع فيهما على بعض الوثائق والتقى الشيخ (ابن باديس) و (الميلي) وغيرهما، تلتها مرحلة (بسكرة) التي تعرف فيها كما قال «بفطاحل الشبان والرجال من أمثال الشاعر الذي أصبح عملاقا لا يشق له غبار، المسلم الوطني العربي محمد العيد حمّ علي والكاتبين المفكرين اسماعيل بن المكي ومحمد العزوزي حوحو، وكان حديثنا في المجتمعات ممتعا، وكان سمرنا في الليالي مثمرا... وكنت أودّ مخلصا أن أجتمع برجل الاصلاح الاسلامي الذي أخذ نجمه يعلو فوق أعمدة الصحف الشيخ الطيب العقبي، وقد رجع لوطنه منذ نحو سنتين بعد أن

(1) المصدر السابق، ص: 99.

قضى سنوات عدة بالحجاز دارسا وموظفا إلا أنني أجبت ـــ وقد قصدت منزله ـــ أنه موجود في بلدة (سيدي عقبة) وعندما وصلنا (سيدي عقبة) ووالينا دراستنا التاريخية حول هذا الفاتح العظيم وضريحه الضخم، قصدت منزل الاستاذ (العقبي) وسألت عنه فأجابوني أنه موجود ببسكرة... وففهمت»[1].

فهنا كان اهتمام الكاتب منصبّا على ملاحظة آثار المنطقة ومعالمها التاريخية ولقاء رجالها من العلماء. ونفهم من كلامه أن الشيخ (العقبي) تجنّب لقاءه دون أن يكشف عن أيّ داع لذلك، ربما ليوعز لنا أن (العقبي) بات يتوجس من منافسه (المدني) بينما أنه كان معقولا جدا أن يصادف وصوله (بسكرة) وجود (العقبي) في (سيدي عقبة) كما يصادف وصوله (سيدي عقبة) عودة (العقبي) إلى (بسكرة) فليس لهذا الظن السلبي لدى الرحالة ما يبرّره غير مابات ـــ فيما يبدو ـــ يثير غيرة (المدني) من (العقبي) الذي كان يأسر الأسماع بخطابته الاصلاحية وبمقالاته الفكرية، وهي الخاصة التي كان (المدني) ـــ فيما يبدو أيضا ـــ يتمنى أن يكون سيّد الحلبة فيها، خاصة أنه يعتبر نفسه (المنقذ) الذي أعدته الأقدار ليبعث تاريخ الجزائر ويشعل الثورة ويحدو بالثوار، وهي نزعة نرجسية لم يستطع (المدني) ـــ رحمه ٱلله ـــ أن يتخلّص منها طول حياته، رغم تواضعه في حياته وفي علاقته بالناس، لم يتخلّص منها حتى في المواضع التي تقتضي التزام التواضع الصادق، كما هو الحال في التعريف بنفسه تحت صورته في الصفحة الثانية من غلاف كتابه (حياة كفاح) في الجزأين الأول والثاني حيث نجده يقول عن نفسه معلقا تحت صورته مباشرة «علم من أعلام العروبة والاسلام والوطنية الصادقة ومن ذا الذي لا يعرفه؟ كرّس كل جهوده منذ شبّ في سبيل الاصلاح الديني واحياء اللغة العربية ومحاربة الاستعمار رغم جميع

(1) المصدر السابق، ص: 100.

الاضطهادات التي عرفها، فكان في كل ذلك قدوة يُقتدَى بها، وكان من الرواد الأوائل الذين رافقوا سير الحركات السياسية والاصلاحية والثورية بالشمال الافريقي. فصار لها شاهدا تاريخيا، اكتنز من المعلومات والأخبار مالا يعرفه إلا القليل النادر، فجاءت مذكراته... سجلا تاريخيا في أسلوب أدبي شيّق سيرحب به كل من يعتني بتاريخ المغرب المعاصر، وكل من يحب الأدب الرفيع»(1).

وصفة النرجسية مثل سمة المبالغة من خصائص التعبير لدى (المدني) في كتابته وفي خطابته، وحتى في حديثه لأجهزة الأعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وهو أمر تخرج معالجته من زواياه الخاصة عن نطاق بحثنا هذا(*) إلى مجالات أخرى مثل دراسة الشخصية وظروفها ومكوناتها النّفسية.

وقد كانت آخر محطة في رحلته هذه (المسيلة) حيث لاحظ «أن هذه المدينة قد أصبحت مقّر طغيان استعماري فظيع، ومركزا من أخطر مراكز الظلم والعدوان»(2) إلى درجة أن حلاقا ايطاليا من الدرجة الوسطى منعه الدخول لحلق شعره بحجة أن المحل «خاص بالأوروبيين فحسب»(3) ليصوّر الكاتب درجة التفرقة العنصرية وفداحة الظلم والجبروت الذي يعانيه المواطن في وطنه تحت الاحتلال.

---

(1) انظر الصفحة الثانية من الغلاف في (حياة كفاح ج1 (مثلا) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

(*) لكن ينبغي لفت النظر إلى أن هذه النزعة اضافة إلى غيرها من العيوب البشرية التي قد تكون في كل امرىء، مما ألبّ عليه بعض معاصريه، خاصة ممن كانوا في (جمعية العلماء)؛ انظر مثلا نماذج من ذلك كتاب «التحريف والتزييف في حياة كفاح» جمعه محمد الطاهر فضلاء، نشر دار (البعث) ط: 1، قسنطينة (الجزائر) 1402هـ (1982م) وهو في معظمه مقالات لعدة أشخاص، تصدّت للرد على بعض أفكار (المدني) وأحكامه في الجزأين: الأول والثاني من (حياة كفاح).

(2) حياة كفاح، توفيق المدني، ج: 2، ص: 102.

(3) المصدر السابق، ص: 103.

عكس الكاتب في رحلته ملامح كل منطقة زارها، فـ (قسنطينة) و (بسكرة) تتنفسان، أريج الأمل بفضل عمل رجالها، وتبقَى (سيدي عقبة) تكابد المعاناة الشاقة، فتمور بالحقد على الاستعمار وتمارس في حياتها الاجتماعية العامة الكرم العربي، أما (المسيلة) فقد تميزت بقحط فكري وارهاب احتلال وجبروته، مما سنعود إلى جوانب أخرى منه في موضع آخر من هذا البحث.

بعد نحو سنة قام الكاتب برحلة أخرى إلى الغرب الجزائري صحبه فيها الأشخاص أنفسهم الذين رافقوه في الرحلة الأخيرة «باحثين مستطلعين، يغني على ليلاه»(1) وهذا يعني أن الكاتب رغبة في الاطلاع العام على ملامح المنطقة ليست بالضرورة هي ذاتها رغبة رفاقه الأساسية، زيادة ــ ربما ــ على رغبته الخاصة جدا في ضمان زبائن لمتجره. وقد حملت الرحلة عنوانا هو «في الغرب الجزائري»(2) زار فيها الكاتب (مستغانم) و (سيدي بلعباس) و (وهران) و (تلمسان) التي احتلّت أكبر مساحة من الرحلة، وأحرزت على الاعجاب أكثر رغم بعض المنغّصات التي سببها ما كان هنالك من خلافات هامشية بين مواطني المدينة.

وكانت أول محطة (مستغانم) التي لم يمكث فيها طويلا، لكنّه سجّل تعرفَه على جوّها اللطيف والفضلاء من قومها كما قال، الذين «ينظرون بعين الريبة لهذه الطريقة الصوفية الجديدة التي أخرجها للناس الشيخ أحمد بن عليوه»(3) تلاها حديث مرّ عن (سيدي بعلباس) التي صارت بؤرة فساد انتشرت فيها الحانات وكثرت الرذائل، اسمها عربي وواقعها فرنسي، بلغ ضيق الكاتب وأصحابه بها حدا جعله يقول «لم نكلمّ يومئذ فيها أحدا، ولم يكلّمنا فيها أحد»(4) وهو ما سيتضح أكثر في موضع آخر من البحث عند الحديث عن صورة المكان.

(1) حياة كفاح، توفيق المدني، ج: 2، ص: 116.
(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(3) المصدر السابق، ص: 117.
(4) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ولم يختلف الأمر في (وهران) إلا قليلاً فهي صورة لمدينة فرنسية، لم يجد الرحالة ومرافقوه وجه الجزائر إلا في طرفها، في حيّ حمل اسم (القرية الزنجية) حيث التذمّر العام من الوضع الذي بدا في كلام المواطنين كما يورده الرحالة في وصف جلسة بمقهى حيث لم يكد يجلس حتى بدأ يلتفّ حوله ورفاقه الناس الذين بلغ عددهم نحو خمسين كما يذكر، فكادت المقهى تتحول إلى ساحة خطابة ممّا أثار امتعاض صاحبها، وقد برزت في الجلسة عدة انتماءات حزبية للحاضرين الأمر الذي رآه الكاتب «دليل حيوية قصوى واستعداد للعمل كبير»[1] رغم كل السلبيات في تلك الخلافات ذات الطابع الحزبي في هذا المحيط القابع في التخلف، تفتك به الآفات الاجتماعية، حيث تنتشر الحانات ودور البغاء وتمارس الموبقات.

أما (تلمسان) فقد كان لها في نفس الكاتب موقع متميّز بتاريخها ونضالها ومجدها كما عبّر عنه في الفقرة التالية «كم كنت أمنّى النفس باستنشاق أنفاسها، وكم كنت أتغنّى بذكر محاسنها وعظمة تاريخها وشهامة شعبها وطيب عنصرها، وعظيم جهادها، وقيمة علمائها وازدهار مدارسها، وأشرفت على المدينة والشمس تكاد تلتحف الظلام، فكان يخيل إليّ أن تلك المنارات التي ارتفعت خلال العصور تنادي المسلمين إلى الله قد ازدادت علوّا حتى ربطت الأرض بالسماء ووصلت الناس بالملائكة المقرّبين، ولقد دهش أخوتي المصاحبون لي لحالة الوجد التي انتابتني وأنا أضع الرجلين فوق ذلك التراب المقدّس الذي أنشأ مدينة وكوّن دولة وأخرج عظماء وأبطالا وفرض اسمه على سجلّ التاريخ في مركز ممتاز»[1].

غير أن هذا الاحساس المتألق غبطة وسرورا لم يلبث حتى تكدّر في أول اتّصال بالمدينة في فندقها القذر أولا، ثم ثانيا في هذه الخصومة

---

(1) المصدر السابق، ص: 120.

التافهة السطحية بين ناديين ثقافيين وهي خصومة اتخذت طابعا عدائيا صامتا ونهضت على أساس عرقي مفتعل (تركي، جزائري)[1] وقد عمل القوم بسلوكهم ذلك لاعانة الاستعمار على أنفسهم، فهو «يعمل على موتهم وفنائهم، وهم يعينونه بهذه التفرقة وهذه العنصرية القبيحة على القتل وعلى الافناء»[2]، لكن الاحساس السلبي هذا لم يطل كثيرا فقد ذاب وسط الصورة الايجابية العامة للمدينة وانسانها «تلمسان قد زادها الله بسطة في العلم، كما زادها بسطة في الجمال والمناخ والتاريخ»[3].

وهو هنا استنتج حكما مما سمح أساسا من احصاء ووصف الموضع الذي تعيشه المدينة لا من المعايشة المباشرة الحاضرة وحدها، لكنه ينقل انطباعا جيدا واضحا عن الجوّ الذي أحاطه به بعض من جماعات (تلمسان) التي برزت في عين الكاتب مدينة سياحية أثرية تعمرها نخبة مثقفة «لم أر في بقية جهات الوطن نخبة مفكرة مجتمعة كهذه النخبة، وكان سروري لا يوصف، ثم تزاحموا على استضافتنا وكادوا يختصمون، فتغذينا[*]عند أحدهم مع جماعة، وتعشّينا عند أحدهم من جماعة أخرى، وكانت الأحاديث تتوالى متشعبة متباينة تدور حول محور واحد هو الوطن، وتهدف إلى غاية واحدة: انقاذ الوطن. وطاف بنا الجماعة بين الوجبتين جهات المدينة الجميلة، وزرنا مصطاف (الوريد) ذا المياه الدافقة الصافية، وضريح سيدي بومدين وبقايا الأبنية الأثرية العتيقة»[4].

وقد أحلّ الكاتب بفعل الحماس العشوائي نخبة (تلمسان) مكانة وطنية مرموقة جدا لم تبرّرها اتصالاته التي لم نر فيها شيئا خارقا

---

(1) أنظر الصفحات: 120 ـــ 125.
(2) المصدر السابق، ص: 125.
(3) المصدر السابق، ص: 122.
(*) هكذا في الأصل (تغذّى) بدل (تغدّى) وهو تعبير شائع انساق له الكاتب.
(4) المصدر السابق، ص: 123.

أو استثنائيا، في حين أن أسبوعا حافلا قضاه في (قسنطينة) حين حلّ بها قبل سنتين قادما من (تونس) سنة (1925) جعلنا نحسّ فعلا بجوّ فكري كان يحتدم فيه النقاش حقيقة كما صوّره هو في لقاءاته مع (ابن باديس) و (مبارك الميلي) و (المولود بن الموهوب) وغيرهم[1]، مما أعطى (قسنطينة) مكانة متميزة لما كان يتفاعل في محيطها بفضل نخبتها.

لم تكن هذه الملاحظة ضرورية للتنبيه إلى الأحكام العشوائية غير المبررة لو لم يقل الكاتب أنه لم يمر «في بقية جهات الوطن نخبة مفكرة مجتمعة كهذه النخبة».

مهما يكن من شيء فقد اجتهد (توفيق المدني) في أن يتعرّف على المجتمع الجزائري ويفهمه، ويعرف كثير من طبيعة الأرض والانسان، فكان رحالة مهتمّا بالجوانب التاريخية وشؤون الوطن الاجتماعية والسياسية، كما بدا في تنقله رجل فكر واصلاح، يحاول أن يفهم وضعا، ويحرص على النصح والارشاد لتحريك الهمم من أجل النهوض السياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي.

ساد في لغة التعبير لديه حماس الخطيب وروح المحرض على الفعل إلى درجة تقترب من صورة مهرّج كحالة في المقهى بوهران، أو في النادي بتلمسان. وقد جعلنا نحسّ حرصه على تلميع شخصيته منذ هذه الفترة المبكرة (1925 ـ 1927م) شخصية وطنية متميزة تعمل من أجل الوطن، فتحرّض في كل المواقع والأماكن على النضال والجهاد والعمل للاستقلال وتنبيه الناس إلى أن النصر في الوحدة والتآلف والهزيمة أمام الاحتلال في الفرقة والتخاذل.

---

(1) انظر المصدر السابق، ص: 7 ـ 20.

وهو في كلّ ذلك قدم أيضا صورة عن شخصيته الطموحة التواقة إلى الفعل والحركة، واكتساب صفات البطولة والزعامة، ذات الاعتداد بالنفس في الفكر والسياسة وموضع الاعجاب الشديد في كل المواقع، كما عكست رحلته ما كان يتفاعل في فترة زمنية كان قد بدأ فيها وهج الحركة الوطنية عموما يتّسع كما تزداد الحركة الاصلاحية بشكل خاص اتّساعا، وهو في ذلك لا يقدم معلومات علمية مضبوطة ولا يهدف لتقديم معارف، بل كان رحّالة يقدّم بشكل عفوي صورة تقريبية عما كان يحسّه تجاه الوضع، وانطباعه عنه وتعليقه عليه، شعور الرّحالة الذي يسجّل ما انطبع في ذهنه وما تأثر به سلبا أو ايجابا.

رحلات سعد الله:

قام الأستاذ الدكتور (أبو القاسم سعد الله) برحلات مختلفة داخل الوطن وخارجه، نشر بعضا ممّا دوّنه في مجلاّت وصحف في فترات قريبة من أيام الرحلات وقد ضمّ بعضها كتابه (تجارب في الأدب والرحلة)[1] وبعض هذه الرحلات داخلي وبعضها الآخر خارجي، وأكثرها ذو طابع ثقافي خالص، رغم أن الجانب الثقافي يبقى حاضرا بوضوح في كل رحلاته.

يعنينا هنا الحديث عن رحلاته الداخلية التي جاءت متأخرة من الناحية التاريخية عن رحلاته خارج الوطن.

وأول رحلاته الداخلية ــ نشرا ــ رحلته إلى (خنقة سيدي ناجي) التي نشرتها مجلة «سرتا»[2] وضمّها كتابه (تجارب في الأدب والرحلة) تحت عنوان «زيارة لخنقة سيد ناجي»[3]، وبهذه الرحلة حقّق الكاتب رغبة

---

(1) تجارب في الأدب والرحلة، د. أبوالقسام سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
(2) العدد الثالث، السنة الثانية، ماي 1980م.
(3) تجارب ف الأدب والرحلة، أبو القاسم سعدالله، ص: 257.

كانت مقيمة في نفسه «كنت أتحيّن الفرصة لزيارتها وربط حاضرها بماضيها»[1] ويسجّل أن بداية الرحلة كانت من (بسكرة) مع مرافقين منها في 8 فبراير 1980 لقطع مسافة 95 كلم فبدت زيارة أولى منه للمدينة «حين اقتربنا من الخنقة كاد جبل ششار يسدّ الطريق في وجوهنا حتى لقد تساءلت أين المدينة وسط هذا المثلث الصخري الهائل، ولولا بعض رؤوس النخيل وبعض القباب القديمة في سفح الجبل لما عرفنا أن العمران قد حط رحاله ذات يوم في هذا (المخنق) أو الخنقة الصعبة المنال»[2] وقد اكتست الرحلة طابعا عاما رغم القصد الثقافي لدى الكاتب.

يذكر الكاتب أسماء القرى التي مرّ بها وأسماء الأشخاص الذين رافقوه والذين التقاهم ومن استضافه مغ مرافقيه منهم، كما يسجّل بعضا مما جرى من أحاديث في اللقاءات والجلسات التي كان يغلب عليها الطابع الثقافي، ففي حديث عن جلسة بمنزل مؤذن في (مسجد السوق) استضافهم «بداره على العسل والجوز» يقول: ان «من الذين حضروا هذه الجلسة... السيد صالح السالمي، وهو متوسط العمر، ويعمل الآن منسقا لشؤون الفلاحة في بلدية الخنقة، وقد روى لنا أخبارا مثيرة عن أيامه في المحتشد أثناء الثورة وحدثنا عن أحوال الخنقة اليوم، وأعطانا صورة عامة عن معالمها الباقية بالتعاون مع السيد الدريدي»[3] المؤذن. وقد شرع الكاتب في حديث عمّا لاحظه في المحيط الاجتماعي وما عانته المدينة ومواطنوها أثناء الثورة التحريرية (1954 ــ 1962م) ولم يلبث حتى اجتذبه الجانب التاريخي الثقافي للمدينة لما عرفته قديما من نشاط ثقافي وديني في المساجد والزوايا بفضل مجموعة جيدة من علمائها ومكتباتها، وهو الواقع الذي أجهز عليه الاستعمار الفرنسي

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(2) المصدر السابق، ص: 257 ــ 258.
(3) المصدر السابق، ص: 258.

نهائيا أثناء الثورة التحريرية المسلحة، فينقل الكاتب بعضا من أقوال واحد من محدّثيه عن ذلك و «خروج الناس من الخنقة قائلا لي: لقد مرت بنا سبع سنوات عجاف حتى أن أحدا لم يصعد منا إلى صومعة الجامع للأذان»(1).

وقد خرج الكاتب بانطباع معبّر توّج فكرته عن حال «هذه المدينة ــ القرية التي كانت عروسا فأصبحت عجوزا»(2) وهو انطباع ينسحب على كلّ وجوه الحياة فيها: اجتماعيا، اقتصاديا، ثقافيا.

وان مرّ الكاتب ببعض القرى في الذهاب إلى (الخنقة) سريعا فقد توقّف في العودة مع مرافقيه في (زريبة الوادي) عندما «حان وقت صلاة الجمعة، فأدّيناها في مسجدها الذي لا يكاد يرى من بعيد حتى اضطررنا للسؤال عنه عدّة مرات، لأنه لا صومعة له، وهو جامع واسع ضخم العرصات ومبني بالجبس وكان غاصا بالمصلّين، وخلافا للخنقة وجدنا الزريبة مثل كل القرى الجزائرية اليوم تتجدّد وتتوسّع وفيها الحيّ القديم والجديد»(3).

من هنا يبرز اهتمام الكاتب واضحا بكثير من الجوانب العامة الاجتماعية والثقافية وغيرها، فنبّه إلى وضع المسجد واكتظاظه بالمصلّين، والحركة العمرانية في (زريبة الوادي) على عكس الوضع في (الخنقة) وهو وضع راكد تراجع فيه بريقها الذي كان قديما وهجرها أبناؤها وأهملها رجال الحكم أو نظامه بعد الاستقلال كما الحال بالنسبة لكثير من مناطق لا تحسن الاحتجاج ولا تملك القدرة على الصراخ ــ غير المباح ــ للمطالبة بالعدالة بين مختلف الجهات من الوطن.

(1) المصدر السابق، ص: 263.
(2) المصدر السابق، ص: 264.
(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

بدأ توّجه الكاتب هنا توجّها عاما يعكس طبيعة الرحلة في الحديث عن الأشخاص الذين التقاهم ووظائفهم خاصة من المتعلمين أو (المثقفين) ووصف المكان وصفا امتزجت فيه الظلال الجغرافية بالتاريخية حين عرض للمقارنة بين ماضي المنطقة وحاضرها وعلاقتها التاريخية بالمناطق المجاورة، وهو يكتب بحسّ المؤرخ الباحث المتحفّظ أمام بعض الأشياء التي يسمعها ولا يجد سندا يدعمها من وثائق ملموسة. وكان السماع عن أوضاع ماضية مصديا حرص الكاتب في مواضع منه على التريّث في الحكم في غياب قرائن تؤكّد قضية أو فكرة.

وهكذا نرى حديث الكاتب يتركزّ على الجانب الاجتماعي والثقافي بشكل عام، يكتب عنه بروح الأديب المتواضع، فوصف لنا خصائص المنطقة وطبيعة انسانها الطيب، الكريم لكنه المستسلم في وضع راكد.

أما رحلته «صيف في سوف»[1] فهي ذات طابع سياحي استطلاعي لا تخلو من انشغالات ثقافية كغيرها، انطباعية تحليلية بمناسبة زيارته (وادي سوف) في الشرق الجنوبي من الوطن صيفا حيث يبادر باعلان مشاعر الود والحنين إلى حياة الريف الهادئة وطمأنينته في جو الصفاء صفاء جوّ وصفاء قلوب لم تشوّهها أحقاد مدن ممسوخة في روحها وشكلها وبعض ناسها «وادي سوف ليس هو الحرارة والرمال والهوام فقط، بل هو الراحة المطلقة من عناء المدن وشقاء الزحام والتكدّس، وهو الليالي الجميلة ذات النسيم المنعش الذي يأخذ في الابتراد كلّما ضمّخه ندى الفجر، وهو النجوم الزاهرة التي تسهر مع الانسان في وحدته وتأمّلاته»[2].

---

(1) نشرت الرحلة في حلقتين من جريدة «الشعب». الحلقة الأولى في العدد: 8006 الصادر في 30 ربيع الأول 1410هـ (30 أكتوبر 1989م) والحلقة الثانية في العدد: 8087 في 1 ربيع الأول 1410هـ (31 أكتوبر 1989م).

(2) صيف في سوف، د. أبو القاسم سعدالله، الشعب، الحلقة الأولى، عدد 8086 في 30 ربيع الأول 1410هـ (30 أكتوبر 1989م).

يحدثنا الكاتب عن رتابة الحياة اليومية حيث تتشابه الأيام فلا «يميزها إلا يوم الجمعة، يوم السوق العام ويوم الصلاة الجامعة» وهي رتابة توحي بأمن وسلام من جهة وتحمل في طياتها من جانب آخر شكلا من أشكال الادانة للنظام السياسي الذي أهمل الاهتمام بولاية (وادي سوف) كما أهمل ولايات أخرى بعيدا عن الشمال حيث مكث المواطنون قابعين «في الهامش سواء بالنسبة لوطنهم، أو بالنسبة للعالم. على الخريطة أنّ وادي سوف ولاية ولكن ذلك بالاسم فقط، لأن حظهم من الولاية ومن التوازن الجهوي لا يساوي جناح بعوضة.

فبينما تعيش بعض الولايات الشمالية في شهر العسل والدلال الدائم تعيش ولاية الوادي (ومثيلاتها) شهر العسل والحرمان الدائم، فلا مشاريع اقتصادية ولا مؤسسات تجلب اليد العاملة وتساعد على الاستقرار وحل مشاكل الناس».

وبعد وقفة تمعّن وتأمّل في مشاعر الناس تجاه النظام السياسي الغائب والاعلام الوطني المبهور بالغرب وقد بات منساقا في ذلك، يقول الكاتب أن لسان حال القوم في (وادي سوف) بات «يقول: هل أصبحت الجزائر جسرا لتمرير فلسفة الغرب في الاعلام ولو كانت ضدّ العروبة والاسلام ولا تستغرب بعد ذلك أن يزهد الناس في اعلام وطنهم، فيلتقطون الأخبار من مصادرها ومن إذاعات العالم وتلفزاته تاركين للمقلدين تقليدهم، أما أخبار الوطن فلا يكاد الناس هنا يعرفون عنها شيئا».

ويضيف في إدانته النظام واعلامه «إذا كانت الجهوية مرضا في الشعوب فإنّ اعلامنا بذلك يساعد على تكريس هذه الجهوية».

وبقدر ما يصوّر الكاتب الخلفية القائمة لمظاهر الظلم والتهميش مناطق من الوطن وظاهرة استفحال النزعة الجهوية وتراجع الحسّ الوطني الشريف يذكرما هنالك في مناطق أخرى من الوطن مثل (وادي السوف)

من نقاوة تفكير وطهارته وحس عروبي اسلامي وطيبة تلوذ بأدنى فرح عابر «ان هموم النهار من العمل الشاق والبحث عن مصادر الرزق ومن الشعور بانعدام التوازن كانت تخفف منها أفراح الليالي».

وقد تحدث الكاتب بودّ عن الانسان القانع العاتب في أعماقه، يحاول تجاوز واقعه، ويحرص على نسيانه بالاستغراق أولا في حمام العرق اليومي، يكدح منذ صباحه الباكر، ثم أخذه ثانيا بحظه البسيط المشاع من الفرح العفوي في حفلة زفاف أو ختان أو أحاديث السهر بعيدا عن الصخب الحزبي في أهمّ مناطق الوطن الأخرى وكيد الحزبين وصراعهم.

اهتمّ الكاتب إذن في هذه الرحلة بجوانب مختلفة: طبيعة المنطقة، وحياتها الاجتماعية وتقاليدها وعاداتها في النهار والليل حيث أغلبية «أهل سوف» ينامون بعد صلاة العشاء ويستيقظون قبل صلاة الصبح للعمل في الحقول والبناء ونحو ذلك، فما يزال القوم هنا يردّدون الحديث (بورك لأمتي في بكورها)....»(1).

ولا يلبث حديث الكاتب حتى يتركّز عن عادات القوم في (قمار) احدى بلديات (سوف) وهي البلدية التي تضمّ مسقط رأسه (البدوع) وكانت البداية في ذلك الحديث عن مساجد (سوف) التي ينطلق فيها «الأذان خمس مرات مثل كلّ البلاد الاسلامية وليس في ذلك غرابة ولا جدّة، ولكن الغرابة والجدة تكمن في أن بلدة صغيرة مثل (قمار) — حوالي خمسة وعشرين ألف نسمة — تنطلق فيها مآذن أكثر من عشرة مساجد في وقت واحد بمكبرات كهربائية قوية، ويتبارى المؤذنون في التنغيم والتنويع الصوتي،

---

(1) صيف في سوف، د. أبو القاسم سعدالله، الشعب، الحلقة الأولى، عدد: 8087، 1 ربيع الثاني 1410هـ (31 أكتوبر 1989م).

فهذا صوت شيخ هرم متهدّج، وهذا صوت شاب قويّ، وهذا يؤذّن على الطريقة المحلية، وهذا يؤذن بالطريقة الشرقية، وهذا يؤذّن مراعاة للمدّ والتقصير، وهذا يؤذّن مع مراعاة شروط النحو والقراءات».

وفي هذه الملاحظة تنبيه إلى ما ينشأ عن ذلك من اضطراب في فكر السامع ومشاعره، ويفقد الأذان بشكل ما أثره الروحي القويّ لنداء الصلاة، ويلاحظ الكاتب الوظيفة الاجتماعية المهمة التي صارت لمكبّر الصوت في المسجد، باستعماله وسيلة اعلان جيّدة في الأمور الخيرية، فيصف ذلك وصفا أدبيا ذا دلالة جيدة على مهمته التبليغية الشريفة تعكس شكلا من التكافل وحبّا في الخير والتآزر «ففي رابعة النهار تسمع أحيانا المنادي ينادي من مكبّر أحد المساجد معلنا للسكان أن طفلة أو طفلا خرج من حوش أهله ولم يرجع، ثم يأخذ في وصفه ووصف لباسه ويناشد من عثر عليه أن يأخذه إلى أهله (حوش فلان) وفي ذلك من التضامن والتكافل ما فيه. وهناك تضامن من نوع آخر لا يقلّ أهمية، فمن وقت إلى آخر كنت تسمع في المكبّر عبارة (ٱللّه أكبر) (ٱللّه أكبر) ثم تسمع بعدها أن فلان أو فلانة قد توفّاه ٱللّه وأن جنازته قد تقع على الساعة كذا، فيأتي الناس من قريب ومن بعيد لتشيع الفقيد وتقديم التعازي لأهله، ان مكبر الصوت هو أداة الأذان وهو أيضا الجريدة الشعبية المسموعة، ويكفي أن تسمع خشخشة المكبّر قبل انطلاق الصوت حتى تشرئب الأعناق وتصيخ الآذان لسماع ما سيعلنه».

ثم تغري الكاتب فكرة لزيارة مناطق تونسية وراء الحدود الجزائرية (قفصة) (توزر) (نفطه) للاطلاع والتقصّي أيضا فيما يخصّ أصول عائلته حيث يقول «يروي كبار عائلتنا أن أجدادنا قدموا إلى سوف من قفصة ولذا جعلت همّي السؤال عن أصول عائلتنا» فكانت في ذلك الزوايا والمساجد من الأماكن التي اجتذبته، كما اجتذبته مظاهر طبيعية على الحدود وهي أنها حدود مصطنعة، لكنها رغم ذلك ميزت بين وجه الأرض في الجانب الجزائري

ووجهها في الجانب التونسي، كما بدا ذلك للكاتب وهو يصفه للمسافر من (سوف) في (الجزائر) إلى (الجريد) في (تونس) قائلا: «الذين سافروا إلى الجريد من سوف يعرفون أنه لا يفصل الحدود الجزائرية التونسية سوى حوالي ثلاثة كلم من الأرض الواحدة دون أيّ فاصل طبيعي مهما كان، والفرق فقط أن نقطة حدود الجزائر تسمّى قديما بوعروة والآن (الطالب العربي) وأن نقطة حدود تونس تسمّى حزوة.... ولكن هناك فرق كنت أودّ ألاّ يكون هو أن نفس التربة حول بوعروة جرداء قاحلة على امتداد البصر بينما هي حول حزوة خضراء ذات جنات معروشات، ويسير معك الاخضرار والجنات المثمرة إلى نفطة وتوزر، وتساءلت: لماذا لا يشمل الاخضرار والاستثمار الحدود الجزائرية أيضا ما دامت التربة واحدة والانسان واحد، فالعمران هو أسن طريق للاتّصال والوحدة».

ثم يقف الكاتب وقفة ودّ خاصة في مسقط رأسه (البدوع): «أغراني بعض أفراد العائلة بزيارة البدوع مسقط الرأس الغارق في الرمال. والبدوع تظهر من الطائرة كأنها قطعان سوداء من النخيل في قفر أبيض، وهي تبتعد عن قمار بحوالي أربعة كلم غربا، مشيت إليها راجلا وغوّصت قدمي في رمالها الناعمة المتحركّة، وصعدت وهبطت كثبانها ذات الشفرات السيفية».

وحين يصل بيت الأسرة أو مكانه يراه وقد بات اطلالا، اندثر فيه كل شيء فتراجع ظلّ الانسان ولعبت الرمال في المكان وهرمت نخيله، حتى انتهى به التأمل إلى وقفة انسانية مؤثرة وهو يرى آثار الماضي وما أصاب ملاعب الصبا والطفولة، فتتكثّف المشاعر والأحاسيس فيمتلىء القلب ألما وحبا كما يفيض الوجدان بمشاعر شتى وهو يودّع المكان بالعين والقلب: في تلك استعداد لاستقبال دمعة حبّ وافدة وفي هذا نبض الحسّ الانساني المرهف الذي يزداد دقّة وسموا بين جوانح أديب مرهف الحس بطبعه قطع من العمر مسافة زاخرة بالحياة والتجارب «وقفت معتبرا ذاكرا أيام الطفولة والصبا، فقد ولدت هناك قبل أن يكون البناء على الاطلاق، ثم بنى أهلي

جزءا في صغري فلا أتذكّره، ثم بنوا جزءا آخر شاركت في جلب الحجارة والجبس إليه وعاونت في تشييده. وتذكّرت المرحوم والدي وهو صاحب السلطة فلا يتكلّم أحد إذا تكلّم، ولا يجلس أحد إذا وقف. وتذكرت ملاعب الطفولة ومجالس قراءة القرآن حول الوالد فتمثلت قول المعرّي:

لِدُوا للموت وابنوا للخراب

ثم حوقلت والتفت مودّعا (البدوع) بالعين والقلب ومنشدا مع ابن زيدون:

ان الزمان الذي قد كان يضحكنا   أنسا بقربكم قد عاد يبكينا

وان أراده (ابن زيدون) خطابا لحبيبته (ولادة) فقد أراده الكاتب خطابا إلى مسقط رأسه، في اطلال بيته الذي جسّد صيرورة الحياة: رحلة منغصّة فيها الألم الكثير مع الفرح القليل.

أحسن الكاتب التعبير عمّا اعتلج في صدره من مشاعر وخواطر مختلفة في رحلة أخذت بعدا انسانيا اجتماعيا بشكل عام، ارتكزت على المشاهدة واستمدت الذكرى، فالتحم الانطباع من المشاهدة عن المكان بالمشاعر النابعة من الذكرى الضاربة في أعماق النفس.

وهكذا اكتست الصياغة طابعا فنيا في أكثر من منعطف، تركّز فيه الوصف على جوانب اجتماعية عامة وخاصة مطعّمة بأبعاد فكرية ثقافية وتاريخية وسياسية وغيرها. كما اتّسم هذا الوصف بالحركة والحياة وان أوحى هذا بأن الكاتب أديب أصيل فان حسّ المؤرخ لم يغب من ذلك، كما لم ينسحب منه المفكر برؤاه الثقافية والسياسية خاصة في بعدها القومي.

أما رحلته «حفل في ميزاب»(1) فقد غلب عليها الطابع الثقافي لأن المناسبة ثقافية خالصة، وهي مناسبة تأبين (الشيخ القرادي)(*) المعلم المفكر في مدينة (العطف) في الثاني من شهر (ماي 1990م) فوجدتني «حاملا حقيبتي في اتجاه وادي ميزاب، لكن كان ذلك من حسن الصدف طبعا»(2).

وان سبق له أن زار مدنا وقرى في (وادي ميزاب) سائحا سنة 1970م فقد كانت يومئذ رحلته رحلة سائح «يلتقط المعرفة بالعين المجردة» أما اليوم فهي رحلة ثقافية تقوم على السّماع والمشاهدة والحوار، ذات هدف محدد، في زمان ومكان، من المطار إلى المحاضرات والخطب في رحاب المسجد في (العطف) إلى مآدب الطعام وجلسات الشاي التي كانت بدورها جلسات علم وفكر لا تخلو من سياسة «منذ المطار وجدنا في استقبالنا نخبة من المثقفين يتقدمهم زميلنا الدكتور محمد ناصر، وقضينا المساء في منازل بعض المثقفين أيضا، جلسنا هنا حول الشاي وجلسنا هناك حول العشاء، ولكن الحديث كان دائما عن حالة الجزائر الراهنة وعن النهضة العلمية في ميزاب وعن بعض الكتب التراثية، وكان شيوخ العلم وبعض النواب والمدرّسين والطلاّب حاضرين بعضهم جاء من بعيد للمناسبة أما الآخرون فكانوا مقيمين».

---

(1) جريدة (الشعب) د. أبو القاسم سعدآلله،العدد: 8273 الصادر في 14 ذي القعدة 1410هـ (7 جوان 1990م).

(*) الحاج أيوب إبراهيم القرادي، المولود بالعطف ولاية (غرادية) سنة 1923، المتوفى بالمدينة المنورة يوم 1 ذي الحجة 1409هـ (4 جويلية 1989م).

انظر (الشيخ القرادي حياته وآثاره) الحلقة الأولى، تقديم الدكتور محمد ناصر، نشر جمعية النهضة، العطف (غرادية)، الجزائر، 1990م.

(2) حفل في ميزاب، د. أبو القاسم سعد آلله، الشعب، العدد: 8273 في 14 ذي الحجة 1410هـ (7 جوان 1990م).

فيصف الكاتب ذلك وصفا أخويا فيه انسجام وودّ وحبّ لجوّ روحي فكري توّحدت فيه المشاعر وتألّقت القيم الدينية والوطنية كرابطة بين الجميع مما عمل طويلا في حقله الشيخ (القرادي) نفسه «كانت الكلمات الحافلة بالذكريات العطرة عن الشيخ الفقيد وغالبا ما كان يتخلّل هذه الكلمات الذكرياتية الاجهاش بالبكاء وانهمار الدموع الحارة ممّا أثّر على جميع الحاضرين وهو يستمع إلى صديق مخلص للفقيد يقصّ مواقفه الوطنية والانسانية بعبارات مليئة بالحزن المبرح والألم الدفين».

ثم يتحدث الكاتب عن الجو الثقافي ودور (ميزاب) وطنيا في الحفاظ على العربية والدفاع عن الاسلام.

و (ميزاب) إلى ذلك: «محافظة على تقاليد اجتماعية... قد أخذت تتلاشى في أماكن أخرى تاركة مكانها لواردات غريبة يبدو أنها غير منسجمة مع عقلية شعبنا».

ويخرج الرحالة في الأخير مما سمع من محاضرات وخطب ومناقشات عن الشيخ (القرادي) باستنتاج قال فيه: ان ذلك «يجعله شخصية وطنية متميّزة في عالم الوطنية والأدب والدين» الأمر الذي يجعله جديرا بالمناسبة وبدراسة آثاره.

لقد وصف لنا الكاتب صلته بالمنطقة وصفا شائقا منذ كان متحفظا تجاه جهود الشيخ (محمد علي دبوز)(*) رحمه الله، وانتهاء بتعرّفه على

(*) 1337 ـ 1412هـ (1919 ـ 1981م) له عدّة مؤلفات منها:
ـ تاريخ المغرب الكبير، في ثلاثة أجزاء.
ـ نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، في ثلاثة أجزاء أيضا.
ـ أعلام الاصلاح في الجزائر، في خمسة أجزاء. وسيأتي التعريف به مفصلا في قسم التراجم.

المنطقة حيث أدرك أن جهد الرجل واهتمامه الشديد كانا في محلّهما لما يزخر به (ميزاب) من تراث وما نهضت به المنطقة من جهود في الدفاع عن العروبة والاسلام، برعاية لغة القرآن والتمسك بالاسلام.

لذا يرى الكاتب أن الفرصة التي أتيحت له فيها زيارة (ميزاب) «من أحسن الصدف» تعرّف فيها على كثير من الجوانب المختلفة اضافة إلى الجانب الثقافي الخالص حيث ذوبان الفروق الطبقية ذاتها في المسجد نفسه «الكتف إلى جانب الكتف، بدون منصّة ولا كراسي ولا ممرّات» وهذا ينتهي به في الأخير إلى حكم يقول فيه: «من أبرز ما لاحظته في هذا الصدد ونحن بميزاب أن (الديمقراطية) بالمفهوم الجزائري كانت ممثلة في نظام الجلوس وفي وجبات الطعام وفي نمط اللباس. فأنت تحسّ بأن هناك مساواة نشيطة بالمفهوم الاسلامي الأول. الكلّ يجلس حيث انتهى به المجلس والكل يأكل من طعام واحد وبتقشف أيضا، والكل يلبس لباسا متشابها في القيمة والزيّ، وتكاليف الضيوف بما فيهم بنو ميزاب أنفسهم على العشيرة».

هكذا يبدو الكاتب مغتبطا بالجوّ الثقافي والاجتماعي، سعيدا بهذه التجربة الانسانية حيث بدت له منطقة (ميزاب) كلها ذات مسؤولية وطنية ودور قومي متميّز في حماية لغة الوطن والدفاع عن دينه والتمكين له في نفوس الأجيال: «عندما تتبارى المدن والنواحي الجزائرية في ميدان العلم والأدب وحلبة العروبة والاسلام ومضمار الوفاء لسدنة هذه الثوابت ستقف ميزاب في الطليعة بدون منازع، وقد قلت لاخواننا الميزابيين: ان غيركم يقعقع ولكن بدون ماء ويجعجع كثيرا ولكن بدون طحن. أما أنتم فلكم الفيض من الماء والعرم من الطحن، ومن حقكم على الجزائر أن تعرف ماءكم وطحنكم وأن تتغذّى منكم كل الجهات والنواحي. ومن حق الجزائر عليكم أن تمدّوها بما عندكم من رصيد في الأدب والعلم والتضامن والجدّ، ومن روح المبادرة والوفاء وفوق كل ذلك ما عندكم من غيرة عمرية على تراث الاسلام ولغة القرآن».

وهكذا أعطى الكاتب صورة معبّرة عن الحدث وظلاله وما زخر به من دلالات كثيرة بعمقها الاجتماعي والديني والثقافي الخالص.

ويمكن القول: إن هذه الرحلة أثّرت تجربة الكاتب كما أعادت إليه الثقة في المستقبل والأمل فيه لما يمكن أن تنهض به المنطقة في حمّى التكالب على قيم الوطن وانتمائه الحضاري بمعاول (الثلاثي) المستأسد: النزعة البربرية وحليفاها التيار الشيوعي والأخطبوط الفرنكفوني الأمر الذي جعله قبلا — كما قال — يضع يده على قلبه خوفا من فعله وأثره، ثم أدرك — كما بدا له أيضا بعد — في هذه الرحلة أن معاول الشرّ تلك لن تفتّ في ساعد وطن له حماة، حماة لغته ودينه أساسا حيث تنهض منطقة (ميزاب) في ذلك بدور متميّز يتمنّى الكاتب أن يتضاعف وينتشر لما للمنطقة من مسؤولية رئيسية.

ومهما يكن من شيء فان بدت رحلات (سعدآلله) الداخلية أقل حجما من رحلاته الخارجية كما سنرى في بابه، فانها رغم ذلك تأتي متميزة لما تعبّر عنه من اهتمامات الرجل الوطنية والخاصة التي تجتذبه فيها الجوانب الثقافية والاجتماعية بعمق فكري سياسي، كما تعبّر عن حبّه الترحال وميله الشديد إلى كتابة الرحلة التي لا تكتفي عنده بوصف حيادي كشأن بعض الرّحالين العاديين بل تتعدّى الوصف إلى تضمين الرحلة مشاعره الخاصة ومواقفه الفكرية في بعض الأمور مهما كانت قليلة الأهمية. وهو في ذلك لا يحيل على مصادر ومراجع يستفتيها، بل يعتمد المشاهدة فيقدم انطباعه ويعلن أحاسيسه في طابعها الوطني والانساني والشخصي، ولا يقدم دروسا في فنّ من الفنون أو علم تاريخ أو جغرافية كما قد يفعل بعض، مما يمكن أن يفقد الرحلة خفتها ورونقها ونبض الحياة فيها، وقد يحليها في مواضع إلى دروس مكثفة تستوجب الجهد والاستيعاب.

تضاف إلى هذا رحلات أخرى مما قد يكون فاتنا الاطلاع عليه، من دون أن نتجاهل تماما — كما قد يزعُم بعض رئاه — رحلات أيضا لمؤلف هذا

الكتاب نفسه وقد باتت ملكا للقراء بعد نشر أكثرها في جريدة (الشعب) سواء في ذلك الرحلة الداخلية والخارجية.

رحلات ابن قينة:

نلقي إذن في هذا الفصل نظرة في المنشور من رحلاته الداخلية، وأولها القسم الذي عنونه بقوله: «مقاطع من رحلة... جنوبية جانبية»(1) شرع يصف فيها الطريق الرابط بين (المسيلة) و (امجدل) عبر مدينة (بوسعادة) في الجنوب التي بادر بتسجيل انطباعاته على مشارفها، وقد امتزج الانطباع بطيف ذكرى حيث «بدت شجيرات باسقة تحت ضوء القمر انعشت في النفس ذكرى لها من العمر خمس وعشرون سنة، تراود المرء في كثير من المواقف رغبة في القبض على الذكرى بكلتا يديه»(2).

وتستمر الرحلة في وصف الطريق إلى (امجدل) مرورا بقرية (تامسة) حيث يسجّل الاهمال الذي تعانيه المنطقة.

وبدا هذا الوضع وثيق الصلة بكلّ مظاهر الاهمال الذي لحق مثل هذه المنطقة في الجنوب، في المرافق العمومية ووسائل النقل والاعلام أيضا: «انها العزلة الخانقة على أكثر من صعيد، فحتّى الصحف الوطنية ليس لها كشك للبيع، ويكاد المواطن لا يرى لها لونا»(3).

---

(1) نشر هذا القسم في أربع حلقات من جريدة (الشعب):
ــ الحلقة الأولى في 12 ذو القعدة 1410هـ (5 جوان 1990م).
ــ الحلقة الثانية في 13 ذو القعدة 10د1هـ (6 جوان 1990م).
ــ الحلقة الثالثة (14 ذو القعدة 1410هـ (7 جوان 1990م).
ــ الحلقة الرابعة في 16 ذو القعدة 1410هـ (9 جوان 1990م).

(2) الشعب الحلقة الأولى، العدد: 8271، الصادر في 12 ذو القعدة 1410هـ (5 جوان 1990م).

(3) الشعب الحلقة الثالثة، العدد: 8273 الصادر في 14 ذو القعدة 1410هـ (7 جوان 1990م).

ثم تأتي رحلة أخرى في هذا القسم يتحدث فيها صاحبها عن مدينة أخرى هي (الهامل)؛ «فيتحدث لأول مرة عن الجانب التاريخي حين يتحدث عن (زاوية الهامل) فيذكر نبذة عنها، تاريخ تأسيس الزاوية ومؤسسها وملامح التوسّع العمراني البسيط الذي بدا متداخلا، لكنه يذكر ان «طابع الاهمال والتخلف عن ركب التطور في وتيرة التنمية الوطنية تبقى ملامح بادية»(1) في الأرض وملامح الانسان وجدران بيته. ولم يهمل الكاتب الحديث عمّا عانت المدينة أثناء الاحتلال، خاصة أثناء الكفاح المسلح (1954 — 1962م) كسائر مناطق الوطن، إضافة إلى جهادها في نشر الثقافة العربية والدفاع عن الاسلام «وان نجح الاحتلال في شيء فإنه لم ينجح هنا في المّس بالعربية والاسلام، فعمل إذن على حصر آثارهما في اطار تقليدي لم يتأخر هذا رغم ذلك في أن يفجّر وعي المواطن الجزائري بحريته وكرامته، في دينه ولغة عقيدته».

هذا القسم من هذه الرحلات الجنوبية يجد امتدادا له بملامح مشابهة تقريبا في قسم ثان نشره الكاتب في جريدة (الشعب) أيضا تحت عنوان «في ثنايا الجنوب الوديع الحالم»(2) وهي رحلة إلى ولاية (الجلفة) سجّل فيها أفكاره عن المنطقة وبعضا من خواطره عمّا شاهد وسمع، كما سجّل بعضا من ذكرياته التي لم تتأخر في اعلان حضورها للمناسبة(3).

وقد برز هنا بوضوح الموقف الايجابي من المدينة وانسانها، كما بدا (الكاتب) سعيدا بجولة في موقع من (السّدّ الأخضر) على مشارفها، مسجلا هنا موقفا جاء التعبير عنه عرضا في مناسبة حضوره صيفا إلى الجنوب

---

(1) الشعب، الحلقة الرابعة، العدد: 8274 الصادر في 16 ذو القعدة 1410هـ (9 جوان 1990م).

(2) نشر هذا القسم في حلقتين اثنتين من (الشعب) الأولى في 16 صفر 1411هـ (6 سبتمبر 1990م). والثانية في 11 ربيع الأول 1411هـ (30 سبتمبر 1990م).

(3) الشعب، الحلقة الأولى، 16 صفر 1411هـ (6 سبتمبر 1990م).

«حيث أتَّجهُ غالبا صيفا بينما يمعن آخرون في الاتجاه بعيدا شمالا، ربما بعيدا جدا فيما وراء البحار، مهما كانت المخاطر على الكرامة الوطنية والشخصية وتنوّعها»(٥). وهذا الموقف مرتبط من دون شك بالظروف غير اللائقة التي كان يتم فيها الحصول على التأشيرة من معظم القنصليات الأوروبية وأهمّها قنصليات (فرنسا) وهي ظروف غير انسانية نلاحظ ادانتها المباشرة هنا، وهي إدانة أيضا للظروف التي انتهت بالمواطن إلى هذا الوضع المخزي، وربما بدا للنظام السياسي دوره في ذلك.

هذه الادانة لا تلبث حتى تتّجه من جانب آخر إلى السياسة التي اتّبعها النظام في تجاهل مناطق من الوطن أبقاها في عزلة، كما نلمس ذلك في الحديث الذي كان حول مائدة صديق في جلسة العشاء عن أمور كثيرة «تثير الدهشة الشيء الذي جعل شيخ الجلسة يعلّق بقوله (ليس وراء الجلفة الاّ العرقوب) وهو يقصد التيه، والأرض الخراب، أي الافتقار لكلّ شيء في مجال الخدمات العامة وغيرها، إضافة إلى قلّة المشاريع لا ذات المدى القريب ولا ذات المدى البعيد، وهنا يتساءل كثيرون بمرارة موجعة: ما معنى أن أبقى مضطرا دائما لارسال ابنتي بعد البكالوريا من (مسعد) أو (الجلفة) أو (الأغواط) على بعد أكثر من أربعمئة كلم.... للعاصمة أو لتيزي وزو لتعيش الصّقيع وتتمزق وتعاني كما يعاني أهلها بحثا عن مأوى ومكابدة الدراسة وتقطع الأنفاس في الذهاب والأياب» وقد ركز الكاتب على هذا الموقف مقدرا حجم المعاناة التي يكابدها المواطن، معرّجا على بعض الذكريات في (عين الإبل)(١).

---

(٥) ظاهرة التزاحم في طوابير للحصول على التأشيرة كان يحسّ تجاهها كثير من الجزائريين بضرب من الاذلال للانسان الجزائري الذي امتهنت كرامته، ودفع به عبر سياسات خلفية فيما يبدو، إلى هذا الوضع المزري، حتى غدا التدافع على «التأشيرة» خاصة إلى فرنسا أمرا مألوفا، وهي ظاهرة أمرها متروك للمختصين الاجتماعيين في هذا المجال، وقد يكونون هم أنفسهم في حالة احباط يشغلهم هاجس الصراع في معاشهم اليومي عن التفكير والبحث والكتابة.

(1) في ثنايا الجنوب الوديع الحالم، د. عمر بن قينه، الشعب، الحلقة الثانية، الصادرة في 11 ربيع الأول 1411هـ (30 سبتمبر 1990م).

أما في (مسعد) فان التنقل عبر ساحاتها المهملة وشوارعها الضيقة المتربة تعبرها مجاري صرف مياه مكشوفة تستفزّ صاحب الرحلة فيعبّر عن سخطه بأكثر من شكل، وفي أكثر من فقرة، كما يبدي تقديرا من جهة أخرى للاسهام الذي قدّمته المنطقة في ثورة التحرير، وادانته الظلم الذي لحقها من السلطة منذ الاستقلال ممثلا في تجاهلها مهمشة في زاوية الاهمال.

ولعلّ أول ما يلاحظه القارىء في هذه الرحلات بقسميها هو النفوذ الذي مارسته الذكريات[1]، وهي تلتقي مع رحلات (سعد آلله) في كونها مما كتب بعد الاستقلال، وممّا جسّد جانبا من الضيم الذي لحق بعض المناطق في الوطن خاصة منها جنوبه وشرقه حيث يشمخ (الأوارس) اليوم كما كان أمس، ويبقى مع ذلك مواطنه اليوم يحلم بنقطة ضوء وقطرة ماء من اسم (الاستقلال) الذي مات من أجله آلاف الشهداء من المنطقة نفسها، فبدا أنّ قوى خفية اغتصبته بعد ذلك، وعملت على اجهاض الحلم الوطني الكبير في وطن متحرّر متطوّر سعيد، يعيش فيه كل مواطنيه سعداء آمنين راضين في ظلّ العدالة والوفاء والاخلاص والتمسّك بانتمائه الحضاري الذي جاهد من أجله الجزائريون قرنا ونصف قرن قوى الاحتلال الغربي.

1) مقاطع من رحلة جنوبية جانبية، عمر بن قينة، الشعب، الحلقة الأولى، 12 ذو القعدة 1410هـ (5 جوان 1990م).

خـــلاصـــة

مما سبق في هذا الفصل يمكن القول أن الرحلة الداخلية شملت في اتّجاهاتها مختلف جهات الوطن عموما (شرقا وغربا، جنوبا وشمالا) وعالجت قضايا كثيرة مختلفة: اجتماعية ثقافية اقتصادية سياسية، وقد كانت معظم منطلقاتها من (الجزائر) العاصمة، ومن (قسنطينة) تأتي بعد ذلك مدينة (سطيف) في مقدمة المدن التي تردّد عليها الرّحّالون.

وقد برز في كثير من الرحلات الحرص على توعية الناس وارشادهم في أمور دينهم ودنياهم، فكان لذلك الجهد منصبّا بالدرجة الأولى على المحاضرات والدروس، والحثّ على بناء المساجد والمدارس، ثم التّعريف بجمعية العلماء وأهدافها ونشاطها ومجالاتها، فالتركيز على أهمية العلم والدّين واللغة في مناسبات مختلفة في كثير من الرحلات، للحفاظ على الهوية الوطنية التي تجمع كل الجزائريين (المتمثلة في العربية لغة والاسلام دينا والجزائر وطنا).

فنلاحظ بروز الاتجاه الاصلاحي بشكل واضح في هذه الرحلات الداخلية حيث العمل على توعية المواطن للخروج من الجهل والتخلف والتنديد بالطرقية وأساليب الشعوذة، بأشكال تختلف بين الرّحّالين في مستوى المواجهة، مرونة عند (ابن باديس) وشدّة عند (الميلي) مثلا، كما نلاحظ الحثّ على التمسّك بما يوحّد الأمة ويمنحها القوة والمنعة، إلى جانب التنديد بالصراع القبلي والعشائري الذي كان يغذّيه الاستعمار، مثلما هو التنديد بأشكال سياسة الجهوية ابّان الاحتلال وبعد التحرير.

فكانت هذه الرحلات الداخلية جميعها تطمح إلى بناء حسّ وطني بمختلف أبعاده، ينهض به وطن قوي حرّ مزدهر، يسعد فيه جميع أبنائه،

ويتوفّر فيه لكل مواطن في كل جهة عزّة وكرامة في كنف العدالة والمساواة في محيط اجتماعي وسياسي سليم، يتعاون فيه الجميع ويتّحدون، وتتراجع فيه مختلف الآفات الاجتماعية التي شجّعها الاستعمار مثل البغاء والقمار وتعاطي الكحول، وغيرها، مثل الصراعات القبلية والايقاع بين الفئات الاجتماعية.

وان تنوّعت الاهتمامات في هذه الرحلات فركّز بعضها على أشياء كما ركّز بعضها على أخرى لكنها جميعا ضمّنها كتّابها مشاهداتهم وانطباعاتهم عن الأوضاع والأماكن والأشخاص، وهنا اختلفت أيضا درجة الاهتمام في الحديث عن الأشخاص ومناصبهم، فمنهم من تحدّث عمّن لقيه باسهاب وهناك من تحدث عنهم باختصار، وكان عند بعض اختصارا شديدا.

والملاحظ في كل ذلك أنها رحلات نقلت مشاعر أصحابها وانطباعاتهم وآراءهم من دون الاعتماد على مراجع تعرّف بمنطقة أو تعالج قضية جوهرية في الرحلة أو تتوقف عند شرح أمر معيّن طويلا، فكان المصدر الأساسي للجميع الاحتكاك المباشر بالمحيط والنّاس، فحملت الرحلات رؤاهم وعواطفهم وأحاسيسهم، وأحكامهم النابعة من قناعة عن تجربة، وقد عكست ممّا عكست كثيرا من الأوضاع، كما عكست عادات وتقاليد في مجتمعنا احتلّ فيها الكرم والضيافة ظاهرة جوهرية في جميع الرحلات، حيث تحدّث الجميع عن مآدب الطعام وجلسات القهوة والشاي التي يُخصّ بها كاتب الرحلة من مستقبليه، أصدقاء أو مواطنين أو من أعيان المدينة أو رجالها في الثقافة والدين والسياسة أو غيرها. وهو أمر ذو صلة عميقة بالتقاليد العربية حيث كان اكرام الضيف واجبا اجتماعيا عند العرب عموما فـ«تمدّحوا من أقدم أزمنتهم بالقرى وعدّوه من أعظم مفاخرهم، لأنه شريعة الطبيعة التي أدّبتهم هذا الأدب، بل هو شعرها في أخلاقهم، إذ ارتقى بعد ذلك بارتقاء الشعر حتى تخرّقوا فيه كما يؤثر عن كرمائهم وأجدادهم»(1).

---

1) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ج1، ص: 31، ط 4، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان) 1394هـ (1974م).

وقد كان اكرام الضيف نفسه تجسيدا للروح العربية الانسانية، زادها الاسلام تمكينا، فكانت أيضا «ممّا سهّل الرّحلات وشجّع على القيام بها»[1].

لذا فباستثناء بعض الصور المحدودة لمدن بدت تكتسي طابعا أوروبيا فان الملامح العامة كما بدت في هذه الرحلة الداخلية لمناطق من الوطن هي ملامح مدن عربية وريف عربي أصيل بكل ملامح الأصالة: اباء وكرما، وطيبة وتآزرا وحبّا واخاء.

(1) الرحالة المسلمون، الأعمال الكاملة، رقم 8، د. زكي محمد حسن، ص: 11، دار الرائد العربي، بيروت (لبنان) 1401هـ (1981م).

الفصل الثاني

الرّحلة في اتّجاه الوطن العربي والإسلامي

اتخذت الرحلة خارج الجزائر — خلال هذا القرن — عدّة اتجاهات حظي فيها الاتّجاه نحو العالم الإسلامي ومنه الوطن العربي بالنّصيب الأوفر خاصة في حجم الرحلات ثم عدد الرحالين أو الذين كتبوا الرحلة عموما. وان بلغ عدد الذين كتبوا رحلات أساسية ونشروها(1) في هذا الاطار نحو عشرة كما يرد في هذا الفصل فان عدد الرحلات كثير وحجمها يختلف اختلافا كبيرا من كاتب إلى آخر كما تختلف مستويات التعبير وطرائقه بينهم، وكذا الاهتمامات والمشارب والمقاصد إضافة إلى اختلاف الأقطار وتعدّدها: من كاتب يتّسع مجال رحلاته هنا ويتنوع فيكتب عن أكثرها إلى آخر قد تتكرّر رحلاته أيضا لكن كتابته تقتصر على بعضها في قطر واحد أو قطرين اثنين أو منطقة معينة. وهذا يعني أن أحدهم قد يكتب عن بعض رحلاته المختلفة ويحدث ألاّ يكتب ثان من رحلاته العديدة الاّ رحلة أو رحلتين، لأسباب كثيرة، منها الأسباب الذاتية الخاصة بالكاتب وتفكيره وتكوينه وميوله، ومنها العامة، الخاصّة بالمحيط الاجتماعي والثقافي والفكري، ويبقى لمستوى التجربة دور مهمّ في أن تتحوّل الرحلة إلى عمل مكتوب ميسور التداول بين الناس، يحمل انطباعات ورؤى وتصوّرات ومشاعر ومواقف أيضا.

(1) أعتذر بهذا كي أوضح ما قد يكون هناك من رحلات كتبها أصحابها ولم ينشروها، ففاتنا الاطلاع عليها. كما أؤكد أيضا بأن كتابة مؤلف رحلة واحدة لا يعني بالضرورة أنها رحلته الوحيدة في العالم الإسلامي ومنه الوطن العربي، وانما هنالك عوامل وظروف شجعته على كتابة رحلة لم تتوفر لتتوج رحلات غيرها سابقا أو لاحقا بتحويلها إلى نص متداول يحمل انطباعاته ورؤاه.

ولعلّ في مقدّمة الذين كتبوا عن رحلاتهم(*) خارج (الجزائر) (ابن باديس) رغم أنه لم يكتب في هذا الاطار سوى رحلتين اثنتين، احداهما إلى (باريس) كما سيأتي في الفصل الثالث والأخرى إلى (تونس) ممّا يدخل في صميم هذا الفصل، يليه في ذلك (حمزة بوكوشة) و (محمد البشير الابراهيمي) و (محمد الغسيري) و (عثمان سعدي) و (محمد علي دبوز) و (توفيق المدني) و (أبو القاسم سعدآلله) و (محمد ناصر) و (عمر بن قينه).

سنحرص على معالجة الجوانب العامّة في رحلات هؤلاء الكتاب مع مراعاة الاختصار الشديد في الرحلات التي لها طابع مميّز: (ثقافي) أو (سياسي) أو غيره كي نعود إليه بشكل خاصّ من زاوية أخرى محددة في إطاره المعيّن في بحث آخر.

رحلة (ابن باديس):

قام (ابن باديس) برحلة إلى (تونس) في ربيع الأول 1356 (1937م) للمشاركة في احياء لذكرى أحد أساتذته من رجال العلم والتعليم في (تونس) هو الشيخ (البشير صفر)[1].

ويبدو من نصّ الرحلة أنّ ذلك كان تحت إشراف جمعيتين جزائريتين(*) في (تونس) فأتاح له ذلك فرصة طيبة حيث حظي كما قال

(*) دائما باعتبار النشر بشكل عام، من دون أن يكون لذلك دلالة السبق الفعلي أو الأهمية مهما كانت ضبيعتها.

(1) نشرت الرحلة أصلا في مجلة «الشهاب» ج: 5، م: 13، الصادرة في الأول من جمادى الأولى 1356هـ (جويلية 1937م)، كما نشر نص محاضرته في البصائر 1356هـ (1937م) وتضمنها الجزء الرابع من كتاب (ابن باديس: حياته وآثاره)، ص: 330 — 336.

(*) جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين بتونس، والجمعية الودادية الجزائرية الاسلامية بتونس، فالأولى طالبية خالصة، والثانية من الجزائريين عموما تجارا وعمالا وغيرهم.

«بلقاء الكثيرين من رجال العلم والأدب والسياسة ورجال الأعمال والعمال، من كانت تونس بهم وبأمثالهم عروس الشمال الافريقي وواسطة عقد وحدته»(1).

والكلمة الأخيرة توحي بقصده من الرحلة لاعتبارها احدى الوسائل في التمكين للفكر الوحدوي، لذا أدرج عنوان رحلته الذي هو «في تونس العزيزة» تحت عنوان عام هو «في سبيل الوحدة» وهي الفكرة التي ألحّ عليها في حديثه وشغلته في تفكيره، وعبّر عنها في محاضرته معتبرا نفسه بكل تواضع «جنديا من جنود الاسلام والعروبة في القطر الجزائري... أحمل تحيات الأمة الجزائرية إلى شقيقتها الأمة التونسية، ومشاركة الجزائر لتونس في هذه الذكرى الطيبة وهذا الحفل الكريم»(2) فكما تحدّث في محاضرته عن السياسة والثقافة تحدّث في أمر يجمعهما، فألحّ عليه وهو التضامن والوحدة كضرورة حتمية بين أقطار المغرب العربي «ان الجمعيتين اختارتا أن يكون الكلام عن الجزائر، وأنا أحبّ أن يكون الحديث عن عموم المغرب العربي، لأني أومن بأنّ هذا الشمال الافريقي لا ينهض الا بتضامنه مع بعضه بعضا. لكن إذا تحدّثت عن الجزائر فانّما أتحدّث عن جزء من كلّ، وأذكر عن الأخ ما يسرّ أخاه»(3).

من هذا المنطلق عرض للحالة السياسية والوضع الثقافي في الجزائر.

لكن الملاحظ في هذه الرحلة انها فقيرة جدا في نقل انطباعات صاحبها عن الوضع في (تونس) وعن الرجال الذين التقاهم، فهو لم يحدثنا

---

(1) ابن باديس: حياته وآثاره، إعداد: عمار طالبي، ج: 4، ص: 325، دار مكتبة الشركة الجزائرية للكتاب؛ للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط: 1، سنة 1388هـ (1968م).

(2) المصدر السابق، ص: 327.

(3) المصدر السابق، ص: 331.

عن احتكاكه بالمحيط، وما جرى في لقاءاته بالناس مثقفين وغيرهم، مكتفيا بذكر المناسبة. والثناء على صاحب الذكرى معترفا بجميله عليه كأستاذ له أرشده إلى الاطلاع على تاريخ أمته وزرع في صدره كما قال حبّ العمل للنهوض بأمته.

غير أننا رغم ذلك لا نعدم فيها مسحة الفن: رقّة مشاعر، وصياغة أدبية في لحظة ما من شعور بالطمأنينة والسمو خاصة في قوله «ان لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه الاّ هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصدر ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب، لا أجد مثلها إلا في ربوعهما»(1).

وهكذا تبرز هنا احدى الصور الأدبية في أسلوب (ابن باديس) الذي يغلب عليه عموما الطابع التقريري ذو السمة العلمية. فعكس حبّه (تونس) التي عرفها طالبا كما عكس الارتباط الروحي لدلالات المكان الحضارية كما هو الشأن أيضا بالنسبة إلى (تلمسان) كواحدة من المراكز الثقافية الاسلامية في المغرب العربي التي تربطه أيضا علاقات مودّة بأهلها وتقدير.

عبرت هذه الرحلة في النهاية عن ضرورة التواصل بين أجيال الأمة العربية الواحدة، كما عبّرت عن حتمية التعارف والتقارب والتعاون بين أبنائها ليكون ذلك لبنة أساسية لبناء وحدتهم وازدهارهم في اطار حضارتهم الاسلامية.

رحلة (بوكوشه):

رحلة (حمزة بوكوشه) إلى (المغرب الأقصى) نشرها في حلقتين اثنتين من جريدة (البصائر) في أفريل 1948م، عنوان الحلقة الأولى (أربعون يوما

---

(1) المصدر السابق، ص: 325.

في المغرب الأقصى»[1] أما عنوان الحلقة الثانية فهو «الجمعيات الجزائرية بالمغرب الأقصى»[2] وهما وان جاءتا في سياق واحد فان الأولى اهتم فيها بانطباعاته عن (المغرب) والمغاربة والتعليم والثقافة، أما الثانية فقد استقلت بالحديث عن الجمعيات الجزائرية التي يبرز فيها دور الطالب واضحا: طالبا جادا دؤوبا ذا سلوك مشرّف، مع العلم أننا لا نجد في الحلقة الأولى اشارة إلى حلقة لاحقة، أو حديث سيتبع سابقا، كما لا نجد في الحلقة الثانية إشارة إلى الأولى تقصيرا من الجريدة أو من الكاتب، وربما كان الأمر بدءا في الحلقة الأولى تردّدا من الكاتب الذي لم يكن واثقا من انجاز الحلقة الثانية قريبا فقال في نهاية الحلقة الأولى «لعلّ الوقت يتّسع لكتابة تفاصيل لهذه الاجمالات مرة أخرى»[3] لكنه أنجز الحلقة في العدد التالي بعد أسبوع ولم ينبّه إلى سابقه، كما لم تفعل الجريدة. عدم الاشارة في الحلقة الأولى إلى ثانية على وجه اليقين يبدو أنه مما جعل باحثا يكتفي بذكر الحلقة الأولى قائلا «بالرغم من أن حمزة بوكوشة[*] كتب فصلا واحدا فقط حول رحلة دامت أربعين يوما فإنه استطاع أن يعطي القارىء الجزائري فكرة واضحة مصغرة عن الأحوال العامة في المغرب الأقصى الشقيق»[4].

(1) البصائر، السنة الثانية، السلسلة الثانية، العدد: 31 الصادر في: 2 جمادى الثانية، 1367هـ (12 أفريل 1948م).

(2) البصائر، السنة: 2، السلسلة، 2 العدد: 32 الصادر في 9 جمادى الثانية، 1367هـ (19 أفريل 1948م).

(3) البصائر، السنة: 2، السلسلة، 2، عدد: 31، الصادر في 2 جمادى الثانية 1367هـ (12 أفريل 1948م).

(*) في نصّ المصدر (بوكوسه) أي بالسين، وهو خطأ مطبعي، واللقب الحقيقي (بوشنوف) فيكون الاسم الكامل (حمزة بوشنوف) ــ صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، عمر بن قينة، ص: 348، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

(4) فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931 ــ 1954م، عبدالملك مرتاض، ص: 299، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

تبدأ الحلقة الأولى التي عنوانها ((أربعون يوما في المغرب الأقصى)) بذكر ما يراه الكاتب من فضل للمغرب الأقصى على المغرب العربي كلّه، بما أنتجه القطر من كتب في الثقافة الاسلامية وما قدّمه رجاله في هذا الميدان من مؤلفات باتت زادا أساسيا للطالب في المغرب العربي كما صارت أداة تدريس في جامع (الزيتونة) نفسه بتونس «فللمغرب الأقصى يد في تكوين مالدينا من الثقافة الاسلامية وان بعد عهدها، وهو النافذة التي كانت تشعّ علينا منها الحضارة الأندلسية في القديم»(1) ثم ينطلق متحدثا عن اتّصالاته خاصة برجال الثقافة والتعليم معلنا انطباعاته في جميع الحالات عن أوضاع وشخصيات.

أما عن دوافع الرحلة فهو يذكر أنها مآرب تجارية وحبّ اطّلاع، وان كان حبّ الاطلاع أمرا عاما استحوذ فيه الجانب الثقافي على اهتمام الكاتب وتفكيره كما ظهر في الرحلة بحلقتيها فانّ المآرب التجارية تبقى أمرا غامضا، لكنها تنبه في الوقت نفسه إلى محاولة عمله في التجارة التي يبدو أنّه لم يخلق لها، كما نلاحظ في كلام (أحمد رضا حوحو) عنه حين خصّه بحديث في ركنه الأسبوعي الخاص (في الميزان) (بجريدة البصائر) فقال عنه: إنه اليوم «تاجر تمور ولكنه غير ناجح، لأنّ تجارته هواية لا احتراف، ولهذا نجده في فصل الخريف، تاجر تمور وفي فصل الشتاء تاجر قدور، وهو يمارس هاتين التجارتين على طريقته الأدبية، فيسمّي تجارة الخريف نثرا والأخرى شعرا... تاجر لا يحسن التجارة ولا يؤمن بها، اشتغل بها خطأ واستمرّ في هذا الخطإ عن إصرار وعناد»(2).

---

(1) البصائر، السنة 2، السلسلة: 2، عدد: 31، الصادر في جمادى الثانية 1367هـ (12 أفريل 1948م).

(2) البصائر، السنة: 6، السلسلة: 2، عدد: 268، الصادر في 2 شعبان 1373هـ (23 أفريل 1954م).

في هذا الإطار إذن يمكن أن تكون تلك (المآرب التجارية) خاصة انه كان عضوا في شركة تدعى «آمال» وربما كانت رحلته كممثل لفرعها في (وهران)( )، موفداً في مهمة أهملها وانصرف يحدّثنا عن جوانب عامة في المغرب خاصة منها الحياة الثقافية وعواصهما الفكرية.

وكانت أول محطّة (فاس) حيث التقى الشيخ (ابراهيم الكتاني) الذي عرّفه بالمؤسسات العلمية في (فاس) وبرجال الثقافة فيها، منهم رئيس جامعة القرويين الدكتور (محمد الفاسي) الذي كما قال عنه «سحرني بلطفه وظرفه، وسألني عن الجزائر ونهضتها العلمية، وعن معهد عبدالحميد بن باديس وكيفية ارتباطه بجامع الزيتونة. وأبدى ارتياحه واستعداده للمساعدة الأدبية لتلامذة معهد ابن باديس إذا ما أرادوا الالتحاق بالقرويين. وسألني سؤال متشوّق عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو معجب بأعمالها وثبات رجالها وكفاحها في نشر العروبة والاسلام»(1).

ثم يتحدث عن طوافه بحلقات الدروس في (القرويين) طيلة يومين بمساعدة الكاتب العام للجامعة، فرأى العديد من الطلبة من خارج (المغرب) مثل (السينغال) و (الجزائر) نفسها التي ذكر أن طلابها كانوا القدوة الحسنة، فعدّلوا الصورة المشوهة عن (الجزائر) لدى إخوانهم

( ) هي شركة أهلية تكونت بعد الحرب العالمية الثانية يرأس هيئتها شخص يسمى(عباس التركي) مع (محمد الابراهيمي) بن الشيخ (محمد البشير الابراهيمي). وكان لها فرع آخر في (قسنطينة) أما مقرّها المركزي فهو في الجزائر العاصمة، قرب مبنى المسرح في العاصمة الجزائرية.
وقد كانت نواتها (جمعية التجار المسلمين) بقسنطينة في الثلاثينات برئاسة شخص يدعى (بلقاسم بوشجه).
استقيت هذه المعلومات من الأستاذ (محمد الصالح رمضان) صديق بوكوشة وذي الصلة العائلية به، في جلسة ببيته في (ابن عمر) بـ (القبة) ــ الجزائر العاصمة، بتاريخ 1990/11/15.

(1) البصائر، السنة، 2، السلسلة: 2، عدد: 31، الصادر في جمادى الثانية 1367هـ (12 أفريل 1948م).

في (المغرب) فكان هؤلاء الطلبة نخبة جيدة «محلّ تقدير عند اخواننا المغاربة لأنّها تتألم ممّا يتألّمون وتأمل ما يأملون».

كما تحدث عن زيارته مكتبة (القرويين) والمدارس الابتدائية في التعليم الحرّ الذي يلاقي ما يلاقيه هذا النوع من التعليم في (الجزائر) من عنت وارهاق.

أما المرحلة الثانية من الرحلة فهي (الرباط) حيث يتحدث عن زيارته جريدة (العلم) و (رسالة المغرب) فيجد لدى المثقفين اهتماما بالجزائر ونهضتها، وتقديرهم الدور الذي كانت تقوم به مجلة «الشهاب» خاصة، في الجزائر، وأثرها في نفوسهم، كما يذكر بعض الشخصيات التي التقاها مثل (محمد بن العربي العلوي) الذي لقي عنده تقديرا كبير ا ، كما أعجب الكاتب به «أصبحت كأنّي أحد أبنائه أو تلامذته المقربين».

وكانت آخر محطّة في الرحلة: (الدار البيضاء) كمدينة تجارية، فهي الوجه الاقتصادي المضيىء للمغرب، ساعدها موقعها على المحيط الأطلسي، و «سياسة الباب المفتوح» كما قال، وتجارها رجال مال سخّروا ممّا حباهم الله من مال في المشاريع الوطنية والخيرية وتنافسوا فيها. وهنا يعقد الكاتب ــ عرضا ــ مقارنة بين هؤلاء التجار ذوي النباهة والشجاعة والفضل وبين تجّار الجزائر في تقاعسهم وخورهم، فيقول في انطباعه عن ذلك كله «الدار البيضاء مركز تجاري عظيم لا نظير له بالشمال الافريقي... والمسلمون يشتغلون بالتجارة، ومن بينهم تجار بأتمّ معنى الكلمة، لهم ضلع كبير في الايراد والتّصدير، وإذا جلست حيث يجلس التجار بالدار البيضاء فانّك تسمع المليار يتردّد في المجالس وترى حوّالات الملايين تدور بينهم، وبجانب ذلك تسمع أن فلانا بنى مدرسة حرة تكلّفت عليه بثلاثين مليونا، وتسمع أن أرملة تتّفق مع الورثة على التنازل عن خمسين مليونا من الإرث ووضعها تحت تصرف الملك لينشىء بها مشروعا يحمل اسم زوجها، فأين أغنياء الجزائر الرعاديد من أولئك الصناديد؟».

لقد اعتبر الكاتب حديثه في الحلقة الأولى عن (فاس) و (الرباط) و (الدار البيضاء) «إجمالات عابرة عن رحلة قصيرة... لعل الوقت يتّسع لكتابة تفاصيل لهذه الاجمالات». وربما كان يعني «قصيرة» نصّها لا أيامها التي امتدت حتى بلغت أربعين يوما، لكنه من جهة أخرى لم ينتظر كثيرا الفرصة السانحة، فبادر بكتابة تلك التفاصيل ونشرها في الأسبوع الثاني تحت عنوان «الجمعيات الجزائرية بالمغرب الأقصى» حيث ذكر أنه منذ 1930 بدأت تتأسس بالمدن المغربية (جمعيات ودادية) لمساعدة المحتاجين، من أهمّها «جمعية فاس لوجودها جوار القرويين، وقد أخذت منذ سنة 1937 بيد الطالب الجزائري تمدّه بالاعانات وتذود عن أخلاقه، وجعلت صندوقا خاصا بالطالب الجزائري منفصلا عن صندوق المساكين»(1).

فتحدث الكاتب عن الاعانات التي تصل الجمعية، كما تحدث عن نشاطها المنظم وجهدها الكبير لتجنِّب الطالب الجزائري كثيرا من المشاكل الخاصة والعامة، لدرجة توفر معها للطالب الجزائري الوضع المناسب والعون المادي الذي يجعله يدرس في ظروف جيدة تفضل ظروف الزملاء في (تونس) فكانوا لذلك ــ كما يقول الكاتب ــ «بمنجاة من العداوات والإحن والمنازعات التي تصدّع بنيان الوحدة وتبثّ بذور الشقاق في صفوف العاملين، كما هو واقع لجمعية الطلبة الجزائريين بتونس، ومعظم أولئك الطلبة من عمالة(٭) (وهران) والقلة من عمالتي (الجزائر) و (قسنطينة).

وللطلبة لجنة تتكون منهم للسّهر على مصالحهم ورعاية شؤونهم في صلتها بالجمعية أو بادارة القرويين أو بالحكومة نفسها. كلّ ذلك تقديرا

---

(1) البصائر، السنة: 2، السلسلة: 2، العدد: 32، الصادر في 9 جمادى الثانية 1367هـ (12 أفريل 1948م).

(٭) كانت الجزائر قبل الاستقلال (في 1962) مقسمة اداريا إلى ثلاث مقاطعات أو مناطق تدعى: (عمالات). المقاطعة الغربية عاصمتها الادارية (وهران) ومقاطعة الوسط وعاصمتها الإدارية (الجزائر) أما المقاطعة الشرقية فعاصمتها (قسنطينة).

مهمة الطالب دارسا ورجل الوطن لاحقا، لأن طلبة العلم «هم الذين يوقظون الأمة من غفوتها، وينقذونها من كبوتها، ويطهّرون المجتمع من أدران الفسق والالحاد، ويكسرون أغلال الذلّ والاستعباد، وهم سدنة العروبة والاسلام وحماة الذمار بهذه الديار إذا أخلصوا لله وللوطن وسلموا من سوء التوجيه».

ثم يتحدث عن زيارته الطلبة في مساكنهم، والاختلاط بهم كما قال، فلا يلبث حتى يدرك أنهم «منسجمون غاية الانسجام وتتمثّل فيهم الرزانة والفطنة».

وهكذا كان معظم الحديث هنا عن جمعية (فاس) ودورها في السهر على رعاية الطلبة والتكفل بشؤونهم، وحرصها على توجيههم توجيها وطنيا يخدم أمتهم ووطنهم في اطاره الحضاري العربي الاسلامي، فنقل الكاتب لذلك حسهم القومي العربي الاسلامي، فكانوا أهلا لكلّ عون ورعاية، لما ينتظرهم من دور في النهوض بوطنهم.

تعتبر الحلقة الثانية من الرحلة إذن جزءا ثانيا خصّص للحديث عن الطلبة الجزائريين في المغرب وظروف دراستهم وعلاقاتهم ببعضهم ووطنهم، فبدا الطالب الجزائري هنا ــ في انطباعات الكاتب ــ مثاليا في انضباطه وأخلاقه، وفي حسّه القومي وشعوره الفياض بالمسؤولية التي ينتظر منه القيام بها مستقبلا.

حفظ الكاتب صورة عن وضع الطالب الجزائري يومئذٍ هنالك، في علاقته بمحيطه وبوطنه، صورة مصغّرة لكنّها قوية ودالة في الوقت نفسه عن جدية الطالب العصامي في تحدّي الظروف، وتقدير محيطه هنالك للعلم ورجاله، وتفاعل الكاتب مع ذلك المحيط وابتهاجه به.

وقد بدا وجود الطالب الجزائري في (المغرب) مثل وجوده في (تونس) جبهة ذات مهمتين أساسيتين: العمل بما يسهم في اليقظة الفكرية والسياسية في الجزائر، ودعم وحدة الفكر والأرض بين أبناء المغرب العربي، وقد بات النضال لردم الحدود التي اصطنعها الاحتلال الفرنسي، بين أقطار المغرب العربي أمرا حتميا كما برز في رحلة الكاتب، أثناء حديثه عن

الطلبة وعن الرجال الذين التقاهم من مثقّفي المغرب مما أضفى بعدا وحدويا على تفكير الكاتب وتعبيره أيضا وهو يذكّر بتلك الوحدة الطبيعية رغم الحدود المصطنعة، في قوله: «حدت بي مآرب تجارية وحب الاطلاع لزيارة هذه البلاد التي هي جزء من بلادنا لا يتجزأ رغم البغلين اللذين قالوا: انهما حاجزان بين الجزائر والمغرب، فقلت للبغلين: عدس... ودخلت المغرب»(1) فالوطن واحد لغة ودينا وتاريخا وأرضا، رغم «البغلين» هذه الكلمة التي كانت تطلق على الموقع الحدودي في التراب الجزائري بين (المغرب) و (الجزائر) وهو المركز الجمركي الذي كان يعرف باسم (بغلين)() وصار بعد الاستقلال هذا المركز الحدودي بين القطرين يحمل أخيرا اسم (العقيد لطفي).

أدان الكاتب هذا الحاجز الحدودي إدانة قوية حين قال: «قلت للبغلين عدس... ودخلت المغرب» وذلك تعبير عن الرفض الصارم لواقع حرص الاستعمار على تكرسيه، وإرادته لتجاوزه عنوة، فكلمة «عدس» التي هي اسم صوت لزجر (البغل) تعني الرفض لهذا الحاجز المطنع، كما تأتي بعدها جملة «دخلت المغرب» تعبيرا عن الإرادة والتّحدّي لتجاوز واقع يكرّسه الاستعمار لوضع العقبات وبثّ العوائق بين أبناء الأمة الواحدة.

إذن جسدت الرحلة قيم الترابط العميق بين أبناء المغرب العربي ليس من خلال شوق الكاتب لزيارة المغرب للاطلاع العام فحسب بل لما اسهم به هذا القطر في تغذية الحياة الفكرية في المغرب العربي عموما، وكذلك من خلال اهتمام مثقفي المغرب بالجزائر واغتباطهم بكفاحها ورجالها خاصة من (جمعية العلماء المسلمين) وما قامت به «الشهاب» من دور عربيّ إسلامي

.

(1) البصائر، السنة: 2، السلسلة: 2، العدد: 31.
( ) وينطق في التعبير الشعبي الدارج: «زوج أبغال».

[...] ـال والتوعية، وكذلك دور معهد (ابن باديس) في إشاعة العلم والمعرفة ومكافحة الأمية واعداد رجال الوطن إلى جانب مؤسسات أخرى مثل مدارس (جمعية العلماء) والمساجد الحرة.

كان القسم الأول من الرحلة عاما، وصف فيه الكاتب بعضا من ملامح المنطقة وانطباعاته عن المدن المغربية الثّلاث التي زارها والأشخاص الذين التقاهم، وسمات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في اطار من الأخلاق الاسلامية والتكافل الاجتماعي وحسن العلاقات الانسانية والحرص على التمكين للقيم التي هي جزء من حضارتنا بعمقها الانساني، مثل تشجيع التعليم واحترام رجاله بل اجلالهم، وبناء المساجد والمدارس والمنشآت الخيرية، والتكفّل بطلبة العلم وتيسير السبل لهم في معيشتهم ودراستهم.

وهذا عكست الرحلة في عمومها وضعا معينا في (المغرب) في سماته الاجتماعية والفكرية والنفسية المختلفة، قد تكون بسيطة لكنها دالة، قد تفلت من أصابع مؤرّخ أو تهمّش في عين باحث اجتماعي، أو تتراجع وتندثر لدى رجال الاحصاء، لكنها رصدت في عمق انساني دافىء بقلم أديب سائح متريّث لكنه مهتّم بأشياء من دون غيرها، مثل قضية الانتماء الواحد للأمة العربية متفاعل بهدوء مع القضية التي يتحدّث عنها بنسيج عام من مشاعره وقناعاته الفكرية. وان قلّ في الرحلة الرونق الأدبي والطلاوة الفنية فان الحسّ الوطني والقومي بقي سائدا يهلّل للوحدة والنهضة والتحرّر.

رحلات (محمد البشير الابراهيمي):

نشر للشيخ (محمد البشير الابراهيمي) في مجال الرحلات الخارجية رحلتان اثنتان، احداهما إلى (باريس) يرد ذكرها في الفصل اللاحق، والثانية الأهم داخل الوطن العربي والعالم الاسلامي (مصر)

و (باكستان) بعنوان «رحلتي إلى الأقطار الاسلامية»(1) في مطلع 1952م وهي رحلة تجد لها امتدادا بعد ذلك في سنة لاحقة بالقاهرة في انطباعاته العامة وآرائه وأشواقه إلى الجزائر في موضوعات مختلفة ممّا نشر معظمه في ابانه، كما سيأتي في النهاية.

افتتح موضوعه (رحلتي إلى الأقطار الاسلامية) بتحية إلى الجزائر وطنا وأمة، وفي مقدمة الأمة رجال العلم والتعليم «الحرس المتنقل في سبيل الحق، المتفرق لجمع القلوب على كلمة الحقّ»(2) وأعقب التحية بكلمة تمهيدية عن دوافع الرحلة الكثيرة التي ترجع إلى أصل واحد من أربعة عناصر. أولها: دراسة أحوال المسلمين وثانيها الاتصال المباشر بعلماء الدين الذين هم «أحق الطوائف بقيادة المسلمين إلى السعادة وجمع كلمتهم على الحق والخير إذا تسلّحت بما لا ينافي الاسلام من وسائل زمنها»(3) وثالثها دراسة الوضع في الحكومات الاسلامية، أما رابعها فالاطلاع على اهتمامات الشباب في هذه البلدان الاسلامية. ووراء ذلك كلّه «نوافل كثيرة أهمها: التعريف بجمعية العلماء وأعمالها للاسلام والعربية، والتعريف بالجزائر والشمال الافريقي كله»(4).

شرع يتحدث عن بداية الرحلة من (الجزائر) العاصمة في يوم 7 مارس 1952 إلى (مصر) عبر (باريس) و (رومة) ذاكرا مشيعيه في مطار (الجزائر) ومستقبليه في (باريس) ثم مشيعه المحامي، (أحمد بومنجل) من مطار (رومة) إلى (القاهرة).

(1) نشرها أولا في ست حلقات بجريدة (البصائر) السنة الخامسة، من السلسلة الثانية، سنة 1952م، في الأعداد التالية: 194، 197، 198، 200، 201. وأعيد نشرها في الجزء الرابع من آثاره، من صفحة 9 إلى صفحة 59، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

(2) آثار محمد البشير الابراهيمي، ج: 4، ص: 10؛ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989م.

(3) المصدر السابق، ص: 11.

(4) المصدر السابق، ص: 16.

كانت إذن المحطة الرئيسية الأولى في هذه الرحلة (مصر) التي حلّ بمطارها بعد منتصف الليل وانتقل إلى فندق «جزيرة بالاص» حيث حجز له مكتب (الجامعة العربية) مسبّقاً «غرفة للنوم ومكتبا للاستقبال فيه جهاز تيليفوني»[1] ولم يكد يطلع نهار الحادي عشر مارس حتى توالت عليه زيارات مختلفة لرجال علم وفكر وسياسة وصحافة، فأثلج ذلك صدره وزرع في نفسه أملا وحبّا للحياة «توالت زيارة الإخوان فملكت الدقائق والثواني، وآنست نفسا طال شوقها إلى مثل هذه المجالس، وهؤلاء الإخوان وهذه الأحاديث، وأنست الراحة والنوم مع شدة الحاجة إليهما، وما أسير العاني اشتبهت أيامه وطال في الاغلال مقامه... ولا أنسى ـــ ما حييت ـــ فضل أولئك الاخوان الذين زاروا وتردّدوا، ولم تروهم الشربة الواحدة فعدّدوا، وما منهم إلا عالم، أو نابه أو كاتب أو صحافي أو ذو مكانة اجتماعية أو تلميذ، ولله تلك الفئة المهاجرة للعلم من أبناء الجزائر فكأنهم ـــ و آلله ـــ أبناء بررة يلوذون مِنّي بأب طال غيابه عليهم ثم تيسّر إيّابه إليهم»[2].

وقد تحدث الشيخ (الإبراهيمي) بودّ حميمي عن القاهرة ومحيطها الانساني وجوّها العلمي والفكري أثناء اقامته الأولى القصيرة التي دامت تسعة أيام «وما تسعة أيام في جنب القاهرة الاّ تسع ثوان»[3] فالتقى الكاتب خلالها كثيرا من الأشخاص ذكر بعضهم، ولم يذكر بعضا آخر، فكان ممّن بادروا بزيارته (عبدالرحمن عزام) الأمين العام لجامعة الدول العربية[*]، وبعض من أساتذة الجامعة الأزهرية ومديرها (محمد عبداللصيف دراز) كما ذكر زيارته المقر المركزي للإخوان المسلمين، حيث حاضر،

---

(1) المصدر السابق، ص: 19.
(2) المصدر السابق، ص: 20.
(3) المصدر السابق، ص: 22.
(*) «أول من شغل منصب الأمين العام، وهو من الوطنيين الذين تحمسوا لفكرة القومية لعربية منذ العشرينات»؛ أنظر (جامعة الدول العربية) سلسلة الكتب القانونية، د. محمد طلعت الغليمي، ص: 189، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر: 1974.

أو ألقى درسا كما قال «لا قيمة للدرس في ذاته وإنّما قيمته بحاضريه، وبمكانه وبالجمعية التي دعت إليه»[1] وقد رأى في ذلك دلالة قوية لما يربط حركة (الاخوان المسلمين) في (مصر) بجمعية العلماء المسلمين في الجزائر، لما تعملان له معا من إحياء صحيح للاسلام وقيمه الروحية. وقد زار إدارة الجامعة الأزهرية ومديرها ردّا على زياراته وتقديرا له ولمكانته في (جمعية العلماء) أملا في زيارة الجامعة لاحقا، كما أعجب إعجابا شديدا بجامعة (فؤاد الأول) وهياكلها وجوّها العلمي حين زارها، كما زار مديرها وبعض أساتذتها، وتنقّل بالخصوص بين أروقة كلية الآداب ومكتبة الجامعة وقاعات المطالعة والمحاضرات، حيث كانت انطباعاته الايجابية عن الوجه العربي الأصيل في الجامعة، فغمرته سعادة كبيرة وهو يشاهد ويتأمل هذا الصّرح العلمي في وطن عربي بوجه عربي أصيل، وهو الذي تعوّد أن يرى انجازات في وطنه ليس للوطن نفعها، وللاستعمار فضلها «أشهد مخلصا أني خرجت مرفوع الرأس فيها، مملوء النفس فخرا، مفعم الجوانح اعجابا بهذه الجامعة التي هي مفخرة الشرق وحجته على الغرب، وأشهد مخلصا: لقد أحسست بعد الخروج كأنّ وجودي تضاعف مليون مرة بوجود هذه الجامعة. ومعذرة لمن يتهمني بالمبالغة، فأنا من قوم يشهدون كل يوم بناء ليس لهم فخره ولا نفعه وبناء ليس منهم أصله ولا فرعه ويلقون كل ساعة خصما يرميهم ويرمي جنسهم بعقم الفكر وتخلف الذهن وخرق اليد»[2].

وقد أحسّ الكاتب في (القاهرة) بهذه السعادة الغامرة طيلة تسعة أيام، لما خصّه به رجالها من رعاية واهتمام، ولما شاهده من حركة ونشاط في المجال الثقافي والعلمي، خاصة في الجامعة: مركز اشعاع حضاري يشرّف الأمة العربية والعالم الاسلامي كلّه، فأثنى لذلك كثيرا على (مصر) لأياديها

---

(1) آثار محمد البشير الابراهيمي، ج: 4، ص: 20.
(2) المصدر السابق، ص: 21.

على العلم وعلى الطلبة الجزائريين، وللروابط المختلفة بين (الجزائر) و (مصر) كما أثنى على رجالها وجهودهم، خاصة في محيط اجتماعي عام جعل الكاتب يحسّ بطمأنينة وسلام، ويخرج بانطباعاته الايجابية المختلفة عن (مصر) وأبنائها.

أما رحلته إلى (باكستان) فقد كانت استجابة لدعوة وصلته من هنالك للمشاركة في «مؤتمر الشعوب الاسلامية» في (كراتشي) باسم «مؤتمر العالم الاسلامي القديم»(1) فكانت بداية هذه الرحلة في العشرين من شهر مارس (1952م) انطلاقا من مطار (القاهرة) عبر (بغداد) فكان الوصول إلى (كراتشي) بعد منتصف الليل، فيصف المطار المتّسع كما يذكر مستقبليه الذين كان في مقدمتهم مفتي (فلسطين) الشيخ(الحاج محمد أمين الحسيني) و (الفضيل الورتلاني) الذي يبدو أنه سبق الشيخ (الابراهيمي) إلى هناك قبل مدّة، كما يصف الفندق الذي اختير لاقامته «أعظم فنادق باكستان كلّها» حيث بدأ يتهاطل زوار الشيخ الذين لم يستقبلوه في المطار، فكان منهم مدير الجامعة في (كراتشي): (أبو بكر حليم) وهو نفسه رئيس مؤتمر العالم الاسلامي، وغيره من العلماء والمسؤولين والسفراء والمفوضيين والوزراء «وقد كبر في صدري شأن هؤلاء الوزراء، ورأيت عزالدين كيف يعلو على عزّ الجاه والمنصب، وأعظمت فيهم هذا السعي الحثيث إلى ذكر الله في وقت بدأ فيه التحلّل الدّيني من أمثالهم، ثم علمت من طول العشرة محافظتهم الشديدة على إقامة الشعائر وسعيهم إلى المساجد للجمعة لا يتهاونون ولا يترخصون مع الفقه الصحيح لأحكام الدين»(2) وقد وجد الكاتب نفسه في الأيام الأولى من وصوله في جوّ عربي اسلامي بفعل أولئك العلماء والمسؤولين من الوطن العربي مع مشاركة من رجال فكر باكستانيين، خصوصا ممّن يعرف بعضهم العربية، فملأ نفسه الشعور بالغبطة وهو يجد

(1) المصدر السابق، ص: 22.
(2) المصدر السابق، ص: 25.

نفسه مغمورا بجوّ من البِشْرِ والصفاء والودّ، محاطا بأعلام من رجال العالم الاسلامي ومفكريه وأدبائه، حيث التحام الحسّ العربي بالشعور الديني في بوتقة واحدة، فينسيه ذلك ما كان من هموم (الادارة) في (جمعية العلماء) وهموم المعلمين ونضالهم المستميت لنشر الحرف العربي في الجزائر ممّا حمّله الشيخ (التبسي) كما أعلن ذلك هو نفسه «فكنت لذلك كلّه كأنني بين أهلي وإخواني في الجزائر... أسرح وأمرح، وألقي الهموم عن كاهلي واطرح، فقد القيت تلك الأثقال على من لا يئوده حملها لفضل علمه ووفور عقله، وحدّة ذكائه وشدّة حزمه وهو الأخ الأستاذ التبسّي»[1].

وقد حدّثنا الرّحّالة هنا عن أسبوع كامل قضاه في التقاء أعلام فكر ودين وسياسة خاصة من الوطن العربي في مناقشات أحسّ معها بالألفة والمودّة، لكنّه حين يلتفت إلى المحيط العام ويحاول الاختلاط بالناس تصادفه مشكلة اللغة، حيث تسود اللغة «الأوردية» و (الانكليزية) ولاحظ له في كلتيهما «لم يفتق آللّه لساني إلا بالعربية وأنا راض بهذا، وان كنت لا أدري أيّ نوع من أنواع الرضى هو؟ أرضى العاجزين أم رضى المكابرين... وضيوف كراتشي من أبناء العربية كلّهم مثلي»[2] وهو لذلك أولى اهتماما خاصا للحديث عن مشكلة اللغة عموما هنالك، وعنائه في التعامل مع محيطه في البداية، لكن مشكلة اللّغة هذه لم تلبث بالنسبة إليه حتّى حلّت، حين خصّ بترجمان عرف في المؤتمرات «إذ كان يترجم خطب العلماء العرب إلى الأوردية وهو بارع فيها، معدود من خطبائها، ويفهم العربية فهما جيدا، ويترجم الدينيات على الخصوص ترجمة دقيقة... فأصبح ملازما لي لا يفارقني الاّ ساعات النّوم، يتولّى الترجمة بيني وبين الزوار، ويتولّى المخاطبات التيليفونية بالأوردية ويسفر عنّي إلى رجال الدولة، وقد صحبني في الرحلة

(1) المصدر السابق، ص: 26 ــ 27.
(2) المصدر السابق، ص: 33.

إلى كشمير وخيبر ومدن باكستان، وترجم عنّي جميع محاضراتي ودروسي وندواتي الصحفية وأجوبتي وآرائي وتقاريري»[1].

ومع ذلك ينبّه الكاتب إلى ما هنالك من تعاطف مع العربية وتحمّس لها لدى الانسان في (باكستان) وهو تحمّس تغذوه عاطفة دينية صادقة تكفي ظلالها ليكون هناك انسجام فكري وتجاوب روحي بين خطيب بالعربية ومستمع باكستاني لا يحسنها، لكنه يحس ما يعبّر عنه بها في الأمور الدينية خاصة، كما ذكر الكاتب ذلك في صلاة احدى الجمع بأحد المساجد حيث ـــ كما قال ـــ «ألقيت قبل الصلاة محاضرة طويلة ترجمها المترجم فصلا فصلا، وكان التأثّر بها عظيما. ولما فرغت طلب منّي الامام الراتب أن أخطب للجمعة وأصلّي بالناس، فخطبت خطبة الجمعة من غير ترجمة ولكن إحساس المصلّين قام مقام الترجمة، فكان تأثر وكان خشوع وكان اتّصال روحاني بين السامع والمسموع، كل ذلك لأنّ حالة المسلمين الحاضرة كانت هي الموضوع»[2].

فتحدّث الكاتب عن صلاته بالمحيط العام الذي بدأ يفهمه أكثر بمرور الأيام، ويفيد فيه ويستفيد بفضل مترجمه خاصة. وفي مقدّمة نشاطه الديني خصوصا تحتل المساجد موقعا مهمّا، حيث مضى يخطب في الناس ويحاضر، ومترجمه ينقل عنه، كما بدأ يلاحظ ضعفا شديدا في المستوى العلمي الديني لدى بعض الأئمة، لكنه سجّل هنا انطباعا خاصا عن الحسّ الديني المكين لدى الانسان الباكستاني ممّا أسماه (القابلية) لفعل الخير، والاستعداد الديني لدى هذا الانسان ليكون منافحا عن العقيدة الاسلامية متمسكا بها «فقابلية الخير والصلاح والاصلاح فيهم ظاهرة السمات لو رزقوا الموجّه المسدّد والمثير الحكيم لسبقوا طوائف المسلمين كلها إلى غاية الخير التي نرجوها

(1) المصدر السابق، ص: 35.
(2) المصدر السابق، ص: 37.

للمسلمين وللَوَوْا الأعنّة سراعا إلى هدي القرآن، وقالوا للمتخلفين البطء: الحقوا فقد سبقنا، والموعد بيننا وبينكم (محمد)»[1].

ثم يتحدّث الكاتب عن الموقع التاريخي لمدينة (كراتشي) وجوانب اجتماعية ودينية منها، حيث لفت نظره تكاثر المساجد والتنافس السلبي في ذلك تنافسا طائفيا وفئويا لدى المسلمين «فكل واحد من هؤلاء يسعى لبناء مسجد يصلّي فيه هو وأتباعه، ويزيّن لهؤلاء الأتباع أن لا يصلّوا في مسجد آخر، ولا خلف امام آخر، وقد رأيت مسجدين بينهما عرض شارع تقريبا، وكلّ واحد منهما مخصوص بطائفة، وكفى بهذا مفرقّا لكلمة المسلمين. وقد أنكرت عليهم هذا في بعض محاضراتي انكارا عنيفا»[2].

وينقل لنا الكاتب هنا ظاهرة تعظيم العلماء، خاصة علماء الدين، فلا يلبث ذلك في أوساط العامة حتى يكتسي طابعا من المبالغة يخرج من الاحترام الايجابي إلى ضرب من التقديس المنكر، مما تحدث عنه الكاتب مستمدّا إياه من تجربته مع الناس، ويأخذه عليهم «كنت كلما خطبت في جمعة وهممت بالانصراف بعد الصلاة اعترضني المصلّون من أول خطوة يقبّلون يدي ويضعونها على جباههم وأقفائهم، ومنهم من يتمسّح بثيابي، ولقد صحت في الناس في أول مرة، وقلت: يا قوم هذا منكر فلم يكفوا، قلت: هذا حرام فلم يزدهم ذلك الاّ تهاتفا عليّ. ولو بقيت في المسجد لبقي المصلّون كلهم مرابطين ينتظرونني، وكان الأمر في الجمعة الثانية أشد، وكان في الثالثة أشنع... وكان صوتي بالانكار في كلّ مرة أعلى ولكنه كان أضيع. وفي المرة الأخيرة وجدت نفسي في شبه حلقة مفرغة من ورائها حلقات تزدحم وتتضاعف، بحيث ما كدت أصل إلى الشارع حيث السيارة إلاّ والمؤذّن يؤذّن لصلاة العصر»[3] وهي صورة رغم كلّ سلبياتها عن

---

(1) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق، ص: 40.
(3) المصدر الصابق، ص: 41.

مكانة لرجل الدين في نفوس الناس، لأنّه الموجّه المخلص، والمرشد الأمين في حياة الناس الدينية والدنيوية.

ثم يتحدث الكاتب عن زيارته بعض المسؤولين السياسيين في (الباكستان) فكان أولهم الحاكم العام لدولة (باكستان) السيد (غلام محمد) في مقرّه الرسمي، فيجده مشغول البال بالدّستور الذي تريده الأمة الاسلامية، فيجرهما الحديث إلى مكانة (جمال الدين الأفغاني) و (محمد عبده) اللذين كان من المنتظر منهما التفكير في وضع دستور صالح لكلّ أبناء الأمة الاسلامية، كما اقترح (غلام محمد) على (الابراهيمي) التفكير في هذا الموضوع، كما تحدث الكاتب أيضا عن زيارته رئيس الوزراء ثم وزيري الاعلام والخارجية الذي ناقش معه القضية التونسية والاستعمار في الجزائر، ومدى استعداد (باكستان) لاستقبال بعثات «جمعية العلماء إلى مدارس باكستان»[1] مثلما نبّه سابقه إلى «نزارة الحصص التي يعطيها راديو باكستان للغة العربية»[2].

كما زار الرحالة في النهاية ــ هنا ــ أخت (محمد علي جناح) بطل استقلال (باكستان) وأول رئيس لها (سنة 1947م) فسألته عن وضع الاسلام في (الجزائر) والمرأة الجزائرية، ورأيه في المسلمة عموما، كما زار «في الأسبوع نفسه قبر المرحوم محمد علي جيناه[*] محرر باكستان ومعي جماعة كبيرة من أعضاء مؤتمر العالم الاسلامي.... انتابتني حين وقفت على قبر جيناه حالة غريبة، لعل منشأها ما في نفسي للرجل من إكبار... فجاش خاطري بأبيات وأنا واقف على قبره، وأنشدتها بصوت متهدج فتأثّر الحاضرون... منها:

---

(1) المصدر السابق، ص: 45.
(2) المصدر السابق، ص: 44.
(*) (جناح) ربّما خطها الكاتب كذلك استسلاما للنطق هناك، وعدم الشيوع الكافي لهذه الشخصية القانونية السياسية (1876 ــ 1948).

هنا من معدن الحقّ المصفّى يتيم في الجواهر ذو اغتراب[1]

ثم يستطرد الحديث عن ندوة صحفية له في بيت مدير جامعة (كراتشي) الذي وجّه الدعوة إلى الصحافة باسم (الابراهيمي) وتكفّل بالمصاريف، فكانت الندوة عن الوضع السياسي في شمال افريقيا عموما، والجزائر والأوقاف الاسلامية فيها خصوصا، كما ذكر الحفلة التكريمية التي أقامها له معهد اللغة العربية، وكذلك الحفلة التي نظّمتها جمعية علماء (باكستان) «وهي غير جمعية العلماء التي أقامت مؤتمر شباط الماضي في كراتشي، فهذه التي نتحدث عليها أقدم في التأسيس، ولكنها لا عمل لها، ويوشك أن تكون الجديدة مثل القديمة، فليس لواحدة منهما برنامج ايجابي واقعي واضح الحدود، وليس في واحدة منهما عالم نشيط يتبع المقررات بالتنفيذ ويجعل الجمعية حية تتحرك دائما»[2] فاتخذ من المناسبة تسجيلا لمآخذ عن نشاط هذه الجمعية وغيرها في فعود مزر عن تتويج الأقوال بالأعمال، والنية بالفعل، والاسم بأثره الملموس في الناس، يوقظهم من تخلّفهم ويرشدهم إلى فهم حقيقة دينهم، والعمل الجاد في دنياهم.

ثم يتحدث عن انتقاله إلى مدينة (كشمير) كمرحلة قال عنها «التقت عندها رغبتي ورغبة الحكومة»[3] اختار فيها القطار على الطائرة ليتمكّن من أخذ «صورة من هذا الوطن الطويل لا تتأتّى لراكب الطائرة»[4] فوصف الطريق وصفا شائقا عبر الأودية والسهول الممتدّة حيث يقول «قطعنا ألفا وخمسمائة كيلو متر في سهل واحد ليس فيه جبال ولا رواب إلى مدى ما تنتهي إليه العين، وممّا يؤسف له أن هذه السهول كلها خصبة التربة،

---

(1) المصدر السابق، ص: 47.
(2) المصدر السابق، ص: 51.
(3) المصدر السابق، ص: 53.
(4) المصدر السابق، ص: 54.

وتشقها أنهار البنجاب العظيمة وترعها المنفصلة عنها، وكلّ ترعة تكوّن نهرا عظيما، ومع ذلك كله... فان المساحات الواسعة منها ما زالت بورا والحقول القليلة المزروعة قمحا أو قصب سكّر أو برسيما تظهر فيه كالنقط، وكيفية الفلح ما زالت بدائية عتيقة تعتمد على الجاموس في الحرث والنقل والدياس»[1] كما يصف تنوّع المناظر من السهول إلى المنعرجات والأودية والجبال، حيث يتسلّل في مواقع الخوف إلى نفسه خاصة حين ترك القطار إلى السيارة في (كشمير) التي حاضر فيها، وصحبه منها ضابط اتّصال لمشاهدة جبال (كشمير) الشاهقة، فنقل لنا من ذلك انطباعات مختلفة ختمها بقوله «قد سلكت طرق الجزائر الجبلية بالسيارة، وانّ منها الرائع المخيف، فما داخلني من الخوف ما داخلني في طريق (مرى) صعودا وهبوطا. فما أدري: أللغربة والغرابة دخل في ذلك؟ أم هو الحرص على الحياة يقوى فيمن تتقدم به السّنّ فتدنو من الآخرة مراحله»[2].

لقد نشط (الابراهيمي) في هذه الرحلة سياسيا وثقافيا ودينيا وسياحيا، فتعرّف على (باكستان) نظاما وشعبا، واطّلع على معالم وأوضاع في هذا البلد الاسلامي، فنمّى معارفه عن جغرافيته ونظامه وسياسته، وجوانب من الوضع الاجتماعي والديني فيه، فوثّق صلات بعلماء دين ورجال سياسة، وتكوّنت لديه أفكار مختلفة عن حالة المسلمين هناك، وبوادر نهضتهم، كما حاضر وأسهم بدروس في المساجد وقدّم أحاديث في إذاعة (باكستان) فنقل صوت الجزائر خاصة والمغرب العربي عامّة عن قصد إعلانا لما يشدّ أبناء الأمة الاسلامية من أواصر الودّ والعقيدة كما جاء في حديث له ألقاه في إذاعة (باكستان) معلنا سعادته بالرحلة شاكرا فيها الشعب (الباكستاني) معبرا عن مشاعر الحب من إخوانه في المغرب العربي

(1) المصدر السابق، ص: 56.
(2) المصدر السابق، ص: 59.

«أنا الآن في باكستان، وقد لقيت من أهلها حكومة وشعبا إجلالا وكرم وفادة، هم أهله ومحلّه، وقد صيّرتني أخوّة الاسلام أهلا لبعضه... فسلام على باكستان شعبا وحكومة، سلاما أؤدي به حقوق البّر عن نفسي وعن قومي في المغارب الثلاثة.... وتحيات مباركات طيبات دونها عبير السحر وان كان قريبا وعنبر البحر وان كان غريبا أحملها أمانة وأؤديها تكليفا من إخواني أعضاء جميعة العلماء الجزائريين، ومن أبنائي جنودها العاملين للإسلام... وليهنأ باكستان أن للمغرب العربي كلّه قلوبا تدين بالحبّ لباكستان وعواطف تفيض بالحنان لباكستان، وأماني تجيش بالخير لباكستان، ونفوسا تعلّق الآمال على باكستان وألسنة رطبة بالدعاء لباكستان. ولنشكر باكستان على أن هيّأ لها من الصنع الجميل ما جعل لشعبها في قلب كلّ مسلم مكانا، ومهّد لها في نفس كلّ مسلم مكانه»(1).

وهكذا استطاع (الابراهيمي) في رحلة (باكستان) خلال شهرين اثنين أن يخرج بانطباع واضح عن حال البلد والمسلمين هناك، خاصة في وضعهم السياسي والديني، فعرف البلد والتقى العديد من الأشخاص، وعرّف قدر المستطاع بوضع المغرب العربي والجزائر منه خاصة في جانبه الديني والسياسي العام، وانتهى إلى حكم هو أن الأوضاع عموما تتشابه بين أقطار العالم الاسلامي، ومنها (باكستان) خاصة ما يتعلّق بواقع الشباب حسبما أدركه من مشاهداته في (باكستان) أو سماعه من «رجالات الشرق النّابهين، فأخبروني عن أوطانهم متألمين أن حالة الشباب واحدة»(2).

وبعد عودة (الابراهيمي) من (باكستان) إلى (مصر) طالت اقامته هناك، ولم يواصل كتابة رحلته في الحديث عن الفترة اللاحقة كما وعد،

---

(1) المصدر السابق، ص: 264 ـ 265.
(2) المصدر السابق، ص: 15.

حتى «اندلعت الثورة الجزائرية في أول نوفمبر 1954... لهذا بقي خارج الوطن، ومدَّ يدَه للثورة وعمل في خدمتها»(1) ولم يعد إلا في سنة 1962 مع الاستقلال، فما الذي منعه من متابعة الحديث عن رحلته العامّة؟ لقد كانت مشروعا أعدّ له وبدأ تنفيذه(2) منطلقا من مذكرات، بل لم ينه الحديث حتى عن مرحلة (مصر) كما وعد. لعلّ الأمر يعود إلى انشغالات جديدة في مصر خلال هذه الفترة حالت دون ذلك، كما قد يكون تفكيره انصرف إلى النية الجادة في كتابة الرحلة بشكل أكثر تفصيلا، للافادة والامتاع، في وضع أكثر استقرارا يفرغ فيه الذّهن من انشغالات وانفعالات أخرى يومية، لكن تلك الفرصة لم توات الكاتب، بالاضافة إلى متاعب صحية بدأت تعتريه فأفقدته طاقته في التفكير والتعبير، كما عبّر عن ذلك في رسالة بتاريخ 16 أفريل 1955م بعثها من (القاهرة) إلى (أحمد توفيق المدني) قال فيها بالخصوص: «أحوالي الصحية والفكرية متداعية، وأنا في غاية التألّم من أحوال الاسلام عامة، وقد رجع فلك العمر إلى الوراء، وتبلّد الفكر، وانقلب ذلك النشاط خمولا، وأخمد اجهاد عشرات السنين القريحة دفعة واحدة، والله المستعان»(3).

ورغم ذلك فان هذه الفترة لم تخل من تعبيره عن آرائه وبعض مشاهداته خارج وطنه ومشاعره تجاهه وأشواقه إليه، ففي مقالة نشرها

---

(1) شخصيات جزائرية، د. عمر بن قينة، ص: 46، مطبعة البعث، الجزائر، 1403هـ (1983م).

(2) انظر تفكيره في مشروع رحلة كاملة، في ص: 15، فقرة: 4، وص: 16، فقرة 1؛ 2، ثم ص: 21، فقرة: 3، (من الجزء الرابع) آثار محمد البشير الابراهيمي.

(3) انظر نصّ الرسالة كاملا في كتاب: حياة كفاح، توفيق المدني، ج: 3، اللوحة الثانية بعد صفحة 128، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م. وقد أبدى شكواه من المرض والارهاق أيضا وهو يعتذر عن القاء كلمته أمام وفد (الكشافة الاسلامية الجزائرية) التي وصلت القاهرة (1953) وأناب عنه (الفضيل الورتلاني) «انني مكدود ومريض، وكلام المريض مريض....» — انظر «مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الاسلامية الجزائرية» لمحمد المنصوري الغسيري، البصائر، سلسلة: 2، سنة: 2 عدد: 241، في: 12 من المحرم 1373هـ (25 سبتمبر 1953م).

في (البصائر) سنة 1953م تحت عنوان «نصيحة وتحذير»(1) نجده يتحدّث ــ وهو في القاهرة ــ عن الوضعية الصعبة التي شاهد عليها بعض الطلبة الجزائريين هناك نتيجة اندفاع بعضهم عن غير علم بظروف الدراسة والحياة الصعبة هنالك «مغرورون بالأوهام الشائعة التي تصوّر أنّ العلم في مصر مبذول، ولا تصوّر أن الخبز فيها غير مبذول، واعلم أن لهم قصدا حسنا، ولكن حسن القصد لا يشفع لصاحبه ولا يكون عذرا في المخاطرات التي لا تستند إلى بصيرة»(2).

لذا حرص على أن يبلغ ما لاحظه من وضع الطلبة هنالك إلى القراء للتحذير من المخاطرة بالسفر للدراسة من دون أخذ العدّة من علم ومال «إنّ الرحلة لطلب العلم كالرحلة لأداء الحجّ، كلتاهما مشروطة بالاستطاعة، وان شرط الاستطاعة في طلب العلم لأوكد، لأن مناسك الحجّ تقضى في أيام، ومناسك العلم لا تقضى الاّ في أعوام»(3).

أما أجود نصّ أدبيّ في هذه الرحلة أثناء هذه الفترة بالذات (1953م) فهو تلك التحية التي نشرها يومئذ في (البصائر) تحت عنوان «تحية غايب كالآيب»(4) وهو في شكل مناجاة حملت حنينه إلى وطنه الذي مرّ على غيابه عنه أكثر من سنة، فيلحّ على (ريح الصبا) وهي تهبّ من الشرق إلى المغرب كي تحمل تحيته ووهه إلى (الجزائر) والأهل فيها، وأصدقائه واخوانه في النضال من أجل نشر العربية والتمكين لسلطة

(1) آثار محمد البشير الابراهيمي، ج: 4، ص: 93، ونشرت قبلا في البصائر، سلسلة: 2، سنة: 2 (11 سبتمبر 1953م).
(2) المصدر السابق، ص: 93.
(3) المصدر السابق، ص: 87.
(4) عيون البصائر، من آثار محمد البشير الابراهيمي، وهو يكوّن في السلسلة من آثاره الجزء الثاني، ص: 482، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م.

الاسلام في الحياة وعلى النفوس دفاعا عن انتماء الوطن وربطه بمجاله الحضاري «حيّ الجزائر ياصبا... واحمل إليها منّا سلاما تباري لطافته لطافتك، وتساري اطافته اطافتك.. أدّ التحية عني للجزائر التي غذت وربّت وأنبتت القوادم في الجناح وأسلفت الأيادي البيضاء، وأسدت العوارف الغرّ وأشربت من الطفولة حبّ العروبة والاسلام... ثمّ عمّم التحية إلى كلّ من تَديَّر الجزائر من اخوان الصدق، وأحلاف الحق، من علماء جلاهم الاسلام سيوفا، وبراهم سهاما، وقوّمهم رماحا، ثم وحّدتهم العقيدة على غاية، وجمعهم الحقّ على بساط، وألّف بينهم الجهاد في ميدان، فاجتمعت قلوبهم على هداية بها وألسنتهم على دعاية إليها، وأيديهم الاصلاحية على بناء لها»(1).

وقد دقّت مشاعر الحب لدى الكاتب، كما كبر حنينه إلى الجزائر أرضا وانسانا فغدا عاشقا ولهان تمكّن من نفسه الهيام، فبات ذلك شاغله، يبرّح به ويسعده في الوقت نفسه «غبت عن الجزائر بجسمي سنة وبعض السنة ولكنني ما غبت عنها بروحي وفكري دقيقة ولا بعض الدقيقة.... لقد كنت ألقى في أسفاري ألوانا من التّعب فلا يهوّنها عليّ ولا يغريني بالاقدام عليها إلا يقيني أنها مزيد في قيمة الجزائر وقيمة جمعية العلماء»(2).

وإن أعلن الكاتب في هذه الفقرة الأخيرة مبرر غيابه الطويل الذي سيستمر فإنه جسّد بهذا النص عموما حبّا صادقا لوطنه وحرصا على العمل الدائم له، وحنينا مستمرا إليه في أن يراه وطنا متطوّرا يسعد فيه جميع أبنائه.

والتفكير في (الجزائر) بدا حاضرا لدى الكاتب في مختلف مراحل الرِّحلة، وهو يتحدث عن الوضع في (مصر) و (باكستان) والحياة الدينية فيهما، أو حين يلتقي رجال السياسة والفكر والأدب وعلماء الدين.

---

(1) عيون البصائر، من آثار محمد البشير الابراهيمي، ص: 483.
(2) المصدر السابق، ص: 485.

والقارىء يلمس في رحلات (الابراهيمي) بوضوح دور العقيدة الاسلامية كرابطة قوية بين أبناء الأمة الاسلامية، تتخطّى كلّ الحواجز الجغرافية والسياسية واللغوية نفسها.

لم يكن همّ الكاتب أن يقدّم في حديثه عن رحلته معلومات تاريخية ولا جغرافية، بل مضى يعبّر عن انطباعاته بشكل عام، فأعطى ملامح عامة عن طبيعة (باكستان) و (مصر) والحياة فيهما، وسمات الانسان هنالك وروحه الدينية التي بدا له في (باكستان) أنه يعوزها الفهم الصّحيح للدين، خاصة ان اهتمامه كان مركزا بالدرجة الأولى على الجانب الديني، في علاقاته بالأشخاص وزياراته المختلفة التي كان أغلبها إلى المساجد والمؤسسات العلمية، وأثناء ذلك كلّه تبدو جليا أيضا مشاعر الودّ والألفة بينه وبين المحيط والناس، كما يبدو جليا لديه التوق لواقع يتّحد فيه المسلمون وتتعاضد حكوماتهم من أجل التمكين للاسلام، وتعمل للنهوض بالشباب نهوضا يتسلّح فيه بالايمان طاقة دافعة والعقيدة الاسلامية حصنا يحميه من الذوبان في مجتمعات غربية.

وقد اختلفت مستويات التعبير عن ذلك لدى الكاتب من حديث ذي طابع صحفي عام يسجّل الحدث كما نرى في فقرات من حديثه عن اتصالاته في (مصر) و (باكستان) إلى آخر ينحو نحو الوصف كما هو الحال في انتقاله بالقطار من (كراتشي) إلى (كشمير) وتنقله من هذه بالسيارة. وهناك ما ينحو فيه نحوا أدبيا خالصا في فقرات كثيرة مختلفة عبر ذلك كلّه، لكن هذا تجسّد بشكل خاص في موضوعه «تحية غائب كالآيب».

وقد اتّسمت الصياغة بشكل عام في كلّ ذلك برزانة العالم ووقار رجل الدين ونضج السياسي ذي النظرة الواسعة، والحس الخاص لدى عالم الاجتماع يلتمس في الظواهر أسبابا ويميل إلى تحليل انعكاسات واستخلاص نتائج من وضع.

غير أن روح الأديب تبقى المهيمنة بظلالها في معظم المنعرجات من هذه الرحلة أو (الرحلات) منذ حطّت الطائرة بالكاتب في مطار (القاهرة) مرورا بحاله في فندق (باكستان) ووضعه في القطار يعبر فيافي من (باكستان) أو في السيارة تكابد في منعرجات من بعض جباله ووهادها وانتهاء بتلك الأشواق التي حمّل فيها (ريح الصبا) حبه الجزائر وحنينه إليها.

رحلات (محمد الغسيري):

جاءت البداية في رحلة (محمد المنصوري الغسيري) إلى (مصر) في وفد (الكشافة الإسلامية الجزائرية) استجابة لدعوة (الكشافة المصرية) للمشاركة في احتفالات الذكرى الأولى لثورة 1952م وكانت بداية الرحلة في 21 جويلية 1953م انطلاقا من (قسنطينة) ليلا في اتجاه (القاهرة) ثمّ امتدّت بالنسبة للكاتب إلى (السعودية) للحجّ أساسا، واتسعت إلى (سوريا) و (لبنان) فجمع ملاحظاته وانطباعاته وكتبها في رحلة حمّلها مشاعره ومواقفه بعد عودته من هنالك، ونشرها في جريدة (البصائر) تحت عنوان رئيسي عام هو «عدت من الشرق»[1]، في تسع عشرة

(1) نشرت في (البصائر) ابتداء من العدد: 250 سلسلة 2، سنة: 6، الصادر في ربيع الثاني 1373هـ (11 ديسمبر 1953م) وانتهاء بالعدد: 276، سلسلة 2، سنة: 7، الصادر في 24 شوال 1373هـ (25 جوان 1954م). وقد تحدث الكاتب مرتين أخريين عن هذه الرحلة في غير هذا السياق، كان حديثه في احداهما على شكل تغطية صحفية بعنوان: «مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية» حيث تحدث عن بعض مظاهر الاستقبال في (مصر) خاصة تلك الحفلة التي أقامها الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) للوفد. نشر الكاتب هذا في حلقتين من جريدة (البصائر) الأولى في العدد: 240، الصادر في 2 المحرم 1373هـ (11 سبتمبر 1953م) والثانية في العدد: 241، الصادر في 12 المحرم 1373هـ (25 سبتمبر — هكذا أصلا — 1953م). أما في المرة الثانية فقد كان حديثه مرتبطا بالمسار العام لرحلة وفد الكشافة فانتهى حديثه هنا في (مصر) وتركز الكلام فيه على الكشافة. ونشر هذا القسم في مجلة الكشافة الجزائرية، (الحياة) رقم (1) من السلسة الجديدة، عدد مارس — أبريل 1954. وقد عالجت هذا الجزء في كتاب «الشّكل والصّورة في الرّحلة الجزائرية» دار الأمة، الجزائر، 1995م.

حلقة(*)، وكان هذا العنوان الرئيسي متبوعا بعناوين فرعية أساسية متبوعة بدورها في بعض الحلقات بعناوين أخرى جزئية، فكان العنوان الفرعي في الحلقة الأولى (في طرابلس الغرب) وكان في الحلقة الثانية (في كنانة آلله مصر) وفي الثالثة (في مصر كنانة آلله) وفي الرابعة (مظاهر التديّن في مصر) وفي الخامسة (الجزائريون في مصر). وابتداء من الحلقة السادسة وانتهاء بالحلقة الثامنة عشرة(**). كان العنوان الفرعي الدائم هو (في البلاد العربية السعودية) أضيف تحته عنوان جزئي في الحلقة السابعة عشرة نصه (الشباب الإسلامي في الجزائر) وأضيف آخر في الحلقة الثامنة عشرة نفسها نصُّه (في المدينة المنوّرة)، وبينما كان العنوان الفرعي في الحلقة التاسعة عشرة (في سوريا ولبنان) فان العنوان الفرعي في الرقم (20) كان عاما هكذا (خاتمة) ضمّت الحديث عن العودة إلى (مصر) ثم إلى (الجزائر) عبر (ليبيا) و (تونس).

وهكذا نلاحظ من البداية أن الرحلة شملت عدة بلدان عربية إسلامية، فبعد المرور بتونس في الذهاب حلّ الوفد بليبيا، حيث يتحدّث الكاتب عن الوصول إلى (زوارة) ويذكر الاستقبال الحسن لدى الأخوة اللّيبين، ويتمعّن في آثار الوجود الايطالي المنهزم، ويذكر بالخصوص مدينة (طرابلس) الجميلة التي لم تنل منها الحرب العالمية الثانية، كما يصف مدنا أخرى مثل (سرت) و (درنه) و (بنغازي) التي أصابها الكثير من الحرب، وقد استقبل أهلها وفد الكشافة «أحسن اقتبال، وليس في المدينة ما يوصف إلا هذه الخربات التي تركتها الحرب، والاّ هذا الموقع الطبيعي الجميل

(*) ترقيم الحلقات في (البصائر) بدأ بالحلقة رقم (1) وأُنهي بالحلقة التي أعطيت رقم (20) بينما عدد الحلقات تسع عشرة لا أكثر، ففي تتبعنا لذلك عثرنا على خطإ في الترقيم حيث سها قسم التحرير عن رقم (15) من الحلقات، فلم يكن له وجود أصلا، حيث تبعت الحلقة (16) التي نشرت في العدد: 268 الحلقة (14) التي نشرت في العدد: 267، فعدد الحلقات واقعا إذن تسع عشرة حلقة، وان رأينا الترقيم في الجريدة ينتهي بحلقة تحمل رقم (20).

(**) مع اسقاط الحلقة (15) من الاعتبار لعدم وجودها أصلا كما سبقت الاشارة في الهامش السابق هنا.

الذي تقع فيه المدينة، ولعلّ الأجمل من ذلك أن نمرّ إلى الجبل الأخضر وكفى، وليس بعد الخضرة من وصف للجبال»[1].

ونلمس هنا جنوحا إلى وصف أدبي للطبيعة ولبقايا الاحتلال الايطالي نفسه وبعض آثاره فيما أصاب الشعب الليبي، كما يبدي في الوقت نفسه ضيقا بالحدود التي رآها شرّا لا مفرّ منه، لكنه يعلن غبطته باستقلال الوطن وبشهامة الليبي المجاهد، فأثنى لذلك على (ليبيا) المجاهدة المنتصرة وعلى رجالها وشبابها من (الكشافة) خاصة، فيقول في الأخير «فسلام على ليبيا، وسلام على شبابها الناهض، وسلام على ولاّتها ما عدلوا في الحكم وثأروا لأنفسهم ولبلادهم من العبودية والجهل».

وقد أصاب الكاتب في صياغة تحيته هنا، فان كانت تحية للمواطن والكشاف ورجل الاعلام في ليبيا مطلقة مفعمة ودّا وحبّا لا حدود لهما، فإنها بالنسبة للحكام جاءت متأخرة مشروطة بعدلهم في الحكم واخلاصهم في خدمة الوطن بالعمل للتخلّص من النفوذ الأجنبي ودفع مسيرة الوطن في طريق التقدم والرفاهية، والأخذ بأسباب العلوم وتجاوز الواقع الذي يطبعه الجهل والتخلّف الحضاري والعلمي.

وفي منطقة (السلوم) الحدودية بين (ليبيا) و (مصر) في الطريق إلى القاهرة يصف الكاتب الحشود غير المنتظمة على المركز الحدودي حيث معاناة شرطة الحدود مع مواطنين يجهلون اجراءات قانونية، فيكلّفهم جهلهم بدورهم متاعب شتّى، كما يصف حول هذا المركز الحدودي آثار الحرب العالمية الثانية من دبّابات مهشّمه وطائرات محطمة.

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 250، في 5 ربيع الثاني 1373هـ (11 ديسمبر 1953م).

وعند الوصول إلى مرسى (مطروح) يشرع يصوّر جمال المدينة وطيبة الانسان فيها، والسلوك الحسن الذي يطبع حياة المصطافين المصريين «ان مرسى مطروح على صغرها فيها عدة مساجد كبرى، وبها شاطيء رملي خلاّب يقصده كثير من المصطافين، وما شاهدنا أيّة مظاهر مزرية في تلك القرية رغم تجوالنا فيها أمسية كاملة، وفي هذه المدينة لمسنا الظرف المصري في سائر من اتصلنا بهم، وبدأنا نشعر بأنّ الطبع الجزائري الجاف يجب أن يذوب هنا قبل مغادرة المدينة، حتى إذا انتهينا إلى قاهرة المعزّ كنا أُناسا آخرين»(1) وقد بدأ بعضهم يتدرّب على اللهجة المصرية فيتخذ الكاتب من ذلك وسيلة للتنّكيت. وعند الوصول إلى (القاهرة) يستقطب اهتمامه أمران رئيسيان: النظام السياسي الوطني الحازم والمراكز العلمية في مدينة (القاهرة) حيث «المعاهد العلمية والكليات الاسلامية ما يجعلها قبلة دائمة للعرب والمسلمين في سائر أنحاء العالم، أضف إلى ذلك هذا الجمال الطبيعي الذي حباها آلله به من مرور النيل المبارك وسطها، واقامة هذه الجسور الجميلة فوقه»(2) وفيها الجامعة الحديثة التي «تضارع أكبر الجامعات في العالم» أما النظام السياسي فقد وصف فيه رجال الثورة بالخصوص بالجدّ والاخلاص يعملون يوميا أكثر من ضعف الدوام اليومي للعامل في مصر، من أجل تقديم «المثل يوميا على أنّ الدولة وقواها يجب أن تسخّر دائما لخدمة المواطن الفرد كيفما كان لونه وكيفما كان مذهبه وشيعته ودينه، ولا يجوز أبدا أن يستنزف دم المواطن من طرف الدولة الجشعة» كما كان يفعل النظام الملكي السابق من أجل «تضخيم مرتبات الموظّفين ولو كسالى عجزة، وظفتهم المحسوبية وحدها وحمتهم من الحساب حتى كشفهم رجال الشعب وفضحوهم» لكنه في الوقت نفسه يلاحظ على المواطنين المصريين ضربا من الكسل المقيت «يغطون في نومهم العميق، وما يزالون صرعى الماضي اللاّهي، الماضي السّاخر، الماضي الفاضح».

(1) البصائر، سلسلة: 2 سنة: 6، عدد: 252، في 26 ربيع الثاني 1373هـ (جانفي 1954م).
(2) البصائر، سلسلة: 2، سنة 6، عدد: 253، في 3 جمادى الأولى 1373هـ (8 جانفي 1954م).

توزّع وصفه في (القاهرة) إذن بين أول معالمها الذي لفت نظره وحظي باعجابه وهو جامعتها بهياكلها وحدائقها الغناء، ووصفه الانضباط السياسي ووطنيته القائمة على انقاض ملكية تركت ارثا من التخلّف اعتاد فيه المواطن الكسل، بفعل تشجيع الكسالى من بطانة النظام وقهر المواطن العادي الذي لا ملاذ له غير همّ يجترّه، يقذف به في مهاوي الكسل والتّيه واللاّمبالاة.

وهي أحكام استمدّها الكاتب من أوّل انطباع له عن الوضع في قطر عربي اسلامي، يحكمه أبناؤه وتسود فيه لغته، ولدينه فيه مكانته، ولم يتّسع له الوقت للمقارنة والتحليل أكثر، لأنه أولا وقبل كلّ شيء كاتب رحلة بعين أديب ورجل ثقافة لا محلّلا سياسيا أو باحثا في علم اجتماع، فالنظام في رأيه تنهض به «حكومة الحقّ والعدالة الاجتماعية، تسخّر للثقافة والتربية حتى قصور فاروق الرائعة، وتمهّد في بلادها للوحدة العربية والاسلامية، بفتح المعاهد في وجوه بنيها وايفاد العلماء إليهما وعلى نفقتها تمهيدا يبوّئها مكانا رفيعا بين أمَم العالم ويعطيها عن جدارة زعامة العالم الاسلامي في المستقبل».

ويعطي الكاتب في الحلقة الرابعة صورة حية عن القاهرة العامرة بمساجدها إلى جانب المؤسسات الثقافية الأخرى فيها، فتبرز من خلال ذلك أيضا صورة مضيئة للإنسان المسلم في (مصر) حيث تكتظّ المساجد بالمصلّين خاصة في يوم الجمعة، حتى أنّ القطار حين يصل المحطة وقت صلاة يجدها «مسجدا جامعا» وقد أضحت العيادات والمعامل نفسها تتوفّر على أماكن للصلاة، فتبرز هنا روح الإيمان وسمات التقوى في مختلف المستويات الاجتماعية، حيث نلمس ذلك في الاقبال الشديد على المساجد وخطب الجمعة التي يتولاّها علماء مؤهّلون فكريا وعلميا، ويقوم «الاخوان المسلمون» في ذلك بدور مهمّ، يتجلّى فيه فكر نخبة واعية ناضجة لا غوغاء جاهلة تمارس الدجل والتهريج، لأن خطباء المساجد في القاهرة «هم في

الغالب من الفئة الصالحة في البلاد» ومن مصاقيع خطباء الجمهور المصري، وأما أجمل أن يصلّي الحجاج المغاربة صلاة الجمعة في الجامع الأزهر، ويستمعوا إلى خطيب الإخوان المسلمين الأستاذ عبد المعزّ عبد الستار في صلاة له بالجامع، فيسمعوا ما يحيىء ويعوا ما يبقى ويعودا بما يجدي....»[1].

وفي حديثه عن الجزائريين في (مصر) يبرز الانطباع الايجابي الواضح عن (مصر) البلد العربي المسلم المضياف الذي كان محط رحال لكثير من الجزائريين «في أزمان مختلفة» فصارت وطنا لبعض كما باتت مورد علم للطلبة وساعدا أيمن للجزائر العربية المسلمة التي تناضل للدفاع عن هويتها الحضارية، حيث رحبت القاهرة بالشيخ الابراهيمي، واحتضنت مكتبا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي صار «يعدّ بمثابة سفارة غاصة دائما بالزوار من رجال العلم والأدب والسياسة كامل اليوم وزلفا من الليل»[2]. فمثلما أعطى الكاتب صورة مضيئة عن (مصر) قدم صورة جيدة أيضا عن الجزائري في (مصر) بجديته وأخلاقه وحبّه (مصر) مثل حبّه بلده الجزائر «ما يجعل الجميع أحيانا يفكّر لمصر أكثر ممّا يفكّر للجزائر» وهو عربون وفاء وتقدير وايمان بالهمّ الواحد والمصير الحضاري المشترك، فشرّف هؤلاء الجزائر في (مصر) ونهض بعضهم بمهمّة التعريف بقضية (الجزائر) المسلمة ولغتها بين أبناء الأمة العربية الإسلامية، فكان من بين أولئك رئيس جمعية العلماء الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) والشيخ (الفضيل الورتلاني) «الذي مهّد لأداء مهمة الأستاذ الرئيس في غير ما موطن، وفي غير ما وسط... ذلك الرجل الذي يمثّل النبل والكرامة والشمم في أروع صورها».

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 2، عدد: 254، في 10 جمادى الأولى 1373هـ (15 جانفي 1954م).

(2) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 2، عدد: 256، في 23 جمادى الأولى 1373هـ (29 جانفي 1954م).

هذه الصورة الايجابية للجزائر في (مصر) بعامة انبثقت من ذلك المحيط الصحّي الجديد في (مصر) بشكل عام، حيث تتراجع بالتدريج الصور الجزئية لمظاهر سلبية في القطر مثل الخمول والكسل الذي برز للكاتب من فعل النظام الملكي السابق حين شجّع الخاملين وأفسح المجال للمحسوبية، كما شجّع الولاء العائلي والاداري، وثبّط همم الكفاءات. تنطلق من انقاض هذه الصور صور أخرى ايجابية لوطن شرع يشجّع النضال العربي والاسلامي لمكافحة الاستعمار، ويحتضن أبناء الأمة العربية والاسلامية بودّ، ومن أوّلهم الجزائريون الذين شرّفوا وطنهم وأسهم بعضهم في خدمة (مصر) بفكرهم وعلمهم، كما بدأ يسهم آخرون في التعريف بالجزائر العربية المسلمة، لما يعانيه الاسلام فيها من تضييق والعربية من اضطهاد.

صاغ الكاتب ذلك بمستويات مختلفة من التعبير، تراوحت بين الأسلوب التقريري السّردي والوصف الحيّ الذي عكس كثيرا ممّا كان ينفعل به الكاتب من مشاعر ودّ وحبّ انساني وافتتان بالطبيعة، اضافة إلى ذلك الابتهاج بطيبة الانسان المصري وجامعة القاهرة، ومساجدها العامرة ورجالها المخلصين. يضاف إلى ذلك دور الجزائري الفاعل في صورة ايجابية لصالح وطنه (الجزائر) و (مصر) انطلاقا من حس حضاري يجمع (الجزائر) و (مصر) بعمقه العربي وبعده الاسلامي.

أما فكرة الرحلة إلى (السعودية) فهي فكرة طرأت بقوة على ذهن الكاتب حين صادف وجوده في (مصر) فترة الحجّ، فشجّعه على الفكرة زملاؤه في «الكشافة الاسلامية الجزائرية» وكذلك الشيخان (محمد البشير الابراهيمي) و (الفضيل الورتلاني) الأمر الذي جعله يظفر بتنفيذها مسرورا، وقد أسعفه الحظ في أن يكون ذلك على حساب الحكومة (السّعودية) التي وجهت دعوة إلى الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) للحج مصحوبا بالغسيري وغيره. فصوّر الكاتب ظروف تلك الرغبة والاستعداد للسفر إلى الحج، وظروف اقبال الحجاج بفضل نشاط الشيخ (الورتلاني) كما يصوّر

التوديع والطائرة التي أقلّتهم من (مصر) «طائرة جبارة ذات أربعة محركات، تقلّ ما يربو على ستين راكبا، وقد خصص معظم مقاعدها لضيوف الحكومة السعودية الشرفيين، وكلّهم من الشخصيات العلمية والسياسية البارزة في البلاد العربية، وكان بين الركاب أسرة الرئيس العظيم محمد نجيب»(1).

كما يصور لحظة العبور قرب أجواء (فلسطين) الأمر الذي أثار شجنا في النفس، لما تعانيه (فلسطين) من اغتصاب صهيوني كأرض عربية اسلامية «رغم أنف العرب والأمم المتحدة»، ثم يصف الهبوط في مطار (جدة) وكله بشر وسعادة تأهُّبا للتوجّه إلى (مكة) المكرّمة.

وقد أعدّت السلطات (السعودية) للرّحالة مع (الابراهيمي) سيارة للتنقل وأداء الفريضة في أرض النبوّة والوحي، فوصف الغبطة بحفاوة الاستقبال والعناية التي أولاها المسؤولون الكثيرون ورجال العلم هناك لوفد العلماء القادم من (مصر) ويجنح الكاتب خلال ذلك للحديث عن حال الجزائر على سبيل المقارنة، فيذكر محنتها التي حُرِم فيها التعليم الديني كما حرم المسجد من أوقاف المسلمين «أيّ محنة أشدّ هولا من أمّة ذلّ فيها المسجد وحزن فيها الجامع»(2).

وحين يتأمل (مكة) يشرع يصفها وصفًا جغرافيا بخلفية تاريخية دينية، يعود بها إلى عهد (ابراهيم) الخليل، فيتمكّن من نفسه توق روحي يتشوّف فيه إلى عزة ينهض بها المسلمون، وقد استشفّ معالم نهضة في (السعودية) بدأها (عبدالعزيز(*) بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود) الذي

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 257، الصادر في 1 جمادى الثانية 1373هـ (5 فيفري 1954م).
(2) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 2، عدد: 258، الصادر في 2 جمادى الثانية 1373هـ (12 فيفري 1954م).
(*) كان على قيد الحياة حين زيارة الكاتب للسعودية، توفي بعد أقل من سنة، عاش نحو ثلاث وسبعين سنة (1880م ـ 1953م)

كان على قيد الحياة ابّان هذه الرحلة زمانا، فأثنى الكاتب على الملك وعلى جهوده بمثل قوله «... كان الملك عبدالعزيز عظيما حقّا، مصلحا حقّا، وعربيا صريحا حقّا، ومؤمنا قويّا صالحا حقا، كان مجددا يهوى الاصلاح ويتخير له الفرص، ويرتاح للانشاء والتعمير، فبنى القصور والمنشآت الخيرية والثقافية، وشقّ الطرق في كثير من المناطق الجبلية» فقدّر فيه نهجه الاصلاحي في محاربة الخرافة والدّجل واشاعة التّعليم لاعداد المهندس والطيار، والاهتمام بالعمران والمساجد وطرق المواصلات، وهي أشياء بدت من قيم الكاتب في الحاكم الذي ينبغي أن يكون قريبا من العلماء، يجلّهم ويرجع إلى رأيهم، كما يشجّع العلم ويأخذ بالاصلاح في كلّ الاتجاهات وهو ما بدا له ظاهرا في الملك (عبدالعزيز) ثم ـــ خلفه فيما بعد ـــ ابنه الأمير (سعود(*) بن عبدالعزيز) أيضا الذي كان وليّ عهد في تلك الفترة، فأعدّ في قصره «حفلة عشاء للضيوف البارزين من حجاج العالم الاسلامي»(1) الذين كان من بينهم (الغسيري) و (الابراهيمي) حيث وصف الكاتب مأدبة العشاء الفاخرة جدا في أبّهة ذات طابع رومانسي خلاّب، في قصر اتّسع طابقه الأول للألوف حيث توجد قاعات فخمة فسيحة للاستقبال والأكل، قد يضيق بها من يمقت الترف الزائد عن الحدّ الطبيعي، لكنه يطمئن حتما لذوبان الفروق الطبقية في الحفلة بين المدعوين، وبينهم وبين الأمير واخوته كما تقتضي الأخلاق الاسلامية: «صعدنا إلى الطابق الأول أين توجد قاعات الاستقبال وأبهاء القصر الزاهرة، وهناك رأينا أضخم ما أنتجته حضارة القرن العشرين من وسائل الراحة وأسباب النعيم، هذه أبهاء فسيحة تتّسع للألوف الجلوس قد فرشت أرضها بالطنافس الفارسية الموشاة بأفخر أنواع الوشي، صفّت عليها أرائك وثيرة مذهبة تسطع تحت أشعّة الأنوار الكهربائية

(*) خلف أباه سنة 1953م، وتنازل لأخيه فيصل سنة 1964م عاش نحو سبع وستين سنة (1902 ـــ 1969م).

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 260، في 22 جمادى الثانية 1373هـ (26 فيفري 1954م).

المتألقة في سماء الغرفات، ومن خلال الثريات المرصّعة بقطع البلّور الفاتن... وانتقلنا إلى غرفة الأكل، وكان بها من الاستعدادات ما أدهش، وجلسنا ــ الضيوف والأمراء ــ حيث انتهى بكل منّا المجلس، وعرفنا ديمقراطية لم يحلم بها ديمقراط، ومساواة لم تحلم بها الثورة الفرنسية أو لم تطبقها يوما على الأقل، فما كان سعود واخوته الاّ كأفراد من المؤمنين العاديين الذين جاؤوا من سائر أنحاء العالم».

وقد تحوّلت أروقة القصر إلى «سوق عكاظ» فيختال الشعراء ويزهو المستمعون ومن بينهم الأمير (سعود) الذي بدا قريبا من قلوب ضيوفه كما يستشفّ من تعبير الكاتب الذي وصف مظاهر الأبهة الملكية والثراء الأرستقراطي إلى جانب مظاهر التوادد والتعاطف في ضرب محبّب من التآخي بين المسلمين الحاضرين عموما، وبينهم وبين وليّ العهد حينئذ خصوصا.

إلى جانب هذه الصورة الارستقراطية في القصر الملكي التي بدت للكاتب ايجابية واجلاله للأمير هناك أيضا: اعجاب بشخصية الملك (عبدالعزيز) نفسه، في سياسته خاصة، لديمقراطيته وعدله، فكانت المناسبة أيضا مصدر تقدير الكاتب للملك ونظامه وجهده في بناء الدولة والاستفادة في ذلك من انجازات الحضارة المعاصرة، وكذا كرمه واهتمامه بالحجاج خاصة منهم ضيوفه من رجال علم وسياسة.

وحين يخرج الكاتب من الفندق لطواف القدوم يسمع صيغ الدعاء الجاهزة، فيدرك أن وطنه (الجزائر) تقتضي حاله صيغ دعاء جديدة تراعي حاله لخلاصه ممّا يعاني تحت وطأة احتلال بغيض تمارسه دولة صار يحمي «قانونها في نظر الاسلام كلّ أنواع الرذائل.... وذلّ المسجد... ولا وظيفة للامام فيه إلاّ الصّلاة وخطبة الجمعة ثم لا وعظ ولا إرشاد ولا تبليغ»[1].

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 2، عدد: 261، الصادر في 29 جمادى الثانية 1373هـ (5 مارس 1954م).

ثم يتأثر لجلال الموقف خاصة حين يرى الشيخ (الابراهيمي) في «نوع من التأثر العميق... يتحوّل إلى طفل صغير يبكي ويغمغم ويدعو آلله ويسأله المسألة»(1) فأحسن الكاتب تصوير الموقف في إدراك ذلك السّموّ الرّوحي عند تفكير المخلوق في خالقه، في لحظة يدقّ فيها الاحساس فتشعّ في النفس صور الايمان أكثر وتتّسع آفاقها في الاحساس بالخالق وفضله وخوف عقابه، كما يكبر شعوره بضآلته وضآلة شكره النعمة عليه في الحياة، فيلوذ بكل ما يقرّبه إلى آلله رجاء في رحمته، فيمدّه ذلك بما يملأ روحه من سعادة ورضى وطمأنينة.

وبعد وصف الطريق الصعب إلى (عرفات) والعودة منها إلى (مكة) في العاشر من ذي الحجة ــ وقد أصبح الجميع في هيأة العيد شرع الكاتب يحدّثنا عن المواقع المختلفة التي زارها، ومنها «بيت مولد سيدنا محمد ﷺ والمعلاة حيث قبر سيدة نساء الدنيا خديجة بنت خويلد (ض) ودار أبي سفيان، و.... بعض المدراس الحديثة والمستشفيات العظيمة وبعض الدور الخاصة والمتاجر وادارات الدولة»(2).

فيتحدث في المناسبة عن لقاءات مع رجال الحجاز وعلمائه، وعلماء من العالم الاسلامي خاصة في فندق (مصر) بـ (مكة) الذي صار «المركز الرئيسي لتجمّع خيرة رجال العروبة والاسلام»(3)، حيث أقيمت حفلتا تكريم عظيمتان، كانت احداهما لتكريم الشخصيات البارزة من حجاج

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 2، عدد: 262، الصادر في 6 رجب 1373هـ (12 مارس 1954م).

(2) البصائر، سلسلة: 2، سنة 6، عدد: 263، الصادر في 13 رجب 1373هـ (19 مارس 1954م).

(3) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6 عدد: 266، الصادر في 6 شعبان 1373هـ (9 أفريل 1954م).

العالم الاسلامي أقامها الاخوان المسلمون، حيث بدأ الكاتب يتحدّث عن بعض الأوضاع في (السعودية) منها جوانب مختلفة من التطور الجاري في بعض الميادين ومنها التعليم حيث نما وعي البدويّ نفسه بضرورة التعليم كأمر واجب وقيمة العلم للرجل والمرأة أيضا، لتعليمها في مختلف المراحل الدراسية «شؤون دينها من ابتدائية إلى عالية حتّى تعيد للدّنيا صورة نموذجية في التربية النسوية تذكّرها بأمهات المؤمنين»(1).

وقد أثنى الكاتب هنا على الملك (عبدالعزيز) وابنه وليّ العهد — عند حدوث الرحلة — (سعود) الذي خلف أباه على رأس المملكة بعد أقلّ من سنة من رحلة الكاتب، كما أثنى على وليّ عهد هذا الأمير (أخيه) عند كتابة الرحلة في 1373هـ (1954م) (فيصل(*) بن عبدالعزيز) وكان ثناؤه انطلاقا من قيمه الخاصه في الحاكم كما بدت في تعبيره: رجل مؤمن، صادق متديّن، مصلح، مجدد حازم، متواضع كريم، توّاق إلى تطوير بلاده، عامل لصالح العروبة والاسلام.

وبعد نظرة عامة عن مظهر الحجاج في (مكة) من مختلف الأقطار وأعمارهم حيث يقل عنصر الشباب(2) ينطلق الكاتب في وصف انتقاله إلى المدينة المنوّرة جوّا، فنراه يتألق فكريّا وروحيا، فيشرع يناجي النبي (محمدا) ﷺ في خطاب اتّسم بضرب من الاندماج الروحي المشرق في ظلال صوفية، مضى فيها الكاتب يشكو إلى رسول الله ﷺ حال الأمة

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 267، الصادر في 13 شعبان 1373هـ (16 أفريل 1954م).

(*) فيصل بن عبدالعزيز آل سعود (1906 — 1975م) خلف أخاه، ثم اغتيل في ملابسات ربما لا تزال غامضة، قد تكون المخابرات الأمريكية غير بعيدة عنها.

(2) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 7، عدد: 268، الصادر في 20 شعبان 1373هـ (23 أفريل 1954م).

الاسلامية، فيعطي صورة قاتمة عن وضع المسلمين المتخلّف تحت احتلال أوروبي أو وراء تبعية، ثم يعرّج عن وضع الاسلام في الجزائر خاصة وغدر الاحتلال الفرنسي ونشاطه الكنسي في صفوف ضعفاء الايمان والعقيدة من الجزائريين خاصة منهم الشباب «ان الشباب في الجزائر سرق له عقله... شكّكوه في نفسه وفي مقوّماته من تاريخ ولغة وأدب ودين، فأصبح تلميذا لديكارت وداروين... فلا يعبأ بالمحافل الدينية ولا يرود المساجد ولا يرعوي عند ذكر ٱلله.... يا حبيب ٱلله ــ ليس في مساجدك كثير من طبقة المثقفين أو أدعياء الثقافة.... ليس في مدارسك الدينية إلاّ أبناء الفقراء والعمال وصغار الموظفين... ان شبابك في الجزائر لم يقدم لك من الأعمال عشر ما قدّمه شباب أيّ نبيّ آخر لنبيّه في الجزائر، وان أعدل دليل على ذلك هذا الزهوّ الذي تمتاز به الكنيسة.... ان المساجد غير حرّة حقّا، وليس بها رجال يحبّبون الدين للناس إلا قليلا، ولكن المساجد الحرة أيضا لا يغشاها الشباب، فاليك نشكو الشباب والأئمة والعلماء والمربّين ورجال الطرق الصوفية الذين خلت زواياهم من معاني الربانية والهدى، وإليك نشكو حالنا السيئة وتدهورنا في ميدان الأخلاق والتديّن...»[1].

هذه الرؤية القاتمة لحال المسلمين عموما والجزائريين خصوصا أملاها جلال الموقف في الحرم النبوي، وظلال الرسالة المحمدية التي شقّت طريقها إلى القلوب عبر العالم بفضل الايمان القويّ والصدق والتفاني والاخلاص في اعلاء كلمة ٱلله ورسالة الاسلام الأمر الذي رأى معه في واقعه تقصيرا كبيرا في الحفاظ على بريق الرسالة المحمدية وأثرها في النفوس وتأثيرها في حياتهم، وقد بلغ به الشطط في هذه الرؤية القاتمة درجة يخيل للمرء فيها أنّ وضع الاسلام في الجزائر في حال خسوف أمام المدّ (التبشيري) المسيحي الغربي الذي يدعمه الاحتلال، وقد صدر منه هذا بفعل رؤية مثالية

---

(1) البصائر، سلسلة: 8، عدد: 271، الصادر في 12 رمضان 1373هـ (15 ماي 1954م).

لأمته ووطنه الجزائر الذي يريده وطنا حرّا، تتوغّل العقيدة في كلّ النفوس وفي كلّ المواقع، وتجد لها انعكاسا جليّا دالاّ في حياة جميع الناس وسلوكهم شبابا وشيوخا من مختلف الفئات والطبقات حيث يسود صوت الاسلام وقيمه في سلوك الفرد وتفكيره ويتحكّم في طبيعة علاقته بالله والناس، والموقف من تاريخه وانتمائه: العربي اللسان الاسلامي العقيدة.

غير أن اليأس لا يمسك بتلابيب الكاتب حتى النهاية، فمن انقاض الاحباط وأكداس اليأس تلوح بوارق أمل تبدأ تنبثق من ثقة في آلله ورحمته، وتبدأ تكبر وهو يتوسّل بالرسول ﷺ أملا في أن ينقذ آلله أمته ممّا هي عليه من انحطاط وتخلّف وخضوع للاستعمار وتبعية له إلى النهوض والتطور، وأن يبصّر شبابها بوضعه ويرشده إلى الخير، له ولوطنه وعقيدته الاسلامية.

هنا في محطة (المدينة المنورة) اهتمّ الكاتب خلال خمسة أيام بالمواقع التاريخية، ومن بينها مقابر الصحابة والأئمة، فوصف ذلك وصفا رفيعا، متحسسا بخياله وشعوره صورا من اشعاع الوحي وانتشار الرسالة المحمدية، فعبّر بذلك عن حسّ ديني عميق، واستعداد صوفي لدى الكاتب، وحبّ مكين في نفسه للاسلام والمسلمين «كلّما دلفت فوق ثرى مدينة رسول آلله تخيّلت أن كلّ شبر منها يهمس في أذني: هنا تشرفت بلقاء سيد الكائنات أو أحد أصحابه في يوم من الأيام، هنا وقف الرسول عليه السلام موليا وجهه شطر المسجد الحرام راكعا ساجدا، من هنا هبّ غازيا مدافعا منتصرا، هنا ظلّ داعيا إلى آلله باذنه وسراجا منيرا مدى عشر سنوات، هنا شاء آلله أن يلفظ نفسه الأخير ويلتحق بالرفيق الأعلى، وتضمّ جسده الشريف أقدس بقعة على وجه الأرض بعد الكعبة، من هنا شعّت أنوار نبوّة ورسالة حوّلت الأرض ليلها كنهارها ولو كذب المبطلون»(1).

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 273، الصادر في 26 رمضان 1373هـ (28 ماي 1954م).

هكذا طالت وقفة الغسيري أكثر في هذه المحطة من رحلته في البقاع المقدسة، فأسهب في الحديث عنها أكثر ممّا «أسهب في مرحلة (مصر) عكس ما ذهب إليه الدكتور (عبدالملك مرتاض)»[1] ليس في عدد الحلقات فحسب، بل حتى في حجمها(*) وثرائها فكريا وعاطفيا. وان كان الاهتمام بالجانب الثقافي والديني جاء مشتركا بين حديثه عن (مصر) و (العربية السعودية) فان الحديث عن الجانب الثقافي كان أوضح في (القاهرة) بينما كان الاهتمام بالجانب الديني والحديث عنه أبرز بكثير جدا في (السعودية) حيث صور الكاتب ما للبقاع المقدسة من أثر في الحضارة الاسلامية، كما رصد باهتمام واضح العلاقات هناك بين أبناء الأمة الاسلامية، وما للاسلام من دور انساني أخلاقي في إذابة الفوارق بين الناس، وماله أيضا من دور تحريري، يحرّر المرأ من سلطان نفسه ويعضده في رفض العبودية لغير آلله. من هنا كان يبرز في ذاكرته وطنه (الجزائر) في كلّ منعرج، فيدين الاستعمار وجبروته والشباب وانصياعه لاغراءات المحتلين، واستسلام فئات مثقفة من محامين وأطباء وغيرهم لغزو الفكر الاستعماري وهيمنته السياسية، فلا يؤمُّون حتى المساجد.

كما يلوح باللائمة من جهة أخرى على أولئك الذين تلهيهم قشور الحياة الدنيا، ومنهم من خالطهم من الحجاج (الجزائريين) أنفسهم الذين جاؤوا إلى الحجّاج من دون استعداد مادي وروحي بالخصوص فسقط بعضهم أخيرا في ورطة الديون، حيث شغلت بعضهم عملية اقتناء الهدايا عن التأمل في ظلال ما توحي به الأماكن المقدسة، حتى رأى الواحد

(1) فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931 ـــ 1954م) عبدالملك مرتاض، ص: 297، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

(*) خصّ (مصر) بثلاث حلقات في (البصائر) هي الحلقات (2، 3، 4) بينما خصّ البقاع المقدسة باثنتي عشرة حلقة، هي (7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 16، 17، 18).

من هؤلاء الحجاج يعود وحده بما يتجاوز عشر حقائب محشوَّة بكثير من الأشياء، مثل «الكؤوس والطؤوس والقباقيب والسبح والمنادل والثياب»[1] بل حتى «الأكفان» نفسها.

وهو لذلك بقدر ما كان منفعلا بما توحي به الأماكن المقدّسة في النفس كان مهموما بمظاهر التخلّف في المسلمين ومعاناتهم وسطحية تعاملهم مع شعائرهم الدينية.

وهكذا فإنه كما طرب للنهضة العلمية والسياسية وغيرها في (مصر) أعلن ضيقه بظاهرة الكسل والخمول عامة وظاهرة التزلّف خاصة للحجاج في الحجاز «نرجو من الشعب الحجازي أن ينهض هو الآخر، وأن يكون عونا للدولة على البنيان، وأن يدرس كثيرا، وأن يكون أمينا في أقواله وأفعاله، فلا يبقى فيه مرتزقة يتلوَّنون مع الحجاج الأجانب في تصريحاتهم ضاربين على نغمة يهواها كلّ فريق، ولو كان فيها ما يمسّ بكرامة شخص أو أشخاص»[2]، وهو في تحليله ظاهرة ووصفها أو في تطلّعه إلى واقع بديل أو في مشاعره وأحساسيه المختلفة يبقي دائما على صورة وطنه في ذهنه مقارنا بين واقع الاسلام في (العربية السعودية) أوغيرها و «بين الواقع المؤلم الذي يعيشه الشعب الجزائري تحت السيطرة الاستعمارية»[3] متطلّعا دائما إلى حال أحسن لسائر الأقطار العربية والاسلامية ومن بينها (الجزائر) فكان يغتنم لحظات تألّقه الفكري ووَجْدِهِ الروحي في البقاع المقدسة ليلوذ بخالقه طالبا الهداية لأبناء وطنه كي ينهضوا من سباتهم راجيا من آلله النصر لدينه الاسلامي في الجزائر، ولغة القرآن التي اضطهدها المحتلّ الفرنسي، ولاحقها في كل المواقع، في المساجد والمدارس الحرة والزوايا.

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 268، في 20 شعبان 1373هـ (28 أفريل 1954م).
(2) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 267، في 13 شعبان 1373هـ (16 أفريل 1954م).
(3) تطوّر النثر الجزائري الحديث، د. عبدآلله الركيبي، ص: 72، الدار العربية للكتاب، ليبيا ــ تونس 1398هـ ــ 1978م.

أما مرحلة (سوريا) و (لبنان) فقد كانت أقصر في الزمان وفي نصّ الرحلة، وهي أكثر قصرا وأشدّ اختصارا في (لبنان) عن (سوريا) وصف فيها الكاتب ــ وهو يقترب من (دمشق) ــ مناظر الطبيعة التي بدت من (الطائرة) في الجو أكثر روعة وجمالا مما كان يتصوّر الشعراء الساعون على الأرض قديما من أمثال (المتنبي) واطّردت صور الافتتان بالطبيعة في (دمشق) والاحساس العميق بدفء العلاقات الانسانية الروحية الحميمة، خاصة في اللقاء برجال الفكر وعلماء الدين وغيرهم من السوريين، وكذا من ذوي الأصل الجزائري أمثال (الأمير سعيد الجزائري).

وقد ابتدأت هذه الصلة الحميمة انطلاقا من مكتب (الجمارك) نفسه بالمطار حين تقدّم الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) ومرافقه (الغسيري) إلى الجمركي الذي هو من أصل جزائري، فاهتزّ هذا فرحا «وتحركت فيه العاطفة الوطنية، فقال مرحبا: أنا من الجزائر، زواوي(*) الأصل من آية(**) أو محمود من أبناء المهاجرين الأولين إلى دمشق»[1] فأبرز هذا الشعور لدى الجمركي طبيعة ذلك الانتساب الشريف إلى الجهة الذى كان يتم عفويا، بكل صفاء في الفكر وطهارة في السريرة، من دون خلفية سياسية أو «عرقية» تماما كما ينتسب المرء إلى عائلة ذات لقب معين أو «عرش» في المنطقة، عكس البعد الذي حرص الفكر الغربي اللاّتيني الصليبي على تغذيته لمدّ شرخ في جسم الأمة الواحدة، كي تضعف قواها وتتشتت جهودها، فتسهل السيطرة والتوجيه للاحتلال الذي اتّخذ أشكالا جديدة بعد رحيله المرئي في 1962م، وسخّر الاستعمار خدمه لانجاز مشاريعه خلفه بعد طرده.

(*) نسبة إلى منطقة (زواوة) بالشمال في (الجزائر).

(**) هكذا في الأصل، بينما يقتضي التعبير الجاري أن تكتب الكلمة (آيت) مع سكون التاء، وقد يكون الخطأ مطبعيا.

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 274، في 10 شوال 1373هـ (11 جوان 1954م).

وقد أعطى الكاتب احساسه أكثر من مرة هنا في الرابطة التي تشدّه إلى (دمشق) «كنت جوّالا، كل معلوماتي عن دمشق لا تتجاوز معلومات الشهادة الابتدائية، وانما كنت فقط أحسّ بأن هذه البلاد السورية بلادي وأهلها أهلي».

قضى الكاتب مع (الابراهيمي) خمسةأيام في (دمشق) ركزّ حديثه فيها عن اللقاء برجال الفكر والثقافة والسياسة وعلماء الدين وزيارة آثار المدينة ومراكزها الثقافية مثل (دار المجمع العلمي العربي) و (مسجد بني أمية) والمدارس والكليات، وحتى «المصانع والأسواق، فرأينا شعبا لا يستطيع أحد أن يستعمره» وهو حكم للكاتب مستمدٌّ من طبيعة الفترة في زمن الإباء قبل أن يتحوّل السياسيون (سماسرة) و (بيادق) في يد الغرب، وأنانيين، همُّهم الأول الخاص المجد الشخصي المصطنع الهش والدفاع عن الكرسي ولو اقتضى الأمر الارتماء في أحضان الأعداء وكبح إرادة الشعوب وقمعها.

أحسّ الكاتب بعمق الرابطة الروحية والقومية في (دمشق) حتى خيل إليه أنه مقيم فيها أبدا، حتى أن نفسه لم تطاوعه بسهولة إلى مغادرتها، بل هو يذكر لنا أن الشيخ (الابراهيمي) كان يدفعه دفعا ليغادرا (دمشق) إلى (بيروت) كما عبر عن ذلك بقوله: «الأستاذ الرئيس أبي الاّ أن (يدعقني) من هناك (دعقا) بأن أركبني راغما يوم الرحيل من دمشق إلى بيروت على متن سيارة تسرع سرعة أمريكية كأنها تتحرّك بمحرّك ذرّي» فحتى السيارة بدا له أنها تبالغ في سرعتها لتعجّل برحيل يتمنّى التريّث فيه، فبينما هو يحسّ سعادة بكلّ دقيقة تضاف إلى فترة اقامته في (دمشق) تسرع السيارة لتقلّص لحظات الاحساس بتلك السعادة التي تتراجع من النفس كلما ابتعدت (السيارة) عن (دمشق) أكثر.

وان ودّع الكاتب (دمشق) آسفا على الفراق فإنه كان سعيدا بالأيام التي قضاها فيها، فأعطى انطباعات كلّها ايجابية عن (دمشق) معالم وأناسا،

خاصة منهم وجهها المضيء: رجالها في الفكر وعلماؤها ومثقفوها، يضاف إلى ذلك طبيعتها الزّاهية منذ لاحت له من نافذة الطائرة وهي تقترب من (دمشق) إلى لحظة مغادرتها نحو (بيروت).

وجمال الطبيعة ورونقها كان السمة الأساسية في انطباعاته عن (لبنان) ومن أهمها الفقرة التالية التي يورد فيها مقارنة بين منظر من الطبيعة في (لبنان) ونظيره في (الجزائر) ممّا يذكّره بقصيدة لشوقي، كما يجلي افتتانه بالطبيعة الزاهية كأديب فنّان «وصلنا سهل البقاع فرحبت بنا مدينة زحلة رافلة في حللها بين الخمائل ملاهيها ومغانيها، ورأينا المدينة جاثمة في سفح جبل صنين صامدة للطبيعة تغالبها شتاء كأية مدينة أوروبية حديثة، وراعنا جمالها فذكّرنا قصيدة شوقي يا جارة الوادي إلخ ثم انتهينا إلى المصائف بعد طلوع وهبوط والتواءات تذكّرني بجبال أوراس أو أربعاء بني ايراثن بزواوة».

وقد بدا لنا الكاتب متيّما بالطبيعة النقطة التي لم يبرحها في حديثه عن (لبنان) عموما و (بيروت) خصوصا حتى تلك العشية التي قضاها مع (الابراهيمي) لدى أحد الجزائريين في احدى ضواحي (بيروت) حيث بدا أنه أدرك أكثر هذه المرّة سرّ السّحر الذي يفجّر قرائح الشعراء لدرجة اعتبر معها (الأخطل الصغير) مقصّرا في وصفه جمال الطبيعة هنالك.

وهكذا غلب على هذه المرحلة من الرحلة الاهتمام بالطبيعة وجمالها اضافة إلى الحديث عن رجال الثقافة والمعالم الثقافية خاصة في (دمشق) والصلات التي تربط أبناء الأمة العربية خاصة بين (الجزائر) و (سوريا) وقد عقد في النهاية مقارنة بين الطفل اللبناني وحظه الكبير من الصحة ورخاء العيش والتعليم الذي قد يفوق فيه (لبنان) بلدانا أوروبية أخرى وبين الطفل الجزائري الرّازح تحت الشقاء، يعاني الجوع والمرض محروما من نعمة التعليم، يعمّ جميع أبناء الوطن.

ثم يختم الكاتب رحلته مودّعا ــ مع (الابراهيمي) ــ (بيروت) في اتجاه مطار (القاهرة) الدّولي، وكان يتمنى أن يعرّجا «على فلسطين جوا على الأقل، ولكن فلسطين أضعناها، فأصبحنا لا نستطيع التحليق في سمائها ولا المرور فوقها، فاكتفينا كشعوب عربية إلى رفع القضية إلى عدالة السماء بعد أن يئسنا من عدالة الأرض»(1).

ثم يتكلم في هذه الخاتمة بشكل سريع عن العودة إلى (مصر) حيث كان في استقبالهما بعض من رجال (مصر) مثقفين وسياسيين، كما يتحدث بشكل سريع جدا عن عودته بمفرده جوّا إلى (الجزائر) مرورا بمطاري (بنغازي) و (طرابلس) في (ليبيا)، ثم مطار (تونس) ليأخذ منها في اليوم التالي قطار الصباح نحو (قسنطينة) في (الجزائر) حيث شعر بسعادة وهو يرى وطنه وأهله وأصدقاءَهُ، فنزل عند أصهاره في (قسنطينة) حيث شرع يتلقّى التهاني بحجّه وعودته «استقبلت الزائرين وفي طلائعهم رجال جمعية العلماء وشباب الكشافة الاسلامية الجزائرية وجماعة من أهالي سكيكدة وغيرها، وكتب آلله أن اجتمع بهم بعد فراق دام شهرين، كنت فيهما سفيرهم إلى الشرق العربي ورديفا للسفراء قبلي هناك، وأرجو أن أكون قد أحسنت السفارة الحرة لبلاد ليست لها سيادة ولا سفارة من غير ذلكم النوع، كما أرجو أن أكون قد قدَّمت بعض ما لبلادي عليّ من خدمة برحلتي هذه.... التي يرجع الفضل في تحقيقها إلى الكشافة الاسلامية الجزائرية وإلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وإلى حكومة الثورة بمصر وهيآتها وإلى جلالة الملك سعود».

هذا النص الأخير ــ الذي قد يعتبرَ تحصيل حاصل ــ أوردته بطوله عمدا، لأنه يؤكّد لنا أكثر من شيء، من ذلك أن وفد الكشافة عاد إلى

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 2، عدد: 276، في 24 شوال 1373هـ (25 جوان 1954م).

(الجزائر) برّا، ولم ينتظر عودة (الغسيري) من رحلته إلى (السعودية) و (دمشق) و (بيروت) كما يسجّل لنا طريق عودته جوا حتى (تونس) وأن نزوله في العودة كان لدى أصهاره في (قسنطينة) حيث يكون قد ترك أسرته، وحيث وفد عليه أيضا المهنئون من (سكيكدة) التي يمارس فيها أصلا عمله في التدريس بمدرسة جمعية العلماء التي يمثلها كما يشرف على النشاط الكشفي، إضافة إلى كونه مرشدا عاما للكشافة الاسلامية الجزائرية على المستوى الوطني، ممّا يعني من جهة أخرى مكانته لدى رجال (سكيكدة) وفي نفوسهم، من مثقفين وغيرهم.

كما نستنتج من النص بشكل واضح: أن الذي شجعه على الرحلة وهيأها له بالخصوص في (الجزائر) جمعية العلماء، وفي الوطن العربي حكومة الثورة المصرية وملك السعودية، فتكفّل هذان الطرفان بالاقامة والتنقل هنالك وهو أمر غير هيّن، ثم يأتي في هذه النقطة الأمر المهمّ وهو أن الرحّالة لم تكن غايته حجّا وتجوّلا فقط، بل كان خلال ذلك كلّه يشعر بأنه يحمل مهمة وطنية في التعريف ببلده الرازح تحت الاحتلال الفرنسي ويحرص على أن يشرّفه بمواقفه وآرائه وسلوكه.

ومهما يكن من شيء فان رحلة (الغسيري) «عدت من الشرق» قد عبّرت عن امكاناته الأدبية في التفكير والتعبير، كما عبّرت عن حبّه الترحال خاصة بين أقطار الوطن العربي والعالم الاسلامي، وهي ممّا يعطي صورة جليّة عن حسّه الوطني واعتزازه بانتمائه الحضاري، عربيا واسلاميا الأمر الذي كان يسعده ويحزنه في آن معا. تسعده بوادر النهضة والتطور في (مصر) و (السعودية) و (سوريا) ويحزنه وضع الانسان القابع في التخلف كما يحزنه وضع أقطار عربية واسلامية أخرى لا تزال رازحة تحت كابوس الاحتلال الأجنبي، وفي مقدمتها (الجزائر) لذا كان يرى الثقافة عموما والدين خصوصا من العوامل الجوهرية في نهوض الأمة العربية خصوصا والمسلمين عموما، وهما النقطتان اللّتان ركزّ عليهما كثيرا في الحديث عن رحلته

إلى جانب الحديث عن رجال الفكر وعلماء الدين الذين التقاهم من دون تفصيل مملّ، مهتمّا في معظم الحالات بما كان يشغل بال العلماء والمفكرين وبالأوضاع المختلفة في الأماكن التي زارها، اجتماعيا وثقافيا ودينيا وسياسيا، مسجّلا في الوقت نفسه ما للحكّام من دور في النهوض بالأوطان، وما عليهم من مسؤوليات تاريخية، على الشعوب أن تساعدهم في القيام بها ليكون النفع عاما للحاضر وللمستقبل.

وقد بدت قيمه في السياسي الحاكم: قيما وطنية، قومية، دينية، أخلاقية: حضارية في النهاية. فالحاكم سواء في (ليبيا) أو في (مصر) أو في (السعودية) أو في (سوريا) مخلص لوطنه عامل لازدهاره حسب امكاناته؛ متديّن يقرّب العلماء ويحترمهم، متواضع مع الناس خال من صفات الغطرسة والجبروت التي ليست من صفات العظماء.

وصف الكاتب ذلك كلّه وصفا جيدا كشف عن قلم أديب وروحه، ورجل فكر وسياسة، ومبادىء وطنية وقومية، تراوح هذا الصوف بين الارتباط بالسرد التقريري والتصوير الأدبي الجيد حسبما يمليه الموقف أو حسب حالته النفسية وقوّة الاستجابة لديه أو ضعفها تجاه المحرّض الخارجي من موقف أو منظر أو حالة أو فكرة أو رؤية في قضية.

خلال ذلك، عبر محطّات الرحلة كلّها كان وطنه الجزائر حاضرا في ذهنه، في كل المواقف المهمّة والمنعرجات يتذكّر واقعه التعيس: سياسيا، دينيا، ثقافيا، اجتماعيا، ويتطلّع إلى بديل له منتظر، يحنّ إليه متشوقا عبر أفق كئيب، حيث باتت ملامح الأمل البديل تجاهد للبروز عبر السحب الكثيفة ولسان حالها يعلن الاّ سبيل لحضور هذا البديل إلاّ على أنقاض اليأس والجمود امتطاء لصهوة يقظة سياسية اجتماعية، ونهضة تعليمية ثقافية، أساسها العربية تعبيرًا وروحها الاسلام فاعلا في المسجد وفي تفكير الناس وحياتهم الخاصة والعامة.

رحلة (عثمان سعدي):

يبدأ (عثمان سعدي) في رحلته (وطني)[1] بتصوير المشهد في الميناء منذ اللحظة التي بدأت فيها الباخرة تستعد للاقلاع تاركة وراءها المدينة، وقد احتشد على ظهرها مسافرون شرعوا يلوّحون بمناديل لأهل أو أصدقاء مضت صورهم تتضاءل كلما ابتعدت الباخرة أكثر عن الميناء «تشق طريقها على صفحة البحر الهادىء، تاركة من ورائها أمواجا متلاطمة وزبدا هائجا، وعلى ظهرها وقف جمّ غفير خليط من الأجناس متجهين نحو الشاطىء»[2] رفقاؤه مشدودة أنظارهم إلى أحبائهم في الميناء يتبادلون معهم إشارات التحية والوداع وهو مشدود إلى التفكير في ماضي وطنه وحاضره، لما أوحى به منظر الميناء وابحار الباخرة منه، حيث مضى يفكّر في زمن كانت السفن الجزائرية تخرج فيه من هذا الميناء شوكة في حلق كلّ عدوّ تفرض هيبة واحتراما، وصارت بعد أفول نجم عزّة ومجد تخرج تحت علم آخر في عهد احتلال فرنسي محمّلة بخيرات وطن إلى أوروبا، ويحرم أبناؤه منها، يعانون فقرا وجوعا.

فهو إذن يودّع وطنه بائسا، ذا احساس بالتعاسة، ساخطا على قهر استعماري أوروبي وتخلّف اجتماعي استغله الحزبيون من أدعياء الوطنية الذين يمعنون في ممارسة الافك والبهتان لتضليل المواطن وصولا إلى مغانم شخصية «وطني ها أنذا أغادرك، ولم أفارقك إلا لأنني(*) رأيت فيك ذئابا في وطنيتهم وثعالب في دجلهم وصخورا في بلادتهم، مقاييس الزعامة عندهم أن يدخل الفرد السجن خمسة أيام ثم يخرج منه فتصفّق له الدّهماء، مقاييس الوطنية

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 6، عدد: 251، الصادر في 12 ربيع الثاني 1373هـ (17 ديسمبر 1953م).

(2) المصدر السابق نفسه، والفقرات اللاحقة مقتبسة من العدد نفسه.

(*) في الأصل (للأنني) قد يكون خطأ كتابيا أو مطبعيا وهو المرجّح.

لديهم القاء الخطابات الحماسية أيام الانتخابات وكتابة المقالات النارية وتقديم الاحتجاجات الخطيرة... غايتهم التي ينتهي إليها أغلبهم حشو الجيوب على حساب الشعب المسكين وفتح المصحّات على حساب الأمة البئيسة» حتى بات الدجل السياسي يخدم الاحتلال والانتهازيين السياسيين، ولا يخدم وطنا. صار هذا الدجل دربا مغريا موصلا إلى المغانم السياسية والمادية المختلفة.

ثم يعرّض الكاتب بالغوغاء ومنها الشباب المتهوّر لسقوطهم في فخّ الحزبية واندفاعهم وراء السياسيين الوصوليين.

من منطلق الاحساس بهذا الضيق من الاستعمار وأذنابه والسياسيين الانتهازيين وأصحاب المصالح الشخصية الذين خلقوا جميعا مناخا موبوءا: يعلن الكاتب قراره الخاص بالهجرة، لكنه يهاجر لطلب العلم، وفي الوقت نفسه للتعريف بوطنه ثمّ العمل في مسيرة تحريره، حيث يوعز لنا بالأمل في هذا التحرير الذي تنهض به فئة مؤمنة بربّها مخلصة في عملها بعيدا عن اللّغط الحزبي والدّجل السياسي «صبرا يا وطني صبرا، فالفجر بازغ لا محالة، بشرى يا وطني بشرى فكأني أرى فجرك مشرقا ونهارك طالعا».

ولم يتأخر طلوع هذا الفجر أكثر من أحد عشر شهرا من نشر الرحلة حيث لاحت خيوطه من وهج الايمان العميق والوطنية الصادقة التي فجرت ثورة (1954) في الساعات الأولى من فجر أول (نوفمبر).

لقد نشر الكاتب رحلته في حلقة واحدة احتلت تقريبا صفحة كاملة من جريدة (البصائر) وحدّد أنّها رحلة عبر البحر بدليل من النص، كما استفيد أنها رحلة للدراسة حدّد كتابتها من (القاهرة) ولم يحدّد تاريخ الانطلاق فيها ولا تاريخ كتابتها، بل لم يعيّن الميناء الذي أبحرت منه الباخرة فبقي ميناء ذا ملامح عامة، يمكن أن يكون ميناء (عنابة) أو الجزائر (العاصمة) أو غيرهما، كما لم يذكر الميناء الذي رست به الباخرة التي سافر عليها.

فلم تقم الرحلة إذن على مذكرات يومية تعيّن مواقع أو تحدّد أيّاما وتواريخ نجد ملامحها في نصّ الرحلة، لقد أملتها تجربة السفر من وطنه إلى خارجه، فتجمّعت في شكل مشاعر مختلفة تلعن الاستعمار وظروف البؤس التي انجرّت عن وجوده من جهة وتعلن حبّ الكاتب وطنه من جهة أخرى وتوقه إليه ثائرا وأمله في أن يفيده بعلمه ليكون وطنا حرا سعيدا موحّدا مزدهرا بأبنائه الجادين المخلصين العاملين لتتراجع منه صورة مجتمع متناحر «دبّ الشقاق بين أفراده فتفرق جماعات وشيعا، لأن مصلحة فرد جاهل أو شخص غبي اقتضت ذلك».

هكذا عبّر الكاتب عن ضيقه بواقع وطنه وبأوضاعه المتردية: اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا، سياسيا، متحسّرا على ماضيه الزاهر، ساخطا على هيمنة احتلال وطغيانه، وعلى نشاط (الحزبيين) من أبناء الوطن الذين لا يهدفون ــ كما يرى ــ إلى خدمة الوطن، بل يسعون إلى تحقيق مآرب شخصية واحراز صيت يوفّر لهم سبل الوصول إلى تلك المآرب ويؤمّن (مجدا) مفتعلا يشيده على الرمال صخب الغوغاء وصراخ المهرجانات التي تمارس فيها شتّى أنواع الغشّ والدجل والنفاق السياسي، ومختلف أساليب الاحتيال للتّمويه عن الدّوافع والغايات.

ويستشف من الصياغة في نصّ الرحلة أنها بقلم كاتب أديب تستفزّه الصور المؤذية في الحياة فيدينها كما يطرب قلبه لبهجة الطبيعة والشوق إلى الوطن أو مستقبله مثلما يشتد احساسه بالمناظر المتجهّمة أو السلوك غير الانساني لدى أفراد أو جماعات كما تجسّد ذلك في ادانة الممارسات السياسية غير الشريفة.

فنصّ الرحلة إذن عكس حسّ أديب ترك وراءه وطنه، فمضى يتطلّع إلى أرضه وسمائه، يناجيه ويؤلمه واقعه ويتوق للجديد فيه على أنقاض الاستعمار والحزبية ذات الأغراض الرخيصة، وهو بذلك لا يقف عند الرؤية

التشاؤمية وعيناه إلى الأرض خائر القوى، كسيف البال، بل يتحفّز للعمل لتجاوز تلك الرؤية، وهي من المهام التي يعتنقها الأديب أساسا الذي غالبا ما يكون رائدا في اشاعة العمل، محرّضا على صنع البديل الأفضل في حياة الناس والأوطان.

وان أصاب الكاتب في نقل مشاعره وفي وصف جانب من معاناة الوطن: ظلم الاستعمار وصخب الحزبيين ودجلهم فإنه أخطأ في طريقة التعبير عن فراق الوطن في بعض المواقع، فبدل أن يعبّر دائما عن ذلك بالفراق الحزين الذي يكبر على النفس للضرورة عبّر بلا قصد في مواقع أخرى عن ذلك «بالترك» كأنه حالة اختيارية محضة، «يترك» فيها الوطن وحده يواجه مصيره الغامض «تركتك فريسة لظلم الظالمين» وهو ضعف تعبير لدى الكاتب عن أفكاره التي يعلن مسارها العام: انّ الهجرة لخدمة وطنه في النهاية، لا فرارا خالصا منه ليبقى هذا وحيدا نهب الاستعمار والحزبية، لا مدافع عنه. يضاف إلى هذا الضعف في التعبير ضعف في نموّ المشاعر وتماسكها أو عدم اكتمالها أو تناقضها: فالبحر هادىء وفي الوقت نفسه أمواجه متلاطمة وزبده هائج بفعل حركة الباخرة، فبدا ذلك الهدوء سكونا غير مبرّر وسط أحوال جوية سيئة في البحر، تماما مثل العلاقة بين صورتين متناقضتين للشاطىء أو المرسى، فهو جميل وفي الوقت نفسه تعيس مخنوق الأنفاس «منهم من أعجبه منظر الشاطىء الذي جثمت على صدره البواخر الضخمة فخنقت أنفاسه، فلا يسمع الاّ هديرها يتردّد من آونة إلى أخرى».

غير أنّ المؤكّد هو أن رحلة (عثمان سعدي) تعتبر من التجارب القليلة في الأدب الجزائري الحديث التي تعاملت مع البحر والسفر فيه، خاصة منه أدب الرحلة. وبقدر ما عكست ملامح لبعض أوضاع من الوطن فقد عبّرت عن حنين الكاتب وشوقه إلى وطنه. فأكّد بذلك صدق حب للوطن كما أكّد في الوقت نفسه ان الصورة العزيزة للوطن تبدأ تكبر في النفس وتتّسع

أكثر كلّما مضينا نفارقه بعيدا عنه، فيشتدّ الحنين عند البعد وطول الغياب كما تكبر الأشواق المختلفة إليه، وتجنّح، وتتمنّى النفس أن تراه في أحسن حال وأسعدها.

رحلة (محمد علي دبوز):

رحلة الشيخ (محمد علي دبوز) التي نشرها في سبع حلقات من جريدة (البصائر) تحت عنوان «وقفة في دار الرافعي وعلى قبره»(1) أتت أساسا من دافع الاعجاب بشخصية (مصطفى صادق الرافعي) ذي الرّوح العصامية والثقافة العربية الاسلامية والميول الاصلاحية ببعد ديني حضاري. فإذا كان القول الشائع «ان الطيور على أشكالها تقع» معبّرا صادقا فإنه هنا دال أيضا على تلك المثل التي انجذب إليها (دبوز) في شخصية (الرافعي) فكوّنت تلك العلاقة الفكرية الحميمة بينهما، حيث غدا (الرافعي) مثالا يحتذى لدى الشيخ (دبوز) في عصاميته واستماتته في الدفاع عن العربية والاسلام ومناوأة خصومهما بأسلوب بدا له متميزا قوة وصدقا وجمالا في التعبير، مشبع ببلاغة القرآن الأمر الذي تمنّى معه (دبوز) بناء «جيش من البلغاء يرابطون تحت راية القرآن كالرافعي ليغرسوا معانيه في النفوس وينعشوا العربية التي يصرّ الاستعمار على قتلها في الجزائر»(2).

بدأ الكاتب الحديث عن رحلته بالثناء على مدينة (طنطا) التي يعتبرها «بين المدن المصرية كالزهرة بين الأوراق»(3) لأنها المدينة التي قضا فيها (الرافعي) حياته وأنتج أدبه كما تضمّ رفاته.

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، عدد: 334، الصادر في 6 صفر 1375هـ (23 سبتمبر 1955م) وهو العدد الذي صدرت فيه الحلقة الأولى، دون التنصيص بكلمة (حلقة أولى).

(2) هذا النص عن بقية من الحلقة الثانية التي نشرت في العدد (336) من (البصائر) الصادر في 20 صفر 1375هـ (7 أكتوبر 1955م) تأخر استدراك هذه البقية في حلقة سابعة أخيرة في العدد (347) من (البصائر) الصادر في 16 جمادى الثانية 1375هـ (30 ديسمبر 1955م).

(3) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، عدد: 334، الصادر في 6 صفر 1375هـ (23 سبتمبر 1955م).

الاعجاب بالمدينة إذن مصدره (الرافعي) والاعجاب بهذا مصدره قيم للكاتب في رجل الفكر والأدب توفّر عليها (الرافعي) منها سعة علمه وحسه الديني وأصالة فكره وجودة أدبه، لأنه اضافة إلى عبقريته الأدبية كما يقول «مصلح اجتماعي من أكبر مصلحي هذا الزمان، فأدبه أداة لايمانه وغيرته، ينير به الطريق لقومه ويهزّهم لليقظة ويوجههم للمثل العليا الكريمة ولعزة الاسلام وقومه».

ولهذا كان الرافعي واحدا من أولئك الأدباء الأفذاذ الذين رأى فيهم الكاتب نماذج متميزة مثل (الجاحظ) و (المتنبي) و (أبي تمام) ولذلك تمكنت من نفسه رغبة في معرفة (طنطا) التي احتضنت (الرافعي) ومضت تلك الرغبة مقيمة في نفسه تلحّ طيلة عشر سنوات قضاها في (مصر) تحفّزه أكثر كلّما مرّ القطار بمدينة (طنطا) وكلّما أعاد قراءة كتاب للرافعي أو رأى أثرا له حتى قرّر ذات صيف حين زار (مصر) سنة (1955م) تحقيق حلمه بالرحلة إلى (طنطا) من أجل «زيارة دار الرافعي والاطلاع على خزائن كتبه ومشاهدة منازل وحيه في تلك البقاع التي ألهمته كثيرا من أدبه» فكتب إلى أحد أبنائه في (طنطا) يعلن له رغبته، ثم ركب «القطار السريع في صبيحة من أصباح الخريف الباسمة».

وقد أعلن الكاتب لابن الرافعي (الدكتور محمد) حين حلّ بمدينة (طنطا) ما لأبيه من اجلال ولأدبه من اكبار في (الجزائر) خاصة وفي المغرب العربي عامة. وقد حرص في التقائه ابن (الرافعي) أن ينقل عنه كثيرا من الحقائق كي يعرفها كما يقول «تلاميذنا المتأدبون ليعرفوا طريق الأدب الصحيح فيسلكوه، وما أحوجنا إلى أدباء عباقرة يطهّرون النفوس من أدرانها ببلاغة القرآن التي طهّر المصطفى بها نفوس العرب فتآخوا واتّحدوا»[1]

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، عدد: 347، الصادر في 16 جمادى الثانية 1375هـ (30 ديسمبر 1955م).

وهذه العبارة تعكس احدى الخلفيات المهمّة من قيم الكاتب في شخصية (الرافعي) بأصالتها العربية وفكرها الاسلامي.

نقل الكاتب بعض الحقائق التي تتعلق بعصامية الرافعي وجدّه ومثابرته في العمل عن ابنه (محمد) خاصة عن ظروف عمله في مكتبه بالبيت حيث يحدث أن ينقطع عن كلّ شيء ويسهو عن كلّ شيء في غمرة اهتمامه المركّز بفكرة أو معالجة قضية أو البحث في أمر فكري مؤكدا بذلك «جلد أبيه في الدرس وغرامه غراما لا يوصف بالقراءة وطول نفسه في العمل المضني لا يكلّ ولا يملّ».

وفي الطريق إلى (طنطا) انطلاقا من (القاهرة) أجاد الكاتب وصف الطريق الذي كان «جميلا فتّانا تحفّه مزارع الذرة الخضراء وغابات النخل المزرقش بعراجينه الحمراء والصفراء. وكان القطار يطير بين مناظر الريف الجميلة وبودّي لو تمهّل في سيره لتطول متعتي بهذا الجمال الذي ألهم الرافعي كثيرا من أدبه الرفيع، فوصلنا طنطا فقضيت ساعة أتجوّل في شوارعها وضواحيها»[1].

ثم يحدثنا عن ذهابه إلى منزل الدكتور (محمد) بن (الرافعي) في ضاحية (طنطا) وهو طبيب مختص في أمراض الأطفال، فيصف حسن استقباله «في بيت تحوطه المزارع الخضراء ومناظر الريف الساحرة. وكان الهواء الممتلىء، بأنفاس الحدائق يتدفق من النافذة الكبيرة فينعش النفوس، وكانت صورة الرافعي التي نشرت في وحي القلم تتصدّر حجرة الاستقبال في اطار كبير في بيت الدكتور وفي عيادته».

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، عدد: 336، الصادر في 20 صفر 1375هـ (17 أكتوبر 1955م).

ثم يتوقف الكاتب يحدّثنا قليلا عن شخصية (الرافعي) النقدية خاصة في كتابه «السفود» و تصدّيه لبعض المغرورين من ذوي التكوين الغربي الضحل، وتحاشيهم إياه خوفا، مع عملهم الدؤوب الصامت لإحكام الحصار حوله، من أجل الحيلولة دون ادارك الناس جهده ومعرفة فضله وتقدير مكانته الأدبية والفكرية في مسيرة الأدب العربي، ويستنتج من كلام الكاتب في تحليل الموقف من (الرافعي) أنّ هذا الأسلوب الرخيص المقيت من الحرب الصامتة التي مصدرها الحقد والغيرة والحسد هو أسلوب ضعفاء النفوس عامة الذين ينبغي كشفهم وتعريتهم ليعرف الناس حقيقة أمرهم، في آرائهم وأسلوب عملهم في الحياة الثقافية في كل زمان ومكان «وما أحوجنا نحن في المغرب إلى سفافيد وسفافيد نسلك فيها الخونة من أعداء الدين والوطن، فانّ بعض البقاع النجسة لا تطهّرها إلا النيران»[1].

ثم يتحدث الكاتب عن امتطائه السيارة مع ابن (الرافعي) للاطلاع كما قال «على بعض الانحاء التي كان الرافعي يغشاها، ويريني داره ويزيرني قبره» فكانت أول وقفة عند مقهى «ليمونس» في شارع من أكبر شوارع (طنطا) هو شارع (الجيش) حيث كان (الرافعي) يقضي بعض أوقات فراغه «لقربه من داره ولنظافته وجمال موقعه... وكان مجلس الرافعي منه على شرفة مطلة على الميدان»[2] وينطلق الكاتب من هنا يشرح موقع دار الرافعي التي كان يملكها مع اخوته ارثا عن أبيهم في شارع آخر يتفرّع من شارع (الجيش) ثم باعها الورثة، وبات يحتلّها آخرون، لكن ابن (الرافعي) يطلع الكاتب على موقع الشقة التي كان يسكنها أبوه في الطابق الثالث وشرفة مكتبه فيها، فتأثّر لجلال الموقف الذي أحدثه المنظر والذكرى في نفسه

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، عدد: 337، الصادر في 27 صفر 1375هـ (14 أكتوبر 1955م).
(2) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، عدد: 340، الصادر في 25 ربيع الأول 1375هـ (11 نوفمبر 1955م).

وهو يتأمل البيت وشرفة لمكتب أديب مفكّر طالما أعجب بأدبه وفنّه «وقفت أمام الدار ساعة وأنا أتأمل الدار التي أنشأت لنا أعظم عبقرية تفتخر بها العربية والاسلام والشرفة التي كان يصرّ فيها قلم كان منبع النور والنار، ومطلع أدب لازال شمسا في كبد السماء لا يكسفه الزمن، فيرى من النجوم لأنه سلالة القرآن أورثها خلوده في الرفعة لا يتنزّل منها».

في هذا الموقف عاب الكاتب على الدولة المصرية انها لم تشتر الدار لتحوّلها متحفا يقصده الباحثون والسواح، وتعطي بذلك الكاتب اعتباره الجدير به، غير أن موقف الدولة السلبي هنا لم يمح اسم (الرافعي) وحبّه من قلوب عشاق أدبه والمعجبين به الذين يقدّرون جهده وكفاحه في الدفاع عن العربية والاسلام.

خرج الكاتب من تأمّله وذهوله في هذا الموقف أمام دار (الرافعي) في اتجاه قبره لزيارته رفقة ابن (الرافعي) دائما «كانت الشمس محرقة تحت شرفة الرافعي التي ذهلت فيها عن نفسي، فأشفق الدكتور محمد [كذا] فاجتذبني من ذراعي فركبنا سيارته فأمّ بنا مرقد الرافعي لأقف على قبره الكريم».

وقد وصف الكاتب المقبرة وصفا عاما سريعا مركّزا على قبر (الرافعي) الذي كانت تظلّله شجرة كبيرة تكسوه «بنضارة كالتي يجدها في قبره من نعيم ربّه... قرأت الفاتحة على قبر الرافعي ودعوت له بالمزيد من جزاء ٱللّٰه على جهاده في سبيل الدّين والعربية»[1].

والكاتب هنا واثق من رضى ٱللّٰه على (الرافعي) وجزائه الحسن له في آخرته على جهوده الخالصة في دنياه، فيطلب المزيد من ذلك في وقفته

---

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، عدد: 342، الصادر في 9 ربيع الثاني 1375هـ (25 نوفمبر 1955م).

وفي جلوسه مع ابن (الرافعي) ربع ساعة تحت الشجرة حيث يتحدث الابن عن والده، كما يعرض الكاتب لجانب من خلفيات في بعض الخصومات بين (الرافعي) وحسّاده ومناوئيه، وهي ـــ ربما ـــ صورة مصغّرة بسيطة لما يدور في الخفاء من تآمر وتكتّل في الخصومات بين المثقفين، فتكتسي أشكال التكتّل تلك طابعا غير أخلاقي فكريا يصير هدفه الحاق الضرر المعنوي وربّما المادي أيضا بالخصم، وهو ما أصاب شيء كثير منه (الرافعي) مما لا يصدر غالبا الاّ من ضعفاء النّفوس والجبناء الذين يخشون المواجهة، فيلجأون إلى أسلوب الحصار، أو يختارون الصمت والتجاهل المصطنع مع ممارسة الاشاعة والنّميمة والتحريض المباشر وغير المباشر للنّيل من الخصم أو المنافس.

ويختم الكاتب طوافه في (طنطا) بين بيت (الرافعي) قديما وقبره بالاتّجاه إلى عيادة ابن (الرافعي) استعدادا للعودة إلى (القاهرة) «وصلنا عيادة الدكتور محمد في شارع كبير في طنطا، فنزلنا لنستريح فيها ساعة ريثما يحين موعد القطار الذي أرجع فيه إلى القاهرة» فيصف الجلسة وصفا شعّ ظرفا بما رواه فيها ابن عم للرافعي كان حاضرا يسمى (سعيدا) حين سأله الكاتب «عن الغانية التي ألهمت الرافعي مقالاته الفذّة (الجمال البائس)....» فذكر (سعيد الرافعي) أنّ التي الهمت (مصطفى صادق الرافعي) تلك المقالات راقصة ايطالية تدعى (بيونيتشه) حين رآها مرة أولى من بعيد في مسرح بالاسكندرية «فكتب الأجزاء الأولى من الجمال البائس، فانقطع تياره الكهربائي، فبعث إلي فقال، خذ لنا ثلاث تذاكر لأنظر (بيونيتشه) نظرة ثانية لأتمّم مقالاتي، فان الوحي قد انقضى... فبينا أنا في الصف لأخذ التذاكر إذا بالرافعي يجذبني من ذراعي فيخرجني من الصف... كانت قد دخلت من الباب الخلفي للمسرح فلمحها فكفته نظرة واحدة منها... كنت معه أنا والأستاذ سعيد العريان، وكنّا نمنّي النفس بحضور الحفلة الراقصة فحرمنا الرافعي.... صار يداعبنا حتى غصّت صدورنا من شدّة الضّحك فسلاّنا عن حسرتنا ببراعته في الدعابة وظرفه مع الأصدقاء»(1).

(1) البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، عدد: 343، الصادر في 16 ربيع الثاني (2 ديسمبر 1955م).

فكما أوحت الأديبة اللبنانية (مي زيادة) له بكتابيه «أوراق الورد» و «رسائل الأحزان» ألهمته هذه الايطالية «الجمال البائس» ممّا يعكس ما في نفس الكاتب من أشواق روحية وظمإ إلى الجمال الذي لا تدنّسه أغراض الجسد حيث تبقى النظرة إلى العلاقة بالمرأة في هذا المستوى ملاذا عاطفيا وتوقا إلى مثال عاطفي لا موردا للغريزة رغم كلّ ما قد يقال عن المحرّض الدفين أو الخفيّ الذي يرفض السّفور.

لهذا عقّب صاحب الرحلة على رواية محدّثه بقول «كان الرافعي لدينه وقوّة ارادته قد استطاع أن يعلي غريزته فأشبعت نفسها في مجال الشعر، فكانت تلك الثروة الأدبية التي ما كان يترك لنا شيئا منها لو كان ينظر إلى جمال المرأة نظرة مادية كما يفعل التيوس».

هكذا أنجز الشيخ (محمد علي دبوز) رحلته التي كان عنوانها دقيقا في التعبير عن مضمونها، فأهمّ نقطة فيها، وقوفه بعض الوقت حدّده بنحو ساعة أمام الدار التي كان يسكنها (الرافعي) وكتب فيها آثاره، ففجّر ذلك في نفسه أحاسيس مختلفة تلتها وقفة على قبره أوحت له بنضال (الرافعي) من أجل إعلاء كلمة الحقّ الصادقة دفاعا عن العروبة والاسلام.

فكان لذلك اهتمامه منصرفا عن كلّ شيء مركزا على ماله صلة بالرافعي في مدينة (طنطا) فهو لم يول اهتماما لموقع المدينة الجغرافي ولا دورها التاريخي، لا وضعها الاقتصادي ولا الاجتماعي ولا الثقافي ولا غيره، كما لم يول اهتماما للقطار الذي امتطاه ذهابا وايابا، باستثناء ذلك الوصف الجيد الخاص للطبيعة في موقف واحد حين كان القطار يتّجه من (القاهرة) إلى (طنطا) كما رأينا في الحلقة الثانية(*)، أمّا خارج هذا الموقف الذي ملأ عليه

(*) انظر هذه الحلقة، في العدد: 336، من البصائر، سلسلة: 2، سنة: 8، في 20 صفر 1375هـ (7 أكتوبر 1955م).

فراغه في القطار فان (الرافعي) وأخباره وماله به صلة هو الأمر الذي كان يشغله، فملك عليه أمره، كما تحدث أيضا في المناسبة عن (ابن الرافعي) وأسرته، فيصغي لما يذكر الابن عن أبيه، كما أصغى بجدّ إلى ما يرويه ابن عمّ (الرافعي) عنه، فبدا الكاتب مشدودا للرافعي، كأنّ هناك صلة حميمة غير قابلة للانفصام تجعله أكثر ارتباطا بشخصية (الرافعي) رجل قلم وصاحب موقف حيث يبرز البعد العربي والاسلامي من القواسم المشتركة بين كاتب الرحلة و (الرافعي) فوقف الأول من الثاني موقف الاحترام والإجلال الذي لا يصدر إلا عن نفس فاضلة مقدرا جهده الفكري معجبا بجرأته وشجاعته في التّصدّي لخصومه وخصوم العربية والاسلام، والانتهازيين المنافقين.

لهذا حصر الكاتب همّه في الاشادة بكفاح (الرافعي) وذكر بعض آثاره وأثره، وما أوحي به الوقوف ببيته وعلى قبره مقدرا جلده وعصاميته الفذّة التي رأى فيها الكاتب مثالا جديرا بأن يحتذى لبلوغ المجد الفكري الأصيل المستحق بعيدا عن صخب الدعاية والتّلميع المضلّ ممّا يدخل في اطار ما يسمى (ديماغوجية الفكر) من أجل السعي الحثيث للشهرة والنفوذ الأدبي، حيث تمنح «وسائل الاعلام الدّيماغوجيّين مكبرات تضخّم صوتهم، وأعطاهم تضخّم التعليم جمهورا، ولا يحتاج الديماغوجي مثلما يحتاج مرشح الانتخابات العامة لعقد اجتماعات عامة في أروقة المدارس بل انه يجد جمهوره مهيأ من أجله في أمكنة جامعية أو ثقافية»(1) فمثلما صمد (الرافعي) للحصار الذي ضربه حوله خصومه من أشباه النقّاد مضى مستخفا بصخبهم معرضا بديماغوجيتهم، تاركا أعماله الفكرية تشق طريقها بنفسها للقارىء في صمت وهدوء.

---

(1) نقد الايديولوجيات المعاصرة، سلسلة (زدني عملا)، ريمون رويه، ترجمة: عادل العواء، ط: أولى، ص: 147، منشورات عويدات، بيرو ت، 1978م.

وقد عبّر الكاتب عن ذلك باعجاب شديد خاص بشخصية (الرافعي) الذي يلتقي معه في بعض من سمات التعبير الأدبي نفسه الذي يحفل بالتشبيهات والوصف الأدبي لمنظر أو حالة أو موقف أو شعور، أو غير ذلك مما لا يتّسع له المجال هنا.

والرحلة في النهاية أنجزت بقلم أديب متشبعّ بالفكر الديني والاصلاحي، يرى العلاقة بين العربية والاسلام كالعلاقة بين اللحمة والسَّدى، وهذه النقطة من العناصر التي قرَّبت (الرافعي) إلى قلبه، فحرَّضته في النهاية على انجاز هذه الرحلة التي حقق بها أمنيته في الطواف ببعض شوارع (طنطا) مدينة (الرافعي) فرأى بيته وزار قبره وشاهد أيضا مقهاه المفضّلة في أوقات فراغه حيث يكون قد سوّد كثيرا من أعماله الأدبية.

رحلات (أحمد توفيق المدني):

تعدّدت رحلات الشيخ (أحمد توفيق المدني) الخارجية وتنوّعت خاصة في الوطن العربي والعالم الاسلامي، فكانت إلى المغرب الأقصى، والقاهرة، ودمشق، وبغداد، والسعودية، والكويت، والأردن، ولبنان، وليبيا، وتونس، والسودان، والصومال، ثم باكستان، وأندونيسيا، وماليزيا.

وأول رحلة فيها هي رحلته المغربية التي قام بها في (نوفمبر 1955م) بمناسبة عودة ملك (المغرب) (محمد الخامس) من المنفى إلى (الرباط) في السادس عشر من نوفمبر 1955م «حيث استقبله السكان بترحاب وابتهاج، وأعلن عن نيته في تأسيس نظام ملكي دستوري في المغرب»[1].

---

(1) تاريخ الأقطار العربية المعاصرة: 1917 ــ 1970، ج: 2، د. ر. فوبليكوف وآخرون، ص: 414، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، معهد الاستشراق، ترجمة ونشر دار التقدم، الاتحاد السوفياتي، 1976م.

نشر الكاتب رحلته هذه تحت عنوان «ولسوف يعطيك ربك فترضى»[1] وهو عنوان مقتبس من آية قرآنية نقله من لافتة كانت تحت صورة الملك في المطار، حملت تلك اللافتة هذه الكلمة التي «تسترعي اهتمام الناظر حالما تهوي الطائرة بأجنحتها القوية فوق مطار الرباط»[2].

وقد قام الكاتب بهذه الرحلة لتهنئة الملك بالعودة ضمن وفد (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) الذي يتكوّن من رئيسها ـــ يومئذ ـــ (العربي التبسي) ونائبه (محمد خيرالدين) وأمين ماليتها (عبداللطيف سلطاني) وأمينها العام (أحمد توفيق المدني).

وكما أفلح في التعبير عن أحاسيسه تجاه الشعب المغربي وملكه استطاع أن ينقل مشاعر الشعب المغربي تجاه (الجزائر) التي كانت تخوض ثورتها المسلحة، لكنه يعتذر من البداية عن قصور حتى في وصف الحفاوة الكبيرة بوفد (الجمعية) الذي كان أفراده يرفعون على الأكفّ لكنه يحرص في الوقت نفسه على أن ينقل ارتسامات علقت بالذّهن و «نقشت على صفحة القلب» كما قال، بعد ستة أيام قضاها في (الرباط) خاصة و (الدار البيضاء) أخيرا، مع وفد (الجمعية).

وقد بدأ هذا الوصف من المشهد في المطار الذي كانت منطقته لا تزال تعجّ بالبشر في استقبال الضيوف بعد استقبال الملك الذي حطت به الطائرة قبل الرحالة ومرافقيه بساعتين، فوصف البهجة التي ملأت النفوس وبرزت تعبّر عن نفسها في الحركات والعيون «أشهد أنّني لم أر في

(1) نشرها يومئذ تحت هذا العنوان في (البصائر) ضمن ركنه (منبر السياسة العالمية) عدد: 344 من السلسلة: 2، السنة: 8، الصادر في 23 ربيع الثاني 1376هـ (9 ديسمبر 1955م) تضمّن نصها الكامل الجزء الثالث من كتابه (حياة كفاح) ص: 49، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

(2) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج: 3، ص: 49.

حياتي شعبا قد أطلق لحبوره وسروره العنان ــ في دائرة الأدب والوقار والاحتشام ــ كما أطلقه شعب المغرب الأبّي في ذلك اليوم»[1].

ثم يذكر الكاتب مأدبة عشاء خرج إثْرها إلى شوارع مدينة (الرباط) وساحاتها، فيصف احساسه بالتجاوب العميق مع الجوّ الزّاخر بمظاهر البهجة والفرح، وصفاء في القلوب وفي العيون ممّا غدا معه أقرب إلى دخول في حالة من الوجد الروحي في محيط كان يعبق ودّا وأملا وبشرا زادته تألّقا أنوار الكهرباء، وغبطة عامة تملأ النفوس فتنعكس في الحركات، حيث أصبحت المدينة «كلها كتلة من نور، فوق كتلة من نور، حول كتلة من نور: نور الكهرباء ونور الوجوه ونور الضمائر الطاهرة، وقد غمرتنا غمرة من السعادة... وتدخل بنا عالما نورانيا تحيا به الرّوح حياة الاشراق، حيث لا تعرف الزمان ولا المكان ولا الحدود، وحيث تلتئم وتمتزج مع الأرواح الأخرى، فإذا بها تمثل وحدة متجانسة تستمد نورانيتها من الروح القدس»[2] وهي الحالة النفسية التي لم يسيطر فيها الكاتب على دموعه: دموع الفرح لشعب شرع يخرج من عهد هيمنة استعمارية بغيضة، الأمر الذي تمنّى معه أن تدوم تلك الليلة.

ثم يصف الحشود البشرية الهائلة حول قصر الملك يوم 18 نوفمبر للاستماع إلى «خطاب العرش» حيث غصّت المنطقة بالمواطنين الذين دوّت أصواتهم كرعد حين أطلّ عليهم الملك، فيصف مهابة الرجل وثقته في النفس وفي المستقبل وحسن تأثيره في الناس. كما يصف الجمعيات الثقافية والاجتماعية والمهنية وغيرها وهي تجوب مدينة (الرباط) في مسيرة ضخمة تردّد مختلف الأغاني والأناشيد الخاصة بكل جمعية أو فرقة، لكنّ الجميع

---

(1) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج: 3، ص: 51.
(2) المصدر السابق، ص: 52.

كانوا «ينشدون من حين لآخر النشيد الوطني العام الذي يذوب فيه الجميع»[1] ويكادون لا يتوقفون في الساحة حتى خيل إليه في تلك اللحظة أنه اجتمع «في ذلك الصعيد... قلب الأمة النابض، وكأنّ الثلاثمئة ألف رجل وامرأة الذين عمروا تلك الساحة العظمى لا يشعرون إلا بأنهم جسم واحد مرتبط بحبل آلله المتين»[2] تعبيرا عن الشعور العام الوطني والديني والقومي الذي يشدّ الجميع إلى بعضهم.

وقد وصف الكاتب حالته النفسية السابحة في أجواء الودّ العطرة والصفاء الذي امتلأت به النفوس، كما يصف استقبال الملك وفد (جمعية العلماء) في التاسع عشر من (نوفمبر) وكان أول وفد يستقبله (محمد الخامس) تعبيرا «لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين عن شعوره نحوها وسامي تقديره لجهودها الاسلامية الوطنية»[3].

خلال ذلك يذكر الكاتب زيارة سريعة إلى (الدار البيضاء) مع وفد (الجمعية) كما يذكر صورا من تضحيات الشعب المغربي ونضاله في سبيل الحرية والاستقلال، ليخرج بانطباع عام عن ارادة الشعب في العزّة والكرامة «الحقيقية المغربية الجديدة: شعب حيّ ناهض، شاعر بحقوقه وبواجباته، نفض عنه أدران الماضي المنحطّ، ونزع عن ظهره أسمال الذّلة الاستعمارية، وقام بعد كبت طويل يقابل الحياة وجها لوجه، يريد أن يأخذ منه حقّه كاملا غير منقوص، ويريد أن يسير مع ركبها في الطليعة لا في المؤخرة»[4].

---

(1) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج: 3، ص: 55.
(2) المصدر السابق، ص: 56.
(3) المصدر السابق، ص: 58.
(4) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج: 3، ص: 50.

هكذا يبدو على هذه الرحلة طابعها السياسي للتّفاعل مع قضية الشعب المغربي، مثّل (الجزائر) فيه وفد (الجمعية) الذي شارك الشعب المغربي فرحته بأجواء حرية، كما هنّأ (محمد الخامس) بعودته إلى وطنه بفضل جهاد المغاربة جميعا ونضالهم السياسي. وهو حدث أعلن الكاتب ابتهاجه الشديد به، تطلّعا في الوقت نفسه نحو مسيرة الثورة الجزائرية في مضيّها يومئذ إلى الظفر بالاستقلال الحتمي في النهاية.

وكما برز هنا موقف (المدني) القومي والسياسي برز أسلوبه الأدبي في الوصف الجيد لمظاهر البهجة البادية في الحركات والعيون كما تجسّدت في جوّ الاحتفال، مثلما أجاد نقل مختلف الأحاسيس والمشاعر العامة والخاصة، وقد سمت تلك المشاعر محلقة في فضاءات انسانية مفعمة تآزرا وتوادا وصفاء نفس وسعادة غامرة.

أما رحلته إلى (القاهرة) فقد بدأها في السادس عشر من شهر (مارس) 1956 تنفيذا لأمر من (جبهة التحرير الوطني) الجزائرية للالتحاق بالقاهرة، ليكون هناك ضمن الوفد الخارجي للجبهة «حيث أتولّى النضال إلى جانب اخوان أطهار، بالقلم وباللسان، وببذل المساعي المختلفة لنشر الدعوة وجمع المال وارسال السلاح. ولقد قال لي يومئذ الأخ الشهيد عبان رمضان اننا لنشعر بنقص كبير بين صفوف وفدنا الخارجي، فسر اليهم بأسرع ما يمكن، ولتعمر ذلك الفراغ، ولتعلم أنّ حظّك في الجهاد هنالك يعادل أو يفوق حظّك لو أنك عمدت إلى جبل وحملت بين اخوانك السلاح. السلاح يحمله كل المجاهدين، وأمّا القلم أوما الكلمة وأما المسعى الحميد فلا يقوم بأعبائها إلا الندرة من المجاهدين»[1].

---

(1) المصدر السابق، ص: 105.

ابتهج الكاتب بالمهمة التي تاق إليها طويلا كي يخدم بلده أكثر كما قال. وللوصول إلى (القاهرة) أخذ الطائرة إلى (باريس) ثم إلى (جنيف) ومنها إلى (القاهرة) متعلّلا أمام الناس في البداية بمرض ينسبه إلى نفسه وإلى زوجته في السفر من (الجزائر) إلى (باريس) دفعا للشبهات التي قد تجعل الادارة الفرنسية تقبض عليه أو تحوّل بينه وبين السفر، فأعدّ لذلك صهره الطبيب خطة تقوم على اعداد ملف بتقارير وهمية وصور وكشوف تستدعي ارسال زوجته إلى (باريس) بصفة استعجالية، فبادر من أجل ذلك لطلب الاذن من الادارة الفرنسية للسفر إلى (باريس) التي سبقه إليها الشيخ (العباس بن الحسين) حيث قضى خمسة عشر يوما مع زوجته لاجراء فحوص، والتردّد معها على دور السينما والمسرح لتضليل الأمن الفرنسي، وصرفه عن قصد الرجل السياسي، وجعله يعتقد أن الرحلة شخصية، مهموم فيها بعلاج زوجته والترويح عنها اضافة إلى حالته الصحية الشخصية. لذلك فانه حين ودّعها في المطار عائدة إلى (الجزائر) قام بما يوحي بأنه ذاهب إلى (مرسيليا) ليعود منها إلى (الجزائر) بحرا لمتاعب قلبية يتحاشى معها العودة جوا.

ومن (مرسيليا) يبدأ يناور مع (العباس بن الحسين) لتضليل الأمن الفرنسي في جولات سياحية انتهت بهما إلى (نيس) التي أخذا منها الطائرة على عجل إلى (جنيف) حيث قضيا يومين اثنين للراحة والاستجمام استعدادا لمباشرة المهام في (القاهرة) — كما قال — التي قال عنها أنه سبقه إليها قلبُه قبل جسمه، وقد كبر فرحه والطائرة تحطّ في مطار (القاهرة) حيث كان في استقبالهما (محمد خيضر) و (أحمد بودع) الذي ينطق أيضا (أحمد بوده) فدخل الأربعة «غرفة مأمور المطار، وهي غرفة في المطار القديم وكأنّها جحر ضبّ خرب، فاستقبلنا ببشاشة يظهر عليها كثير من الاصطناع... في تلك الغرفة التي إذ قلت عنها انها كانت متواضعة جدا فقد وصفتها بالعظمة والكمال»(1) وهي صورة للاداري ذي السلوك الرتيب البارد

---

(1) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج: 3، ص: 116.

المطعّم بأسلوب المجاملة المصري الذي تستحيل الكلمات والعبارات فيه قوالب جاهزة ميتة ممقوتة.

وقد طال مكوث الجماعة في تلك الغرفة نحو ثلاث ساعات انتظارا للاذن من مصالح الأمن التي لم يشعرها الجانب الجزائري هنالك قبلا بالموضوع الأمر الذي بدأ يعطي صورة سلبية عن (مصر) وعمل رجالها، فأثار ذلك غضب الكاتب وهو في شوق إلى لقاء الحياة السياسية والاجتماعية في (القاهرة) لكن الصورة سرعان ما تعدّلت عندما جاء الإذن بالدخول من ضابط الأمن الذي كان في منتهى اللياقة واللطف، معتذرا للكاتب محملا (خيضر) في (الوفد الخارجي) بالقاهرة وزر التأخير، لأنه لم يخبره بذلك مسبقا حسبما هو متفق عليه، فبدا صوت الضابط يخاطب (مأمور المطار) فرجا في نفس الكاتب «كان الضابط المأمور قد تمكّن أخيرا من الحصول على صوت في الطرف الآخر من الهاتف، وتكلّم وكأننا كنا نسمع صوت القدر من وراء عالم الشهادة، وأستغفر آلله ان شط بي القلم في هذا التعبير، فأخبر مخاطبه بالأمر»(1).

لكنّ الكاتب حين يدخل (مكتب المغرب العربي) في اليوم التالي لوصوله، خاصة منه قسم الجزائر الذي يتكوّن من غرفتين اثنتين يذهل لحالة الاهمال، فيصف الفوضى في ترتيب المكتب حيث يبدو وصف خزانته معبرا عن ذلك «خزانة في الجدار، بها ما يشبه عش الجرذان، قد اختلط حابلها بنابلها، وإذا أراد انسان أن يبحث فيها عن ورقة عمل تحت وابل من غبار القاهرة»(2). وبعد ما استقرّ الكاتب قليلا كما يحدثنا عن ذلك انطلق يصف نشاطه، ويتحدث عن الشخصيات السياسية التي بدأ يلتقيها، أو يتعرّف عليها أو يسمع عن نشاطها السياسي، خاصة من بين الشخصيات الجزائرية

---

(1) المصدر السابق، ص: 117.

(2) المصدر السابق، ص: 118.

هنالك التي بدأ يلمس سوء تفاهم واضح بينها، إبتداء من كلام (محمد خيضر) الذي بدا متضايقا من الغموض الذي كان يكتنف نشاط (أحمد بن بلة) في المكتب العسكري، وان ذكر (خيضر) الشيخ (الابراهيمي) بخير فقد وصف (الدكتور محمد أمين الدباغين) بالرجل الذي هو شبه مجنون، لا يصادق انسانا ولا يثق بأحد، يعتقد أنه الكلّ في الكلّ، كما وصف (الفضيل الورتلاني) بالأناني والمغرور، فهو وحده الوطن والجهاد والتضحية، فالتعامل — في رأي (خيضر) — مع مختلف الأوبئة أهون من التعامل معه.

ولم يلبث الكاتب حتى بدأ يدرك أن في كلام (خيضر) تحاملا كشف جانبا من صراع وضيع بين الجزائريين هنالك من ممثلي (جبهة التحرير) وعدم انسجام، كما كشف تنافسا غير شريف على المسؤولية، وقد أجاد الكاتب هنا وصف انطباعه عن ذلك الصراع الظاهر منه والمستتر لدرجة كاد يشغل فيها القوم عن مهمتهم الأساسية في خدمة وطنهم، ممّا أوعز بمقاصد غير نظيفة لبعض من أولئك الذين يستميتون مستبسلين في القبض على زمام المسؤولية واستقطاب الأنظار، ورغبة كلّ واحد من المتصارعين في أن يكون هو وحده الصوت المؤثر، تصغي إليه الآذان ويقف في مساقط الضوء المتوهّج دون منافس، ولا تكاد تلمح الاّ قليلا ممّن لهم رغبة في عمل خالص للوطن من دون حرص هستيري على مغانم الصيت السياسي والسلطة في مواقع المسؤولية.

سُرعان ما اندمج الكاتب عنصرا فاعلا ضمن حدود في هذا الاطار، وانصرف عن كتابة انطباعات رحالة هنا إلى مقيم يكتب مذكّرات عادية عن نشاطه المألوف في (مصر) ولا يخرج من هذا النشاط المؤلوف الاّ حين ينهض للقيام برحلات أخرى في الوطن العربي الاسلامي، وهو ما يرد لاحقا، ومن بين هذا اللاحق الرّحلة إلى (ليبيا) من (القاهرة) عدّة مرّات.

كانت رحلته الأولى إلى (طرابلس) يوم 30 أفريل 1956 ضمن وفد في مهمّة سياسية عسكرية تتضمّن الرغبة في العون المادي، وبشكل خاص

المساعدة على شراء السلاح عن طريق (ليبيا) وتسهيل عملية ما ينقل منه عبر الحدود من (مصر) في الطريق إلى (الجزائر) وقد تكفّل الكاتب مع (محمد أمين الدباغين) بهذه المهمة بالذات في (طرابلس) حيث نزلا ضيفين على رئيس الوزراء في بيته للغداء الذي دعا إليه سفير (مصر) وبعضا من السياسيين العرب، فكان الطعام شهيا خاليا من السياسة، لم ترد خلاله أيّة اشارة إلى الثورة الجزائرية المشتعلة الأمر الذي أزعج الكاتب، وبقي مع ذلك في ذهنه أمل للحديث عن الأمر، غير أن انصراف القوم بعد تناول الغداء والشاي إلى لهو أثاره كوطني جاد حازم يحمل همّ ثورته وحاجتها، فوصف المشهد وصفا جيدا عرّى جانبا من طريقة عمل بعض السياسيين وتفكيرهم المتبلّد أمس مثل اليوم وسلبيتهم التي تبرزهم أقرب في حالهم إلى جثث هامدة، وان أقدموا على عمل كان ذلك في شكل رتيب تتساوى فيه قيمة النتيجة في حظوظ النجاح وحظوظ الفشل، رغم البراعة في (التمثيل المسرحي السياسي) فقال يصف الجلسة بعد الغداء «تناولنا كؤوس الشاي الليبي الممتاز مثنى وثلاث، ثم انتحى الإخوان جانبا، وجلسوا حول موائد صغيرة، وأخذ بعضهم يلعب الورق بينما أخذ بعضهم يلعب الدومينو، واستقلّ رئيس الحكومة وسفير (مصر، بمائدة بسطا عليها رقعة شطرنج وانغمسا فيها ناسين الدنيا وما عليها، وبقيت أنا و (الدكتور أمين الدباغين) نتحدّث في همس وأكننا (المظلومة في دار القاضي) كما يقول المثل التونسي... حتّى غلى الدم في رأسي، وسدّ التأثر نفسي ووقعت في انفعال ثوريّ جامح»[1] فأجبره ذلك على النهوض يخاطب القوم لتفريغ ضمائرهم واستثارة هممهم عن الثورة الملتهبة التي «تمدّ يدها إلى أبناء العمومة وأبناء الخؤولة تستمدّ عونا ومددا فإذا بهم في شغل شاغل، هذا يلعب ورقا وذلك ينغمس في رقعة الشطرنج، وأنا وأخي كأننا نقف موقف المتسوّلين عند باب غني شحيح... استفدنا درسا لا ننساه: العروبة مجرد كلام، والاسلام مجرّد شعار»[2].

(1) المصدر السابق، ص: 141.
(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وهو ما ذكر الكاتب أنه أثّر في الجماعة وفي مقدمتهم رئيس الحكومة، وقد سمع الجميع في سهرة ذلك اليوم كثيرا من (المدني) «عن الثورة وعمّا تطلبه من الأمة العربية وشعوبها وحكوماتها»[1] وقد تمّ الاتفاق في اليوم الموالي بحضور مسؤولين في الجيش الليبي على قضايا لتسهيل العملية الخاصة بشراء السلاح إلى الثورة وعبوره إلى (الجزائر) وبقي تنفيذ الاتفاق ينتظر مصادقة الملك (ادريس) الذي كان في حالة اعتكاف يمارسه مدة «ثلاثة أشهر في السنة: رجب، شعبان، رمضان، لا يقابل أحدا ولا رجال حكومته»[2] إلا بعد عيد الفطر حين يتحدّد موعد للمقابلة التي سيخصّ بها الوفد.

وقد سرّ الكاتب بالرحلة وبنتائجها مبديا تقديره الشعب الليبي المجاهد الذي التقى بعض رجاله المكافحين في مدينة (بنغازي) المدينة «الزاهرة ذات الكفاح المجيد»[3] التي مكث بها يوما في طريق العودة إلى (القاهرة).

أما الرحلة الثانية إلى (ليبيا) فقد كانت بعد الأولى بأقلّ من شهر ونصف، أي في (12 جوان) حين وصلت برقية تحدّد موعدا يقابل فيه الملك (المدني) وصاحبه (أمين الدباغين) فتركّز وصف الكاتب على قرية (طبرق) وقصر الملك فيها تحت حراسة البواخر الانكليزية، اضافة إلى وصف شخصية الملك التي بدت شخصية جذّابة، فطبرق كما وصفها الكاتب «قرية جميلة يخترقها لسان بحريّ طويل عميق، اتخذ منه الأسطول الأنكليزي مركزا أمينا ممتازا، وكانت السفن الحربية الانكليزية تعمّر ذلك اللسان، وقد حسبنا يومئذ 23 سفينة حربية بين كبيرة وصغيرة... وغير بعيد عن تلك السفن أي على أقل من نصف كيلو متر يقع قصر الملك، ادريس السنوسي بما يجعل كل الناس بين مسلمين وأجانب يقولون ان جلالته قد اختار طبرق مقرا

---

(1) المصدر السابق، ص: 142.
(2) المصدر السابق، ص: 143.
(3) المصدر السابق، ص: 144.

لملكه، واختار ذلك القصر ــ وما هو بقصر اطلاقا ــ سكنا له إلا ليكون ليلا ونهارا تحت حماية الأسطول الانكليزي»[1] أما الملك فقد أبدى سرورا كبيرا بمسيرة الثورة الجزائرية معلنا استعداده لكلّ عون لها، معتبرا الجهاد الجزائري جهادا اسلاميا، الأمر الذي جعل الكاتب يقول: ان «الدكتور أمين الدباغين قلّما تأثر من روعة موقف ومن ايجابيته كما تأثر ذلك اليوم»[2] وهو الموقف الذي جعل الرحالة يتغاضى قليلا عن وجه الأسطول الانكليزي بمدافعه المشرعة رابضا في الشاطيء الليبي كوجه احتلالي بغيض.

وثالث رحلة إلى (ليبيا) كانت بدايتها أواخر (نوفمبر 1956م) بعد العدوان الثلاثي على (مصر) حين ساءت العلاقات بين (مصر) و (ليبيا) التي تكاد «تكون محتلة بجيش انكليزي خفيّ لا يرى شخصه وانما تظهر آثاره، وانعكس ذلك السوء على قضية مرور السلاح الجزائري عبر البلاد الليبية»[3] مما استدعى حضور (المدني) و (محمد أمين الدباغين) إلى (ليبيا) لتسوية الأمر الخاص بمرور السلاح إلى (الجزائر) حيث اقترح رئيس الحكومة الليبية ــ تجنبا للمشاكل ــ ارسال السلاح عبر البحر من (الاسكندرية) إلى (طرابلس) رغم ما في ذلك من مخاطر نبّه (المدني) إليها ضابط المخابرات المصري المعروف (فتحي الديب) لعمله النشيط جدا في التنسيق خاصة بين (جمال عبدالناصر) والثورة الجزائرية خاصة عبر وفد (جبهة التحرير) في (القاهرة) حيث أكّد أنّ ذلك يجعل (فرنسا) تتسلّم السلاح في البحر لقمة باردة.

هذا الموقف، الخاص بطريق السلاح إلى الثورة الجزائرية أصرّ عليه النظام الملكي في (ليبيا) الأمر الذي اضطرّ (المدني) مرّة أخرى إلى رحلة

---

(1) المصدر السابق، ص: 164.
(2) المصدر السابق، ص: 165.
(3) المصدر السابق، ص: 275.

رابعة قابل فيها الملك نفسه الذي تأثّر بكلمات (المدني) ورجائه الشديد المفعم انفعالا ومودّة، فحاول الملك أن يبّرر قراره قائلا لزائره «ان اخواننا المصريين وخاصة ملحقهم العسكري... قد فقدوا اتّزانهم عندما وقع العدوان الثلاثي، وحاولوا احداث فعلة نكراء بالبلاد الليبية ودفعوا بالعامة المتحمسة إلى احراق بعض المحلاّت، ووزعوا عليهم شيئا من السلاح الجزائري، فاضطررنا لاصدار أمر بأن لا يدخل ذلك السلاح إلا بحرا حتّى تتسلّمه الأيدي الجزائرية دون واسطة بمرفإ طرابلس»[1] ثم أعلن قرارا لاصلاح الأمر، كي يعود السلاح لسابق عهده، يأخذ طريقه من (مصر) إلى (الجزائر) برا، قائلا لزائره في النهاية: «هنيئا للكرام المجاهدين في الجزائر، فإذا انتصر الاسلام يوما وسينتصر لا محالة، فالفضل لله أولا، والفضل لهم أخيرا»[2].

ثم تكررت الرحلات السريعة إلى (ليبيا)[3] كانت من أهمّها تلك التي جاءت ضمن ما أطلق عليه «الرحلة العربية الكبرى»[4] لشكر البلدان العربية على ما قدّمته من عون واعتراف بالحكومة الجزائرية المؤقتة[*] في المنفى، فكتب رحلة ليبيا على شكل مذكرات صرفة في صفحة وبضعة سطور، مسجلا ذلك يوميا بالتواريخ في شهر (فيفري 1959 من يوم 13 حتى يوم 17 منه) بدخول الغاية.

فجاءت لذلك هذه الرحلة الأخيرة أشدّ ارتباطا بالجانب الشكلي في روحها وفي صياغتها التي تعتمد تواريخ مضبوطة ونقاطا معينة مختصرة

---

(1) المصدر السابق، ص: 304.
(2) المصدر السابق، ص: 305.
(3) انظر مثلا المصدر السابق، ص: 312 ــ 320.
(4) المصدر السابق، ص: 411.
(*) أعلنت في (القاهرة) حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في المنفى يوم: 19 سبتمبر 1958 على رأسها (فرحات عباس) وتولّى (أحمد توفيق المدني) فيها (وزارة الشؤون الثقافية).

يغلب عليها الشكل الجاف في حساب الوقت والعمل الرتيب، فيتراجع الانطباع والمشاعر الخاصة في أسلوب أدبي رائق.

من هنا تزداد رحلات الكاتب تعدّدا واتّساعا داخل الوطن العربي، ومن أول البلدان منه (سورية) التي قام الكاتب بأكثر من خمس رحلات إليها، كانت معظمها رحلات عادية، تخصّ احداها مثلا تسلّم مبلغ من المال خاص بتبرّعات للثورة الجزائرية[1]، وتخصّ أخرى حسابات مكتب (جبهة التحرير)[2] في (دمشق) لكنّ أهمها تلك التي قام بها يوم (18 سبتمبر 1956) لحضور «مؤتمر الخرّيجين بدمشق» حين برزت فيها مشاعره وآراؤه وانطباعاته عن البلد منذ الوهلة الأولى من نزوله في المطار حيث أحسّ بألفة تامة تشدّه للمحيط أرضا وإنسانا «كأنني وآلله قد حللت بالجزائر عندما وطئت قدماي دمشق، وجدت أهلها أهلي... وعاطفتها عاطفتي»[3] كما يصف أهلها بأصحاب الهمم والعزائم والنجدة، ذوي نعيم وثراء قياسا على (القاهرة) كما يبدي استحسانه لحسن التنظيم في مكتب (جبهة التحرير) في (دمشق) ولم يخص المؤتمر الذي دام يومين بكلام كثير، اكتفى بالقول عنه: انه عقد من أجل مساندة (مصر) في مواقفها العربية القومية الأمر الذي استدعى تأجيل أمور أخرى مثل القضية الجزائرية حين كان لهب الثورة يزداد اتّقادا، ولكنه وصف حسن التنظيم في المؤتمر ومستواه الرفيع، فالتقى في المناسبة مجموعة من رجال الثقافة والفكر والأدب والسياسة جزائريين وغيرهم اضافة إلى نشاطه الآخر، وتعرّفه على المحيط الاجتماعي، وزيارة بعض المعالم، فخرج من كلّ ذلك منشرح الصدر شديد الحبّ لدمشق وأهلها، حبّا انتهى به إلى بعض المبالغة المعهودة في أسلوبه عند التعبير عن قوة الأثر، أو شدّة الانفعال وعمق الاحساس. وقد عكس معظم ذلك قوله

(1) المصدر السابق، ص: 298.
(2) المصدر السابق، ص: 463.
(3) المصدر السابق، ص: 206.

في الفقرة التالية التي أنهى بها الحديث عن رحلته التي استغرقت صفحتين فقط «بعد جولة قصيرة في أرجاء دمشق والاطلاع على مآثرها ومساجدها ومدفن صلاح الدين العظيم فيها، وتوجهنا نقرأ الفاتحة ونتعظ على قبر بطلنا... الأمير المجاهد عبدالقار ابن محي الدين المدفون»(*) (قبل نقله للجزائر بعد الاستقلال) إلى جانب قبر الصوفي الشهير محيي الدين بن عربي. وعند خروجنا من المقبرة قبيل الغروب وجدنا أنفسنا أمام جماعة من الصبية يعودون من المدرسة إلى ديارهم، وأحاطت بنا ثلّة منهم، وقال قائل: من أنتم أيّها السادة؟ قلت له: نحن من الجزائر، فصاح التلاميذ كلهم بصوت واحد لتحي الجزائر، لتحي الجزائر، وقال لي أصغرهم سنّا: بالله سلّموا على كل من يضرب البارود في الجزائر. بهذه الكلمة البسيطة الحارة الصادرة عن قلب مؤمن مطمئن انطبع حبّ دمشق وأهل دمشق فوق صفحات قلبه إلى الأبد، أعيش به وأموت به وأبعث به حيًّا»[1].

ورغم الطابع الثقافي للرحلة بأرضيتها السياسية فقد أثرت حسّه الاجتماعي العام في (دمشق) فأعرب عن ألفة تامة في محيط عربي اسلامي، وعبّر عن ذلك تعبيرا أدبيا فيه روح الخطيب وأسلوبه، في تلاحق الكلمات، وتكرار المعنى بأكثر من صيغة واحدة، كما أعربت عن حسّ قومي حتّى من خلال كلمات الأطفال الذين التقاهم، فأعلنوا اعتزازا بالجزائر الثائرة هاتفين بحياتها.

أما الرحلة إلى (العراق) فقد كانت رحلة خيبة في العهد الملكي، حيث كان يتساءل باستمرار حين حلّ بها في مطلع 1958م أين هي (بغداد)؟ أين مدينة الرافدين؟ «فيكف يا ترى خضع هذا الشعب لأمثال

(*) القوس في أصل النص، تصرّفنا فقط في جعل كلمة (المدفون) خارج القوس، أي قبله، بينما وضعها المؤلف داخله، وقد يكون ذلك من فعل المطبعة، وقد يكون سهوا منه في التحرير أصلا، أو تصحيح تجارب المطبعة بعد.

(1) المصدر السابق، ص: 208.

نوري السعيد وعبدالإله وفيصل ومن حولهم من العناكب والحشرات؟ قال لي سرا الصديق الشهم فائق السّامرائي: لا تنظر إلى الخفافيش بل انظر إلى الذين يحرّكونهم في دهاليز الظلمات، انظر إلى شركة نفط العراق، وانظر إلى دار السفير الانكليزي، فهنالك، وهنالك فقط مأساة العراق، وحكم العراق، ومال العراق»(1).

فأعطى الكاتب صورة قاتمة عن (العراق) الرازح تحت الهيمنة الغربية المكبّل بالنفوذ الاستعماري الانكليزي، غير أن هذه الصورة كانت تحمل في حناياها بوادر زلزال لم يتأخر كثيرا حيث تحرّك المارد بعد ستة أشهر، في (14 جويلية 1958م) فأطاح برموز الذلّة، فكانت مناسبة لرحلة ثانية للكاتب أدهشته فيها حالة الفوضى، والتقى رئيس الحكومة (عبدالكريم قاسم) ونائبه (الجنرال عبدالسلام عارف). ورغم بعض المآخذ التي يسجّلها الكاتب على الوضع وعلى بعض رجال النظام الجدد فإنه بقي مرتاحا جدّا للعراق في صورته الجديدة، يتوق إلى الحرية الكاملة وإلى بناء دولة قوية «رأيت العراق الحرّ المتحمّس، يتعانق فيه الشعب والجيش ويتعاونان على العمل المثمر الصادق»(2).

وهكذا بدأت معظم الأقطار العربية تستقبل (أحمد توفيق المدني) رحّالة ذا مهامّ سياسية خاصة، مشاركا في الندوات، أو داعيا لمؤازرة الثورة الجزائرية: ماليا وسياسيا، فتأتي رحلاته في قسمها الثاني إلى (لبنان) و (الكويت) و (السعودية) و (الأردن) وغيرها، بعد (ليبيا) و (سوريا) و (العراق) فيخرج بانطباعه عن (لبنان) بصورتين اثنتين أساسيتين: بلد جميل تنخره الطائفية، وحكم مرتش متعفّن هزيل، خاضع لفرنسا.

---

(1) المصدر السابق، ص: 357.

(2) المصدر السابق، ص: 393.

فالصورة الأولى التي تقدّم (لبنان) بلدا جميلا ذا طبيعة خلابة تبقى مشوبة بالضغائن الطائفية التي تنطوي عليها النّفوس، كما أن الحرية الشخصية المطلقة فيه تجعل المرء يكره تلك الحرية السطحية التي لا تتجاوز نطاق الأسفاف في قول، واشاعة الاباحية في سلوك·وفي نشر كتب خليعة، في حين تبقى الحرية الأصيلة غائبة عن موقعها الأساسي، في سياسة النظام، فوزير الخارجية (شارل مالك) حين استقبل الكاتب كان موقفه واضحا «لا تأملوا من لبنان مالا ولا سلاحا، انه ينصركم في المجالس العالمية تبعا لكل العرب لكنه لا يغضب فرنسا اطلاقا»(1).

صورة (لبنان) بلد الطائفية المقيتة، والتبعية السياسية الذليلة، فوضى الحرية السطحية، وفساد الحكام، ابتداء من رئيس الجمهورية نفسه: لا تلغي صورة (لبنان) الأخرى بمناظره الطبيعية ومكانته الثقافية ممّا يبرّر انطباعه حين قال: «لا أنسى أياما قليلة قضيتها ببيروت، فان كنت قد استمتعت بما فيها من علم وثقافة وأدب، وما أرتدته فيها من ديار كتب قيمة ثرية، وان كنت قد وجدت فيها المناظر الخلاّبة، والجوّ الرائق فقد وجدت فيها أمامي فراغا سياسيا هائلا مزعجا مخيفا، لا يبشّر بخير في الحال، ولا في المآل»(2).

أما في (الكويت) فلم تكن هناك مظاهر بذخ ولا بريق حرية كاذب، كان هناك الموقف الايجابي الواضح بالخصوص من أميرها (عبد ٱلله السالم الصباح) الذي وصف الكاتب شخصيته وصفا ايجابيا، كما نقل عنه حسن العون والمؤازرة والتشجيع في قوله للكاتب «نحن نشارككم في كفاحكم، فلا تهنوا ولا تحزنوا، سيزداد مقدار إعانتنا على مقدار ما ستزداد مداخلينا، وانّكم لواجدون عندنا بحول ٱلله ما تحبّون» رغم ان محيط (الأمير) نفسه

(1) المصدر السابق، ص: 355.

(2) المصدر السابق، ص: 359.

كما وصفه الكاتب لا يوحي بأي أثر لغنى أو نعمة، بل يوحي بكويت فقر، فدار (الضيافة) نفسها بسيطة جدا ومقرّ (الأمير) متواضع، بل يتداعى للخراب الشيء الذي أوحى للكاتب بفكرة عن الطابع الزهدي للأمير، وجعله يخرج بعدة انطباعات ايجابية، فرغم ذلك الوضع هناك الاستعداد التام لعون الثورة الجزائرية، كما أن هناك ملامح زهد ايجابيّ في مغريات الحياة التي تعّمق الاحساس بها لدى الكاتب وهو يرى على باب «القصر» المتواضع جدا العبارة التي تقول «لو دامت لغيرك ما وصلت إليك».

وتتكّون رحلة (السعودية) في هذه الفترة من شطرين، الشطر الأول تمّ في (11 دسمبر 1957م) إلى العاصمة (الرياض) سجّله الكاتب في أقلّ من نصف صفحة عن استعداد الملك (سعود بن عبدالعزيز) لعون الثورة الجزائرية وحسن استقباله. أما الشطر الثاني الذي استغرق أكثر من صفحتين فكان في فاتح (جانفي 1958م) حلولا بمدينة (جدة) ثم (الرياض) في (3 جانفي) حيث تناول الرحالة طعام العشاء على مائدة الملك الذي أعلن دعمه للثورة الجزائرية.

وصف الكاتب الملك (سعود بن عبدالعزيز) ومحيطه وصفا اتّسم بالايجابية، في السلوك الحميد، وحسن الاستقبال، وكرم الضيافة، لكنه أبدى ضيقا بمظاهر الاسراف ومقتا للبذخ الشديد، ممّا تصوّر أهمّه الفقرة التالية التي توضّح أيضا جانبا من الحرص على الأبهة الارستقراطية الملكية «قال لي الملك سعود مرّة وكان يطلعنا على قصره الملكي الحديث في الرياض وهو من أبهى قصور الملك المعاصرين: لقد اخترت شكل القصر بنفسي، واتفقت مع المهندسين على تصميمه، وابتدأ العمل واستمرّ وأنا أراقبهم بنفسي، فعندما أشرف على الانتهاء تجوّلت خلال ممرّاته ورأيت نظام قاعاته التشريفية، فقلت لكبير المهندسين، ان هذا القصر لم يعجبني، لأنه لا يحقّق الصورة التي رسمتها له في خيالي، يجب أن يغيّر كلّ شيء، قال: كيف نستطيع أن نغيّر البناء وهو من الحجارة الصلد وقد أشرف على النهاية؟ قلت له: اليد التي بنته يجب أن تقوّضه وتقيم على أنقاضه البناء الذي أريد، وهكذا كان. فقد حطّموا القصر

وأعادوا بناءه حسب ارشادي وتعليماتي، وكنت معهم يوميا إلى أن أصبح كما ترى، قال لي أحد رجال حاشيته همسا: لقد تكلّف ذلك بنحو عشرين مليار فرنك فرنسي، وقلت في نفسي: لو كانت هذه الملايين بين أيدينا لحققنا الاستقلال للجزائر»[1].

ومهما كانت درجة الصدق في هذه الرواية لما تحمله من زهوّ بانجاز قصر واستهانة بأموال، فانها تعكس في روحها ما يمارسه الثراء من اغراء لطلب متاع الحياة الدنيا، في قصور زاهية ووسائل رفاهية، ومحيط حياة برّاق الأمر الذي أجاد الكاتب وصفه، واذ أتحفّظ في الأخذ بصدق الصورة كلّها كما رواها الكاتب فانما لاعتقادي بأنّ مسلما متديّنا ناضجا ورجل سياسة وحكم من المستبعد أن يصدر منه كلّ ذلك الزّهوّ بتلك الصورة التي قدّمها الكاتب، ربما جاء منه هذا تعبيرا عن احتجاج على مظاهر البذخ تلك التي تفسد الطبع والنفوس، ولا تصلح أوطانا ولا تشيد حكما جادا منضبطا، ولتأكيد قناعته من جهة أخرى في أن قضية الجزائر الثائرة على الاحتلال الفرنسي هي قضية العرب والمسلمين جميعا كان عليهم أن يولوها أهمية كبرى، فلا يشغلهم عنها اسرافهم في الانفاق على الموائد الفخمة وتشييد القصور الضخمة ذات الفخامة والأبّهة.

ومهما يكن فان الصورة كما رسمها الكاتب عموما في زيارته (السعودية) تقدم رغم كلّ شيء حسن تفاعل في البلد مع القضية الجزائرية، كما تصوّر كرما بلغ حدّ الاسراف، مثلما تصوّر من جهة أخرى أخلاقا جيدة اتّسم بها الملك، خاصة في تواضعه وطيبته وحسن استجابته لمؤازرة الثورة الجزائرية.

---

(1) المصدر السابق، ص: 362.

أما رحلة (الاردن) في (24 ديسمبر 1957م) فاهمّ ما يلفت النظر فيها وصف شخصية الملك (حسين بن طلال) الذي كانت للكاتب عنه صورة سلبية مسبقة معتبرا إيّاه مجرد موظّف أمريكي ـ انكليزي، وهي الصورة التي سرعان ما انزاحت لتحلّ محلها صورة أخرى لشاب وطني مثقف ذي حس قومي «وجدت نفسي وجها لوجه أمام شاب مهذّب محبب لطيف، كان واسع الاطلاع إلى درجة مذهلة، كان يذوب رقة ويلتهب حماسا، كان يتكلّم عن قضية الجزائر، كأنه من مواليد الجزائر»(1).

وبعد أن حدّثنا الكاتب عن لطف الملك وتعاطفه القويّ مع الثورة الجزائرية واستعداده للعون بما هو ممكن رغم فقر البلد، مضى يحدّثنا عن رئيس الحكومة (ابراهيم هاشم) وما يمتاز به أيضا من أدب واطلاع كاف معطيا في النهاية صورة جيدة بانطباعاته عن النظام السياسي في تعاطفه مع الجهاد الجزائري، وعن رجاله في حيويتهم وأخلاقهم الاسلامية العامة، وأدبهم، وأولهم في ذلك الملك (حسين) الذي انقلبت صورته في ذهن الكاتب من موظف أمريكي ـ انكليزي إلى رجل سياسة وحنكة واطلاع «خرجنا ونحن معجبون بذلك الشاب الممتلىء حيوية ومعرفة وايمانا، وتذكرت المثل الجزائري القيّم من الشوكة تخرج الوردة مهما كانت تلك الوردة»(2).

يضاف إلى رحلة (المدني) إلى هذه الأقطار العربية رحلات قصيرة محدودة الأهمية الفكرية والأدبية مثل رحلته إلى (السودان) التي وردت في ستة سطور، وذكر أن الاستقبال الرسمي فيها، «كان استقبالا فاترا»(3) وإن وصف كلام السودانيين عموما بالطيب. كما اقتصرت زيارة (تونس) على القيام بمهمّة محددة في (5 مارس 1958م) لمناسبة اعتداء الطائرات الفرنسية

(1) المصدر السابق، ص: 360.
(2) المصدر السابق، ص: 360.
(3) المصدر السابق، ص: 363.

على قرية (سيدي يوسف) التونسية قرب الحدود الجزائرية»[1]. وكذا الزيارة اللاحقة بعد نحو ستة شهور لأمر يخصّ شؤون الطلبة الجزائريين في (تونس) وقد صار يتابع أوضاعهم فيجد كما قال «الثغور الباسمة والأنفس المطمئنة»[2] وهو هنا بصفته وزير ثقافة في الحكومة المؤقتة الأولى[*] للجمهورية الجزائرية.

تلت هذه الرحلات أخرى منذ مطلع 1959 أعطاها الكاتب عنوانا ضخما هو «الرحلة العربية الكبرى» وهي رحلة حكومية «بالبلاد العربية، لشكر دول العرب على ما قدّمته لنا من عون ومن اعتراف فوري»[3] بالحكومة المؤقتة التي أعلنت في المنفى، وكانت أولها مرحلة (ليبيا) التي سبق الحديث عنها في نهاية الحديث عن الرحلات الليبية، ولا نعود إليها لعدم أهميتها، تلتها مرحلة (السعودية) يوم (6 مارس 1959م) صحبة (فرحات عباس) رئيس الحكومة، و (كريم بلقاسم) نائب الرئيس، و (الدكتور أحمد فرنسيس) وزير المالية، حيث نزلوا في مطار (جدة)، ثم انتقلوا إلى (مكة) ومنها إلى (الرياض) حيث التقاهم ولي العهد (فيصل) الذي نقل الكاتب على لسانه امتعاضه من الحالة المزرية للوضع المالي وأشكال الاسراف، ثم التقاهم أخوه الملك (سعود) الذي أقام لهم مأدبة حافلة حضرها نحو ثلاثمئة من رجال الدولة والأعيان، وقد تجلّى فيها بشكل واضح ذلك الاسراف الذي أبدى وليّ العهد (فيصل) امتعاضه منه فوصفه الكاتب وصفا جيدا معبرا عن مقته التبذير من دون أن يخصّ الملك بكلمة نابية وهو يصف المأدبة الفاخرة «لاحظنا فوق المائدة من صنوف الاسراف والبذخ ما لا يستطيع قلم وصفه.

---

(1) المصدر السابق، ص: 366.

(2) المصدر السابق، ص: 407.

(*) التي أعلنت في (19 سبتمبر سنة 1958م) برئاسة (فرحات عباس) حتى شهر (أوت 1961م) حين خلفتها الحكومة المؤقتة الثانية برئاسة (ابن يوسف بن خدة) باقتراح من المجلس الوطني للثورة.

(3) المصدر السابق، ص: 411.

كان الأكل يكفي لألف شخص، وكانت المشروبات الفاخرة الحلال من وارد أوربا تسيل أنهارا، وبعد انتهاء الأكل.... وضعوا على الموائد خمسين خروفا مشويا نظرنا إليها مشدوهين متألمين، ولم تمتد إليها يد من الأيدي المترفة، فرجعت إلى قواعدها سالمة»[1].

وهي صورة استحال معها الكرم كصفة محبوبة إلى أخرى ممقوتة حين غدا تبذيرا ممّا كان مصدر ضيق للكاتب لم يتخلّص منه إلاّ في الحرم النبوي بالمدينة المنوّرة التي زارها الكاتب مع أصحابه في طائرة الملك.

ثم انتقل الكاتب إلى الحديث عن رحلته في (المغرب) بمفرده لأمور منها ما يخصّ منح الطلبة الجزائريين هنالك حيث التقاهم بعد زيارة جامع القرويين، كما التقى عدة شخصيات جزائرية سياسية كما التقى رفقة (محمد خطاب) كما قال «بالآنسة الفاضلة العظيمة لا لاعائشة بنت جلالة الملك، وقضينا إلى جانبها في دائرتها الفخمة أكثر من ثلاث ساعات، وتبادلنا خلالها كؤوسا مترعة من حديث عذب عميق هادف يتعلق بالحال وبالمآل، وما أوسع تلك الدائرة الفكرية وما أعمق ذلك الاطلاع وما أعذب ذلك الحديث الهادف الذي كان كالنّحلة ينتقل بخفّة ورشاقة من زهرة إلى زهرة، فيمتع وأكاد أقول ويطرب»[2] وهو أجمل مقطع أدبي في هذه المحطّة لما عبّر عنه من احساس الكاتب وانطباعه بلغة أدبية صافية كادت ظلالها تجعله حديث هوى وافتتان لا حديث حال ومآل.

وفي مرحلة (العراق) يوم (21 أفريل) انضمّ إلى الوفد ثلاثة أشخاص، وكانت أهمّ محطّة للاستقبال الشعبي الحافل الذي خصّ به الوفد، كما خصّه الرئيس(عبدالكريم قاسم) باستقبال ودّي وأبدى اعتزازا شديدا

(1) المصدر السابق، ص: 414.
(2) المصدر السابق، ص: 416.

بثورة الجزائر، كما أعلن استعدادا تاما لمدّها بالسلاح، وألحّ على وزير المالية ليخصّص ميزانية دائمة للجزائر تدفع أقساطا خلال السنة «فمنذ تلك الساعة إلى يوم استقلال الجزائر لم يتأخّر قسط عن موعده المحدد، فحيّا آلله همّة العراق، وحيّا آلله شعب العراق، ورحم آلله عبدالكريم قاسم رغم سياسته الهوجاء المنكرة في العراق»(1).

من خلفيات هذا الحكم في الجملة الأخيرة على سياسة (قاسم) تشجيعه الفتنة التي كان يؤجّج نارها الشيوعيون في (العراق) وأشكال المحاكمات الصورية التي تودي بحياة بعض، خاصة بفعل الممارسات التي أمعنت فيها الغوغاء الشيوعية التي شكا الكاتب أمرها للرئيس في نوع من الخوف والقلق فطمأنه بأنّها تحت سلطاته، لممارسة الضغط على تيارات أخرى، ويقمعها في الوقت المناسب حين ينتهي الغرض منها وتتجاوز الحدود المباحة لها، وهو شكل من أشكال السياسات العرجاء المتّبعة في الوطن العربي، لامتصاص طاقة الانسان في صراعات داخلية وهموم محلية ممّا للاستعمار فيه يد طولى لابقائنا في التخلّف تحت رحمة أنظمة راكدة كالمستنقعات.

حديث الرحالة هنا اتّسم بالطابع الخبري الخالص، ولا يفلت منه إلا في مواقع قليلة، وقد بدا وعي بذلك: «لست بمحدّثكم عن الحفلات والمآدب وعن الاجتماعات المختلفة، ولا أحدّثكم عن الناحية السياسية كزيارتنا لكربلاء والنجف وزيارتنا لبابل العتيقة وسامراء، فذلك حديث ممتع حقّا ولكنه يتجاوز نطاقنا المحدّد»(2).

وقد بدا هنا كأنه ينفي أن ما ذكره ليس حديثا في السياسة، في حين أنه في صلب السياسة، سواء حديثه عن الوضع مع (فرحات عباس) في الوفد أو حديثهما مع (عبدالكريم قاسم) ووزيره للمالية.

---

(1) المصدر السابق، ص: 422.
(2) المصدر السابق، ص: 424.

أما مرحلة (الكويت)، فقد تحدث فيها عن عدّة لقاءات مختلفة، من أولها اللّقاء بالشيخ (سالم الصباح) وزير المعارف الذي ناقش معه شؤون الطلبة الجزائريين في (الكويت) والزيادة في منحهم، وأثناء ذلك كلّه كان الوفد محلّ حفاوة واكرام «استضافنا كبار الأمراء والوزراء، وأسرفوا في الموائد الثرية اسرافا يقتضيه الطبع العربي وترفضه الحياة العصرية الجادة»(1).

وقد تلا (الكويت) ترتيبا في الرحلة (لبنان) الذي (ظفر) على لسان الكاتب باسم «بلد المتناقضات» فرغم الثناء على رئيسه الجديد اللبق في هذه الرحلة (فؤاد شهاب) ورئيس الوزراء الفطن ــ كما قال ــ (رشيد كرامي) فانه يبقى رغم كل المحاسن بلد المتناقضات في الحياة الاقتصادية: حراما وحلالا، وفي العقيدة، وفي الأخلاق وغيرها، تتجاور فيه العفة والخلاعة، ويبقى في جميع الأحوال بلد الجمال واللطف.

ولا نجد فيها بعد ذلك جديدا في المضمون والانطباعات عن رحلة (لبنان) السابقة باستثناء الانطباع الايجابي هنا عن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، وقد ختمها بقوله: «بعد مآدب واستقبالات صاخبة ودّعنا لبنان ورجال لبنان وعدنا إلى القاهرة المحبوبة منّي على الأقل»(2) حيث رأى لأول مرة (عبدالناصر)(*) في بيته، وكان معه (فرحات) و (كريم) بعد رغبتهم في مقابلته ايّاهم «كان بسيطا جدا، في بيت متواضع جدا، لا رياش، لا أبهة لا تأنّق في لباس ولا في أثاث... ثائر بأتم معنى الكلمة، لطيف إلى أقصى درجات اللطف»(3).

---

(1) المصدر السابق، ص 427.

(2) المصدر السابق، ص: 429.

(*) يذكر (المدني) مقاطعة (عبدالناصر) غير المعلنة لحكومة (فرحات عباس) لأنه «كان يستنكف أن يقابل رئيسا عربيا مجاهدا يمثل أمة كفاح ونضال وهو لا يكلمه بلغة عربية مهما كانت بسيطة» اضافة إلى بعض من الظنون الأخرى والخلفيات، انظر النص في المصدر السابق، ص: 429.

(3) المصدر، ص: 429.

وقد شجع الرئيس الجماعة داعيا إلى ضرورة الثبات لمواصلة الجهاد الذي تبذل (مصر) جهدها لدعمه بمختلف الوسائل.

ثم استأنف الجماعة الشّوط الأخير من الرحلة إلى كلّ من (الخرطوم). و (الأردن) في (24 ماي 1959م) فالتقوا الرئيس السوداني وغيره، فحصلوا على وعد بمواصلة الدعم، ثم انتقلوا في 27 من الشهر نفسه إلى (الأردن) حيث كان اللقاء بالملك (حسين) الذي تمكّن الاعجاب به من نفس الكاتب لمختلف الصفات الفكرية لحسن اطلاعه وذكائه وسعة صدره اضافة إلى الموقف الايجابي لنصرة الثورة الجزائرية، فقد نقل عنه الكاتب هنا أيضا قوله: «جهاد الجزائر مقدّس، واعانة هذا الجهاد دينا وعروبة وسياسة أمر واجب»(1).

وقد حلا للكاتب المقام في (الأردن) للصّفات الانسانية التي لمسها في رجال (الأردن) الذين التقاهم، وحضر المآدب التي أقاموها، فألقى الخطب وأجاب عن استفسارات وملاحظات عن الثورة، كما أدّى صلاة الجمعة في القدس الشريف يومئذ.

فبرز (الأردن) رغم فقره بلدا كريما، يمثل انسانه صفات العربي الشّهم «فكنت أرى وجوها نيّرة لم أرها من قبل في أيّ اجتماع»(2) وهو ضرب من المبالغة لدى الكاتب مصدره التقدير والاعجاب والاعتراف بفضل القوم وكرمهم، ولطفهم وحسن عونهم.

وبالحديث عن الرحلة الأردنية أنهى الكاتب كلامه عن رحلته الحكومية السياسية التي أسماها: «الرحلة العربية الكبرى» وقال عنها في الأخير: ان نجاحها كان عظيما، وهو نجاح ربّما اعتبره خطوة متقدّمة

---

(1) المصدر السابق، ص: 433.
(2) المصدر السابق، ص: 434.

في التعريف أكثر بكفاح الجزائر، وكسب المزيد من الدعم له سياسيا وماليا. وقد بدت فيها صورة (المدني) واضحة في شرح القضية للمسؤولين: رؤساء وملوكا وأمراء وغيرهم، كما بدا صوته مؤثرا في الخطابة بين الناس، وتأثرهم بقضية (الجزائر) وهكذا بقي في الرحلة رئيس الحكومة (فرحات) ونائبه (كريم) في الظل، كأنما يقبعان في زاوية نائية، بينما برز وزير الثقافة (المدني) صوتا مسموعا، وهذا راجع إلى عدة أسباب تبرّره: منها أن الرجل يكتب رحلته هو ولا يتحدث عن غيره إلا عرضا، ومنها نزعة العظمة المتغلغلة في نفسه مما يجعله دائما يعبّر بطريقة يبدو فيها نشيطا جريئا مؤثرا مقداما لتجاوز العقبات، اضافة إلى جهل (فرحات عباس) الحديث بالعربية الأمر الذي يجعله شبه أبكم في محيط عربي اللّسان والوجدان، للسان المرء فيه أهمية لتحديد شخصيته وهويته الفكرية والوطنية والقومية.

أما رحلاته إلى البلدان الاسلامية الأخرى غير العربية، فقد شملت (كراتشي) في (باكستان) و (أندونيسيا) و (سنغافورة) و (ماليزيا).

كانت الرحلة إلى (كراتشي) خاصة لعيادة الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) هناك بعد حادث وقع له في غرفة الحمام بالفندق حيث كان يعمل مع السيد (أحمد بودع) ممثّلين لجبهة التحرير الوطني، وفيها سرد الظروف الصعبة التي انتقل فيها — أي الكاتب — من (القاهرة) إلى (كراتشي) يوم (13 سبتمبر 1956م) حيث قضى ثلاثة أيام حسب قوله(*)، تردّد فيها على (الابراهيمي) في المستشفى، ولم يصف لنا شيئا ذا

(*) لأنني أشك في دقة العدد بالأيام هكذا المحددة بثلاثة، لأننا نفهم من السياق أن الشروع في الرحلة بدأ يوم 13 سبتمبر، ووصل مطار (كراتشي) في الساعة الثانية من صباح يوم (14 سبتمبر) (ص: 204) ثم يذكر لنا أنّه قضى ثلاثة أيام (ص: 205) لكنّه سرعان ما يقول: ان برقية وصلته هنالك من (خيضر) في القاهرة) تدعوه للانتقال إلى (دمشق) فانتقل إليها مباشرة، ووصلها عشية الأثنين (18 سبتمبر) (ص: 206) وبذلك يكون مكوثه بين أربعة أيام و خمسة في (كراتشي).

بال غير انطباعه عن أول وجبة حساء يتناولها عن جوع في معطم الفندق مع السيد (أحمد بودع) فيكون، احساسه تجاهها صاعقا «جلسنا للطعام بردهة فاخرة، متّسعة أنيقة، وما وضعت أول ملعقة من الحساء في فمي حتّى أحسست بأن الأرض ارتّجت والأنوار انطفأت... كان الحساء قد جمع في قليل من المائع كمية فظيعة مستهترة من التوابل المحرقة الكاوية حتى لكأنها النار، أو على الأصحّ ماء النار»(1).

ويبدو أن الشروع في رحلته إلى (اندونسيا) كان في يوم (21 مارس 1958م) لأنه يخبرنا بوصوله (جاكارطة) صباح يوم (22 مارس) لحضور يوم (الجزائر) المخصص عادة لجمع التبرعات للثورة الجزائرية، فتحدث عن الصعوبات السياسية والاقتصادية التي كانت تعيشها البلاد، كما تحدث عن خطابه الذي ألقاه في (جاكارطة) واستغرق مع ترجمته ساعتين، فأثّر في الناس وتناولته الصحف المختلفة، وقد تكّرر حديث الكاتب عن القضية الجزائرية بين الأندونسيين ورجال من الجالية العربية هناك لهم جهودهم في الحفاظ على الاسلام حيث وصف لنا طيبة الشعب الأندونيسي ومتانة أخلاقه وتشجيعه الثورة الجزائرية، رغم أن اسلامه بدا للكاتب سطحيا هشّا.

حدّثنا الكاتب إذن عموما عن نشاطه السياسي وعن الرجال الذين التقاهم، خاصة منهم رجال السياسة، وأولهم الرئيس (أحمد سوكارنو) فكان حديثه أقرب إلى عرض حال باستثناء بعض الانطباعات خارج هذا الاطار مما ينتظر غالبا في الدرجة الأولى من قلم الرحالة الذي يقدم انطباعه عن أمور قد تكون مألوفة وأخرى غير مألوفة. ومن هذا النوع الأخير انطباعه عن احدى الجزر الأندونسية المسماة (بالي) حيث بعث الرئيس (أحمد سوكارنوا) الرحالة مرفوقا بالسيد (الأخضر الابراهيمي) ممثل (جبهة التحرير) في (أندونيسيا)

(1) المصدر السابق، ص: 205.

يومئذ «لكي نطّلع على الجزيرة السياحية ونستجمّ بها يومين، وفي هذه الجزيرة كل وسائل الاستجمام ممّا أحلّ ٱلله وممّا حرّم، وقد حرصت الدولة على أن تبقى هذه الجزيرة بمنأى عن المدينة العصرية حتى تكون مصيدة للسواح، فالأغلبية المطلقة من أهلها على دين بوذا، والمرأة عندهم تمشي غالبا في الأسواق عارية، لا تستر إلا الجزء الأسفل من جسمها، أما الأعلى إلى السرّة فهو يتمتع بنور الشمس وأشعّتها، لا يحجبها حجاب مهما كان شفافا. وللرجل عند هؤلاء السكان البدائيين مهارة خارقة للعادة في مباشرة نحت الأخشاب بصفة فنية مبدعة، فيخرجون لك من جذع شجرة أو أيّ غصن بالغ من أغصانها وبواسطة آلات بدائية غريبة تماثيل تعتبر من أبدع آيات الفنّ الجميل. ونحت لي أحدهم وأنا أنظر مشدوها تمثالا لراقصة أندونيسة بلغ من الدقة والجمال والروعة الفنية ما أدهش كل من رآه عندي»(1).

فهذه الرحلة إذن بطابعها السياسي اكتست في الوقت نفسه طابعا سياحيا استطلاعيا، عرف فيها الكاتب جانبا من اهتمام الشعب الأندونيسي بالثورة الجزائرية، كما أدرك من جهة أخرى جانبا من الهشاشة في ممارسة الشعائر الدينية لتقصير من الحكومة أساسا، مثلما لاحظ وجها من الانحلال لم تر الحكومة حرجا من الابقاء عليه، بل تشجيعه، كما تمثل ذلك في صورة الحياة بجزيرة (بالي) التي كان انطباعه عنها في قالب أدبيّ مطعم بشكل من النكتة والمزاح.

وفي (سنغافورة) كان حديثه قصيرا، أهمّ ما فيه حديثه عن العنصرين الأساسيين فيها: الصينيين والعرب الذين أبدوا ضيقا بالحاضر وخوفا من أن تكون الغلبة السكانية مستقبلا للصينيين بفعل نموّهم الديمغرافي المتصاعد بشكل كاسح، حيث يحدث أن ينجب الصيني الواحد عشرة أطفال في

(1) المصدر السابق، ص: 370.

السنة وربما عشرين، من عشر زوجات أو عشرين، لأنه غير مقيّد بعدد الزوجات «يتزوج حسب مقدرته المالية، وحسب مركزه الاجتماعي ما شاء من النساء»(1).

أما في (ماليزيا) فقد قام الكاتب بدور في التعريف بالجزائر وثورتها لدى رجال الحكم والرأي العام خاصة في ندوته الصحفية، أمّا أهمّ انطباعاته فانّها تتمثّل في نقطتين أولاهما عن مدينة (كوالالمبور) التي وصفها بالمدينة الزاهرة التي يتمثل فيها «العالم الشرقي بكل جماله وبكل بهائه، وبجميع ألوانه. لقد كان الحرّ فيها شديدا، لكن حرارة القلوب وحرارة الاستقبال فاقت حرارة الجو»(2) وهي سمات شرقية اسلامية. أما النقطة الثانية من انطباعيه الهامين فانها تتعلق بجانب الحياة الاسلامية، حيث بدا له أن «الحياة الاسلامية تتجلّى في ماليزيا أكثر مما تتجلّى في بقية البلاد التي زرناها، والمساجد فخمة عامرة، والمدارس الاسلامية منتشرة ونشطة، والأحرف العربية فيها ــ خلافا لأندونيسيا ــ هي المستعملة اطلاقا»(3).

اختصر الكاتب الحديث هنا اذن في الإخبار عمّا في (ماليزيا) من جهل بالجزائر وثورتها أولا، فقام ببعض من الجهد للتعريف بها، وثانيا قدم انطباعه عمّا أحسّه فيها من دفء شرقي وروح اسلامية في حياة الناس وعلاقاتهم.

هكذا تعدّدت رحلات (المدني) إلى البلدان الاسلامية ومنها العربية، واختلفت في شكلها طولا وقصرا، فاتّسم بعضها بالسرعة فكان في شكل خبري أو عرض حال مع وقفات قليلة فيه متمعّنة لكنها مختصرة، واتّسم بعضها الآخر بالتريث قليلا أو كثيرا الأمر الذي منحه شيئا من طول النفس

---

(1) المصدر السابق، ص: 374.
(2) المصدر السابق، ص: 375.
(3) المصدر نفسه.

اختلفت مستوياته أيضا من رحلة إلى أخرى، فسمح له ذلك باعلان مشاعره وأحاسيسه كما سمح له بالتمعن والاستكشاف لظاهرة أو خلفية موقف، أو صورة تبدو في الطبيعة أو في حياة الناس وسلوكهم.

وقد اتّسم أسلوب الكاتب في ذلك عموما بالمبالغة في وصف عملية قد تتّخذ لها في بعض المواقع والمناسبات شكلا من أشكال المناورة المفتعلة، كما بدا ذلك واضحا في تلك العملية التمويهية التي وصفها لتضليل أجهزة الأمن الفرنسي، خاصة بعد وصوله (باريس) بافتعال مرضه ومرض زوجته التي مكثت معه في (باريس) خمسة عشر يوما، وحين ودّعها عائدة إلى (الجزائر) حاول ايهام الأمن ــ حسب تصوّره ــ وهو يخاطبها بصوت عال انه سيلحق بها بحرا زاعما أن متاعبه الصحية في القلب لا تسمح له بالعودة على الطائرة.

لكنَّ هذه الحركة المسرحية التمويهية على المخابرات الفرنسية تبدو غير مقنعة خاصة وهو يلتقي الشيخ (العباس بن الحسين) العائد من (القاهرة) إلى (الجزائر) وهو يستعد للرجوع إلى (القاهرة) صحبة (المدني) فالتقاه في (باريس) بعد (الجزائر) وصحبه فيها، ورافقه إلى (مارسيليا) وتنقّلا معا، ثم ذهبا معا إلى (نيس) حيث أخذا الطائرة إلى (جنيف) ثم (القاهرة).

فهذا الأمن الذي وصفه الكاتب يترصد كلّ حركة منه، كيف سها عن أمر الشيخ (الحسين) من معه دون أن يثير أمره ريبة جديدة؟ بل كيف تنطلي عليه العملية ان كان تتبعه له فعلا بذلك المستوى الذي وصفه الرحّالة.

فوجه الافتعال إذن في تقديرنا أساسا أن الكاتب كان يوعز لنا من البداية أنّ مصالح المخابرات الفرنسية تراقب كلّ تحركاته وعلاقاته «أنا في موضع ترمقني فيه كلّ الأبصار فهل إلى سفر من سبيل؟»[1]. فيوحي لنا

(1) المصدر السابق، ص: 107.

أنه يتحرك تحت أعين الأمن التي ازدادت يقظة عند توجّهه إلى الفندق حين وصل (باريس) «قصدت توّا إلى فندق (سان لازار) حيث كان عدد من جواسيس فرنسا وأنذال المتعاونين معها يصولون ويجولون، ويجتمعون كلّ عشية حول موائد شراب غير طهور، تصحبهم بعض المبتذلات الجميلات، وسرت رعشة في فرائص القوم عند رؤيتي، وتوجّسوا من وجودي شرا، لكنني كنت أطيل الحديث مع محافظ الفندق ــ وهو من المخبرين الماهرين ــ وأسأله عمّن يعرف من كبار الأطباء المختصين بأمراض الكبد والأمعاء، وأظهر له تجهّمي الشديد وخوفي من عقبى المرض الذي ألمّ بحليلتي»(1).

وتبقى تلك اليقظة متوثّبة في وصف الكاتب وهو يذهب مع الشيخ (العباس) لحجز تذكرتين على الباخرة من (مرسيليا) إلى (الجزائر) متابعة للخطة الخاصة بتضليل الأمن الفرنسي السرّي، كما تصوّر صراعه الصامت معه أكثر من واقعه في الجزئيات خاصة، صوره كما كان يتوقّعه ويخطط لمغالطته «ذهبت مع الشيخ العباس إلى مقرّ شركة السفن وعيون البوليس السريّ تتبعنا بصفة خالها سرية، انما كانت في حقيقة أمرها علنية مكشوفة»(2).

عبّرت هنا بالتصور والتوقّع والتخطيط للمناورة التضليلية التي استهدفت الأمن الفرنسي لأوضّح أن أمر حدوث ذلك منه ممكن في حدّ ذاته لكن موطن الشك هو هذه الأهمية التي أعطاها لحجم الملاحقة والتعقّب التي تخيّل أنّ الأمن الفرنسي كان يمارسها عليه، فكيف سها هذا الأمن عن شخصية (العباس) ولم يسترب في المناورة فيكتّشف تتبّعه، بدل ذلك أهملهما معا بكل هذه البساطة وهما ينتقلان إلى الجنوب الفرنسي، ويتجوّلان

---

(1) المصدر السابق، ص: 107.
(2) المصدر السابق، ص: 108.

ويصلان الحدود الايطالية حيث يحاولان الدخول والسفر من هناك لكنّهما يردّان من مصالح الحدود الايطالية. فأين مصالح الأمن الفرنسي المعبّأة؟ ثم يعودان إلى (نيس) حيث. يأخذان الطائرة منها إلى (جنيف).

هذه الملاحظات وغيرها لا تلغي الحدث كحقيقة لكنّها تشكّك في جزئيات «المسرحية» وشكلها بالطريقة التي رواها الكاتب وما أعطاه فيها من صورة عن خطورته في عيون الأمن الفرنسي وفكره، فالذهاب إلى (القاهرة) عبر (باريس) و (جنيف) أمر غير ملغى، لكن موضع الشك تصوّر كثافة الاهتمام من الأمن السرّي بتحرّكاته، ثم الجزئيات في أسلوب المناورة التي اتّسمت بالمبالغة كما ظهر ذلك بوضوح حين وصل الفندق في (باريس) ثم في تجوّله مع زوجته وطريقة توديعها في مطار (أورلي).

لعلّ هذا يرجع إلى سمة أساسية في تفكير الشيخ (المدني) وأسلوبه الذي كثيرا ما يتّسم بالمبالغة في تضخيم حوادث ومواقف، خاصة عندما يكون ذلك ذا صبغة وطنية تستدعي جهدا وتضحية ممّا يعلي شأن صاحبها ويمكّن لقيم البذل والفكاح لتحدّي الصّعاب.

رحلات (سعد آلله):

للدكتور (أبي القاسم سعد آلله) أربع رحلات خارج (الجزائر) احداها إلى (باريس) سيأتي ذكرها في غير هذا الفصل، والرحلات الثلاث الأخرى داخل الوطن العربي، أولها كانت إلى (المغرب الأقصى) بعنوان (رحلتي إلى المغرب)[1].

---

(1) صدرت أول مرة في مجلة (الثقافة) الجزائرية، عدد: 18، سنة: 1393هـ (1973م) ثم تضمنها كتابه (تجارب في الأدب والرحلة) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

سجّل الكاتب في بداية الرحلة دوافعها المتمثلة أساسا في تنفّس هواء جديد كما قال، وبحث في مكتبات المغرب عن مصادر ومراجع خاصة، منها ما يهمّ كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي)(*) فسافر من الجزائر (العاصمة) في طائرة تونسية، فأوحى له ذلك باحساس قومي وحدوي لطيف والطائرة تحلّق في الأجواء المغربية، فقال «عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخيم أنّ الطائرة ستبدأ في الهبوط بمطار النواصر... شعرت أن الطائرة كانت حمامة سلام ووحدة بين الأقطار الثلاثة، فقد تجمّع فيها الجزائريون والمغاربة والتونسيون، واندمجت فيها طبائعهم المتكاملة: لطافة التونسي، وانسانية الجزائري، وشهامة المغربي»[1] فتاقت نفسه بذلك إلى وحدة تتكامل بها أقطار المغرب العربي وتتآزر، يمتدّ ذلك إلى مطار (النواصر) المغربي حيث سرعة الاجراءات وبساطتها وترحيب رجل الجمارك، فيأخذ السيارة العمومية إلى مدينة (الدار البيضاء) يستقل منها مع آخرين سيارة أجرة إلى (الرباط) فيصف أثناء هذه اللحظات (الدار البيضاء) وقد سقط الليل وصفا أدبيا عكس ميوله الأدبية واحساسه الفنّي في الاستجابة للصور التي بدأت تجسّدها الأنوار في المدينة «بدأت أنوار المدينة تتلألأ، بعضها يشكّل أسهما وبعضها يشكّل دوائر وبعضها ينافس نجوم الليل أو بروق العواصف، واللغة العربية فيها تنافس الفرنسية. وكانت الألوان المتعدّدة والأشكال الهندسية المتنوّعة تكاد تخطف الأبصار، وهي جميعا من دلائل التنافس والتأثير على المارة والسوّاح»[2].

(*) وهو جهد فكري لا ينهض به إلا أولو العزم تدعمهم مؤسسات علمية معتبرة، و لم يجد الكاتب في ذلك دعما رسميا، في مشروعه الوطني، فعانى كثيرا. صدر له الجزء الأول في (598صفحة) والجزء الثاني في (518 صفحة) عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1981م.

(1) تجارب في الأدب والرحلة، د. أبو القاسم سعد آلله، ص: 206، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

(2) المصدر السابق، ص: 207.

وعبر التسعين كيلومترا بين (الدار البيضاء) و (الرباط) في نحو ساعة ونصف يذكر بعض معالم الطريق، كما يصف الأشخاص داخل السيارة والجوّ الذي ساد فيها، حيث بقي الجميع «طول الطريق صامتين» وحين الوصول يصف الطقس في (الرباط) ليلا بأنّه أكثر لطفا من عاصمة (الجزائر) فطاب له القيام بجولة في المدينة واستأنفها صباح اليوم التالي حيث انتهى إلى (المكتبة الوطنية) الهدف الجوهري من الرحلة، فشرع يتحدّث عن المكتبة وموقعها وبعض من التقاهم فيها وكلّهم جدّ ونشاط في العمل، ومنهم رئيس قسم المخطوطات بالمكتبة (محمد ابراهيم الكتاني) الذي زاره في مكتبه فوجده غارقا في أكداس من المخطوطات كما رأى كثيرا من الرجال الباحثين، من بينهم المؤرّخ المصري المعروف (عبدآلله عنان) الذي حضر الملتقى السابع للتعرّف على الفكر الاسلامي في (الجزائر) وجاء (المغرب) للبحث والدراسة، فقال الرّحالة وهو يراه «تذكرت عندما رأيت ما عليه هذا الشيخ من الحيوية والنشاط والانتاج شيوخ الجزائر وهم من الكسل العقلي وجمود القريحة وخمول الذكر ما يفجّر قلب الصخر»(1) وهو ضرب من الاحتجاج على وضع غير صحّي فكريا واجتماعيا وثقافيا في الجزائر انعكس على كتابه الذين استسلموا خانعين لضغوط المحيط بكل ما يمارسه من أشكال مختلفة لتثبيط الهمم، واشاعة روح الكسل واللاَّ مبالاة.

وهنا يبدأ الكاتب يتحدث كثيرا عن الأشخاص الذين التقاهم، ومن بينهم الدكتوران (عبدالكريم كريم) و (عباس الجراري) وهما أستاذان جامعيان، ممّا لا يلبث المرء معه حتى يشعر بمناخ ثقافي صحّي، يجعله ينظر إلى الأستاذ الجامعي هناك بعين الرّضى، فهو مكرّم، حقوقه مضمونة، الأمر الذي يجعل حياته ميسورة في معاشه وسكنه مما لا يراه «الأستاذ الجزائري

---

(1) المصدر السابق، ص: 213.

إلا في الأحلام»[1]، وهي ملاحظة مع غيرها يبدو أنها أغضبت من اطّلع عليها من السياسيين، عندنا يومئذ حسبما سمعت، حيث أشار أيضا إلى أنّ أساتذة الجامعة يسكنون الأحياء الجملية الراقية التي يتوفّر فيها أمن النفس وسلامها وطاقة العقل، فاستفيد من كلامه أن تلك الأحياء بما توفّره من مناخ سليم اجتماعيا وفكريا ليست وقفا على «صعاليك» السياسة والانتهازيين المنافقين كما هو الحال في (الجزائر) أثناء (فوضى التحوّلات) الاجتماعية والاقتصادية في مسايرة التحوّلات السياسية المختلفة.

برزت سمات الودّ في حديث الكاتب عن المثقف والأستاذ الجامعي وروحه الفكرية والانسانية العالية من خلال موقف الأستاذين السّابقي الذكر، فقد أخذ الأستاذ (الجراري) صاحب الرحلة بسيارته إلى (الدار البيضاء) التي اطلع فيها على جوانب مختلفة من الحياة والنشاط، فأدرك أنها بقدر ما هي مدينة ثقافية تزخر بالمكتبات الكثيرة الفخمة التي تمتلىء بالكتب من أهم أقطار الوطن العربي هي أيضا «مدينة تجارية بكل معنى الكلمة، ففيها الشركات والبنوك المغربية والأجنبية بأعداد ضخمة»[2] ويكاد المرء يحسّ أنه في مدينة (أوروبية) مثل (باريس) فأبدى الكاتب اعجابه بالمدينة التي تعجّ بالحركة والنشاط، وبطيبة أهلها وكرمهم، كما جسّد ذلك أصهار صديقه الزميل (عباس الجراري) أنفسهم في (الدار البيضاء) حيث تناول طعام العشاء على مائدتهم، ودار الحديث أثناءه «حول التقاليد الاجتماعية الجزائرية والمغربية، وكانت لحظات ممتعة تلك التي قضيتها مع هذه الأسرة الفاضلة التي جمعت بين القديم والحديث، كما جمعت بين الكرم العربي والعلم الأوروبي»[3] ويحدثنا الكاتب لدى آل (الجراري) في (الرباط) حين يعود إليها مع صديقه الزميل عن جلسة من تلك الجلسات التي تتفتّح فيها القلوب وتصفو السرائر، ويصير كتاب التاريخ والحياة مفتوحا بين الجميع، فيصف

---

(1) المصدر السابق، ص: 217.
(2) المصدر السابق، ص: 222.
(3) المصدر السابق، ص: 223.

لنا الجلسة التي قال عنها منذ البداية «جمعنا فيها بين لذيذ الطعام وشهيّ الكلام»(1).

وتزداد جاذبية (الرباط) وضواحيها في نفس الكاتب، فيمضي يحدّثنا عن جولاته فيها، وانتقاله ذات مساء إلى (سلا) مع باحث مغربي، فوصلاها في حافلة بعد عشر دقائق عبورا فوق وادي بورقراق حيث لاحظ «فرقا واضحا بينها وبين مدينة الرباط في المستوى الاجتماعي»(2).

ثم يمضي (الرحالة) يحدّثنا عن اتِّصالاته وعن المخطوطات والكتب التي اطلع عليها أو قرأها، كما يبدي انطباعا حسنا عن خطوات التعريب في (المغرب) الذي له أرضية سليمة في ندرة استعمال اللغة الأجنبية في الشّارع حيث يرى أنّ «صمام الأمان لهذا الاتّجاه نحو التعريب يكمن في غيرة المثقفين على لغة وطنهم، وتحرِّكهم عندما تقتضي الضرورة صفا واحدا»(3) ويكون ذلك مناسبة على سبيل المقارنة كي يذكر الجهود السرية (للأخطبوط الفرانكوفوني) في (الجزائر) لعرقلة التعريب ومحاصرة تجربته و «التضييق عليها»(4) يستفيد هذا الاخطبوط من موقعه المتميّز في مختلف الأجهزة الادارية وفي المواقع الهامة في السلطة التي تركه الاستعمار فيها أو تسلّلت إليها عناصره فيما بعد.

هكذا حدثنا الكاتب عن (الدار البيضاء) و (الرباط) والحياة الاجتماعية والثقافية خاصة فيهما، كما حدّثنا عن الأشخاص الذين التقاهم والأماكن التي زارها والذين اصطحبوه إليها بأسمائهم ووظائفهم غالبا. كان يتحرك في جوّ ثقافي علمي اجتماعي سليم، بدا فيه المثقف في المغرب خاصة الباحث والأستاذ الجامعي يعمل في ظروف حسنة، انعكست على العلاقات

(1) المصدر السابق، ص: 224.
(2) المصدر السابق، ص: 229.
(3) المصدر السابق، ص: 230.
(4) المصدر السابق، ص: 231.

الاجتماعية والانسانية ممّا جعلنا نلمس روح التفاؤل في المحيط كما جاء صداها في الرحلة، وهو المحيط الذي تعاون مع الكاتب إلى حدّ بعيد، وجعله يشعر بسعادة وطمأنينة في مناخ يكبر فيه تقدير العلم ورجاله، كما وجد سعادة في صحبة مثقفين في (المكتبة الوطنية) وفي منازلهم وفي الشارع، وحتّى على الشاطىء حيث لا يفوّت (سعد آلله) الفرصة ليفتكّ منا ابتسامة هادئة وهو يحدثنا عن (محارة) أخذها من أحد مرافقيه الجامعيين على الشاطىء «سبح الاخوان قليلا، وعاد الأستاذ الشابي بحفنة من المحار، وأبت نفسي إلا أن تعود بتذكار من المحيط، فحملت معي محارة إلى الفندق، وتركتها هناك حتى نتنت، فرميتها، ولا شك أنها تعذّبت خلال اقامتها معي، ولكنّ الحبّ أيضا عذاب كما أن الموت عذاب»(1).

اعتمد الكاتب في كتابة رحلته يوميات كان يسجّلها في نهاية كل نهار، يصبّ فيها مشاعره ويتحدّث عن قراءاته بشكل عفوي، وحين النظر فيها بعد عودته إلى (الجزائر) بدا له فيها كما يقول «ما يصلح للنشر الآن وما لا يصلح إلا بعد انقضاء جيل»(2). من هذا القسم الذي رآه صالحا للنشر في الظروف الحاضرة صاغ الكاتب رحلته هذه التي عكست اهتماماته كمؤرّخ وموهبته الأدبية التي بقيت بادية في كتابته، في استجابة لمشهد أو ظاهرة، أو في صياغة مشاعره في لحظة تأثّر ما، كما نرى في تلك الفقرة حين خرج ذات مساء مع أحد الأساتذة (أحمد شعلان) في اتّجاه «صومعة حسان الشهيرة وضريح المرحوم (محمد الخامس) فسجّل احساسه الذي نقله هنا حرفيا من المذكرة من دون تغيير كما أكدّ ذلك هو نفسه »كانت الشمس قد غربت ولم يبق في الأفق إلاّ الشفق. وطلع من الشرق القمر الذي أخذ يكبر، وظهرت النجوم في السماء والمصابيح في الأرض. هنا في

(1) المصدر السابق، ص: 230.
(2) المصدر السابق، ص: 204.

الرباط وهناك في (سلا) التي يفصلها عن الرباط وادي بورقراق. وظهرت مياه المحيط تغمرها حمرة الشفق، وصفحة وادي بورقراق تضيئها أشعة المصابيح والقمر. وعلى بعد رأينا القطار كأنّه خيط من الضّوء يتحرّك وسط الظلام الذي بدأ يلفّ الأفق البعيد. قال صاحبي انه قطار طنجة قادما إلى سلا. هكذا بدت لي الطبيعة وأنا واقف أمام المحيط. على يميني ضريح وعلى يساري صومعة وبقايا عرصات جامع قديم. وفي جامع محمد الخامس الملحق بالضريح طالب شيخ يقرأ القرآن بصوت عال، وهناك على بضعة آلاف من الأميال في الجانب الآخر من المحيط يرتّلون الانجيل، انها ذكرى خالدة وصورة رائعة وموقف يدعو إلى التأمّل. تذكّرت عقبة وهو كما تقول الأساطير يرفع سيفه ويدفع فرسه إلى مياه المحيط يتحدّى الخطر والظلام والمجهول، وكأنه كان يلوح بيده إلى الآخرين يعدهم ويمنّيهم، أو ينذرهم ويحذّرهم، تذكّرت رجال الفتح ورجال السلطة الذين خلفوهم، تذكرت الماضي والحاضر، فاغرورقت عيناي وصمتُّ في وجوم، ولاحظ صاحبي ذلك، فقال انك لم تنظر شيئا، لو رأيت قصر الحمراء، ان المرء هناك ينفطر كبده ويصاب بالخرس، لقد أضعنا أشياء لا تعوّض! قلت هذا يكفي! انظر هنا، انظر هناك! انني أعيش الآن في عصر آخر. دعني أتأمل دعني!؟»(1).

هكذا برزت في الرحلة صورة لبلد لا يزال فيه المواطن على طيبته، متمسّكا بأصالته الحضارية في العادات والتقاليد، كما لا يزال فيه للعلم مكانته المحترمة وللعلماء أقدارهم، فبرزت بذلك للرّحالة صورة الأصالة المغربية بوجهها العربي الاسلامي في العلاقات العامة بل حتّى في أسماء الشوارع والأماكن.

اتّسمت الصياغة في كلّ ذلك بالسرد العام الجيّد لتقديم وقائع اليوم في مسار الحياة بالمدينة ممّا عاشه الكاتب، في المكتبة والشارع، وغيرهما، إلى جانب وصف أدبي جيّد جسّد احساسه بموقف أو شعوره تجاه منظر أو صورة.

---

(1) المصدر السابق، ص: 227.

ومهما يكن من شيء فان هذه الرحلة تبقى مادة جيّدة للمؤرّخ وعالم الاجتماع مثل أستاذ الأدب، ليس فيما يخصّ (المغرب) فقط انما فيما يتعلق بالجزائر نفسها كما يستفاد من المقارنات السريعة لكنها الدالة، ففيها ندرك مثلا جوانب مختلفة من الزيف عن طبيعة اشتراكية مهلكة وعدالة اجتماعية منحرفة في (الجزائر) فيذلّ الأستاذ الجامعي ورجل الثقافة والفكر ويهمش اجتماعيا وسياسيا، ويتقدم عليه في الامتيازات الاجتماعية العامة سائق (الوزير) وكاتبته، بل بوابه، بينما يلقى هذا الأستاذ أو رجل الفكر كلّ الاهتمام والاحترام في بلدان أخرى خالية من الشعارات السياسية البرّاقة المضلّلة، كما ندرك من جهة أخرى ما يتميّز به أسلوب (سعد آلله) من جنوح دائم إلى الوصف الأدبي التفصيلي الشائق، وحرصه غالبا ــ تصريحا أو تلميحا ــ على الاشادة بالجوانب الايجابية أو السلبية التي يكون لها تأثير ما عليه في المواقف والمناسبات المختلفة.

وقد عبّرت رحلته هذه عن فكر مؤرّخ، يدرك طبيعة الأشياء وخلفياتها ونتائجها، وحسّ أديب وموهبته، في التأثّر بموقف أو سلوك أو منظر أو ذكرى وحسن التعبير عنها وعن مختلف مشاعره وانفعالاته أدبيا، كما عبّرت عن شخصية الجزائري الطموح للخير وللوحدة بين أبناء الأمة العربية كما جسّدها أمله في وحدة جزئية بين أبناء المغرب العربي تكون منطلقا لوحدة عربية ثابتة أصيلة.

أما رحلته إلى (السعودية) فقد كان عنوانها «رحلتي إلى الجزيرة العربية»(1) ويذكر أنها جاءت لهدف علمي أساسا(*)، مع ذلك فالرحلة

(1) المصدر السابق، ص: 235.

(*) وهو حضور الندوة العالمية الأولى التي دعت إليها جامعة (الرياض) في موضوع «مصادر دراسات تاريخ الجزيرة العربية» وذلك في شهر أفريل 1977م.

إلى (السعودية) ليست كالرحلة إلى غيرها، لأنّك «تستعدّ قبل كلّ شيء استعدادا روحيا، مهما كان غرضك المادّي من السفر، سيّما إذا كان سفرك إليها لأول مرة كما كان الحال بالنسبة لي»[1].

فالرحلة إذن تغطي بالخصوص زيارته (الرياض) العاصمة السعودية، والمدينتين الشريفتين (مكة) و (المدينة) واستمدّها من يومياته، في مشاهداته وانطباعاته التي كان يسجّلها من وحي ما يصل إليه انتباهه وفضوله العلمي كما قال هو نفسه، وقد شرع في هذا التسجيل في يومياته ابتداء من مطار (الجزائر) في الذهاب، وانتهاء بمطار (جدة) في الاياب، فحدّد السفر من (الجزائر) يوم (21 أفريل 1977م) صباحا، ووصول مطار (جدة) مساء، حيث قضى الليلة على مقاعد المطار في انتظار الصباح لاستئناف الرحلة على أول طائرة تقلع في اتّجاه (الرياض) التي وصلتها بعد نحو ساعة، حيث كان افتتاح الندوة العالمية الأولى الخاصة بمصادر تاريخ الجزيرة العربية خلال العصور المختلفة في نفس اليوم بعد الظهر، فيذكر الكاتب حسن الاستقبال، ويبادر بملاحظة عن غياب المشاركة الجزائرية بالكثافة الضرورية بالنسبة لبلدان عربية أخرى، فلم يمثّلها سوى كاتب الرحلة وزميله الدكتور (رشيد بورويبة) ويعلّل ذلك بكسل بدا شبه مزمن «رغم أن الدعوات قد وجّهت إلى عدد آخر من الجزائريين فانهم لم يشتركوا لأسباب لا نعلمها، ولكن يبدو أنّ أهمّ سبب كان وراء ذلك هو الكسل العقلي الذي يعاني منه الجزائري والذي يحرمه من المساهمة في الندوات والمؤتمرات العالمية وتمثيل بلاده فيها أحسن تمثيل، وقد أصبحت هذه ظاهرة تلفت النظر لدى علماء الجزائر في كلّ الملتقيات، ذلك أن تونس مثلا قد اشتركت بخمسة من الباحثين بينما اشترك المغرب الأقصى بستة منهم»[2].

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(2) المصدر السابق، ص: 241.

يحدثنا الكاتب عن افتتاح الندوة، وانطلاق أشغالها العلمية بالبحوث في قاعتين من قاعات الجامعة، كما يعرض لطبيعة البحوث ومستوياتها المختلفة مذكّرا بالمكسب الكبير للجامعة في ثراء المعلومات بفضل هذه الندوة، كما تحدّث عن اللجان الأثنتي عشرة التي أشرفت على الندوة تحت رئاسة عميد قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في جامعة (الرياض) والانضباط في العمل بما في ذلك التنظيم المحكم في المواعيد الذي يكسر ما يتّهم به الانسان العربي من سوء تقدير للوقت «فقد كانت السيارات تتحرّك من الفندق إلى القاعتين في الموعد المضروب بالضبط، وهي تنطلق منهما أيضا في الموعد المضبوط، ويكاد المتخلّف عن الموعد يضيّع فرص الحضور تماما»(1).

اضافة إلى جلسات الندوة العلمية كان هناك برنامج الزيارات والجولات المختلفة، ومآدب الطعام، فبالاضافة إلى (الرياض)(*) التي وصفها الكاتب، هناك الزيارات الأخرى التي تحدّث عنها الكاتب، ومنها تلك التي تمّت إلى مدينة (الدرعية) منشإ أول دولة سعودية، وهي تبعد عدة كيلومترات عن (الرياض) وقد أثبت الكاتب انطباعاته عنها وعن الطريق إليها المحفوف بقصور الملك والأمراء.

كما حرص وفد (المغرب العربي) بالخصوص على زيارة (المدينة المنورة) ثم (مكة) المكرّمة لأداء العمرة، فرأى الكاتب في زيارته المدينة تحقيقا لأمل عريض، فغمره شعور طافح بالمودة والألفة والطمأنينة وهو يخطو خطواته الأولى على تراب (المدينة) التي قضى فيها ثلاثة أيام «لم أكن أصدّق أنني أسير على تراب المدينة وانظر إلى جبالها ونخيلها وعمرانها عندما كانت السيارة التي أقلتنا من المطار تقطع الطريق إلى فندق (الرحاب) الذي وضعنا

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(*) وهي المدينة التي كانت تقيم فيها الوفود، فقال عنها الكاتب «تجعلك تحسّ أنّك في أعظم عواصم العالم الحديثة».

فيه رحالنا، والذي كان معدا لاقامتنا والذي لا يفصله عن الحرم النبوي سوى الطريق. وبعد أن اغتسلنا وغيّرنا ملابسنا توجّهنا فورا إلى الحرم فأدّينا حق المسجد وحقّ الرسول ﷺ. ولا أستطيع في هذه العجالة أن أصف المشاعر التي غمرتني وأنا أشاهد المسجد من بعيد ثمّ وأنا داخله من قريب، وكذلك عندما كنت أقف عند الضريح الطّاهر»[1].

ومن (المدينة) انتقل الجميع إلى (جدة) التي أحرم الكاتب من مطارها قاصدا (مكة) لأداء العمرة، حيث عبّر عن حسّه الديني تجاه المكان شوقا إليه «كان الجوّ رطبا والنفس مشوقة رغم الحاجة إلى النوم والطعام»[2] فقضى في (مكة) خمسة أيام منها ثلاثة في بيت أخيه المهاجر هنالك، فكانت تلك الأيام فرصة للتعرّف على الحياة التي تتّسم بالبساطة عموما.

وكما باح الكاتب بمشاعره وخواطره وآرائه وهو يزور الأماكن والمدن خاصة (مكة) و (المدينة) و (الرياض) تحدث عن مآدب الطعام، مثل حفلة العشاء التي أقامها للوفود مدير جامعة (الرياض) «في الموقع الجديد للجامعة، في الهواء الطلق، حيث اصطفت الوفود على شكل قوس كبير على فرش وأرائك»[3] كما تحدث طويلا عن الأشخاص الذين التقاهم، والذين تحاور معهم، خاصة منهم «عدد من علماء السعودية من الجيل الجديد ومن الجيل القديم»[4] فذكر من شارك منهم في الندوة وغيرهم بأسمائهم غالبا، معلنا انطباعاته التي كانت ايجابية غالبا.

فالرحلة رغم طابعها الثقافي الاستطلاعي في الوقت نفسه بشكل محدود اكتست ظلالا دينية بمشاعر الكاتب وخواطره وانطباعاته،

---

(1) المصدر السابق، ص: 249.
(2) المصدر السابق، ص: 251.
(3) المصدر السابق، ص: 244.
(4) المصدر السابق، ص: 246.

سواء وهو في (المدينة) أو في (مكة) أو متنقلا إليهما أو متشوقا قبل بداية الرحلة، وخلالها، وحتى أثناء الندوة في مدينة (الرياض).

سجّل ذلك في هذه الرحلة معتمدا يوميات كانت كل واحدة بنت نهارها أو ليلتها بدءا من مطار (الجزائر) ذهابا وانتهاء بمطار (جدة) ايابا. أبرز فيها الجهود العلمية الجادة المخلصة لرجال العلم في جامعة (الرياض) والامكانات المتاحة لرجال الفكر والمحيط الثقافي الجامعي الجيد الذي برز فيه لرجل العلم دوره واعتباره في مختلف المواقع، وللجامعة مكانتها، ولها الوسائل الكثيرة المتاحة لها في وضع علمي راق مع الثقة التامة في رجالها، لأنهم رجال علم أقوياء وجامعيون أصلاء، وليسوا (صعاليك) دخلاء تربطهم بالجامعة مآرب ومغانم مادية ظرفية عبر دروب الانتهازية في أوضاع متردية.

من هنا جعلنا الكاتب نحسّ بأنّ السياسة بقيت بعيدة عن الحرم الجامعي خاصة بوجهها السلبي (في الخطاب السياسي والأسلوب الدّعائي) فسارت أشغال الندوة في جوّ علميّ، منظم محكم، كما تمّت الزيارات للأماكن التاريخية وغيرها ضمن برنامج مضبوط يعرف فيه المنظمون ما يهمّ ضيوفهم ويحترمون رغباتهم، ويسهرون على راحتهم ورضاهم.

صاغ الكاتب ذلك بلغة تراوحت بين السّرد الذي لا يخلو من شرح بعض الأشياء والوصف المطعّم بأشواق الرّوح التي بدت بظلالها الدينية خفّاقة في نفس الرحالة إلى الأماكن المقدّسة يتوق إليها، وينتقل بين ربوعها في النهاية، للمرة الأولى.

وتأتي آخر رحلة للكاتب في هذا المضمار إلى (مصر) قام بها في (نوفمبر 1988م) ونشرها تحت عنوان «فلسطين في مصر»[1] وهي رحلة

---

(1) جريدة (الشعب) الجزائرية، عدد: 7841، الصادرة في 8 جمادى الثانية 1409هـ (16 جانفي 1989م).

رسمية ذات طابع ثقافي لحضور ندوة في (مصر) موضوعها (حماية المقدسات والتراث الثقافي في فلسطين) دعته إليها (الادارة الثقافية) في (منظمة التحرير الفلسطينية) بالإشتراك مع (المنظمة العربية للتربية والثقافة) و (اتحاد الفنّانين العرب) فسافر في (17 نوفمبر) حيث شارك في أشغال النّدوة التي انطلقت يوم (19) منه في مقرّ (الجامعة العربية) «وقد ركز الجميع على نقطة واحدة هي ابراز الحق العربي في فلسطين، وتعاون المسلمين والمسيحيين لاستعادة ذلك الحق المغصوب... وقد كانت كلماتهم تنبض بالولاء لفلسطين العربية، وبالارتباط بالتاريخ الاسلامي على أساس الحماية والأمن والاحترام الذي ضمنته وثيقة الخليفة عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس»[1].

بدأ الرّحالة إذن يحدّثنا عن عنوان الندوة، وتنّوع موضوعاتها في كلمات المدعوين، بجوانبها المختلفة: التاريخي منها والسياسي والقانوني، في تتّبع المسار الخاص بتطّور قضية (فلسطين)، وينقل لنا احساسه من متابعة كلمات بعض المدعوين حيث بدأ يدرك أن (الاسرائيليين) يتبعون في الاستيطان نفس الأساليب التي اتبعها المحتلّون (الفرنسيون) في (الجزائر)، ثم يتوقف قليلا عند الحديث عن جوانب من بيت المقدس دون أن يسهو عن ذكر الحضور الثقافي الفلسطيني في المناسبة، حيث أسهم فيه محاضرون، وشعراء، وممثّلون من بينهم أطفال.

أثناء ذلك كلّه لمسنا ألفة المحيط في (القاهرة) لدى الكاتب ونوعا من العاطفة الحميمة تربطه به، فبدت سعادته كبيرة وهو يزور (القاهرة) رمزا لـ(مصر) كلّها «رأت عيناي أرض الكنانة من جديد بعد غربة دامت أكثر من احدى عشرة سنة» ففيها درس وقضى فترة من زهرة شبابه في جامعة (القاهرة) التي كانت تسمى (كلية دار العلوم) لذا لم يتأخر كثيرا لزيارتها الليلة الثانية من وصوله استعادة لألذّ فترة في عمر أيّ امرىء مثقف

---

(1) المصدر السابق نفسه.

وأزهاها، لكن الانكسار النّفسي كان ينتظره هناك «بالغريزة بادرت في الليلة الثانية إلى التوجّه نحو كلية دار العلوم حيث قضيت خمس سنوات طالبا في الليسانس والماجستير، ولدهشتي: وجدت البناية أثرا بعد عين، فقد هدمت تماما وأقيمت مكانها حديقة أطفال ومسليات، وكتب عليها (حديقة دار العلوم) فأين مدرّج علي مبارك وكراسي أعلام اللغة والأدب أمثال ابراهيم اللبان وعمر الدسوقي، وابراهيم أنيس، وعبدالسلام هرون، وبدوي طبانه، وأحمد الحوفي، ومحمود قاسم وعباس حسن وعلي الجارم؟ ويعلم آلله أنّني عدت مكتئبا اكتئابي يوم زرت مسقط رأسي بقمار، فوجدت منزلنا قد تساقط بعضه على بعض من فعل الرمال والاهمال والحدثان».

وكما وصف الكاتب الجو الذي جرت فيه الندوة تحدث عن (الثورة الفلسطينية) وهي تنوّع أدواتها، فجاءت الانتفاضة الشعبية في (فلسطين) وقد انطلقت من المساجد والساحات العامة، سلاحها حجارة وتحدّ، فجعلت «العرب والعالم أجمع يعرفون أن الثورة الفلسطينية هي قبل كل شيء ثورة شعب لا ثورة زعماء، وثورة أرض لا ثورة صالونات، وان الذي يقف على أرضه وبيده سلاح ولو كان من حجارة أفضل ألف مرة ممّن بيده منشور سياسي يتجوّل به في المحافل الدولية، فالنصر للانتفاضة والمجد لفلسطين» فكانت مشاعره ايجابية تجاه صمود الشعب الفلسطيني ونضاله مثل كفاح (الجزائر) بالأمس التي لم يجدها نفعا (سماسرة) السياسة في (صالونات) العالم بقدر ما فرضت ارادتها على المحتلين بالصمود والاباء والكفاح المستميت في قمم الجبال وسهولها والصّحاري مثل مدنها ومداشرها.

هكذا تحدث الكاتب عن (الندوة) وعن (الثورة) وعن الذكريات الجميلة في (مصر) بحسّ قومي، متعرّضا أيضا لذكر الأشخاص الذين

التقاهم، خاصة في (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة الذي انتخب عضوا فيه سنة 1988م(*)، حيث التقى رئيسه ونائب الرئيس وأمينه العام.

يلفت النظر في الحديث عن الأشخاص في القاهرة ــ عموما ــ أو الذين استمع اليهم في (الندوة) خصوصا حديثه عن الشيخ (عبدالحميد السايح) رئيس المجلس الفلسطيني مقارنا بين حيويته ونشاطه والكسل المزمن المتمكّن من بعض من أمثاله في (الجزائر) فقد كان يراه في (الندوة): «القلب النابض رغم تقدّم السنّ، فقد كان يتمتّع بذاكرة قوية سواء تعلق الأمر بالتاريخ أو الحوادث القريبة أو أسماء الأعلام، فكان يتدخّل موضّحا أو مصحّحا، وقد ساعده أيضا لسان عربي مبين، وهيبة السن وروح النضال. فأين منه شيوخ في مثل سنّه اعتبروا أنفسهم قد انتهى دورهم في الحياة قبل الأوان؟».

هذه الملاحظة عن ظاهرة الاحباط الفكري والثقافي التي تشجّع البعض عن الكسل أعادها هنا كما ذكرها مرتين في الرحلتين السابقتين له في هذا الفصل تعبيرا عن احساسه الشديد بفداحة النتائج السلبية لهذه الظاهرة المرضية: من كسل عقلي ولا مبالاة أمام ما يجدّ من قضايا وطنية وقومية، وما يفرزه المحيط من ظواهر مختلفة، وغير ذلك.

لقد أعرب الكاتب في هذه الرحلات الثلاث وغيرها عن حبّ مكين للترحال، شديد الحرص على تسجيل مذكراته اليومية التي يستمدّها لكتابة رحلاته، كما عبّر عن غبطته هنا بالمشاركة في الملتقيات العلمية والتقاء المثقفين، تكبر تلك الغبطة حين يكون الملتقى أو الندوة أو الزيارة ذات طابع وطني أو قومي، معبرا في جميع الحالات عن حسّ حضاري ارتباطا

(*) يذكر الكاتب أنه صدر قرار في ذلك من الوزارة الوصية، في شهر (جوان 1988م) وهو المجمع الذي يحضر لأول مرّة مؤتمره السنوي، في شهر (فبراير 1989م).

بالعروبة والاسلام، وهو في كلّ ذلك مسكون بشخصية المؤرخ الذي لا تفلت منه جزئيات، وروح الأديب الانسانية حتى في التأثر بمشهد أو حركة أو موقف.

رحلة (محمد ناصر):

نشر الدكتور (محمد ناصر) رحلته إلى (مسقط) بسلطنة (عمان) تحت عنوان عام (أوراق ثقافية من عمان) في حلقتين اثنتين بجريدة (السلام) كان عنوان الحلقة الأولى الفرعي «الصحابي الجليل مازن بن غضوبه (ض) في ندوة ثقافية»(1) أما عنوان الحلقة الثانية الفرعي فهو «جسور للمحبة والتعاون»(2).

وقد قام بالرحلة رفقة زميل من جامعة (باتنة) استجابة لدعوة وصلتهما من وزارة التربية هنالك، للمشاركة في ندوة عن «الصحابي الجليل مازن بن غضوبة السعدي الذي يعدّ في نظرالمؤرّخين أول من أدخل الاسلام إلى عمان»(3) وهو تقليد علمي سنوي أرساه القوم هنالك قبل ثلاث سنوات من رحلة الكاتب، يكون بمقتضاه في كل سنة موضوع الندوة شخصية فكرية تحت عنوان دائم (من أعلامنا) وتتكوّن من مادة الندوة في كلّ مرّة فصول عن الشخصية موضوع البحث يطبع ليكون في متناول الطلبة في الثانوي وفي الجامعة ممّا أشاد به صاحب الرحلة.

سجّل لنا الكاتب إذن المناسبة والموضوع في الحلقة الأولى حيث حصر حديثه في تقديم صورة عن أشغال الندوة في أربعة أيام

---

(1) جريدة (السلام) الجزائرية، عدد: 18، الصادر في 11 جمادى الأولى 1411هـ (27 نوفمبر 1990م).

(2) (السلام) عدد: 19، الصادر في 12 جمادى الأولى 1411هـ (28 نوفمبر 1990م).

(3) (السلام) عدد: 18.

(من 28 أكتوبر، إلى 31 منه) كانت حافلة بالنشاط الفكري في ستّ جلسات علمية للمحاضرة والتعقيب، ألقى الكاتب في الجلسة الثانية منها محاضرته: «مازن بن غضوبة (ض) ومكانته الأدبية».

وقد قدم خلال حديثه في الرحلة صورة عن الانضباط الذي جرت فيه أشغال الندوة والجدية في المعالجة والثراء الفكري والحوار العلمي الهادىء في محيط ملائم من كلّ الوجوه حيث «اختارت الوزارة نادي الصحافة مكانا لسير الأعمال، وهو مبنى جميل يقع في حيّ مشرف هادىء يدعى القرم غير بعيد عن مبنى الاذاعة العمانية وقد جهّز بكل الوسائل المساعدة» لذا سجّل في النهاية برضى كبير اهتمام وسائل الاعلام بهذا الحدث العلمي الذي أعطى الاهتمام به الكاتب انطباعا واضحا بأن المناسبة العلمية في هذا البلد لا تقلّ أهمية عن المناسبات الوطنية الكبرى، فلم يحجب هذه المناسبة إذن ــ كما رأى ــ ذلك الاهتمام الكبير الذي كان جاريا لاعداد الاحتفال بالذكرى العشرين للعيد الوطني.

تركّز اهتمام الكاتب في الحلقة الأولى من رحلته على الجوّ العلمي الهادىء الجادّ الذي جرى فيه نشاط الندوة، بينما أفسح المجال لأفكاره العديدة ومشاعره وانطباعاته المختلفة وآرائه في الحلقة الثانية، بدأها بثناء طيب على مثقف سفير للجزائر في (عمان) لم يبخل بجهده ووقته للاهتمام بالعلم ورجاله، وخدمة وطنه هنالك، وتذكير أبناء هذا الوطن به، وهو مثقف جامعي «الدكتور بشير خلدون الذي يعجز القلم عن وصف الحفاوة والرعاية التي استقبلنا بها منذ نزولنا مطار (السيب) بمسقط إلى لحظة وداعنا له. والحق أن المرء ليشعر بهذا الاهتمام البالغ الذي يوليه لاخوانه الطلبة الذين يدرسون والأساتذة الذين يدرِّسون ببعض المعاهد الاسلامية هناك، وقد كانت حفلة شيقة تلك التي أقامها الطلبة بمناسبة ثورة نوفمبر بدار السفارة، ولا يسعنا هنا الاّ نحيي جهوده العظيمة لربط

الصلات الثقافية والحضارية بين الشعبين الجزائري والعماني ومدّ جسور المحبة والتعاون»(1).

ثم شرع الكاتب يتحدث عن الجهود الكبيرة التي تبذلها الدولة في المجال الثقافي خاصة منه ما يتعلّق بالتراث، فحدّثنا عن المكتبة الوطنية وبعض المكتبات الخاصة وبعض من رجالها كما حدّثنا عن المعالم الحضارية والتاريخية التي زارها مع الوفود في هذه المناسبة، منها الموقع (الباقي) لمسجد الصحابي (مازن بن غضوبة) في مدينة (سمائل) ومدينة (الرستاق) ذات الجمال الطبيعي الخلاّب الذي فرض عليه مقارنة بينها وبين (غرادية) في (الجزائر) موقعا وجمالا، حشائش وأشجارا ومكانة أيضا اجتماعية واقتصادية، من دون اهمال المعالم المعاصرة، خاصة منها المساجد المختلفة ذات البناء المعماري الذي يجمع بين التراث والمعاصرة.

في جميع المواقع كان الكاتب يقدم انطباعات ايجابية عن الانجازات العلمية والانسان العماني عموما، حيث يرى المرء «الحضارة الاسلامية حيّة نابضة في سلوك الناس وعاداتهم، فالعمانيون يتمسّكون بالقيم الاسلامية ويحافظون على الأصالة في كلّ مظاهرها الحضارية: مثل اللباس الأبيض والعمامة وارسال اللحية والتمنطق بالخناجر ولا سيّما في الحفلات الرسمية، وهم شديدو التمسّك بهذه الأخلاق ولا سيما في العلاقات الاجتماعية، مثل الكرم الحاتمي الفياض، فان ممّا يؤذي العماني الأصيل أن يدعوك إلى قهوة أو غداء أو عشاء وتردّ طلبه، ومن الأخلاق العربية الأصيلة التي يتحلّى بها العمانيون هذا التواضع الجمّ الذي هو ظاهرة عامة عند كل الأفراد مهما يكن مستواهم الاجتماعي أو الثقافي، حتى أنهم يخجلونك أحيانا بتواضعهم ذاك، ومن ثمّ فان اكره ما يكرهون أن يتعاظم المرء أو يدّعي أو يغترّ، وهذه قيم زرعها في نفوسهم الاسلام».

---

(1) (السلام) عدد: 19.

وصف الكاتب لنا البيئة والانسان فيها، فهي بيئة عربية اسلامية، تجلّ العلم والعلماء وتعلي شأن الثقافة ورجالها، يحرص المرء فيها على السلوك الاجتماعي السليم في علاقاته وحياته، مثلما وصف بعض المعالم والمراكز الثقافية القديمة وعلماءها كما هو الشأن بالنسبة لمدينة (الرستاق) اضافة إلى وصف بعض المعالم الحديثة، متحدثا عن الأشخاص الذين التقاهم، علماء وأدباء ورجال فكر، وطلبة جزائريين وتونسيين هناك، من بين الجميع سفير (الجزائر) كرجل سياسة وثقافة، فخدمت الصفة الأولى الصفة الثانية.

وقد بدأ الكاتب في صياغة رحلته ميّالا في الحلقة الأولى إلى شكل اليوميات، ربّما لأن اهتمامه كان منصبّا على الحديث المركّز عن جلسات الندوة العلمية المنتظمة طوال أربعة أيام، فوجد نفسه منجذبا إلى الحديث عن موضوع كل جلسة وصاحب المحاضرة فيها والمعقبين عليه. وهذا لا يلغي أن هناك وصفا وحكما في هذه الحلقة بالذات، كما نرى في ذلك الانطباع الجيد عن روح الجدية في العمل (في الفقرة الثالثة) وعن حسن الحفاوة والجوّ العلمي في (الفقرة الثانية) التي قال فيها: «لقد كانت الحفاوة بالغة، والعناية بالمشاركين في الندوة فائقة، والجوّ العلمي رائعا: تنظيما ورعاية واقبالا مشجّعا من طرف المسؤولين أو من طلاب الجامعة والمعاهد الاسلامية». اضافة إلى ذلك الانطباع عن اهتمام وسائل الاعلام الجيّد بالمناسبة.

أما في الحلقة الثانية فقد أطلق الكاتب العنان لقلمه ليتحدّث عن الجوّ العام الذي اعتبره هامشا(*) بينما نقل لنا صورا جوهرية حيّة أصيلة عن العلاقات الانسانية الحميمة بكل دفئها وسلامها في المحيط العام، كما نقل إلينا صورة مشرقة عن المكانة التي للثقافة والمثقفين في ذلك المحيط، حيث برز الاهتمام بالتراث علامة بارزة، والحرص على الأصالة العربية

(*) ربما اعتبرها هامشا بالنسبة لموضوع الندوة، ولم يبق هامشا بالنسبة لنا حين صارت التجربة عملا فكريا تجسد في رحلة وصفت وضعا، وعكست أحاسيس ومشاعر، وأعربت عن مواقف ورؤى.

الاسلامية صفة واضحة في تشييد المباني والمساجد، وفي حياة الناس سكنا ولباسا وطعاما وعلاقات اجتماعية.

اضافة إلى كل ذلك الاحساس البهيج بجوّ يعبق بشرا وحبورا بدا انعكاسا وصدى لوضع صحي سليم من الشوائب التي تنغص الحياة وتخلّ بالتوازن النفسي والاجتماعي للفرد، من هنا ينبعث اشعاع ذلك البشر وتولد الطمأنينة في محيط لم يهتز، فلم تعصف به زوابع تغيير ارتجالي سلبي تشيع قيم الفوضى، وفوضى القيم التي قد يعلو فيها شأن جاهل عن عالم، فيهزم العلم تحت الحصار، وينفسح المجال للشعار السياسي، وسيادة صوت الغوغاء وفعلها.

وهكذا برزت جوانب ايجابية كثيرة في انطباعات الكاتب، كما تجسّد بعض منها في الخاتمة المركزة التي أنهى بها الحديث عن رحلته: «لا أحسبني أستطيع أن أتابع كل المناظر الخلابة التي ملأت نفوسنا غبطة بما أرته لنا من لوحات تجمع بين الأصالة والمعاصرة، أكان ذلك في مناظر الطبيعة الساحرة أو في هندسة المباني الحديثة والطرق المعبدة الواسعة أم في أخلاق أهل عمان العالية، هؤلاء الإخوة الاشقاء الذين يشقّون طريقهم في رقّي وازدهار محافظين على الأصالة الاسلامية في الأخلاق والسلوك متعاملين مع اخوانهم في البلاد العربية والاسلامية بمنطق الاحترام المتبادل، ووضع الأخوّة الاسلامية فوق الاعتبارات السياسية الآنية».

وهي خاتمة أو جزت انطباعات الكاتب المبثوثة أجزاؤها في ثنايا الرحلة كما خرج بها من (عمان) عموما، وعاصمتها (مسقط) وضواحيها، وهي انطباعات عكست في النهاية من جهة أخرى حسّ أديب تأسره الصورة الايجابية المفرحة في الطبيعة وفي الحياة، وشعور عربي مسلم يبارك كلّ المظاهر الخيرة التي تعلي شأن العلم والثقافة ورجالهما، وتحفظ للأمة كرامتها وتؤصل انتماءها الحضاري وتهيىء مناخا سلميا للنهوض الوطني على أسس متينة دعامتها العلم والمعرفة والأخلاق الفاضلة.

رحلة بن قينة:

كما تندرج في هذا الاطار أو المحور رحلة لكاتب هذه الفصول منشورة في جريدة (الشعب) عنوانها «يوميات قاص في تونس»[1] وهو عنوان عام من وضع رئاسة التحرير فوق العنوان الأصلي «ساعات في تونس» الذي صار فرعيا في الحلقة الأولى وحذف في الحلقة الثانية اكتفاء بالعنوان العام.

ولعلّ من أوّل ما يلفت النظر في هذه الرحلة ذلك الانطباع الذي بادر الكاتب فسجّله من مطار (الجزائر) في بداية الرّحلة وهو يتحدث عن التّزاحم في قاعات الانتظار وعلى سلم الطائرة في الذّهاب إلى (أوروبا) والملل في الاتّجاه إلى غيرها، وهو ما سبّب احساسا بالتّعاسة ذات الوجوه المختلفة كما تعبّر عن ذلك الفقرة التالية «هذه الطائرة التي كانت تقبع هناك في تطلّع إلى قاعة انتظار لم تمتلىء بمتحفّزين كما لم يعان سلّم الطائرة تزاحما بالمناكب، هناك الذاهب إلى (طرابلس) وهناك الذاهب إلى تونس، بدا الجميع في ملل، بل ربّما ضيق، (بدا) لي على الأقل أنه يختلف عن ذلك الحنين الذي لمسناه في عيون المتوّجهين إلى مطار (أورلي) أو (شارل ديغول) في (باريس). طائرة أصغر في اتّجاه قطرين قلّ زبائنها عن أخرى أكبر في اتّجاه واحد هو (باريس). كل الطرق مغرية... سالبة إلى (باريس) أو (روما) أو (لندن) حالات التّثاؤب تغزونا في الطريق إلى (طرابلس) أو (تونس) أو (الدّار البيضاء) أو (القاهرة) او (بغداد).

ما أتعسك أيّها الوطن العربي بمواطنيك... بسياساتك.. ما أتعسك أيّها الوطن العربي بواقعك.. بحدودك الباردة.. بمناخاتك الجدباء: مادة وروحا.. وكم أغبطك يا غرب.. بل أحسدك على نجاحك في سلبنا.. في احتوائنا»[2].

---

(1) نشرت الحلقة الأولى في العدد: 8128 (الشعب) الصادر في 20 جمادى الأولى، 1410هـ (18 ديسمبر 1989م)، ونشرت الحلقة الثانية في العدد: 8129 الصادر في 21 جمادى الأولى: 1410هـ (19 ديسمبر 1989م).

(2) الشعب، عدد: 8128.

وبعد أن تحدّث الكاتب عن ظروف الرحلة وتاريخها (19 نوفمبر 1989م) مضى يتحدث مطوّلا عن حلوله بمطار (تونس ــ قرطاج) وانتقاله إلى المدينة، وتنقله خاصة في شارعها الرئيسي الذي بقي يحمل اسم (الحبيب بورقيبة) المطاح به منذ تسعة شهور (فبراير الماضي) لكنه رأى أن الأمور طبيعية في الحياة العامة، فمثلما أن اسم (الحبيب بورقيبة) لا يزال على الشارع الرئيسي فتمثاله لا يزال أمام مقرّ اتحاد الكتاب، كما أن صورته لا تزال على العملة التونسية، وأن اسمه لا يزال يتردّد على الألسنة في ذكر شارع أو مناسبة، فالنظام الجديد لم يعقّد المجتمع من اسم (بورقيبة) ولا جعل له حساسية لدى الناس «أكبرت في النظام في مرحلته الجديدة روح التسامح والسلوك الحضاري، والترفّع عمّا يمكن أن يوحي بأحقاد وضغائن».

ولا يلبث الاهتمام حتى ينصرف إلى الجانب الثقافي انطلاقا من زيارة إلى (الدار العربية للكتاب) فيصف توفّر الكتاب العربي خاصة في المكتبات التونسية، وحضور الوطن العربي كلّه تقريبا في محلاّت بيع الصحف والمجلات مع غياب تام للجزائر، كما يصف الاهتمام الخاص بالبحث الجامعي؛ ومن معالمه (مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية) وهو مركز «يعمل فيه خمسون أستاذا باحثا متفرغا للبحث وحده دون معركة أخرى تستنفد طاقته في مدرجات الجامعة أو في شارع الحياة المعقّدة»(1).

وهي مناسبة جرّت إلى مقارنة سريعة بين الاهتمام بالثقافة في (تونس) كبلد فقير، وقلّة الاهتمام بهذا الجانب في (الجزائر) كبلد غنّي بثروته البترولية بالدرجة الأولى، فقير بتقتيره على الثقافة والمثقّف بعدة حجج واهية حسب الظروف للتضليل، ففي «وقت توفّرت فيه العملة الصعبة لاستيراد (الماجنات) تحت غطاء حفلات ومهرجانات وغيرها شحّت هذه العملة على الانتاج الثقافي: جريدة ومجلة وكتابا، فبقيت المجلاّت العربية غائبة، وهو حيف يلحق بالقارىء والباحث في الجزائر».

---

(1) الشعب، عدد: 8129.

فالرحلة ذات طابع ثقافي استطلاعي، وهي بقدر ما تضمّنت انطباعات ايجابية عموما عن (تونس) تضمّنت أيضا موقفا لصاحبها من بعض الظواهر والقضايا في (تونس) و (الجزائر) انطلاقا من مطار هذه في الذهاب، وانتهاء بمطار تلك في الاياب.

خــلاصــة

هكذا شملت الرحلة في هذا الاطار معظم أقطار الوطن العربي، أما من البلدان الاسلامية غير العربية فقد احتلّت (باكستان) مكانة أولى هامة، وبدت صورتها مشرقة توقا إلى نصرة الاسلام واحتضان رجاله وكذا قضايا المسلمين، خاصة منها القضية الجزائرية أثناء ثورة التحرير (1954 — 1962م).

أما من البلدان العربية بشكل خاص فقد احتلت (مصر) خاصة (القاهرة) مكانة مرموقة في اجتذاب الرّحّالين الجزائريين وحديثهم عنها، بصفتها محطة ثقافية ودينية، وعاصمة سياسية وفكرية كبرى بشكل أخصّ، كهمزة وصل أساسية بين شرق الوطن العربي ومغربه، وهي بذلك تواصل مهمتها في هذا المجال في استقطاب الرحالين المغاربة عموما، حيث كانت دائما قبلتهم، طلبة علم ورجال سياسة، وموطن سكون أو راحة، أو عبور للحجاج في الذهاب وفي الاياب.

وصف الرحالون هنا أوضاعا مختلفة كما شاهدوها في تلك الأقطار وحكموا عليها من وجهة نظرهم، خاصة منها الوضع السياسي والثقافي والاجتماعي، برزت فيها ملامح من مرحلة التحرر والنهوض التي تعيشها الشعوب الاسلامية وفي مقدمتها الأقطار العربية التي يحاول معظمها أن يؤسس لنهضة سياسية وتعليمية وعمرانية واقتصادية واجتماعية.

وقد بدا البعد العربي الاسلامي، أو الاسلامي المحض واضحا في كلّ هذه الرحلات المختلفة، سواء في وصف المجتمع عموما أو علماء الدين الذين يلتقيهم الرحالة خصوصا. كما كان المحيط العام: اجتماعيا وثقافيا

وسياسيا واقتصاديا مركز اهتمام الكاتب عموما، ولم يحظ الحديث عن جغرافية البلدان بأدنى اهتمام، ولم تأت ملاحظات تاريخية في بعض الرحلات الاّ عرضا، في حين كان ذلك جوهريا في كتابات الرّحالين القدماء، ربّما لاعتقاد هؤلاء الرّحالين المحدثين انهم يكتبون لقارىء عن أوطان يعرف جغرافيتها والمهمّ من تاريخها، وقد لا يعرف جوانب أخرى اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية أو سياسية.

هذا اضافة إلى عامل آخر هو أنّ الرحالين يعبّرون عن مشاعرهم وأحاسيسهم في الصلة بالمحيط والناس في كلّ وطن، فيعرب كلّ واحد عن احساسه ويسجّل انطباعاته المختلفة باختلاف الأقطار مقارنا في بعض الأحيان بين مظاهر في تلك الأقطار أو بينها وبين غيرها في وطنه.

في جميع الحالات كانت مظاهر الرّضى عامة بين الرّحّالين مع اختلاف في مستويات هذا الرضى وطبيعته: سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا أو شخصيا أيضا، مع انطباعات سلبية قليلة لدى بعض الرحالين عن بعض الأوضاع الجزئية، وهذا وذلك ممّا يؤكّد أهمية الرحلة في معرفة الشعوب والأوطان ووصف أوضاعها المختلفة، كما يؤكّد أيضا قيمتها الكبيرة في اغناء تجارب أصحابها، فتبقى لذلك ذات فائدة كبيرة عامة وخاصة مهما كانت النتائج ضئيلة ظرفيا في اكتساب معرفة أو تحصيل غرض سياسي أو اجتماعي أو غيره ممّا قد يكون من الانشغالات الأساسية للرّحّالة، ففيها أولا وأخيرا جوانب غنية من حيوات أوطان أو جماعات، وأفراد.

الفصل الثالث

الرحلة في اتّجاه أوروبا

إذا كانت الرحلة من (الجزائر) إلى مختلف الأقطار العربية والاسلامية عموما قديمة، خاصة في العهد العثماني فإن اتجاهها إلى أوروبا بدأ حديثا خاصة مع الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهي في مسيرتها هنا أشبه بمسيرتها في الوطن العربي، خاصة (مصر) حيث قوي الاتصال بالغرب بعد حملة (نابليون) على (مصر) في (1798م) فلم تلبث البعثات العلمية هنالك — التي صار يوفدها (محمد علي) إلى (أوروبا) — حتى شرعت تقوم بدور مهمّ، فبرز (الطهطاوي) في ذلك شخصية لامعة عكست طبيعة الاحتكاك بين الشرق العربي وأوروبا.

أما في (الجزائر) فقد بدأ اتّجاهها إلى (أوروبا) بفرنسا في البداية بتشجيع من إدارة الاحتلال الفرنسي وعلى نفقتها في اطار خطة مدروسة لتوجيه أفكار الناس واقناعهم بضرورة الاستسلام لفرنسا والتمسك بها، من أجل التمكين للسياسة الفرنسية في (الجزائر) التي صوّرتها فعلا الرحلات الأولى في القرن التاسع عشر خيرا ونعيما، لأن (فرنسا) كما بدت في تلك الرحلات: بلد علم وتقدّم وعدالة وازدهار، إلى آخر ما هنالك من مظاهر توحي بالتّشجيع على الارتباط بفرنسا والاستسلام لما تفعله في (الجزائر) بالبلاد وبالعباد.

وامتدّ هذا النهج من السياسة الاستعمارية حتى القرن العشرين، حيث نجد امتدادا لتلك السياسة، وبعضا من الامتداد أيضا لذلك النوع من الرحلات الأولى إلى (فرنسا) التي تعلن انبهارا بالحضارة الفرنسية والنظام الفرنسي كما سيأتي بعد حين.

ورغم الانفتاح أكثر في هذه الفترة على (أوروبا) عامة فإن (فرنسا) استقطبت معظم رحلات القرن العشرين وأعلى نسبة من الرّحّالين لطبيعة العلاقة السياسية بها، ولقربها أيضا،رغم أن هذه الرحلات في هذه الفترة كانت خارج إرادة الاحتلال وتمّت لأغراض مختلفة تهمّ أصحابها باستثناء واحدة سنبدأ بها الفصل لأنها تأتي الأولى في الترتيب زمانا.

هؤلاء الرحالون الذين كانت وجهتهم (أوروبا) بعضهم ممّن سبق الحديث عنه في الفصلين السابقين وبعضهم من لم يكتب الا في هذا الاتجاه، وهم في الترتيب عموما على النحو التالي، (محمد بن الحسن بن الفغون القسنطيني) (محمد بن العابد الجلاّلي) (عبد الحميد بن باديس) (محمود بوزوزو) (أحمد رضا حُوحو) (محمد البشير الابراهيمي) (مالك بن نبي) (أحمد توفيق المدني) (محمد الصالح رمضان) (أبو القاسم سعد الله).

رحلة (ابن الفغون القسنطيني) :

رحلة (محمد بن الحسن بن الشيخ الفغون (*) القسنطيني) عنوانها البارز هو «الوفد الجزائري من رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريز»(1).

وهؤلاء «الرؤساء» الذين يتكوّن منهم الوفد العام يمثلون نواحي الوطن الثلاث أو مقاطعاته: (وهران) غربا، و(الجزائر العاصمة) في الوسط، و(قسنطينة) شرقا(**)، فعن كل مقاطعة وفدها الخاص، وكان صاحب

(*) يرد هذا الاسم العائلي أصلا (الفقون) و(الفكون) لكنه ورد في هذا المصدر (الفغون) فحافظنا عليه تبعا للمصدر.

(1) ــ مطبعة فونتانة، الجزائر، 1319هـ (1902م).
وقد تضمنها كتاب ((ثلاث رحلات جزائرية)) ط. 1، ص 95، تقديم وتحقيق خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979 (مع ملاحظة أن هناك جمعا وتقديما وليس هناك تحقيق).

(**) ــ أما الجنوب فهو منطقة عسكرية، أنظر مثلا:
ــ الحركة الوطنية الجزائرية، د.أبو القاسم سعد الله، ج 2، ط 2، ص 17ــ25، معهد البحوث والدراسات العربية (جامعة الدول العربية) القاهرة، 1977م.
— **Le Royaume Arabe, Annie-Glozeiguer, pages 19-22, S.N.E.D, Alger Algérie, 1977.**

الرحلة من وفد (قسنطينة) وقد التقوا في (باريس) بوفد موحّد عن (تونس).

وقد قامت إدارة الاحتلال الفرنسي بترتيب هذه الرحلة على نفقتها ضمن تقليد جرت عليه سياسة الاحتلال في اشراك بعض الأعيان الجزائريين من مختلف المقاطعات في بعض المهرجانات الدولية في (فرنسا) والاحتفالات الوطنية الكبرى للتأثير عليهم، كي يكونوا رسلها في كسب ودّ مواطنيهم لها. والمناسبة هنا كما يذكر الكاتب احتفالية ذات طابع سياسي عسكري في لقاء بين الرئيس الفرنسي(*)، وقيصر (روسيا)(**) حيث دعي هؤلاء الأعيان من (الجزائر) بأحصنتهم للمشاركة في الاستعراض الخاص على شرف القيصر، فالتقى أعضاء الوفد الجزائري المكوّن من المقاطعات الثلاث يوم 13 سبتمبر 1901م في (الجزائر) العاصمة حيث هيّأ لهم أحد الضباط الفرنسيين كلّ شيء للانطلاق في صبيحة الرابع عشر من سبتمبر، فيصف لنا صاحب الرحلة جانبا من اجراءات السفر وبعض الانضباط في الاهتمام بالعمل: «نادوا كلاً منّا باسمه وبصحبته جواده وأتباعه، وعرفونا بأن نسافر يوم 14 منه (سبتمبر) فتوجّهنا فيه وقت الساعة الثانية عشرة بعد أن وزعت علينا تذاكر ركوبنا وركوب أتباعنا إلى مركب بخاري...أمّا خيولنا فرفعت لداخله وقت الساعة الحادية عشرة، وأمّا نحن فركبنا على الساعة التي بعدها في الطبقة الأولى، وفي الساعة الأولى أقلع بنا المركب قاصدا مرسيليه»(1).

فبعد ثناء الكاتب على لطف الضابط الفرنسي الذي رتّب الرحلة وحسن تعامله معهم جعلنا ندرك أن لكل واحد من رؤساء الوفود جوادا وأتباعا،

(*) Emile loubes (1838—1929) الذي كان على رأس الجمهورية الفرنسية (1899—1906).

(**) Nicolas II (1863—1913) الذي كان على رأس العرش في (1894—1917) وبه كانت نهاية الحكم القيصري).

— أنظر: —Dictionnaire encyclopédique Larousse, V. I, p. 977, Paris :1979

(1) ثلاث رحلات جزائرية، تقديم: خالد زيادة، ط 1، ص 97، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.

فبينما اقتيدت الجياد إلى مواقعها الخاصة في الباخرة، خصّ أصحابها جميعا بالدرجة الأولى في الباخرة، فوصل الوفد (مارسيليا) يوم 15 سبتمبر، وفي اليوم التالي تولّى أحد الضباط أمر ارسال الجياد والامتعة في قطار بعناية جنود، أما الوفد فقد دعي لامتطاء القطار السريع حيث حجز لكلّ فرد غرفة خاصة به، وخصّ الجميع بعناية متميزة «لكل منا بيت يسع ركوب ثمانية أشخاص ركوبا معتادا، بحيث يتيسّر لكلّ واحد منا أن ينام مستريحا، وعلى كلّ بيت من البيوت التي فيها العرب تذكرة تتضمن منع من أراد الركوب بها من المسافرين لئلا يقع الضيق عليهم، وقصد أرباب الدولة أن لا يقع لنا تعب ولا مشقة في سفرنا»[1] فوصل القوم (باريس) في اليوم السابع عشر من الشهر.

وبعد مظاهر الاستقبال الجيد والحفاوة الكبيرة: حملت جيادهم يوم 18 منه إلى مدينة (رامس Reims) وسافروا هم في أثرها استعدادا للاستعراضات العسكرية الضخمة وغيرها أمام الرئيس الفرنسي وضيفه القيصر الروسي في (سهل بتني Pleine de Betheni) في اليوم التاسع عشر، حيث امتطى الجماعة جيادهم للمشاركة في الاستعراض الذي أبدى الكاتب تجاه جانبه العسكري ذهولا كبيرا «نظرنا شيئا من أعجب العجائب، ورأينا رؤساء الجيوش ظاهرة في وجوههم الشجاعة والحكمة والهندسة، وهم قائمون علي ظهور خيولهم كالبروج المشيّدة»[2] فوصف وصول الرئيس والقيصر تحفّهما كوكبة من الحرس «مدرعين بدروع يلوح نورها كالذهب الابريز، وبأيديهم سيوف كأنها برق خاطف»[3] فتحققت بهذه المشاعر في هذا الموقف احدى الغايات التي خطط لها خبراء الاحتلال في التأثير على أبناء المستعمرات لتتكرّس قناعتهم بعظمة فرنسا واستحالة الوقوف في وجهها ومقاومة عساكرها ونفوذها.

---

(1) المصدر السابق، ص 97.

(2) المصدر السابق، ص 99.

(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وقد أمعن الكاتب في وصف مظاهر القوة العسكرية هنا، وأبّهة السلطة في شخصيتي رئيس الجمهورية الفرنسية، وقيصر (روسيا)، ثم تأتي بعد ذلك العودة إلى (باريس) حيث نظّمت للجماعة نزهات، وأعدت دعوات إلى المسارح، كما رتّبت لهم زيارة إلى وزير الحرب الذي نزلوا ضيوفا عليه في 26 سبتمبر، كما رتبت لهم زيارة إلى رئيس الجمهورية الذي قال فيه صاحب الرحلة:

«رئيس الجمهور كبدر السعود علينا تبدّى ونحن وفود
فياله من سيد فاضل ومنه الخيور علينا تعود»(1)

كما يصف الكاتب آخر حلقة من سلسلة الاستقبالات والدعوات على مائدة وزير الحرب الفرنسي «فامتطينا عربات وسرنا إلى قصره، فوجدناه يتلألأ نورا وأنوارا، وقدّم لنا السّماط في بيت من البيوت الملوكية، فوجدنا أمام كلّ كرسي ورقة فيها اسم صاحبه باللسان العربي، وكلّ منّا كان مقعده حسب رتبته، فشرعوا في تفريق الطعام على القوم بأحسن تنظيم وأتمّ ترتيب، فأكلنا وشربنا ما تشتهيه الأنفس من طعام ملوكي والموسيقى تصدح بالألحان الفرانصوية والجزائرية»(2).

وهكذا تلوح في كل منعرج خطط المحتلين في التأثير على هذا الوفد الجزائري ليزداد حبّا في فرنسا التي شرفته بالدعوة، وشملته بالعناية في كل موقع، ولم تحرم أعضاءه من أسمائهم بالعربية أمام كراسيهم، كما شنّفت سمعه بالألحان الجزائرية إلى جانب الفرنسية على مائدة الطعام مغازلة لشعوره الخاص، وهي السياسة التي استمرت حتى آخر لحظة من الرحلة بعد انتهاء برنامج الاحتفالات، حيث أعطيت الفرصة لمن يشاء من عناصر الوفد أن يؤجّل عودته إلى (الجزائر) ليطّلع أكثر على مظاهر الحياة في (باريس). وقد

(1) المصدر السابق، ص 104.
(2) المصدر السابق، ص 105.

أفلح هذا الأسلوب الاستعماري، فافتكّ المحتلون بفضله اعجاب الكاتب الشديد بمظاهر القوة الفرنسية وحسن الرعاية والعناية والمستوى الرفيع من التبجيل ممّا نم عن مستوى حضاري لفرنسا يخفي وجهها الاستعماري البغيض الذي يختفي تحت كل قبعة وقميص ومعطف وربطة عنق، فخرج صاحب الرحلة بانطباع يمجّد القوة الفرنسية وحسن السلوك الفرنسي في اهتمامه بالآخرين خاصة «رعاياه» في مستعمرته (الجزائر) هذا الاحساس بدأنا نلمسه في انطلاق الرحلة من (الجزائر) العاصمة، واطّرد نموه أكثر عبر مختلف فقرات الرحلة لتنتهي بخلاصة تعلن أن (فرنسا) فريدة عصرها في كل شيء «حيث أن هذه الدولة الفخيمة الفرانصوية المشهورة بالعدل والاحسان تفضّلت علينا بالتشرف بحضور عرض جيوشها على صديقها وحليفها قيصر الرّوسيا، وتنوير أبصارنا برؤية سعادة السيد رئيس الجمهورية وسعادة القيصر، ونظرنا محاسن الدولة وسياسة رجالها وما شملنا به من التعطفات العالية والمكارم الخيرية، فيجب علينا أن نشرح فضلها ونبيّن محاسنها، فإنها هي الدولة الفريدة في عصرها وألسنتنا لا تفتر طرفة عين عن مدحها وشكر إحسانها على ما انعمت به علينا»(1).

وبهذا الانطباع عن (فرنسا) السياسة والرّجال ينهض صاحب الرحلة للاشادة بها بين مواطنيه اعجابا بقوّتها وتقديرًا لفضلها، للاسهام في شنق بوادر الرفض لها بين أولئك المواطنين: ترغيبا وترهيبا لهم، واعلاء لمكانتها في النفوس، والاطمئنان لسياستها التي ظهرت له سياسة حكمة وعدل، تتجاوز ضيافته لتكون حقيقة قابلة للتّداول في الجزائر والاستفادة بين سائر المواطنين. بذلك وصلت إدارة الاحتلال إلى نتيجة عبر رحلة ما كانت لتصل إليها عبر تجنيد إعلامي ضخم أو دعاية سافرة بين المواطنين، هؤلاء المواطنون الذين يكبر اطمئنانهم أكثر لواحد منهم، ويتعاظم ذلك الاطمئنان عندما

(1) المصدر السابق، ص 107.

تأتيهم منه انطباعات أو أحكام مكتوبة نابعة من تجربة، خاصة حين تكون بالحرف العربي الذي له قداسة قد تسهم في جعل القضية بريئة من الغش والخداع والسقوط في فخّ الابتزاز والتضليل.

فهذه الرحلة اذن بقدر ما جسّدت لنا جهود الاحتلال الفرنسي المستمرة في فرض نفسه على الوطن والمواطن بمختلف الوسائل عكست طبيعة الاحتكاك بالحياة الغربية والموقف منها في هذه الفترة المتقدّمة من بداية القرن العشرين، فرغم أن هذا الاحتكاك بقي هنا سطحيا يشغله الظاهر عن الخفيّ فإنه بدأ يوعز بتلك الفروق الكبيرة بين (فرنسا) المتطوّرة في كل شيء و(الجزائر) المتخلفة في كل شيء.

غير أن الكاتب غلب على انطباعاته عنصر الدّهشة والاعجاب بالجانب المادي الخالص في مظاهر تشريفية بروتوكولية، ذات أبهة عسكرية فخمة، وموائد ممدودة أشبه بالكرم العربي في مضمونها، وأجمل منه في أناقتها وبهرجها وبريقها المضلّل، اضافة إلى حسن المعاملة: اهتماما ولطفا ولياقة تحجب كثيرا مما وراء الستار من غايات دنيئة ومقاصد شريرة، تبتزّ العواطف العربية السليمة التي تعيش بفطرتها وتقاليدها على حسن الطوية وسلامتها.

وصف الكاتب رحلته انطلاقا من (الجزائر) وانتهاء في (باريس) بيوم الإذن بالرجوع إلى (الجزائر) وتخلّف من يرغب في ذلك بعض الوقت.

وأثناء ذلك كلّه استطاع الكاتب أن يعبّر عن مختلف مشاعره وأحاسيسه في مختلف المواقع التي توقف عندها قليلا أو كثيرا، فوصف بعضها وصفا فيه كثير من الحركة والحيوية بينما وصف بعضها الآخر وصفا سطحيا أقرب إلى التجريد كحاله وهو يصف النظافة في الباخرة التي امتطوها من ميناء (الجزائر) حين قال: «ذلك المركب عظيم في غاية النظافة والنقاوة وبه رئيس أديب لبيب»(1) بينما تشيع الحيوية والحركة حين

(1) المصدر السابق، ص 97.

يبدأ يصف الاستعراض العسكري وصفا يكسوه انبهار كبير بعظمة القوّة الفرنسية وهيبة الرئيس الفرنسي والقيصر الرّوسي في المنصة الشرفية أمام الاستعراض «على أرض متسعة الفضاء طولها نحو عشرة كيلوميتر، وعرضها مثل ذلك، وكله جيوش راجلة من صناديد الفحول على الخيول راكبة، ومدافع شامخة وأسلحة يكاد لمعانها يخطف الأبصار...في الساعة الثانية أكمل القيصر جولاته وسط الجيش الفرانساوي، فخرج منه راكبا جوادا من عتاق الخيل الملوكية يحفّه رجال من الجنرالات العظام، فلمّا وصل إلى القبة المتقدم ذكرها نزل وألحان الموسيقى صادحة باللحن الفرانسوي والرّوسي اجلالا لعظمته. وبعد ذلك أسرعت الحيوش بمرورها أمام سعادته وسعادة رئيس الجمهورية بأسرع حركة كأنها جبال من حديد، وكذلك الطبجية مرت تسحب مدافع من الطرز الجديد تزعج(*) برؤيتها الناظرين، ويتحير العارفون في تركيبها الهندسي، تسحبها خيول كالأفيال على ظهورها أشجع الرجال. وبعد ذلك مرّت الخيالة... وهم فرسان مدرّعون بالحديد كأنهم جبال من حديد متراكمة، أو أمواج بحر متلاطمة وبأيديهم سيوف مهندة، لهم دويّ كدويّ الرعد العاصف حتى تخيّل للناظرين أن الأرض زلزلت»(1).

ومن هنا يبرز اعجاب جارف للكاتب بالقوة العسكرية والعظمة السياسية الشخصية للرئيس الفرنسي وضيفه الروسي، فيوحي ذلك بجانب من قيمه في الانسان عموما وفي رجل الدولة والسياسي خصوصا: مثل القوة والعظمة المعنوية والمادية والمحتد الكريم، مشفوعة بالتواضع والاحسان والأخلاق السمحة، كما برز ذلك في شخص رئيس الجمهورية نفسه «هو شيخ» وسوم الخير على وجهه تلوح كنور ساطع...ذو مهابة ووقار... مستبشر فرح بنا، فودّعناه ولسان حالنا يقول:

(*) يقصد: تذهل، تدهش.

(1) المصدر السابق، ص 98، 99، 100، 101.

رئـيس فــرنسا كــريم همام سمات الحنــان عليــه تنــور
فمنــه الفضائــل والمبتغــى رئـيس أرانــا عــظيم السّرور

ثم ودّعنا السيد الوالي(٭) داعين له شاكرين فضله واحسانه على ما فعل وصنع معنا، متعجبين من سياسة السيد رئيس الجمهورية والسيد الوالي العام واحسانهما لرعيتهما، وكيف لا وهما قد شبّا على رضاع لبان المعارف وفنون العلوم»(1).

وقد جسّدت هذه الفقرة من جهة أخرى جانبا من الاهتمام والعناية التي حظي بها الوفد الجزائري في الحياة الاجتماعية والسياسية ولدى المسؤولين السامين ولدى رئيس الجمهورية نفسه الذي اتسم استقباله إياهم بودّ وحفاوة مراسيمية، فيها بعض الحرارة، لكنها عكست في الوقت نفسه خلفية أخرى في طريقة الجلوس التي أعدت لأعضاء الوفدين الجزائري والتونسي في انتظار دخول رئيس الجمهورية «دخلنا قصره العظيم وذهبنا إلى بيت منه ذي تأنيق وتنوير، فجلسنا على كراسي ملوكية، وكلّ أركان البيت معدّ لقطر بحيث أن الجزائريين صف والوهرانيين كذلك، والقسنطينيين كذلك، والتونسيين كذلك، أربعة صفوف»(2).

فبينما سلم الوفد التونسي من عملية التمزيق كانت تركيبة الوفد الجزائري معدّة مسبقا في المهد على أساس هذا التمزيق، حتى استقر ــ لا شعوريا ــ في ذهن الكاتب أن (وهران) قطر مثل القطر الآخر (قسنطينة) كالقطر المجاور (تونس).

وهو خبث الاحتلال ودهاؤه لاستغلال كل شيء يخدم أهدافه المختلفة ذات المدى القريب وذات المدى البعيد ممّا بقي مستترا عبر مختلف أجزاء الرحلة وراء الستار، والكاتب صريع انبهار بفرنسا وحضارتها، بجيشها ورئيسها وضبّاطه ووزرائه والحكام جميعا صغارا وكبارا.

(٭) الحاكم العام للجزائر الذي قدمهم لرئيس الجمهورية.
(1) المصدر السابق، ص 104ــ105.
(2) المصدر السابق، ص 103.

ومهما يكن من شيء فقد أحضر الوفد الجزائري لتلك الاستعراضات ليكون من جهة لوحة في المنظر العام للتنويع والتلوين والزينة عموما، ولابهار عناصره من جهة أخرى ليحملوا الرسالة الاعلامية عن القوة الفرنسية إلى مواطنيهم كي يتكرّس الاذعان لهذه القوة الفرنسية التي لا تقهر وسياستها الحكيمة التي لا تخطىء.

وبفضل الاحساس الصادق لدى الكاتب وانفعاله بالحدث كثيرا ما جنح التعبير إلى مستوى أدبي جيد، تبرز صيغه المرنة الموحية من حين إلى آخر بين ركام التعابير المستثقلة الرافلة في لغة رتيبة، المثقلة بسلسلة التعابير السردية والكلمات الأجنبية الركيكة أو غير الدقيقة اضافة إلى الكلمات الدارجة أو المبتذلة.

لكن نصّ الرحلة يوحي بأن كاتبها ذو موهبة أدبية تؤكدها الأبيات الشعرية التي كان يطعّم بها بعض الفقرات، ولكنها موهبة بقيت رهينة موروث تقليدي جامد في التفكير والتعبير، ومع ذلك فهي احدى العلامات البارزة على بداية ملامح تطوّر في النثر الجزائري الحديث الخالي من الشروح والقوالب الجاهزة المجترة الصالحة لكلّ وضع وموقف وحال.

رحلة (ابن العابد الجلاّلي) :

للأديب (محمد بن العابد الجلاّلي) رحلة إلى (باريس) للنزهة والترفيه، نشرها في (الشهاب) سنة (1936) بعد أن مهّد لها كفكرة قبل نشرها بنحو ستة شهور في جريدة (الشهاب) نفسها، سنة (1935م) باسمه المستعار (رشيد) أيضا.

لذا ورد الحديث عنها في ثلاثة أعداد من (الشهاب) بعناوين مختلفة، تحدث عنها في المرة الأولى كمشروع بعنوان «تموز»(1) أعلن فيها ضيقا

(1) مجلة (الشهاب) ج 5، م 22، الصادر في غرة جمادى الأولى 1354هـ (أوت 1935م).

بحرارة شهر (جويلية) وحشراته «بأنفاسه الحارة، وجنود حشراته القذرة» فبدا طموحه طموح (بورجوازي) لاه يريد أن يقضي نحو شهرين في (أوروبا) هروبا من حرارة صحرائه مودّعا قراءه في (الشهاب) «وضعت برنامجا محكما للرّحلة التي سأقوم بها في العشرين من شهر تموز إلى باريس ففيشي فسويسرة، وسوف يمتدّ أمد هذه الرحلة إلى منتصف أيلول، أي بعد أن يهلك تموز وآب ويذهب أثرهما، فإذا لم يجدني القراء هنا(*) في جزء جمادى الثانية فقد علموا السبب، فوداعا».

أما الحديث عن الرحلة في مرحلتها الأولى بعد التمهيد فقد جاء تحت عنوان «في القطار»[1] لم يحدّثنا في هذا القسم عن السفر من (الجزائر) بل حدّثنا عن سفره بالقطار من مدينة (ليون) الفرنسية إلى (باريس) فكيف انتقل من (مرسيليا) إلى (ليون) ؟ وماذا فعل بهذه الأيام الخمسة بين (مرسيليا) و(ليون) ؟

هو لم يفصح عن شيء من ذلك، لكن يبدو أنه قضى بعضها في هذه المدينة والبعض في الأخرى، لأنه لا قرينة تدلّ على أنه توقّف في مناطق أخرى بينهما، فوصفه اقتصر على الحرارة في المنطقة عموما والمناظر في المدينتين فقط، ممّا أعلن ضيقه به واحساسه بوطأته «كانت الأيام الخمسة التي قضيتها بين مرسيليا وليون شبيهة بالأيام التي يقضيها المجرم في السجن، فالحرارة هناك بالغة أقصى درجاتها، والمناظر في هذين المدينتين دكناء، والحركة دائبة».

لذا كان شوقه شديدا إلى (باريس) فأخذ القطار من (ليون) حيث التقى في احدى غرف العربة ألمانيا وزوجته، وكان هذا الألماني يحسن

(*) في مجلة (الشهاب) التي كان يسهم بقسط وافر بالكتابة فيها.

(1) والشهاب، ج 10، م 11، الصادر في غرة شوال 1334هـ (جانفي 1936م). وقد ورد في الأصل خطأ (1935).

الفرنسية ذا فضول، فخمّن أن المرافق جزائري، وحين تأكد من ذلك دخل معه في حوار لم يلبث حتى صار وديّا مبديا انطباعاته الجيدة عن (الجزائر) التي زارها مع زوجته سنة (1928م) منوّها بكرم أهلها، فسأل لذلك عن بعض أغنيائها الذين عرفهم بأسمائهم، ثم اقترب من السياسة فسأل مرافقه عن النواب الجزائريين في البرلمان الفرنسي، فأطلق الكاتب بشكل عفوي ساخر تصفيرة سرعان ما تدارك خطأه في ذلك، فحاول تدارك الموقف كما صوّره في هذه الوقفة: «قال: من وهم نوابّكم في البرلمان ؟ ومن غير شعور ولا قصد مددت شفتي وأطلقت معها نفسا طويلا بالتّصفير. وما كدت أنتهي منه حتى أدركت أني أخطأت خطأ فاحشا، إذ عمل كهذا يفهم منه استبلاه المخاطب والتعجب من جهله، وهو مناف للأدب الأخلاقي. لكنني تداركت الأمر بأن ضربت احدى كفي بالأخرى وأمررتهما بعضهما ببعض، كالمتذكّر شيئا كان نسيه فارتاعا للحادث، وقال السيد: ماذا جرى ؟ فقلت نسيت بعض أدباش في فندق السنطرال، فنهض وقال: يجب الاعتناء بالأمر.

فقلت: الأمر أهون من أن يشغلنا عن أنسنا، فإن فلانا صاحب الفندق رجل طيب وأنا عميل قديم له، ويكفي أن أكاتبه برسالة من باريس ليحتفظ لي بما نسيته حتى أرجع، على أن الشيء المنسي من أدباشي لا يهمني كثيرا. فقال ان كان الأمر بسيطا كما تقول .. والاّ فنحن مستعدّون للقيام بكلّ ما يفرضه علينا واجب الرفقة، فشكرت له هذه الشهامة.

وفرحت بخلاصي من هذه الخطيئة التي قد يلازمني وخزها كلّما ذكرت واجب حسن الجوار، وبقي عليّ أن أتخلّص من حرج الكذبة التي اتّخذتها وسيلة للخلاص من تلك الخطيئة، وأنا لم أتعوّد الكذب عمري، ورأيت أن لابأس بأن يكون الخلاص بكذبة أخرى. قمت لأدباشي اتفقّدها لأوهمهما، ثم قلت: هاهو الشيء الذي كنت أظنّ نسيته، ففرحا وزال كلّ كدر».

و لم يعلن الكاتب ضيقا بطول المسافة ومشقتها بين (ليون) و(باريس) لأنه فيما يبدو وجد متعة في الحوار مع رفيقيه الألمانيين عن (الجزائر) وأهلها، فكانت المناسبة مواتية ليقول للرجل: ان الذين عرفهم وزوجته سنة 1928 أغنياء، **هم الآن فقراء، وغيرهم في أثرهم ممّن لم تعرفهم» كي يعلن بذلك** أن همّ الاحتلال الفرنسي ضاعف الاحساس به ضغط الأزمة الاقتصادية العالمية الطاحنة في سنوات (1829ـ1933م) وهي التي أسهمت في سلب أولئك الأغنياء مالهم وراحتهم وبعثت بعضهم إلى القبور لأنه «لم يسبق لمداها وخطورتها مثيل»(1) عليهم وعلى الجزائريين عموما قبل العالم كلّه، ومع ذلك يبقى الانسان الجزائري كما تعرفه، تنعكس على ملامحه الصفات التي عرفتها فيه واطمأننت إليها، لأنه انسان لا تدمّره نهائيا النائبات والنكبات تماما، مهما كان حجم الهموم والأوجاع المختلفة.

هذه العلاقة من الألفة والودّ كما صوّرهما صاحب الرحلة جعلتهم بعد وصولهم (باريس) يتفقون على اللقاء مرة ثانية مساء، وهو ما أعاد الكاتب الحديث عنه تحت عنوان «بعد الملاقات»(2) فكان ذلك اللقاء في مقهى بدت محجّة (البورجوازيين) والعسكريين المغرمين بالأبهة الحريصين على مظاهر العظمة، لكن هذا اللقاء سرعان مابدا باردا من دون هدف، حيث ظهر كلّ طرف مشغولا عن الآخر على كراسي المقهى التي وصف الكاتب موقعها المتميّز من المدينة وجوّها الارستقراطي «تضمّ إلى جمالها الداخلي جلال الموقع، فالجالس فيها يشعر بدبيب العظمة والفخفخة ينتشران في ذرات جسمه، فهي تقع في نقطة مرتفعة تجعل جزءا كبيرا من باريس تحت احتلال حسّك وأنت في مقعدك من هذه القهوة»

(1) الموسوعة التاريخية الحديثة، تاريخ القرن العشرين، بيير رونوقن، تعريب: الدكتور نور الدين حاطوم، ص 252، دار الفكر الحديث، لبنان، 1335هـ (1965م).

(2) الشهاب، ج 11، م 11، في ذي القعدة 1354هـ (فيفري 1936م) ورد التاريخ الأخير خطأ في الأصل هكذا (1935م).

هنا انشغل «كل بما يهمّه، فقد كان رفيقي منهمكا في كتابة مذكراته والسيدة قرينته تطالع رواية بغاية الأهمية حسبما يبدو من تأثّرها...وكنت أنا بين الاثنين غارقا في بحر من التأملات والخواطر» حتى بدا له أنه أخطأ في الحضور إلى هذا الموعد وهو طالب نزهة واشباع النفس بشتى المتع. ورغم أنه يحسد المرأة الأوروبية على مستواها العلمي أمام المرأة عندنا في وضعها المزري أكثر من الرجل فهو — مع ذلك — يلعن هذين الألمانيين في سره لسوء تصرفّهما، فتنسحب اللعنة بسببهما على كل الألمان «قوم لا يعرفون آداب اللياقة ولا مقتضيات الحال» وكأنما أدرك رفيقاه ما يجول في خاطره ففزعا للموقف مبادرين بالاعتذار له، فتراجع سخطه معلنا احتفاظه لهما «بتمثال الصداقة والولاء في أعلى مكان من النفس» معلنا لهما في النهاية عزمه السفر إلى (جنيف) «فقالت السيدة: جنيف ؟ ماذا في جنيف يستحق الزيارة ؟ ليس في جنيف ما يثير الرغبة لزيارتها، وأخذت تبيّن حالتها وما يلاقيه قاصدها من الصعوبات في تأشير الجوازات في الحدود، وبصفة خاصة السائح الشرقي، ممّا جعلني أمحو اسم جنيف من برنامج رحلتي وأعدل عنها إلى باريس أقضي فيها الأيام التي كنت خصّصتها بجنيف. وبعد عشرة أيام قضيناها في باريس افترقنا، فسافر رفيقاي إلى بروكسل ومنها إلى برلين ورجعت أنا إلى الجزائر».

هكذا يختزل الكاتب مشروع شهرين في أوروبا كما عزم أولا هروبا من حرّ (جويلية) و(أوت) في نحو خمسة عشر يوما أهمّها في (باريس) ليعود إلى (الجزائر) وشهر (أوت) في عزّ شبابه.

لم يحدثنا الكتاب عمّا قضى فيه أيامه العشرة في (باريس) مثلما لم يحدّثنا عمّا فعل بأيامه الخمسة بين (مارسيليا) و(ليون) ولا عن طريقه إلى (مارسيليا) من (الجزائر).

انه حرّ الصيف يعلن حضوره بشدّة، فيرحل الكاتب هروبا من بلده طلبا للنزهة والراحة، ثم يعود والحرّ لا يزال في عنفوانه.

هكذا تقلّص الشهران من هذه الرحلة إلى خمسة عشر يوما من دون مبرّر يوحي به موقف أو ينم عنه أمر، وليست فكرة العدول عن (جنيف) سببا، لأنه قال: أنّ الأيام التي كان ينوي قضاءها في (جنيف) قرّر قضاءها في (باريس).

هذا مما جعل التعبير عن التجربة ضعيفا، بل مرشحة للانسحاب من الواقع لتدرج في شكل رحلة خيالية، خاصة انه لم يذكر وسيلة سفر من (الجزائر) إلى (مرسيليا) ولا ظروف تنقله بين هذه و(ليون) ولا ما صرف فيه وقته في (باريس) حتى المقهى التي ذكرها لم يعط اسمها ولا الحيّ الذي تقع فيه أو الدائرة، كما لم يربطها بأيّ معلم من المعالم البارزة التي يقترن ذكرها باسم (باريس).

ربما لظروف الكتابة المتأخرة عن الرحلة دور أيضا هنا حيث جاء تسجيل انطباعاته متأخرا بعد عودته إلى الجزائر، وهو يعلق على عتاب من قراء (الشهاب) عن جبنه أمام هجوم الحرّ في وطنه وفراره منه إلى (باريس) التي ذكر أنها تحفل بآثار كثيرة من دون أن يحدثهم عن واحد منها، ولا حتى ذكر اسمه، ربما انتظارا للحصول على مراجع عنها، تصف لقرائه مالم يشاهده بنفسه وهو شكل من أشكال الكتابة لدى بعض الرحالين في الحديث عن معالم بلد أو تاريخه أو جغرافيته أو غيرها، فاقتصر أمره هنا على تسجيل عموميات علقت بالذهن، واكتفى بأهم مثير في النفس بين (مرسيليا) و(ليون) ثم في القطار إلى (باريس) ومقهاها المتميّزة.

وما عدا ذلك مرّ رتيبا كئيبا، لعله ممّا أسهم أيضا في اختصار الرحلة، خاصة أن (باريس) المدينة ليس فيها صيفا ما يثير فضولا كبيرا، أقبل عليها الكاتب في الوقت الذي هجرها سكّانها إلى الجبال والأرياف والشواطىء وغيرها، فكل شيء ساكن رتيب، بل موحش.

وقد بدا الكاتب ميالا للدّعابة والسخرية منذ بدأ يتحدث عن حضور شهر (تموز) ومعه الحرّ والحشرات و(البق) و(البرغوث) فيحصر البعض جهودهم في مكافحتها «ارضاء لشهر تموز العاتي، وإذا جلسوا للمطالعة أو للكتابة شغلتهم هذه الحشرات بحركاتها المضطربة حول الفراش وعلى الجدران، فتنتقل أنظارهم إلى تتبعها بدل القراءة والكتابة، وأيديهم إلى التقاطها وسحقها بدل تقليب الصفحات أو تسيير القلم، فيضل جهادهم، وتضيع جهودهم ويقلّ انتاجهم». كما نلمس جنوحا إلى طلب الرمز تعبيرا عن سوء وضع في (الجزائر) وتعاسة مزمنة يعيشها الجميع فيبحث الكاتب عن خلاص منها وراحة في (باريس) أو أوروبا عموما، ساعده على هذا الميل إلى الرمز والمضي فيه اختفاء شخصيته بما تحمله من روح السخرية والدعابة وراء اسمه المستعار (رشيد) ممّا سمح له بالمناورة الحرة، حتى تداخل الخيال والواقع فبدت بعض المواقف والآراء مهتزة غير ناضجة، أسهمت في ضعف التجربة، ثم تداخل الحدود أو ضياع بعض جزئياتها بين ما هو واقع وما هو خيال، كما بدا ذلك واضحا مثلا في موقفه مع الالماني وزوجته في القطار، ثم بشكل خاص في المقهى حيث جعل نفسه في موقف لا يحسد عليه، ربما حرصا على ادانة وضع الانسان العربي رجلا وامرأة، فبينما كان الألماني يكتب مذكرات وزوجته تقرأ جادة رواية كان هو يعيش الفراغ، يحدّق في كل اتجاه عبثا، وهنا الفاصل الحضاري الرهيب: الكتابة والقراءة عمود فقري لكل حضارة وهو التقليد الذي صار غريبا وبتنا نحن غرباء عنه، بيننا وبين القراءة والكتابة في محيطنا العام قطيعة حتى في مواقعها وليس خارجها في مقهى أو ساحة أو حافلة كما يفعل الغربيون، فكبر شأنهم لذلك وانحط أمرنا لتراجع قيمة القراءة والكتابة في حياتنا كأمّة كان أول ما نزل على نبيّها الكريم محمد (ﷺ) قول الله تعالى «اقرأ» مخاطبا رسوله (ﷺ).

هو التخلّف الذي يتكرّس فيه الجهل لدينا بينما يطّرد أمر الغربي تطوّرا في حياته بالعلم والثقافة اللذين لا ينهضان الا على حبّ القراءة والكتابة، وسيمحقنا «محق الحطام تحت سنابك خيله وتذرونا رياحه من غير أن نترك

في هذا الوجود أثرا يدلّ علينا، إن لم نغير مســلكنا» الذي تأتي أول خطوة فيه الاهتمام بالتعليم: تعليم الرجل والمرأة معا، واشاعة تقليد القراءة في كلّ المواقع كقيمة حضارية لرقيّ الانسان وازدهاره.

ومهما يكن من شيء فهذه الرحلة لابن العابد عبرت عن تجربة في فنّ الرحلة، وهي تجربة بقدر ما عكست جانبا من واقعه وبيئته عكست توقه للحياة الجديدة المتجدّدة، وطموحه لواقع متطور يخرج فيه الانسان الجزائري خصوصا والعربي والمسلم عموما من تقوقعه وجهله إلى معرفة العالم والأخذ بأسباب التطوّر، من علم وتعليم، وشّى ذلك بلمسات من أسلوبه في النقد والاصلاح والوصف الذي يتّكىء على الدعابة والسخرية والفكاهة(*). اعتمد تجربة أشبع فيها الواقع بظلال من الخيال، ولم يعتمد مصادر ولا مراجع للحديث عن جوانب تاريخية أو جغرافية، كما أنه لم يركز على وصف معالم أو تقديم انطباعات مركزة على مشاهداته في (مرسيليا) أو (ليون) أو (باريس) أو غيرها، بل أعرب عن مشاعر عامة وأفكار مختلفة، ومواقف فكرية وآراء خاصة أثناء ذلك كله.

وتبقى الصياغة بقلم أديب ذي خيال متوثّب، بلغة مرنة مسكون بشىء من حبّ المغامرة، ذي دعابة وسخرية ونكتة تضفي على الموضوع مسحة فنية، فتجنبه الرتابة المملّة، وتشيع فيه شيئا من الحيوية والنشاط.

رحلة (ابن باديس) :

رحلة (عبد الحميد بن باديس) إلى (باريس) هي رحلته الوحيدة إلى (أوروبا) في المناسبة الخاصّة بسفر وفد (المؤتمر الاسلامي الجزائري)(**) سنة (1936)

(*) وقد مارس ذلك بشكل خاص في جريدته التي أسّسها، وكان اسمها هو «أبو العجائب».
ـــ انظر: الصحف العربية الجزائرية، الدكتور: محمد ناصر، ص 136، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

(**) ـــ يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله «يعتبر المؤتمر الاسلامي الجزائري الذي انعقد../..

لتقديم مطالب (الأمة الجزائرية)(*) من الحكم الفرنسي. وهي أجود رحلاته أدبيا وأمتعها على الاطلاق، ففيها برزت جوانب من موهبته الأدبية خاصة وهو يصف جلسة على ظهر الباخرة جمعته مع الشيخين (محمد البشير الابراهيمي) و(الطيب العقبي) وعنوانها : «مشاهدات وملاحظات»(1) تحت عنوان آخر عام «مع الوفد الاسلامي الجزائري »فأوّل ملاحظة يبادر الكاتب بتسجيلها كشهادة منه وانطباع في الوقت نفسه: أن أعضاء الوفد جميعا نوابا وشبانا وعلماء كانوا «كأسرة واحدة في الأنس والعطف والاتّحاد، وكانت أوقات ينفرد فيها الشيوخ الثلاثة» هو و(الابراهيمي) و(العقبي) وكان أهمها تلك اللحظات التي رسم فيها تلك الصورة لكل واحد منهم على ظهر الباخرة، فكانت تلك روح الرحلة فنيا، فيها وصف كل شخصية، وما خالجها من أشواق أو ما انفعلت به من مشاعر وما أحسته من هموم وآمال أيضا، فكيف وصف (ابن باديس) كل واحد من هؤلاء ؟

.../...

بالعاصمة في السابع من يونيو 1936 أول تجمع من نوعه في الجزائر، فلم تعرف الجزائر طيلة أكثر من قرن تجمّعا تشترك فيه كلّ الاتجاهات وتمثل مختلف الطبقات وتبرز خلاله وحدة الصفّ والكلمة على مطالب معينة مثل ما حدث في المؤتمر المذكور».

ــ انظر: الحركة الوطنية الجزائرية 1930ــ1945، د. أبو القاسم سعد الله، ج 3، ط 2، ص 159، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة 1977م.

(*) ــ وهي مطالب سياسية وثقافية حملها الوفد الذي كان يتكوّن من ستة عشر عضوا، تسعة من النواب يمثل كلّ عمالة ثلاثة منهم (قسنطينة) (وهران) (الجزائر) ونائب عن المناطق العسكرية في الجنوب، وثلاثة من الشبان، ويمثل العلماء ثلاثة منهم بجدارة هم (ابن باديس) و(الابراهيمي) و(العقبي). سافر الجميع إلى (باريس) في 20 جويلية 1936 فقابلوا رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، وبعض المسؤولين والوزراء. ورغم أن رئاسة الوفد كانت لابن جلول (من النواب) باقتراح من ابن باديس فإن هذا الأخير «كان الشخصية الرئيسية في المؤتمر، رغم أنه لم يضع نفسه في الصدّارة».

د. سعد الله، المصدر السابق، ص: 171.

(1) مجلة الشهاب، ج 7، م 12، الصادر في رجب 1955هـ (أكتوبر 1936م).

كان أولهم (العقبي) فبعد أن وصف الكاتب أثره الاصلاحي وتأثيره في الناس بالجزائر، بدا له أنه شرع يكتشف جانبا آخر في (العقبي) وهو الموهبة الشعرية حين هبّ النسيم ومضت السفينة تترنح، فبدأ يرتجل الشعر وتشتدّ أشواقه إلى (الحجاز) التي مكث فيها زمنا فأحبّها وبقي مشوقا إليها، فيكبر فيه الكاتب هذه التضحية والصبر في (الجزائر) على معاناة المظالم فيها الى جانب مواطنيه «يعرف الناس العقبي واعظا مرشدا يليّن القلوب القاسية ويهدّ البدع والضلالات العاتية بقوّة بيانه وشدّة عارضته، ولكن العقبي الشاعر لا يعرفه كثير من الناس . فلمّا ترنّحت السفينة على الأمواج وهبّ النسيم العليل هبّ العقبي الشاعر من رقدته وأخذ يشنف أسماعنا بأشعاره ويطربنا بنغمته الحجازية مرة والنجدية مرة أخرى، ويرتجل البيتين والثلاثة والأربعة في المناسبات. وهاج بالرجل شوقه إلى الحجاز فلو ملك قيادة الباخرة لما ساربها الآ إلى جدة دون تعريج على مرساي، وان رجلا يحمل ذلك الشوق كله إلى الحجاز ثم يكبته ويصبر على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها لرجل ضحّى في سبيل الجزائر تضحية أيّ تضحية».

فهو وصف حيّ لتلك الحالة من الصفاء النفسي والتألق الروحي الذي اعترى (العقبي) حين انتشى بالطبيعة الصافية في عرض البحر والنسيم يداعب الباخرة ويملأ الصدور هواء نقيا، فيزيح عنها عناء الضنى في العمل اليومي والصراع المتجدّد مع افرازات الحياة التي تفقد المرء كثيرا من الاحساس بسلام الروح، هذا السلام الذي تسرّب على مهل إلى نفسه، فأخرجه من حالة ركون وخمول إلى حالة من الوجد العاطفي حبا للطبيعة وشوقا إلى مواطن الذكريات العذبة الجميلة.

ثم يصف لنا الرحالة حال (الابراهيمي) الذي كان يساجل (العقبي) ذكرياتهما بالحجاز، وحديثه عن أيّامه في (الشام) التي قفز من الحديث عنها إلى الحديث عن الأندلس «وعجبنا بادىء بدء لتلك القفزة من الأستاذ حتى ذكرنا ما بين الشام والأندلس من علاقات في فتحها، وانتقال الخلافة الأموية

إليها، فقلنا ان الأستاذ قد عوّضه من القوّة في عقله ما ضاع عليه في رجله، وكدنا نغبطه على عرجه» المعروف به ماشيا، الملاحظ فيه جالسا.

هنا يبرز جانب من خفة الروح الكاملة لدى الكاتب، وبعض الميل إلى الدعابة حين بدأ يصف (الابراهيمي) ذا الحافظة القوية، وقد فجرت في نفسه خاصة الأندلس وأنوارها التي بدت لهم متلألئة شوقا عارما إلى عصور زاهية، فأجبر ذلك مرافقيه على مشاركته الحسرة على ماض اندثر وأشواق باقية ذات اعتزاز بأمجاد الأولين عبث بها متأخرون وفرطوا «هاجت الذكرى الأندلسية بصاحبنا الابراهيمي وأخذ في الحديث عليها وعلى وطنينا المقّري(*) مؤرّخها حتى كاد ينشر علينا (نفح الطيب) من حفظه، وعلمنا أنّنا سنرى أنوار الأندلس بعد الغروب، وبدت لنا بعد صلاة المغرب فطار لبّ صاحبنا وأخذ يهلّل ويكبّر ويحوقل ويسترجع، وسبقته إلى قول الشاعر:

كبرت نحو ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق

فكاد يجنّ جنونه، وأخذ يحدث عن شموس العلم التي بدت من ذلك الأفق وعن الثائر ابن غانية(**) وما يتصل بها، وقضيناها سهرة أمام تلك الأنوار».

انها لحظات من السّموّ الرّوحي والتأمل الذي استدرج العبرة التاريخية، والوّد الذي مضى يغمر القلوب في جلسة اكتست طابعا رومانسيا، خلا فيها كل واحد من همّ العمل والصراع مع مستجدات الحياة اليومية إلى مناجاة الطبيعة والتاريخ واستلهام الذكريات.

(*) المقري: هو أبو العباس أحمد بن محمد، صاحب كتاب (نفح الطيب من غصن الرطيب) توفي بمصر سنة 1041هـ (1631م).

(**) علي بن غانية، من أبرز الثائرين على الحكم الموحّدي بعد موت رجل الدولة القويّ (عبد المؤمن بن علي):558هـ (1262م) فاستولى على (بجاية) في (الجزائر) سنة (580) وانتهى به الأمر إلى الهزيمة.

وقد كان الرحّالة يذكر صاحبيه بلقب «أستاذ» فلم يبعد هذه الصفة عنه بقلمه حين وصل للحديث عن نفسه، لأنه كما قال «في قرارة نفسي أبغض التواضع المصنوع كما أبغض الادعاء الكاذب» وقد بدأ يصف حاله في ذلك الموقف على ظهر الباخرة وشعوره تجاه زميليه (العقبي) و(الابراهيمي) واعجابه الشديد بهما واحترامه لهما وتفكيره أيضا في طلبته في (قسنطينة) أملا في أن يكونوا في مستوى هذين المصلحين، للذود عن الاسلام والعربية في (الجزائر) «لقد كنت مأخوذا بأدب الرفيقين ولطفهما، وكنت أختم انشادات العقبي بالآهات والأنات وتارة بالهزات والوقفات، وكنت أساوق الابراهيمي الحافظة فيما ينشد من (نفح الطيب) وقد طال عهدي به، ولم تفارقني مهنة المعلّم، فكنت أجدنى عن غير قصد أقرّر نكتة في بيت من الشعر أو عبرة في حادثة من التاريخ، فيوافق الرفيقان وقد يخالفان، وكنت بحكم مهنتي أيضا أفكّر في تلامذتي واعدادهم لمثل مقام هذين العالمين الأديبين العظيمين، فلن يحفظ الاسلام والعربية في الجزائر الاّ بأمثالهما فينبعث في عزم على الجدّ والاجتهاد في التعليم كلّ ما بقي من حياتي حتى آخر ومضة من الرّوح وآخر قطرة من الدّم».

وقد لاح لنا هنا جانب من عظمة (ابن باديس) في هذا الاجلال لرفيقيه وتقديره علمهما ومكانتهما فرأى فيهما قدوة حسنة لتلاميذه، بينما يكون ذلك مصدر ضيق لدى صغار النفوس، وهي النفوس المريضة التي يأكلها عادة الحسد والغرور والادّعاء، وتأبى أن تذكر الفضل لأهله كما تنكر الاعتراف بقيمة الرجال الجديرين بالاحترام والاجلال.

كان هذا أهمّ جزء فنيا من الرحلة، أما الجزء الثاني فلم يصف فيه (باريس) ولا أجواءها الاجتماعية والثقافية، وإنما تحدث عن المقابلات الرسمية للوفد الاسلامي الجزائري بقيادة (الدكتور ابن جلول) فكان اللقاء برئيس الجمهورية الفرنسية مرتين اثنتين، نبّهه (الأمين العمودي) في الأولى إلى مطلب حرية التعليم العربي، كما وضحوا له في المرة الثانية مطلب

«الحرية الدينية وحرية التعليم بالمساجد لكل مسلم»(*) كما استقبلهم وزير الداخلية، ووزير الحرب، ورئيس الوزراء، يضاف إلى ذلك لقاءات مع الصحافة ومع بعض الأحزاب. وقد لمّح الكاتب في بعض انطباعاته إلى خبث السياسيين الفرنسيين، وأولهم رئيس الجمهورية نفسه الذي شرع ينافقهم عند الحديث عن اللغة العربية الذي تظاهر باحترامها وتقديرها في روغان ثعلبي ومكر سياسي «انها لغة تاريخية، ولغة علم، فمن المحال أنّ أحدا يبغضها أو يقاومها».

وان بدت النتائج للكاتب هزيلة من أول وهلة كما يذكر الرحالة، فإن النتيجة المحققة التي استخلصها من هذه المهمة السياسية للوفد الاسلامي هي:

1 ــ أدّى الوفد مطالب مؤتمر الأمة الجزائرية المسلمة بصدق وأمانة وشرف.

2 ــ عرفت فرنسا حكومتها وأحزابها وصحافتها أنّ وراء البحر أمّة جزائرية اسلامية تطالب فرنسا بحقوقها وتحافظ تمام المحافظة على شخصيتها ومقوّمات شخصيتها. وهذان الأمران ــ وما حصلا قبل اليوم ــ لهما قيمتهما في حياة الجزائر وبناء مستقبلها، والأخير منهما هو الأساس الذي يجب أن

(*) من مطالب الوفد في هذا المجال، أي العربية والدين:
أولا: اللغة العربية «تعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية».
ثانيا: الدين: « 1 ــ المساجد: تسلّم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها، وتتولى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال القوانين المتعلّقة بفصل الدين عن الحكومة.
2 ــ التعليم الديني: تؤسس كلية لتعليم الدين ولسناه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرسين ومؤذنين وقيّمين وغيرهم. 3 ــ القضاء: ينظم القضاء بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة اسلامية يكون انتخابها تحت اشراف الجمعيات الدينية...».
ــ انظر: الشهاب، ج 5، م 12، ما سمي بعدد (المؤتمر) الصادر في جمادي الأولى 1355هـ (أوت 1936م).

يبنى عليه كلّ عمل للجزائر والنهج الذي يجب أن يسير فيه كلّ من يتولّى قيادة ناحية من نواحي سيرها في الحياة، وكلّ من حاد عنه قولا أو عملا فإنه يعدّ خائنا للأمة، ويجب أن يعامل بما يستحقّه الخائنون».

عكست هذه الرحلة جهود جمعية العلماء في الحركة الوطنية، خاصة نضالها المستميت في الدفاع عن اللغة العربية والاسلام والتحذير من الخونة الذين يغرّرون بالأمة ويخدعونها بالاكاذيب، كما أبرزت سياسة المراوغة والتجاهل التي يمارسها سياسو الاحتلال في الجزائر.

واضافة إلى ما سبق في نصّ الرحلة التي وصف الكاتب فيها اللقاءات المختلفة في (باريس) وجلساته مع (العقبي) و(الابراهيمي) خاصة على الباخرة في عرض البحر، قريبا من شواطىء الأندلس وبعيدا عنها فقد فتح عددا خاصا من مجلة (الشهاب) للحديث عن المؤتمر، أسماه «عدد المؤتمر»(1) تضمّن عدة مقالات حول الموضوع، بعضها بقلمه، منه «حقوق الأمة الجزائرية التي تطلبها من الأمة الفرنسوية» «المؤتمر الجزائري الاسلامي العام يحقّق مبادىء الشهاب» اضافة إلى الحديث عن نتائج المؤتمر العام الذي انبثق عنه الوفد وأسماء أعضائه وانتماءاتهم.

بدت الرحلة في عمومها سياسية اقتضت المباشرة في الجزء الخاص بالحديث عن الاستقبالات والمناقشات حيث انفرد الثلاثي من الشيوخ (من جمعية العلماء) بالالحاح على المطالب الخاصة برفع الضيم عن العربية والعقيدة الاسلامية، وقد تأكدوا ممّا لدى رجال الحكم الفرنسيين من تحفظ شديد في ذلك؛ لادراك هؤلاء الجيد ما للعربية والدين الاسلامي متلاحمين من فعل في نفوس الجزائريين مما يحذره المحتلون كلّ الحذر، ويناوئوه كل المناوأة

(1) الشهاب، ج 5، م 12، الصادر في جمادي الأولى 1355هـ (أوت 1936م).

لاعتباره اللغم الذي يهدّد استقرار الاحتلال في الجزائر ومستقبله كما يهدّد مشاريعه في الفرنسة والتّمسيح.

أما الجانب الأدبي المتميّز جدا في الرحلة فإنه يبقى جليا مؤثرا خاصة كما ارتسم في اجواء تلك الجلسة على ظهر الباخرة بين (الجزائر) و(مارسيليا) فوصف الكاتب حال رفيقيه الشيخين في لحظات الصفاء والانفعال كما عبّر عن احساسه تجاه الموقف في عرض البحر والسفينة تشق طريقها في هدوء وسلام، فحلا له الاستماع إلى أشواق (العقبي) إلى (الحجاز) وأشعاره، كما شارك (الابراهيمي) انفعاله بما أوحت به (الاندلس) من ذكريات، فظهر كل واحد من هؤلاء على سجيته ابتهاجا بالجو ولحظات الأنس، خلت فيها النفوس من ضغط الهموم والمنغّصات اليومية الشديدة في الحياة العامة، فكان الصدق واضحا في وصف تلك الأحاسيس والأشواق، أما حين وصل الجميع إلى (باريس) فكان حديث الرّحالة محصورا في ما جرى من لقاءات مع رجال السياسة والصحافة، فشغله ذلك عن مظاهر الحياة في (باريس) بل ربّما شرع ذلك الانشغال يستحوذ عليه في الطريق اليها من (مرسيليا) خاصة.

هكذا تكوّن وصف الرحلة من عنصرين أساسيين: أحدهما مع رفيقيه على متن الباخرة في عرض البحر وهو الأهمّ أدبيا، وثانيهما مع سائر أعضاء الوفد في اللقاءات السياسية في (باريس) فغلب على العنصر الأول الطابع الأدبي الذي دقّت فيه أحاسيس الرّحالة ورقّت عباراته، وبدا مع رفيقيه في ودّ وصفاء فكري وروحي في غلالة رومانسية شفافة هادئة، بينما غلبت على العنصر الثاني الصياغة التقريرية الخاصة لسرد ما جرى وتحليله أحيانا ومناقشته أو التعليق عليه أحيانا أخرى.

وفي جميع الحالات تبقى هذه الرحلة تجربة مهمة بالنّسبة للكاتب،أثرت خبرته بالناس والسياسة الفرنسية في عقر دارها، وسجّلت

جوانب ممّا كانت تمور به الساحة الوطنية من توق للانعتاق وتضحيات الرجال المخلصين ومعاناتهم الخاصة والعامة في سبيل وطنهم أمام ظلم الاحتلال الفرنسي وغطرسة المحتلين وأكاذيبهم ومراوغاتهم من أجل الابقاء على قبضتهم الحديدية تخنق إرادة أمّة في الحرية وتكبّل وطنا، تحرمه من النهوض والازدهار للخلاص من ليل الاحتلال.

رحلة (محمود بوزوزو)

«من وحي البرلمان الفرنسي»(1) هو العنوان الذي حملته رحلة (محمود بوزوزو) إلى (باريس) في شهر أوت 1947 التي وصفت اهتزاز الصورة المسبقة عن (البرلمان) الفرنسي، وتفاهة ما يناقش، والتناقض الصّارخ بين قوانين المستعمرين وأعمالهم.

في البداية يصف الكاتب شعوره المسبق عن البرلمان الفرنسي: موقعا ورجالا، فتوقّع ذلك البناء الشامخ يغمره جلال، تلوح في سمائه عظمة يصنعها رجال (فضلاء) من ذوي الفكر النيّر والأخلاق الانسانية والضمائر الحية والمواقف السليمة «فأتخيّل بناء شامخا يكسوه ثوب من الجلال والوقار، لأن فيه يقرّر مصير الملايين من النفوس، فيحكم في شأنها بالعزّ أو بالذّل...وأتمثل رجالا ليسوا كسائر الرجال...امتازوا عن غيرهم بكونهم يحملون في صدورهم آمال ملايين من اخوانهم أو يحملون في أدمغتهما الحجج الدامغة...ويحملون على عواتقهم مسؤوليات ثقيلة تتعلق بمصير أمة»(2).

---

(1) رحلة (محمود بوزوزو) نشرها في ثلاث حلقات من البصائر، سلسلة ثانية، سنة أولى. كانت الحلقة الأولى في العدد 11 الصادر يوم 5 ذي الحجة 1366هـ (20 أكتوبر 1947) والحلقة الثانية في العدد 13 الصادر في 26 ذي الحجة 1366هـ (10 نوفمبر 1947) أما الحلقة الثالثة فقد صدرت في العدد 15 ليوم 17 من المحرم 1968هـ (1 ديسمبر 1947م).

(2) البصائر، عدد 11، ليوم 5 ذي الحجة 1366هـ (20 أكتوبر 1947م).

كان هذا جانبا من التصور المسبق عن (البرلمان) الهيئة برجالها، صورة مثالية لم تتراجع قبلا (سنة 1939) بعدما زار الرجل قصر البرلمان لأول مرّة على عجل وهو خال من رجاله، لكن الصورة سرعان ما اهتزت حين زاره وهو عامر برجاله سنة 1947 «لقد كان البرلمان في نفسي عظيما وكان رجاله عظاما حتى شاهدت ما فيه، وسمعت رجاله... وكانت الجلسات معقودة، فاشتّدت الرغبة في شهودها، لا سيما والقضية الجزائرية معروضة على بساط البحث والانظار متشوّقة إلى النتائج المنتظرة منذ زمان، فكنت أتوقّع أن أشهد فيه من المشاهد ما يزيده في النفس توقيرا وتعظيما، وكنت أتوقّع أن أجد فيه ــ وهو عامر برجاله ــ مظهرا رائعا من المهابة والوقار أكثر ممّا وجدت فيه أيام فراغه، ولكن ما كان أشدّ عجبي حين دخلته وفيه رجاله يتجادلون، وما كان أعظم دهشتي مما شهدت وممّا سمعت».

وسبب الدهشة هنا تلك الأوهام المسبقة التي شيدها خياله عن حكّام فرنسيين، وديمقراطية يصونها ذوو فكر وقّاد وشعور حيّ في البرلمان، فانقلب هؤلاء أقزاما في عينيه،وساستهم ذوو نفوس خائرة أذلّتهم النازية، ومع ذلك لم يتخلّصوا من غرورهم فسلّطوا بطشهم على (الجزائر) ونكثوا عهودهم.

حرص الكاتب اذن على دخول البرلمان وحضور بعض جلساته العلنية رغبة كما قال: «في الاستماع إلى رجاله والاطلاع على كيفية جريان المناقشات فيه، وشهود بعض الصور من الصراع بين الحق والباطل»(1) كما كان متوقعا في مثل هذه المواقع التي تكثر فيها المزايدات، وتبرز الأغراض الدنيئة لبعض أمام أغراض أيضا شريفة نزيهة لقلة ضئيلة يهمهم وطنهم سياسيا وشرفه وسمعته دوليا.

(1) البصائر، عدد 13، الصادر في 26 ذي الحجة 1366هـ (10 نوفمبر 1947م).

. ثم بدأ الكاتب يحدّثنا عن افتتاح جلسة البرلمان بعدما جلس «حيث يجلس الجمهور... مشرفا على مقاعد النواب»(1) فيشاهد توافد النواب ودخول رئيس (البرلمان) الذي يعطي الكلمة للنواب حسب الترتيب في التدخلات التي قد يحرم منها (النواب) الجزائريين المسلمين الذين يبدو حضورهم كغيابهم، لأنهم أساسا كانوا للتضليل وتلميع وجه (فرنسا الديمقراطية)، وأثناء ذلك «قد يشتدّ الخصام فيحدث ضجّة عظيمة تدعو الرئيس إلى إيقاف الجلسة وتعليقها، وتكتسي المناقشات في بعض الأوقات ثوبا من اللهجات الحارة يذهب بوقار البرلمان ويسقط من حرمته، حتى يلزم الرئيس بالتدخل للفت أنظار النواب بكلمات تذكرهم بمكانة البرلمان كقوله:

(يجب أن نحفظ للبرلمان حرمته) فيصفق له البعض، ثم لا يهدأ التصفيق حتى تهدم من جديد تلك (الحرمة) المصونة، وقد يغفل الرئيس نفسه ــ في بعض الأحيان ــ فيأتي من الأقوال والأفعال بما لا تسلم منه حرمة البرلمان ولا حرمة الديمقراطية. ومن ذلك لا يسمح بالكلام لبعض النواب ليردّوا أو يلاحظوا على غيرهم فيما يمسّ بكرامتهم. وقد رأيت نواب (حركة انتصار الحريات الديمقراطية) يرفعون أصابعهم مستأذنين في الكلام فلا يأذن لهم المسيو هريو، فيجلسون متأسفين، ولعلّ ذلك ممّا دعاهم لعدم الحضور في الجلسات الأخيرة».

وقد اتخذ الكاتب من هذا الموقف سندا ليشهّر بالاحتلال الفرنسي والسياسة الفرنسية والنواب الفرنسيين في (البرلمان) ورئيسه ذاته الذي باتت الديمقراطية في عرفه الاستعماري حقا للأروبي محجوبة عن غيره من المقهورين الذين قد يكشفون السياسة العنصرية الغربية في (الجزائر) خصوصا «أليس من العجب أن تكون حدة اللهجة من نائب سببا في ضياع مطالب عشرة ملايين من البشر(*)؟ ولكن هذه الملايين العشرة تحت الاستعمار

---

(1) البصائر، عدد 15، الصادر في 17 من محرّم 1367هـ (1 ديسمبر 1947م.

(*) عدد السكان في الجزائر يومئذ.

ليست في نظر الواقع الا قطيعا من الغنم يتولّى رعيها ذئاب في ثياب رعاة، وماذا يعرف الناس عن معاملة الذئب للغنم ؟».

ثم يمضي الكاتب في ذلك معرضا بالاستعمار ويسخر من ادّعاءات المحتلين الذين ينكرون على الجزائريين حقوقهم الوطنية، فيصدّرون لهم الظلم والقهر ويحرمونهم من ممارسة الديمقراطية بدعوى أنهم ليسوا أهلا لممارستها، فيسخر الكاتب من هذا المنطق العنصري ويقارن بين ديمقراطية الغرب السطحية العنصرية الطبقية وديمقراطية الاسلام التي لا تعرف هذه الصّفات، حين كان المسلمون يعرفون معنى الديمقراطية «ويطبقونها في أقوالهم وأفعالهم، أما أنتم فإنكم وضعتم اللفظ وقتلتم المعنى».

ومثلما تضاءلت قيمة (البرلمان) الفرنسي وتضاءل رجاله في عين الكاتب، كبرت أشجانه هو في الحيف الذي ما فتىء المحتلون يلحقونه بوطنه، بذرائع مختلفة، تخنق الانسان الجزائري وتصادر حريته الشخصية ورأيه الخاص بعدما صادرت الوطن من أيدي أبنائه، فينهي رحلته بهذه الفقرة التي امتزجت فيها الشكوى من جور الاحتلال والتعريض به بعزّة التحدي الرابضة في الأعماق «أيها المستعمرون العتاة ! انكم تزعمون انكم لا تدرون كيف نتصّور الديمقراطية، فمتى تركتمونا نرى وجهها كي نتصوّرها ؟ وها نحن إذا احتكمنا إلى العقل انتصرنا عليكم، وإذا احتكمنا إلى القوة انتصرتم علينا، وإذا احتكمنا إلى التاريخ كان انتصارنا هذا أشرف من انتصاركم، ولكن هل تبالون بحكم التاريخ ؟»

مضى الكاتب إلى مقر (البرلمان) الفرنسي وفي نفسه هالة كبيرة عنه، تلتئم فيه خيرة رجال فكر وديمقراطية فإذا الصورة تنقلب رأسا على عقب، بعد الضحالة الفكرية التي عبّرت عنها المناقشات والصراعات الحزبية الشديدة التي همّشت خلال ذلك كلّ صوت يرفع لصالح الجزائر، بل تخنق كلّ صوت لجزائري يتّهمه أبناء المحتلين بجهل الحياة البرلمانية والديمقراطية، وهو اعتراف ضمني، يعتبر «حجة على الاستعمار أنطقه الله بها ليفتضح، كيف

لا نعرف البرلمان وعندنا في الجزائر برلمان عظيم تأسس بفضلكم منذ مئة سنة ؟ وفيه ندير شؤوننا بأنفسنا، وفيه نتدرب على بحث المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تهمنّا في بلادنا وفي علاقاتنا مع جيراننا ! وكيف لا نعرف الديمقراطية بفضل استعمار نتمتع بالحرية والعدالة والأخوة ؟ ونحن طيلة قرن كامل نتمرّغ في نعيم الديمقراطية بفضلكم، وقد جاءكم نوابنا يشتكون من كثرة انعامكم على الشعب الجزائري بهذه الديمقراطية ويعرضون على (أنظار العالم) صورة مغرية خلابة من ذلك النعيم الذي خلقه في أرضهم حرصكم على البرّ بالانسانية».

هكذا خرج الكاتب بانطباع سلبي أطاح بتصوّره المسبق عن المؤسسة البرلمانية في (فرنسا) كما خرج باستنتاج طابعه اليأس والقنوط من سياسة (فرنسا) الاستعمارية في (الجزائر).

جمع الكاتب في الحديث عن رحلته بين الوصف والتعليق الصحفي السياسي الصادر من موقع اعلان الرأي بروح وطنية يأسا من فرنسا الاحتلال والبطش التي لم تتطوّر ايجابيا في سياستها — كما تفعل انكلترا في رأيه — بل تطوّر سلبا فتزداد صلفا وكبرياء ونكرانا لحقّ الجزائيين في الحرية والاستقلال.

في الحديث عن (البرلمان) بين فكرة مسبقة ثم واقع مشاهد أو محسّ اصطدمت النظرة المثالية للأشياء الجملية ذات الظلال الانسانية بالواقع المؤلم الذي كان وقعه شديدا على الكاتب، فأثار حفيظته وغذّى لديه الاحساس بالتصدّع في النفس لشعارات جوفاء في واقع معيش تجهض فيه أحلاما عذبة تطلعا إلى عدل قد يمارسه المحتلون ويفون به.

لاحظ الكاتب في قاعة (البرلمان) الفرنسي مناقشات النواب وادارة رئيسهم تلك المناقشات التي حرم منها ممثلين جزائريين، فخرج بانطباع عن هزال فكري وسياسي في مستوى البرلمانيين، وضحالة ديمقراطية، فأطاح ذلك بالصورة الفخمة الأنيقة التي تعطيها (فرنسا) لبرلمانها الذي لم يبد له

(برلمان) ديمقراطية وحق وعدالة، بل منبرا لتزكية السياسة الفرنسية، خاصة منها السياسة الاستعمارية في (الجَزائر) حيث تنفذ إرادة المحتلين، وتزكى في (البرلمان) مطامحهم ومطامعهم التي تزداد اتّساعا في الوطن، وتخنق الديمقراطية التي ليست في عرف المحتلين غير شعار لخداع المظلومين، فاستفزّ هذا الشعور الكاتب ومضى يعرّض بالاحتلال وسياسته الجائرة في (الجزائر) في مثل قوله «يامدعى الديمقراطية اننا نعتقد أن الديمقراطية (دين) وأن الديمقراطي الحق ينتصر له انتصار المتديّن لدينه ويسعى في نشر ظلالها في العالمين كما يفعل المتديّن بدينه. فكما يريد المسلم الحقّ أن يسود الاسلام في كلّ بقعة من الأرض، والمسيحي الحق أن تسود الميسيحية في كل قطر، كذلك يريد الديمقراطي الحق أن يكون حظ الديمقراطية فوق الأرض، ويسعى لذلك سعيه المعقول بالوسائل المعقولة من رفق وحكمة واحسان».

هذا الحكم بقدر ما كان مصدره خيبة الأمل في البرلمانيين وديمقراطيتهم بعد خيبة الأمل في أي خير من سياسة الاحتلال الفرنسي: هو قناعة بأن كلّ ما يتغنى به المحتلون وأجهزتهم السياسية المحتلة: من ديمقراطية وحرية وعدالة ومساواة افك وبهتان، ولا أمل للجزائريين فيها، وليس لهم الا الاعتماد على النفس لفضح السياسة الاستعمارية وافتكاك حقّهم من المحتلّين.

والرحلة أخيرا ان لم تعكس صلة الكاتب بالمحيط العام في (باريس) فقد نقلت انطباعاته عن السياسة الفرنسية، وعن (البرلمان) الفرنسي، كما كان يتصوّره وكما شاهده، فكانت انطباعات سلبية تصوّر ظلم المحتلّين وادّعاءاتهم، فطغت فيها لذلك العاطفة الوطنية في الشكوى من سياسة الاحتلال، ومعاناة (الجزائر) فانطلق الكاتب من هذا الموقع يدين الاحتلال الفرنسي ويسخر من مزاعمه التي تنقضها أفعاله وسياسته الجائرة بين الجزائريين لاذلالهم وابقائهم في حمأة التخلف وأوحاله.

صاغ الكاتب ذلك اذن برؤية سياسية في قالب اختلفت مستوياته بين الصياغة الأدبية والصحفية في أسلوب وصفي في فقرات، سردي تقريري في أخرى، وهو في وصفه الأدبي وسرده الخبري ينحو أحيانا نحو التحليل في مواقع لظاهرة أو سلوك يبدو في قاعة (البرلمان) والتعليق على موقف الاحتلال، وما لحق الجزائر من مصائبه، وما عانى الجزائريون في كل الحالات، وما انتهوا إليه من جهل وتخلف بسبب سياسته الجائرة.

رحلة (حوحو)

رحلة (أحمد رضا حوحو) تختلف عن سابقاتها باتجاهها إلى (الاتحاد السوفياتي) نشرها في احدى عشرة حلقة من جريدة (الشعلة) بعنوان أساسي «عدت من الاتّحاد السوفياتي»[1] يعلوه عنوان آخر مصاحب في كل الحلقات هو «وراء الستار الحديدي» وترد عناوين أخرى فرعية تختلف باختلاف الحديث في كل حلقة، فيكون كل عنوان معبرا عن صلب الموضوع في كل حلقة ممّا سنرى في معالجة هذه الرحلة التي استغرقت أربعة وعشرين يوما.

وقد بدت رحلة رسمية ذات طابع استطلاعي، في وفد رسمي (وفد افريقيا الشمالية) المتكون من عشرة أشخاص دعوا لزيارة الاتحاد السوفياتي،

---

(1) بدأت الرحلة بحلقتها الأولى في العدد: 40، سنة أولى، من جريدة (الشعلة) الصادر في يوم 23 ذي الحجة سنة 1369هـ (5 أكتوبر 1950م). وتوقفت في الحلقة الحادية عشرة لتوقف الجريدة بالعدد 54، سنة ثانية، الصادر في 1 جمادى الأولى 1369هـ (8 فيفري 1951). مع التنبيه إلى أنه في نهاية هذه الحلقة الأخيرة (الحادية عشرة) وردت إشارة «للبحث صلة» كما جرت العادة في الحلقات السابقة، لكن الصلة انقطعت بانقطاع الجريدة عن الصدور. هذا مع ملاحظة: أن الرحلة لم يطّرد صدورها كل أسبوع بصدور كل عدد من الجريدة في تلك الفترة، فقد حدث أثناء نشرها ان صدرت الجريدة من دونها في الاعداد (42) (49) (51) (52) ربما الأمر يتعلق بالكاتب في تأخر انجاز الحلقة عن الوقت المحدّد لطبع الجريدة. ننبه إلى هذه الحقائق حتى نكون في غنى عن التطرّق إليها لاحقا في صلب البحث أو في هوامشه.

من مختلف الفئات: منهم المثقف والفلاح، المسلم والمسيحي، والاسرائيلي أيضا من سكّان المغرب العربي، فاستغرقت الرحلة أربعة وعشرين يوما، خرج منها الكاتب بانطباعات مختلفة، وعدّل أفكارا له مسبقة عن (الاتحاد السوفياتي) الذي قرأ عنه الكثير مدحا وقدحا، ثم كشفت له المشاهدة المباشرة شيئا مختلفا عما قرأ «وجدت في مخيلتي صورة مشوهة متضاربة الآراء والأفكار متأثرة باعجاب المعجبين وانتقاد الناقمين، وجدت عالما جديدا لا يمتّ إلى العالم الغربي المادي بصلة...جديدا في تفكيره، جديدا في وضعه، جديدا في أنظمته، جديدا في حياته وسير أعماله»(1).

كان هذا من مقدمة الرحلة التي يصف انطلاقها في التاسع عشر من أوت 1950 من مطار (أورلي) في (باريس) في اتجاه (الاتحاد السوفياتي) عبر (براغ) عاصمة (تشيكوسلوفاكيا) فوصف الرحلة بين (باريس) و(براغ) التي دامت ثلاث ساعات على طائرة الخطوط الجوية الفرنسية الممتعة والمريحة، وما كاد يستريح قليلا بالفندق في (براغ) ويخرج إلى المدينة حتّى رآها «في شبه عيد، حافلة بوفود مؤتمرين: المؤتمر العالمي للطلبة، ومؤتمر السلام، وكان الشعب محتفيا بهذه الوفود» من منظمات الشباب المختلفة التي أعدّت حفلات موسيقى ورقص ورياضة فاندمج في ذلك،وأوقعه في موقف محرج حين كان يسعى «مختلطا بالمتنزهين : تقدم نحوي لفيف من الفتيان والفتيات التشيكيين فطلبت منّى احداهنّ أن أقدم إليها شيئا تذكارا لبلادي، ولم يكن معي شيء ذو بال سوى ورقة ذات عشرين فرنك جزائرية، وما كدت أناولها ايّاها حتى ارتمت في عنقي دون سابق انذار، وأخذت تقبلني بقوّة وبكلّ بساطة كأنها أخت تقبل أخاها الذي قدم من سفر بعيد، أما أنا فبقيت مشدوها، وأمّا بقية الحاضرين فلم يأخذهم أي عجب فالمنظر مألوف لديهم، وما هو إلا عبارة شكر حارة، ولكني أنا الذي قدمت من هذا العالم المادي الخالي

(1) الشعلة، عدد 40، سنة أولى، الصادر في 23 ذي الحجة 1369هـ (5 أكتوبر 1950م).

من الروحيات المتجّرد من العاطفة الأخوية بين بني الانسان، فلم استطع أن أفسّر هذه الظاهرة الا حينما جلست في أحد(*) المقاعد ووجدت نفسي محاطا بالأطفال يرتمون في أحضاني، دون سابق إنذار أو معرفة وهكذا قضيت ليلة ممتعة في براغ تلك المدينة الجميلة» التي كانت تعيش الافراح في الشوارع والساحات ومسارح الهواء الطلق، ممّا أعطاه انطباعا جيدا عن محيط تملؤه البهجة، يغمر انسانه مرح ودفء انساني خال من المادة كما بدا له: فأعرب عن استحسان لهذا الجوّ في البلد بانسانه خاصة شبابه، وقد اطمأن اليه نزوعا لأجواء المرح وسمات الطيبة والبراءة التي لاحت في عيون الأطفال كعصافير أليفة.

ثم ينطلق في صباح اليوم التالي الى (ما وراء الستار الحديدي) أي الاتحاد السوفياتي) في طائرة سوفياتية وقد بدأ يشبع ما في نفسه من حبّ اطّلاع ذا شوق إلى ذلك العالم النائي الذي يتخيّله محاطا بسور من حديد، محفوفا «بألوان الأسرار والدعايات المتضاربة، دعايات الأصدقاء التي تبديه وكأنه الفردوس ودعايات الأعداء التي تعرضه وكأنّه الجحيم، ونحن بين هذه الدعايات نحمل صورة مشوّهة مضطربة، صورة فردوس تلتهب في حدائقه النيران»(1) لكنه ما أن ينزل في مطار مدينة (لفوف) الحدودي مع الوفد ويحظون بحفاوة وترحيب حتى تبدأ ألوان الصورة البشعة تتراجع، وتتكامل الانطباعات الايجابية التي تطّرد في استئناف الرحلة إلى (موسكو) على طائرة سوفياتية «في جوّ هادىء جميل، وفوق سهول خصبة زاهرة» طيلة أربع ساعات حطت بعدها الطائرة في مطار (موسكو) حيث استقبلهم بحرارة وفد جمعية ثقافية، وصحبهم إلى الفندق لتناول طعام العشاء والركون إلى الراحة والنّوم، لتكون انطلاقة اليوم التالي (1950/08/21) بجولة في بعض أحياء العاصمة (موسكو) وساحاتها صحبة دليل، فيصف موقعها وكثافة سكانها

(*) في الأصل (احدى) وهو خطأ لم نبق عليه في النص.
(1) الشعلة، عدد 41، سنة أولى، 30 ذو الحجة 1369هـ (12 أكتوبر 1950م).

الذين حدد عددهم هنا بستة ملايين، وخلوّها من المقاهي، كما يعقد مقارنة بينها وبين (باريس) في النظافة، فتظفر (باريس) برضاه رغم نظافة (موسكو) أيضا.

ويبدو أنه كان هناك برنامج محكم التنظيم، حيث ذكر الكاتب في البداية أنهم كانوا يبدأون نشاطهم «من التاسعة صباحا إلى الثانية من صباح الغد، تتخلّلها فترات قصيرة للأكل، وبهذا أمكننا أن نطّلع على عدد وافر من المنظمات والمؤسسات والمعامل والمزارع والمدن والقرى والمعابد وغيرها»[1] ومن هذا الغير في البداية «حدائق التثقيف» كما تسمى هنالك، ومنها حديقة (جوركي) في (موسكو) «حديقة عظيمة تحتوي على ما يهوى الانسان ويفيده، ففيها ملاعب رياضية عديدة لمختلف الألعاب وأحواض للسباحة، ومكتبة كبيرة تحتوي على آلاف المجلدات، وحجرات للمطالعة وأندية للموسيقى ومراسح[*] للتمثيل ودور للسينما، ومختلف الألعاب للأطفال الصغار والكبار...وهي حديقة زاهرة مزوّدة بالمقاعد المريحة، وهي آية في التنسيق والجمال، تكتظّ كلّ مساء بآلاف الزوار»[2] فتعوّض الحدائق العامة ذات الطابع الثقافي والترفيهي المقاهي ودور اللهو المنعدمة في (موسكو).

ثم ينتقل الكاتب إلى الحديث عن المسارح المنتشرة بكثرة، منها مسارح الأطفال، وكذا دور السينما، فوصف جانبها الايجابي مبرزا الطابع الثقافي لحديقة (جوركي) التي تحوي مكتبة ضخمة وأرائك مريحة، أو في دور السينما حيث يتوفر في قاعات الانتظار للعرض الكتاب والمجلة والورق والقلم على مناضد أمام المقاعد «حتى لا يضيّع المنتظر وقته سدى»

---

(1) الشعلة، عدد 40 سنة 1، 23 ذو الحجة 1369هـ (5 أكتوبر 1950م).

(*) استعمل الكاتب هنا كلمة (المرسح) و(المراسح) الملحونة، بدل (المسرح) (المسارح).

(2) الشعلة، عدد 43، سنة أولى، في 14 المحرم 1370هـ (26 أكتوبر 1950م).

وهو ما يعكس اهتماما بالثقافة في ذلك المجتمع ووسائلها التي يأتي في مقدّمتها التعليم الذي هو «اجباري ومجاني لمدة سبع سنوات»(1) في المرحلة الأولى وبرسوم جامعية زهيدة في التعليم العالي يعفى منها البعض، بل «أغلب التلاميذ يتمتّعون بمنح تساعدهم على مواصلة الدروس دون عائق مادي».

في هذا المضمار يتحدث عن (كلية الزراعة) التي يوجد بها «200 معمل كيميائي و 35 محطة للتجارب الفلاحية المختلفة...يتخصّص فيها الطلبة في مختلف العلوم والفنون المتعلقة بالزراعة... من ضمن برامج دراستها التربية الاجتماعية والقوانين السياسية».

وقد عنون الكاتب الحلقة الخامسة من رحلته بعنوان «الطفل» لما يحظى به الطفل السوفياتي من رعاية وعناية، فربط لذلك الحديث عن الطفولة بالحديث عن التعلم «لأن الصلة قوية بينهما...في كيان كلّ أمة: الطفولة والتعليم»(2) مبرزا الأهمية التي يوليها السوفياتيون للطفل «لا أظن أنه يوجد في بلاد من بلاد العالم أمة تعتني بالطفل بقدر ما يعتني به السوفيات من يوم ولادته إلى أن يشبّ ويبلغ طوق الرجولة حيث ينشأون في دور لطيفة هي دور الحضانة، تشرف عليها مربيات على مستوى جيد من التكوين تولين الطفل عناية كبيرة في أكله ونومه وفسحته ولباسه، مما يغرس فيه عادات الانضباط وحبّ العمل، دون أن يلغي ذلك دور الوالدين الذين يعيش أطفالهم بينهم».

أعطى الكاتب بهذا الوصف صورة إيجابية جدا عما تحظى به الطفولة من رعاية وعناية تتعاون فيها الدولة مع الأسرة ممّا كان مصدر اعجابه انطلاقا

---

(1) الشعلة، عدد 44، سنة أولى، في 21 المحرم 1370هـ (2 نوفمبر 1950م).
(2) الشعلة، عدد 45، سنة أولى، في 28 المحرم 1370هـ (9 نوفمبر 1950م).

من ملاحظاته وانطباعاته العامة، رغم أنه ليس من المستبعد أن يكون الكتاب لم يطلع الاّ على الجانب الايجابي فقط الذي أريد له أن يطلع عليه، لكون العملية منظّمة لتحييد السلبيات، وابقاء صور البؤس الأخرى وأشكال الاهمال بعيدا عن نظر الرّحالة الذي هو رهن مرشد أو دليل رسمي لا يقوده الاّ حيث الوجه الجميل الأنيق من الصورة التي يبقى وجهها الآخر خلف حجاب.

وقد استأثر اهتمامه بالأطفال بحيّز معتبر في ذهنه، فتابعه لذلك في حديثه عن (الحركة الكشفية) كمؤسسة تلقى عناية كبيرة من الدولة والشركات التي يشتغل فيها الآباء فيقبل الأطفال ابتداء من سنّ السابعة حتى الرابعة عشرة، الشرط الأساسي للقبول فيها الاحراز على شهادة حسن السلوك من المدرسة «ولهذه المنظمة مخيّمات صيفية في الغابات، وقصور شتوية في المدن... مساكن خاصة بالذكور وأخرى للاناث، وحجرات للأكل وأندية عديدة لمختلف الألعاب المسلية»[1] والتثقيفية لتنمية معارف وممارسة هوايات، يزورهم في هذه المخيمات والقصور أحيانا رجال الأدب والفنّ، فكان الكاتب من هؤلاء الذين زاروهم، فشعر بسعادة غامرة بين الأطفال في عالمهم المحبّب إلى النفس بكل براءته، كما عبّر عن ذلك بقوله «زرت مخيما من هذه المخيمات قرب مدينة موسكو، وقضيت فيه يوما كاملا بين الأطفال، أكلت معهم، ولعبت معهم، فكان أجمل يوم في حياتي حتى أنّي تمنيت لو لم ينته. وهل هنالك عالم أجمل من عالم الأطفال ؟ وهل هناك نفوس بريئة وقلوب طاهرة وعواطف صادقة مثل قلوب الأطفال ونفوسهم وعواطفهم ؟» فأعجب الكاتب بالنظام في مخيمهم وجماله، وبانتاجهم الصناعي والفني في معرضهم داخل المخيّم الكشفي.

وجد الكاتب نفسه بين الأطفال في طمأنينة روحية وهو يراهم يعيشون حياتهم باسمين ببراءة خلت من كلّ همّ، يغنّون، يرسمون أو

(1) الشعلة، عدد 47، سنة أولى، في 12 صفر 1370هـ (23 نوفمبر 1950م).

يصنعون أشياء صغيرة، فأحب عالمهم الصغير ونظر إليه نظرة فنّان تجتذبه الأشياء الجميلة، ويطمئن لمظاهر الفطرة السليمة في حياة أو في سلوك، فتناغم السرد التحليلي مع الوصف الأدبي لحياة الكشافة في المخيّم ونشاطها واحساسه الانساني العميق تجاه ذلك احساسا وديا صادقا.

ثم يلفت الكاتب نظرنا إلى أن الطفل بعد الرابعة عشرة ينقطع عن الحركة الكشفية لتتلقّفه حلقة أخرى «هي حركة الشباب الشيوعي، حيث يتلقّى تعليما شيوعيا بحتا وتربية سياسية صرفة، حتى إذا بلغ سنّ الرجولة كان متحمسا يمكن قبوله والاعتماد عليه في الحزب الشيوعي»(1).

ويستخلص الكاتب من هذا أن الاهتمام بالطفل ثم الشاب بهذا الأسلوب ذو فائدة سياسية كبيرة في اعداده داخل (ايديولوجية) معيّنة ليخدمها في النهاية، لكنه في الوقت نفسه ينبّه إلى صعوبة كبيرة لتطبيق برنامج الحزب الشيوعي حيث كانت لا تزال نسبة المنخرطين فيه «ضئيلة جدا لا تزيد عن اثنين في المئة من سكّان الاتحاد» لضعف الاقبال ولصعوبة العضوية التي لا تعطى ــ كما يقول ــ الا بعد أن يوضع المعني «تحت التجربة مدّة عامين» مما يعطي صورة عن صرامة حزبية بخلفية (ايديولوجية) حازمة أيضا.

من هذه النقطة انطلق الكاتب يتحدّث عن «النظام الاشتراكي في بلاد السوفيات» فعنون بهذه الكلمات الحلقة الثامنة من رحلته، حيث استقطب اهتمامه أولا: (قاعدة) كما قال رأى أن الاشتراكية بنيت عليها، وهي أنّه «لا يجوز استغلال الانسان للانسان، ولزم على هذا أن تلغى الأعمال الفردية وتمنع التي يستغل فيها الانسان غيره، ويكسب الأموال من أعمال غيره وجهودهم»(2) فحبذ الفكرة لأنها تتفق مع مبدئه في مناهضة الاستغلال، وان لم يكن ذلك بالضرورة وقفا على الفكر الشيوعي، ولا أن يكون تحبيذه الفكرة ثناء على (الايديولوجية) الشيوعية.

---

(1) الشعلة، عدد 47، سنة أولى، في 12 صفر 1370هـ (23 نوفمبر 1950م).
(2) الشعلة، عدد 48، سنة أولى، في 19 صفر 1370هـ (30 نوفمبر 1950م).

فبدا الوضع اذن من الناحية العامة ايجابيا، كما بدا النظام السياسي حريصا على توفير العمل للمواطن وحمايته من الحاجة، والتكفل به عند العجز، فللمواطن حقّ في السّكن وفي العمل، وحق أيضا في الراتب حسب الكفاءة «يكبر هذا الراتب أو يصغر حسب انتاج الشخص وعمله وعلمه... وان أصابه العجز أو الشيخوخة في عمله فراتبه مستمر لأنه حق من حقوقه».

كما أن توفير الحاجات الضرورية للمعوزين حماهم من ذلّ السؤال فلا وجود لهم في الشوارع والساحات يمدون الأيدي، وهو انطباع آخر ايجابي جدا في نظر الكاتب «لا تعجب إذا ما قلت لك أن لا وجود للمتسوّلين في تلك البلاد».

وكأنّما سجّل الكاتب هذا عامدا كي يوعز لقارئه ــ في الجزائر ــ الذي يعيش طغيان (أرباب العمل) الأوروبيين في (الجزائر) والبؤس تحت الاحتلال الفرنسي الذي خلق شريحة واسعة من المتسوّلين في كلّ المواقع، بصرف النظر عن أولئك الذين يعانون في صمت مميت، لأن كرامتهم لا تحتمل ذلّ التسوّل، فنحا الكاتب لذلك نحوا تقريريا في عرض الأمر معجبا بوضع يختفي فيه استغلال انسان لانسان مكتفيا بالظاهر، وبما تقدّمه السلطة من وجوه، وما يخدم هدفه أيضا في التعريض بالاحتلال الفرنسي، من دون أن يتسلّل إلى ظاهرة أشكال أخرى من الاستغلال تمارسها السلطة في (الاتحاد السوفياتي) بطريقتها الخاصة مع الخدم الخاص، والامتيازات الضخمة التي تخصّ بها نفسها من دون سائر المواطنين الآخرين.

غير أن المهمّ، اعتبارا لزاوية الرؤية التي بدا أن الكاتب كان ينظر منها هو أنه عبّر عن اختفاء الاستغلال الشنيع بنوع من الراحة والتقدير وفي ذهنه وطنه الذي يتعرّض فيه المواطن الجزائري يوميا لأبشع أنواع الاستغلال، ويرزح تحت كابوس البطالة، ويعاني الفقر القاتل، فالمقارنة ضمنية هنا من خلال الاعجاب بعناصر معينة في نظام الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في (الاتحاد السوفياتي) ممّا أشاع نوعا من الرضى

في نفسه عن الحكم يقابله نموّ سخط عن النظام الاستعماري الفرنسي في الجزائر. ومن هنا استمت الصياغة بشكل سردي تحليلي في حديثه عن نظام شيوعي يحتك به للمرّة الأولى، فرآه يعطيَ ـ كما بدا له عموما ـ أهمية للانسان والانتاج والكفاءة.

ثم ركز الكاتب الحديث في الحلقة التاسعة من رحلته عن المتاحف في (موسكو) ومعالمها المتميّزة، لما تزخر به المدينة من ذلك كواحدة من أهمّ المدن الغنية بمتاحفها وآثارها، فيتصدّر ذلك حديثه عن قصر (الكريملن) أو قصوره التي تعاقب عليها القياصرة، ثم خلفهم فيها (الزعماء الاشتراكيون الشيوعيون) حيث تجري اجتماعات (مجلس السوفيات الأعلى) ويرقد (لينين) نفسه محنطا يتأمله يوميا آلاف الزوار، فهو «قصر قياصرة روسيا... عبارة عن مجموعة من القصور... تحوطها أسوار عظيمة مبنية بالآجر الأحمر، ومنائر عالية، وداخلها ساحة فسيحة وعدة كنائس...أسّس في القرن الخامس عشر ميلادي، ثم أخذ يتسع مع مرور الزمان، كلّما تولّى قيصر الملك ترك القصر القديم وبنى جنبه قصرا جديدا، ولهذا تجده يحتوي على عدّة قصور مختلفة البناء والرياش والزخرف...وأمام القصر ساحة فسيحة تسمى البطحاء الحمراء»(1).

فيصف الكاتب هذه القصور وتحفها وأبهتها التي بقيت كما كانت عليها في عهد القياصرة، كما تحدث الكاتب عن متحف الأسلحة في (الكريملن) ومتحفي (لينين) و (جوركي) يزور الأول نحو ثلاثة آلاف يوميا، ويقع الثاني في منزل متواضع على بعد نحو «عشرين ميلا من مدينة موسكو».

أعطى الكاتب صورة معبّرة عن مظاهر البذخ الملكي في قصور (الكريملن) والعيشة الأرستقراطية التي بدا السياسيون الشيوعيون حريصين

(1) الشعلة، عدد 50، سنة ثانية، في 11 ربيع الأول 1370هـ (21 ديسمبر 1950م).

على الاستئثار بجانب منها، فمظاهر الأبّهة والبذخ والرفاهية في تلك القصور بدت في وصف الكاتب غير متناهية، وبقيت آثارها ماثلة تعكس حياة فئة (القياصرة) بالخصوص في جزيرة من النعيم الذي قد لا يدركه خيال الطيبين البسطاء.

وان كان هناك ضرب من اعجاب الكاتب بمظاهر تلك العظمة في شكلها المادي بالخصوص، فهو لم يثن هنا على النظام الشيوعي الذي استضافه، ولا عرض بالعهود القيصرية لبذخها وتبذيرها، بل كان يصف ما تقع عليه العين وصفا عاما برز فيه (الكريملن) بالخصوص جزيرة ذات حياة خاصة معزولة عن حياة الآخرين في (موسكو) نفسها كما برز فيه (لينين) رمزا (مقدّسا) بفعل التوجيه السياسي في (ايديولوجية) الحزب الشيوعي السوفياتي.

ثم يتحدث الكاتب عن زيارة (المسلخ) أو (مصلحة اللحوم بموسكو) كما عبّر عنه الذي هو من أكبر المعامل في (موسكو) يعمل به اثنا عشر ألف عامل أغلبهم من النساء وهو ذو فروع تختصّ بالحيوانات التي تجلب للذبح وللسلخ «كما أنه مصنع لصنع الأدوية التي تستخرج من الدماء»(1) اضافة إلى مرافق علمية وفنية وثقافية مزوّدة بالوسائل الجيدة والمعلمين ممّا أثار اعجابه كسائح، كما استطرد الحديث عن المتاحف بوقفة في المتحف التاريخي بموسكو، ذاكرا أنه أكبر متاحف الاتحاد السوفياتي، يضمّ أنواعا مختلفة من التحف والوثائق والأسلحة، ومن بينها هدايا (ستالين) نفسه: منها أعزّ هدية لديه «دمية صغيرة بعثت بها إليه طفلة فرنسية، ويقول الدليل أن الدمية عند الطفلة الصغيرة أثمن من العالم وما احتوى، ولهذا تعتبر هذه الدمية أعزّ الهدايا عند ستالين وأحبّها إلى نفسه».

---

(1) الشعلة، عدد 53، سنة ثانية، في 16 ربيع الثاني 1370هـ (25 جانفي 1951م).

وعندما يتوقف الكاتب أخيرا في مصنع (ستالين) للسيارات يبدو له هذا مدينة كبيرة، لأنه اضطر من أجل مشاهدة أقسامه للتجول داخله بالسيارة رفقة مهندس من المصنع نفسه، فتابع أهمّ المراحل التي يمرّ بها انتاج سيارة خاصة في المرحلة الأخيرة، وهي تتحول من قطع إلى سيارة فخمة على عجلات.

كما سجّل الكاتب في المناسبة أيضا ما يتوفر عليه المصنع من مرافق: مثل الحمام والمطعم، والطبيب، وكذلك أشكال الترفيه والتعليم حيث أن للمصنع أيضا «قصر تثقيف كبير يحتوي على 48 ناديا لمختلف العلوم والفنون»(1).

وتتطوّر مشاعر الاعجاب لدى الكاتب وهو يرى ـــ كما بدا له في الظاهر ـــ ذلك الاهتمام بحياة الانسان ومحيطه وراحته، وتيسير سبل الثقافة والترفيه السليم له، ممّا انتهى به إلى تزكية النهج السياسي هنا الذي ينحو نحو الاهتمام الجدي بالعمل والعامل نفسه، ممّا يدلّ كما قال «بوضوح على قيمة العامل في بلاد العمال، لأنه هو عرقها النابض، ودعامة تقدّمها ورقيّها» وهو تعبير عكس انطباعا ايجابيا عن الرعاية التي يلقاها العمال في مواقع عملهم، ويستفيد منها أطفالهم وأسرهم بصفة عامة، ممّا يوفّر مناخا نفسيا سليما للعامل، فيمنحه الاحساس بالتقدير وتثمين الجهد والثقة في النفس، كما يوفّر له الطمأنينة التي تساعده على البذل وحسن الانتاج أكثر.

هكذا، مع نهاية الرحلة: بدت في انطباعات الكاتب ملامح نظام سياسي واقتصادي واجتماعي محكم، تتوفّر فيه عدالة اجتماعية وانضباط في العمل، كما تراجعت فيها تلك الصورة السلبية المسبقة في الذهن لنظام سياسي متعجرف شرس يمارس القهر والاضطهاد البشع، إلى نظام ينكب فيه الانسان على العمل هانئا واثقا سعيدا، فحرّر الكاتب معظم انطباعاته بشيء من التقدير والاعجاب خاصة بذلك التفاؤل في العمل، وشيء من الحيادية أيضا،

(1) الشعلة ، عدد 54، سنة ثانية، في 1 جمادي الأولى 1370هـ (8 فيفري 1951م).

فلم يتحامل على العهود القيصرية الماضية، ولا أثنى ثناء مباشرا على النظام الشيوعي الحاضر، بل وصف محيطا جديدا شاهده يسوده الانضباط تتثمنّ فيه قيم العمل، فيحظى العامل بالتقدير، كما يتوفّر المواطن عموما على سبل الحياة الكريمة المقبولة، حيث يتمّ التكفل بحاجات العامل والمواطن عموما، ويكبر الحرص على تنمية معارفه العلمية والرفع من مستواه الثقافي، فغدت لذلك الثقافة حاضرة في كلّ حقل ومصنع، حيث توجد نواد علمية ومكتبات ضخمة، فيتكوّن من ذلك محيط صحي، يسوده بشر وثقة في العمل وتفاؤل بالمستقبل.

وأثناء ذلك كله، ورغم هذا التقدير للنشاط والانضباط لم نشعر في انطباعات الكاتب بأنه يزكّي نظاما بقدر ما يعبّر عن احساسه تجاه صورة أو موقف أو وضع رآه سليما عموما كما بدا له، رغم كلّ ما يكون قد خفي عليه من سلبيات حجبت عنه أو حيل بينه وبين مشاهدتها في رحلة رسمية يحرص فيها صاحب الدّعوة على بروز الصورة الناصعة وحدها.

ويبدو في ثنايا الرحلة وحتى نهايتها أنها أثرت تجربة الكاتب، فكانت رحلة اطّلاع واكتشاف في مستوى معيّن، جعلته يخرج باعجاب خاصة بالجانب الثقافي، في الحياة الاجتماعية، حيث أن المرافق الثقافية والترفيهية في كلّ مكان، كما أنها ملحقة بكل المصالح التي زارها حتى في (المسلخ) أو(مصلحة اللحوم) في (موسكو) فركّز كذلك كثيرا على مظاهر الاهتمام بالترقية الثقافية للانسان العامل وأسرته، كما حيّى الكاتب مظاهر الجدّ التي ترفع من قيمة العمل والعامل، حيث لم يشاهد مظاهر تسيّب وإهمال ولا مبالاة، بل مظاهر جد ونشاط محوطة بالتقدير والاحترام.

وقد خرج الكاتب من رحلته بنتيجة مهمة: هي أنّ الصور المشوّهة عن (الاتحاد السوفياتي) التي تكونت لديه من قراءاته المختلفة قد تعدّلت إلى صورة ثانية واضحة المعالم، انه مجتمع عمّال، للعمل اعتبار كبير، وللعامل الجاد التقدير والاحترام التام.

تراوحت الصياغة في ذلك بين أسلوب سردي عاد، وأسلوب وصفي نابض بالحركة والحياة، استمدّ بعضه حيويته من شعور الكاتب الايجابي بمظاهر جيدة في الحياة العامة، واكتست عاطفته في ذلك برغبة شديدة في المعرفة والاطلاع وحب الرحلة، مع بعض الحب لهذا البلد لكونه حرا أوّلا وقبل كلّ شيء، ربما تطلّعا لحرية بلاده.

غريزة حبّ الاطّلاع والمعرفة هذه بدت واضحة من بداية الرحلة حتى نهايتها، تركّز ذلك على الجانب الاجتماعي والثقافي بوجه عام، ولم يمل إلى الجانب التاريخي بشكل خاصّ الاّ عند الحديث عن مدينة (موسكو) ومتاحفها، ليذكر طبيعة كلّ متحف وتاريخه، كما يذكر جوانب محدودة جدا من تاريخ مدينة (موسكو) التي وصفها في (الحلقة الثانية) بذات الستة ملايين ونصف(1)، ثمّ وصفها في الحلقة العاشرة بذات السبعة ملايين(2) وهو احصاء مضطرب قد يكون أخذه من مرافقين دليلين مختلفين، أو نتج عن الفرق بين ما يقوله دليل وما تقوله نشريات سياحية في الفنادق وغيرها، ثم سها عن تدارك ذلك عند التحرير، فلم يستقرّ على تقدير احصائي واحد.

رحلة (الابراهيمــي) :

كتب (محمد البشير الابراهيمي) عن رحلته مع (العربي التبسي)(*) إلى (باريس) في أكتوبر سنة 1950 تحت عنوانين اثنين في عددين من جريدة (البصائر) فبدا العنوانان في شكل فصلين، كان الأول بعنوان

---

(1) الشعلة، عدد 41، سنة أولى، في ذي الحجة 1369هـ (12 أكتوبر 1950م).
(2) الشعلة، عدد 53، سنة ثانية، في 16 ربيع الثاني 1370هـ (25 جانفي 1951م).
(*) ولد سنة (1895م) وهو واحد من أقطاب (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) اختطفته قوات الاحتلال الفرنسي من بيته ليلا أثناء الثورة المسلحة وأعدمته (سنة 1957م).

«رحلتنا إلى باريس»[1] الذي وعد فيه بالعودة إلى الموضوع لاحقا، فجاء الثاني تحت عنوان «حركة جمعية العلماء بباريس»[2] فذكر أن الرحلة كانت برفقة (الشيخ العربي التبسي) من أجل هدف واحد، لخدمة قضيتين، باريز[*] هي مركزهما وهي ميدان الأعمال لهما، الأولى قضيتنا المعروفة ذات الشعبتين وهي فصل الحكومة الجزائرية عن الدين الاسلامي[**] وحرية التعليم العربي، وهي القضية التي قضينا عقدين من السنين في الحديث عنها»[3] أما القضية الثانية فهي قضية الاهتمام بالمغتربين الجزائريين في (فرنسا) فيذكر بالنسبة للقضية الأولى أنّ ذلك جاء محاولة لاسماع صوت (جمعية العلماء) إلى السلطة الاستعمارية في (باريس) بعد العجز أمام سلطتها في (الجزائر) حيث كانت «حكومة الجزائر متصاممة عن صوت الأمة فيها، نخاطبها بالكلام الفصيح والحقّ الصريح فكأنما نخاطب صخرة صمّاء، ونجلو الحقائق الواضحة عليها، فكأنما نعرضها على مقلة عمياء، فلما عيينا بالأمر ذهبنا إلى باريز لعلمنا أن الأمر منها بدأ وإليها يعود»[4].

فتحدث عن الاتصالات التي أجرياها مع السلطات الحكومية والبرلمانيين ورجال الصحافة «شرحنا القضية على أكمل وجه، وأنرنا جوانبها

(1) نشر في جريدة (البصائر) عدد 136، سنة 4؛ سلسلة 2، في (8 جانفي 1951) وتضمنته الصفحة (263) في الجزء الثالث من (آثار محمد البشير الابراهيمي). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1402 (1981) وهو المصدر الذي نعتمده.

(2) نشر في جريدة (البصائر) العدد 148، سنة 4، سلسلة 2، في (26 مارس 1951م) وتضمنته الصفحة (277) في الجزء الثالث من آثاره، كما تقدمت الاشارة في الفصل السابق.

(*) هكذا كتب الاسم بالزاي (باريز) بينما ورد في العنوان بالسين (باريس).

(**) فصل الشؤون الدينية عن الدولة لتترك الأمور للمسلمين من دون وصاية الحكومة الاستعمارية وسلطتها: موضوع خصه الابراهيمي بعدة مقالات متتابعة ومتنوعة، انظر ذلك بالخصوص في الجزء الثاني من آثاره (عيون البصائر) كما خصّ موضوع التعليم العربي ومعاناته من التضييق عليه بمقالات مختلفة في المصدر السابق نفسه.

(3) آثار محمد البشير الابراهيمي، الجزء الثالث، ص 263، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1402هـ (1981م).

(4) المصدر السابق، ص 264.

بنور البرهان، ورأينا وقلنا وسمعنا وقارنا بين الأصل والفرع»[1] أملا في اقناع سلطة الاحتلال للابتعاد عن شؤون المسلمين الدينية ورفع القيود عن لغتهم العربية.

ويأتي المسعى فيما يتعلق بالقضية من أجل الابقاء على صلة المغترب الجزائري في (فرنسا) بالخصوص بوطنه، فلا ينسى دينه ولا لغته، فكانت المهمة هنا لوعظ الناس ودعوتهم إلى تأسيس مدارس لتعليمهم وتعليم أبنائهم العربية ودينهم الاسلامي، ممّا بدأت تنهض به شعبة (جمعية العلماء) في (باريس) منذ الثلاثينات خاصة حين انتدبت الشيخ (الفضيل الورتلاني) إلى هنالك للتعريف بها، ووعظ المغتربين في شؤون دينهم وعلاقتهم بإخوانهم المسلمين الآخرين، فذكر الكاتب أنهم عقدوا لذلك اجتماعا في (ليل) بشمال (فرنسا) لم يذكر لنا عنه شيئا، تبعه اجتماع آخر حافل مع المغتربين في (باريس) قال عنه «رأينا من الاقبال والاستعداد ما شجّعنا على المضي في العمل وقوّى أملنا في النجاح»[2].

وقد ضاعف احساس الجمعية بالمسؤولية تجاه الجالية الجزائرية في (فرنسا) ما خرج به الشيخ (العربي التبسي) من انطباع أثناء اقامته في (باريس) بعد المرحلة الأولى التي وصفها الكاتب في الجزء الأول من هذه الرحلة، فقد عاد (الابراهيمي) بعد نحو خمسين يوما، وبقي (التبسي) بضعة أسابيع أخرى لبعض شؤونه منها العلاج حيث «رأى بعينه واطّلع على حقيقة الحال وتصوّر مآل تلك الجالية العظيمة التي تزوجت هناك ونسلت، هاله أن تكون عواقب الآباء والأبناء نسيان الاسلام والعربية العامية فضلا عن العلمية، والانسلاخ منها بالتدّريج ان لم تتداركهم جمعية العلماء بالانقاذ»[3].

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(2) المصدر السابق، ص 265.

(3) آثار محمد البشير الابراهيمي، الجزء الثالث، ص 277.

فيذكر الكاتب أن التفكير في القيام بالواجب تجاه هذه الجالية لم يبرح اهتمام الجمعية بما وسعها، خاصة منذ «قام الاستاذ الورتلاني في هذا السبيل المقام المحمود لسنوات قبل الحرب الأخيرة(*)، وأمدته الجمعية بطائفة من المعلمين والمحاضرين، وكان عدد الجالية إذ ذاك أقل وكان الخطر المتوقع أخف»(1) فيصف تطوّر العدد في الجالية وتفاقم الخطر على أبنائها ثم على الأسرة الجزائرية كلّها هنالك في قوله: «هناك أولاد بلغوا الحلم وهم لا يعرفون شيئا عن الاسلام ولا كلمة عن العربية. وهناك بنات بلغن حدّ التزوّج وهنّ ينتظرن ما يهيئه القدر لهنّ من حظّ، وقد شهدنا بالاختبار أنّ كثيرا من الأمّهات صالحات في الحياة معينات على تدبيرها، وهنّ لا يمانعن في تربية أولادهن تربية دينية»(2).

ومن هنا يبرز في حديث الرّحالة ازدياد حرص الجمعية على مضاعفة الاهتمام بهذه الجالية، فوصف حالها كما وصف جهد الجمعية، حيث كانت تلك الرحلة مرحلة متطوّرة في هذا الاهتمام.

وقد تحدّث عن جهد (التبسي) إلى جانب غيره مثل (عبد الرحمن اليعلاوي) و(السعيد البابي) في (باريس) من (جنود جمعية العلماء) حسب تعبير الكاتب، وقد خصّ هذين الشخصين بحديث طيب طويل لجهودهما هنالك، فالأول (اليعلاوي) من المتخرجين في (الزيتونة) بـ(تونس) استقرّ في (باريس) منذ 1932م وبذل جهودا كبيرة في التعريف بجمعية العلماء التي تولّى «رئاسة شعبتها بباريس منذ سنين، وهو معتمدها الوحيد ومرجعها في كلّ مالها من علائق وشؤون وراء البحر...شارك الأستاذ التبسي في كل خطوة خطاها في تمهيد السبيل لتنظيم حركة التعليم والارشاد بباريس وضواحيها، ونظّم الاجتماعات وعلا صوته فيها»(3).

(*) الحرب العالمية الثانية.

(1) المصدر السابق، ص 273.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(3) آثار محمد البشير الابراهيمي، الجزء الثالث، ص 230.

أما (سعيد البابي) فهو من تلاميذ (ابن باديس) «الجندي المخلص المطيع في جيش جمعية العلماء...يقوم بما تعجز عنه الجماعة من الأعباء الثقيلة، عمل قبيل الحرب الأخيرة في حركة جمعية العلماء بباريس معلما بأحد نواديها، فلمّا عزمت الجمعية في هذه الأيام على (طليعة) تلك الحركة اختارته ليكون عونا تشدّ به عضد الأستاذ اليعلاوي...فهو طليعة يتبعها امداد، ورائد تعقبه روّاد»(1)، فتركز اهتمامه هنا على وصف جهود الرجال في (باريس) باسم الجمعية، حيث قام (التبسي) أيضا بدور مهمّ، فاعتبر الرحالة اقامته تلك الفترة في (باريس) ذات فائدة كبرى على الجالية التي رأى حالها وأدرك جانبا ممّا يهدّدها من مخاطر، فترك أثرا معتبرا لما يمتاز به من شعور «حاد ملتهب واهتمام بشؤون المسلمين وحالتهم الحاضرة...وهو وصّاف ماهر لأدواء المسلمين وأدويتها، يفيض كالسيل إذا فاض فيها»(2).

تحدث الكاتب في القسم الثاني عن اهتمام الجمعية بالمغتربين وأوضاعهم الاجتماعية والثقافية، وأهمّ الرجال من (جمعية العلماء) وجهودهم بين المغتربين، كما ذكر في القسم الأول اتصالاته مع (التبسي) برجال السياسة و(البرلمان) والصحافة في (باريس) لموضوع فصل أمور الدين في (الجزائر) عن الدولة، ورفع القيود على التعليم العربي من دون أن يذكر شخصية واحدة من هذه الشخصيات التي يبدو أن الحديث عنها وعمّا جرى معها اقتصر على الأحاديث العامة في (جمعية العلماء) أو خارجها مع المواطنين في ولايات القطر يومئذ (قسنطينة) شرقا، و(وهران) غربا، و(الجزائر) العاصمة في الوسط، حيث نبّه في الحديث عن رحلته إلى أنّه سيفعل ذلك لاحقا.

(1) المصدر السابق، ص 280—281.
(2) المصدر السابق، ص 277.

هكذا وصف الكاتب مرحلة جديدة في مطالبة الجمعية الحكم الاستعماري بفصل الدين عن الدولة وحرية التعليم العربي، كما كان مرحلة جديدة أيضا في اهتمام (جمعية العلماء) بالمغتربين ممّا أسفرت عنه انطباعاته في الاتصال بهم والاطّلاع على أحوالهم ووصف جهود بعض الرجال من الجمعية في ذلك، فكان موقف المغتربين دائما ايجابيا، يستجيبون لدعوة (الجمعية) في شؤون دينهم ولغتهم، ويبذلون مالهم لتمويل كل ذلك النشاط الخيري النافع.

فنقل الكاتب مشاعر الودّ الأخوي والرغبة الصادقة بين المغتربين وبين رجال الجمعية كما وصف صدق الاحساس بالمسؤولية الوطنية والدينية كما بدا ذلك في سلوك الرحالة والأشخاص الذين وصفهم في اضطلاعهم بالمسؤولية الموكلة إليهم، من (الورتلاني) قبلا إلى (سعيد البابي) أيام كتابة الرحلة.

لكن يبقى في صياغة ذلك : السرد عموما يغلب على تعبيره، فجنحت الرحلة إلى شكل التقرير الاخباري الذي يستجيب لقصد الكاتب في اطّلاع الشعب الجزائري على مسعى الجمعية، مع السلطات الفرنسية من جهة واهتمامه بوضع المغتربين الاجتماعي والثقافي الديني من جهة أخرى، وهو ما حصر الكاتب حديثه فيه، فلم يصف لنا خارجه لاصلته بالمحيط الفرنسي العام خاصة في مدينة (ليل) التي زارها ولا (باريس) ولا طريقة سفره، كما لم يحدّثنا خارج ذلك لا عن تاريخ (باريس) ولا عن جغرافيتها، ولا عن وضع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي أو غيره فيها.

رحـــلات (المدنـــي) :

رحلات (أحمد توفيق المدني) خارج (الجزائر) والعالم الاسلامي عموما استقطبتها كلّ من (باريس) و(الصين) و(موسكو) وأولها رحلة (باريس) التي كانت أصلا للعبور نحو (القاهرة) لكنه قضى فيها أكثر من

خمسة عشر يوما امتدت إلى الجنوب الفرنسي تمويها على إدارة الاحتلال الفرنسي حتى لا تقبض عليه وتحول بينه وبين السفر إلى (القاهرة) فاصطحب لهذا السبب زوجته بدعوى الحاجة إلى العلاج في (باريس) التي وصلها مع زوجته في السادس عشر مارس 1956، وامعانا في مخادعة الأمن الفرنسي راح يرتاد معها دور (السينما) والمسرح ويتردّد «على مختلف الاطباء ممّا أقنع الجاسوسية الفرنسية بأن قضية المرض هي التي تشغل بالي وتستأثر بكل جهودي»[1] لكنه لم يحدثنا تفصيلا عمّا قضى فيه هذه الأيام، كما لم يذكر ما شاهده من أفلام في قاعات (السينما) ولا ما حضره من عرض مسرحيات في «مختلف المسارح» التي لم يذكر لنا اسم مسرح واحد منها ولا مسرحية واحدة، حتّى ودّع زوجته عائدة إلى (الجزائر) جوّا، وتخلّف هو بدعوى اللّحاق بها بحرا من (مارسيليا)[*] حيث اتّجه مع صديقه (العباس بن الحسين) وحجزا على احدى البواخر غرفة من أجل تضليل الأمن ليوم (8 أفريل) على أن يدفعا ثمن التّذكرة ليلة السّفر، ثم ذكر جولات عادية لهما في (مرسيليا) أعاد فيها ذكر ارتياد المسارح وقاعات (السينما) من دون أن يذكر مسرحية ولا فيلما. ولا مسرحا ولا قاعة عرض، وهنا تفضّل عليهما أحد المغتربين بسيارة تجوّلا بها عبر الساحل حتى بلغا الحدود الايطالية أملاً في العبور منها في اتجاه (القاهرة) لكنّ حرس الحدود ردّهما، لأمر فرنسي طلب من السلطات الايطالية عدم السّماح للجزائريين بالدخول الا باذن خاصّ، فعادا إلى (مرسيليا) ومنها انتقلا إلى (نيس) حيث قضيا يومين «كأننا من غلاة السّواحين، وأعجبنا بما فيها من نظام وجمال وحمامات بحر ومتنزه الانكليز، وعلمت وأنا أمرّ بمكتب صغير لشركة الطيران السويسرية أن طائرة تقلع يومها على الساعة الواحدة والنصف إلى جنيف، فقلت لصاحبي: ألاّ نجرّب ؟... ودخلت أسأل ببساطة: هل هناك يا آنستي مقعدان إلى جنيف من الدرجة الثانية ؟...فقالت نعم»[2]

(1) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج 3، ص 108، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

(*) انظر الفصل السابق.

(2) المصدر السابق، ص 109.

فحجزا مقعدين ولم يبق على ركوب الطائرة سوى ساعة ونصف «ومن حسن حظّنا أن المسافة بين المكتب وبين فندقنا لم تكن طويلة، فوصلنا ودفعنا ما علينا، وقلنا اننا سنرجع لمرسيليا من أجل الرجوع إلى الجزائر، وأخذنا أمتعتنا وأسرعنا بواسطة تاكسي للمطار»[1] حيث تقلع الطائرة، ثم تحط في (جنيف) ومنها متابعة الرحلة إلى (القاهرة).

فهو في هذه المحطة في (باريس) والجنوب الفرنسي اكتفى بسرد موجز جدا لما كان يشغله ولعدد الأيام التي قضاها، والحرص الشديد على الافلات من تعقّب مصالح الأمن الفرنسي في محاولات تضليلية بمختلف الأساليب في (باريس) وفي الجنوب، خاصة في (مرسيليا) فذكر خطوطا عامة لتحركه، ولم يصف لنا كثيرا من انفعالاته، كما لم يصف لنا شيئا ذا أهمية من مشاهداته حتى في جولاته مع (العباس) في (نيس) حيث اكتفى بذكر ما هنالك «من نظام وجمال وحمامات بحر» بشكل سطحي تقريري، فلم يوضّح طبيعة ذلك الجمال ولا المقصود بكلمة (النظام) ولا برز شعوره وانفعاله بهما، لعدم تأثّر بذلك التّأثُّر الكافي الذي لا يأتي الا من الاحساس العميق وحسن الاستجابة العاطفية، ممّا لم يكن يتوفّر عليه ــ ربما ــ في حالته النفسية تلك التي كان عليها تحايلا على الأمن وتخطيطا للافلات من مخالبه إلى خارج (فرنسا) نحو (القاهرة).

أما رحلته إلى (الصين) و(الاتحاد السوفياتي) فقد بدأها يوم 24 سبتمبر 1959 من (القاهرة) كانت أولها مرحلة (الصّين) بعنوان «في بلاد العمالقة، الصّين الشعبية» تلبية لدعوة الحكومة الصينية لوفد يمثّل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في احتفالات الذكرى العاشرة لتأسيس جمهورية (الصين الشعبية) فكان الكاتب كوزير للثقافة و(يوسف بن خدة) وزير

---

(1) المصدر السابق، ص 110.

الشؤون الاجتماعية على رأس الوفد فودّع سفير (الصين) في (القاهرة) الوفد الذي وصل العاصمة الصينية (بكين) التي كانت في وصف الكاتب «ترتدي حلة فرح شعبي حقيقي... وبعد ترحيب يعبّر عن لطف وكرامة خلق الصينيين ذهبوا بنا إلى فندق بكين الفخم حيث وجدنا غرفا من أحسن ما رأينا من غرف الفنادق»[1].

وقد مكث الوفد ضيفا على (الصين) أكثر من ثلاثة عشر يوما، اعترف الكاتب بأنّ وصف مشاهداته فيها لا تكفيها خمسون صفحة، لذا اكتفى بعرض برنامج الزيارات الرسمية ابتداء من 28 سبتمبر حتى 10 أكتوبر، بدأت تلك الزيارات بمتحف الآثار الفخم، وقد انطلقت الاحتفالات في قاعة (دار الشعب) تحت رئاسة (ماوتسي تونغ)[*] الذي وصفه بالرئيس المفكّر العملاق، وانتهت في 10 أكتوبر بزيارة «القصر الامبراطوري الفخم، وهو متحف مدهش لفنّ الصين القديم»[2] وبين هذين التاريخين سجّل الكاتب الزيارات المختلفة حسب تسلسل الأيام بتواريخها، منها زيارة المعرض الصيني للمواصلات، والاستعراض العسكري والشعبي وغيرها، مثل حضور التمثيليات المسرحية وحفلات الرقص والغناء، وقد أصرّ الكاتب على زيارة «جدار الصين اصرارا لم يعجب منظّمي المنهاج، إنّما اضطرّوا تحت اصراري للقيام بتلك الزيارة»[3] التي ربما كانت احدى اهتماماته منذ جاءت فكرة الرحلة إلى (الصين) ومن هنا جاء ذلك العناد والاصرار، فعمّقت المشاهدة اعجابه ودهشته لذلك الانجاز كما عبّر عن ذلك بقوله «تصوّروا جدارا هو عبارة عن قلعة ضخمة طولها 4600 كيلومترا

---

(1) المصدر السابق، ص 451.
(*) ماوتسي توزيع (1893—1976) أهمّ شخصية سياسية صينية في العصر الحديث، حيث كان على رأس الحكم الشيوعي هناك من الثورة حتى وفاته.
(2) المصدر السابق، ص 455.
(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وعرضها نحو من 50 مترا، تسير ارتفاعا وانخفاضا مع رؤوس الجبال، بنيت خلال 400 سنة لحماية الصين من أيّ عدوان خارجي. العظمة لله».[1]

وقد بدت زيارة السور استثنائية في برنامج الزيارات المكتظ جدا من الصباح الباكر حتى منتصف الليل، مع ملاحظة أبداها الكاتب بوضوح وهي أن المسؤولين الصينيين في ذلك كلّه يحرصون على ألاّ ترى «إلاّ ما أرادوا أن ترى، ولا تسمع الاّ ما أرادوا أن تسمع»[2].

ورغم ذلك تبقى الانطباعات جيدة عن البلد باتّساعه وانجازاته الصناعية ومرافقه الثقافية والاجتماعية، فعرض الكاتب ذلك عرضا اتّسم بالعمومية في النظر إلى الأشياء، كما تحدث عن بعض الأشخاص الذين التقاهم أو استمع إليهم في الحفلات ومآدب الطعام وغيرها، منهم (أنور خوجة)[*] رئيس (البانيا) وأمين حزبها الشيوعي الذي التقاه في الطائرة نحو (بكين) «حاولت الكلام معه، فإذا به ليس مسلما، بل هو شيوعي أحمر، من لون قان، ليس في فكره شيء الاّ الشيوعية التي يجب أن تسود العالم، فتركته»[3] كما حضر حفلة عشاء حضرها أربعة آلاف وخمس مئة مدعوّ «وخطب فيها خروتشوف(**) خطابا عظيما لم نفهم منه كلمة: الخطاب روسي، والترجمة صينية ونحن عرب»[4].

ورغم أنه لم يفهم شيئا فقد نعت الخطاب بالعظمة، ربّما لما كان يلاحظ من أثره على النّاس، وطريقة التعبير فيه والترجمة عنه.

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(2) المصدر السابق، ص 451.

(*) أنور خوجة.

(3) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(**) خروتشوف نيكيتا، ولد سنة 1894، رئيس الاتحاد السوفياتي في الفترة (1958 ـ 1964)، استقال في 1964، وتوفي سنة 1971م.

(4) المصدر السابق، ص 252.

وهنا نسجّل انطباعا للكاتب حين نقل لنا مفارقة عجيبة تتكرّر معاناة (الجزائر) إياها، فكم من وفد جزائري سافر في مهمة رسمية فهيأ البلد المستقبل نفسه لاعداد ترجمان للعربية ومنها، للوفد القادم من (الجزائر) لكون لغتها الرسمية العربية، ثم لا يلبث البلد المضيف حتّى يصدم فيضطر للبحث عن ترجمان من (الفرنسية) واليها، وهي الصورة نفسها التي نقلها لنا الكاتب في انطباعاته منذ لحظة الاستقبال الأول للوفد الجزائري «قدموا لنا منذ الوهلة الأولى (صينية) تحذق عربية سيبويه ولا تتساهل اطلاقا في فتحة أو كسرة أو ضمّة، فكنت أكلّمها كما يجب.. ثم أترجم للاخوة كلامها بلسان فرنسي، فلما رأت ذلك وعلم الذين أرسلوها أن الأوفق هو ارسال ترجمان يتكلم الفرنسية أرسلوا به إلينا صبيحة الغد دون أدنى اشارة، وأسفت على عربية الصينية اللطيفة»(1).

فالرحلة سياسية وصفت احتفالات متنوعة بذكرى سياسية، حظي فيها الوفد الجزائري بحسن استقبال، وحقق الكاتب رغبته في مشاهدة السور الصيني العجيب، وان بقيت الانطباعات المكتوبة محدودة فقد أعطت في مجملها صورة ايجابية عن تطوّر في البلد وانضباط الانسان فيه ولياقته وطيبته.

فماذا عن (موسكو) التي زارها مرافقا الوفد نفسه الذي حضر احتفالات الصينيين بذكرى تأسيس جمهوريتهم ؟

لقد كانت المهمة سياسية وهي طلب دعم من(الاتحاد السوفياتي) للثورة، فاستقبل السياسيون في (الكريملن) ذلك بفتور مكتفين بالتشجيع اللفظي، لكنهم نظموا للوفد زيارات واستقبالات للمجاملة الدبلوماسية خلال ثلاثة أيام بدت كئيبة منذ اللحظة الأولى، فيصف الكاتب انطباعه عن مدينة (موسكو) أثناء جولة فيها لزيارة الساحة الحمراء وأقسام من قصور (الكريملن) وغيرها: «لم أر فيها اطلاقا من يضحك أو يبتسم»(2)

(1) المصدر السابق، ص 252.
(2) المصدر السابق، ص 456.

فلم ترقه سياسة النظام، ولا محاولات الترفيه عن الوفد بالعروض المسرحية والسينمائية مجاملة، حيث وصف بعضها بالسخيف كما بدت (موسكو) مدينة غير نظيفة، باستثناء معابر (الميترو) «هو الشيء الوحيد الأنيق في (موسكو): تحف وتماثيل ورسوم ورخام»(1).

وقد عرّض الكاتب الرحالة بالنظام الذي بدا في عينيه نظاما مخادعا، خلف فيه قياصرة جدد شيوعيون قياصرة قدماء أطاحت بهم ثورة (أكتوبر) ففي حفلة رقص دعي إليها الوفد الجزائري قال الكاتب «رأينا هناك المتأنقين والمتأنقات من رجال النظام الشيوعي واندهشنا»(2) وتتعمق الادانة في (أوبرا موسكو) حيث يقول: «وجدت الطبقة العليا من النظام الشيوعي يرتدون لباس السهرة الأنيق ومعهم قريناتهم وبناتهم في أبهى الحلل النسائية الباريسية... وخرجنا بعد منتصف الليل، ودرجة الحرارة 5 تحت الصفر فوجدت ويالدهشتي جماعة من السيدات نحو العشرة كنّ يشتغلن بإزالة أوراق الأشجار من فوق الثلج الساطع فوق الساحة حتى لا يتأذى السادة والسيدات من مرتادي دار الأوبرا بمنظر تلك الأوراق الساقطة»(3) فعبّر بهذا الوصف عن انطباع يدين النظام الشيوعي الذي يتدثّر بعض رجاله بالشعارات والمظاهر يستغلّونها للخداع والتضليل، فبدا له النظام الشيوعي هنا يمارس سياسته التمايز التي يتمتع فيها رجال الحكم وحريمهم وأتباعهم وحاشيتهم بالسلطة والمال وامكانات البلد، تخدمهم فئة أخرى تسهر على حياتهم وراحتهم وأمنهم في قصور ومرافق للراحة والترفيه وغيرها، وهو سلوك صدّروا منه الكثير لبلدان متخلفة حديثة الاستقلال، منها معظم البلدان العربية.

وإلى جانب الصور السلبية الكثيرة تبرز للرحّالة في مصنع للسيارات صورة ايجابية مختلفة جسدّها العامل المنضبط في الميدان، حيث يلاحظ

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(2) المصدر السابق، ص 457.

(3) المصدر السابق، ص 459.

الرحالة بتقدير كبير انتاج سيارة شحن في عشر دقائق «كل فريق رابض في مكانه، ينزل إليه من السقف هيكل السيارة فيبادر بزيادة الجزء الذي هو مكلّف به في خفّة واتقان، ثم تسير السيارة إلى الذي يليه، وينزل عليه من السقف ماهو مكلّف باضافته، وهكذا تصل إلى الفوج الأخير فيعمر صهريجها بنزينا ويتخذ القائد المنتقى مقعده ويخرج بها، الكلّ يتمّ خلال 10 دقائق فقط... فليحي النظام(*)، وليحي العمل، وليحي الشعور بالمسؤولية»(1).

وقد استأثرت زيارته الجامعة باهتمام خاص لقربها من ميوله الفكرية ودورها الثقافي، فأعجب باتّساعها وعدد طلاّبها رغم الطابع الطبقي المتميز في مطعمها، فكانت الجامعة الكوّة الثانية المشرقة في ركام الانطباعات السلبية عن (موسكو) والنظام الشيوعي «مبناها من أغرب ما أخرجه الفكر البشري، فيها خمسة آلاف حجرة انفرادية لخمسة آلاف طالب، ومطعم من ثلاث درجات: قسم غالي الثمن، وقسم متوسّط، وقسم شعبي، وعجبت لوجود ذلك ضمن نظام شيوعي ينادي بتساوي الجميع»(2).

برزت للكاتب هنا ثلاث صور لمدينة (موسكو) المدينة الكئيبة المتجهّمة عموما في وجهها البارز، ومدينة العمل والنشاط في صفوف العمال «كأنهم نوع من الآلات الحديدية التي لا تني ولا تكلّ»(3) ومدينة السياسيين المنافقين البورجوازيين الذين يتمرّغون في النّعيم خارج (الكريملن) وداخل قصوره.

وهكذا اقتربت انطباعات (المدني) هنا من انطباعات (حوحو) عن (موسكو) بلد العمل والعمال باختصار، واختلفت عنها في اهتمام الرحالة

(*) تعني كلمة (النظام) هنا: حسن التنظيم، والدقة في العمل ووضوح المهام لكل فرد.
(1) المصدر السابق، ص 458.
(2) المصدر لسابق، 457—458.
(3) المصدر السابق، ص 458.

المركز على الجانب السياسي الاجتماعي بشكل خاص، وان بدت انطباعات (حوحو) ايجابية عموما لفكرته السلبية المسبقة زيادة على أنه سائح خاضع لالتزام ترتيبات أعدها سلفا أصحاب الدعوة، فإن انطباعات (المدني) السلبية انصبّت أساسا على النظام الشيوعي وسياسته، وربما لخيبة الأمل في العون المادي من النظام دور في مضاعفة تلك الانطباعات السلبية التي تصور النظام منافقا انتهازيا استغلاليا، يعيش رجاله الثراء والرفاهية في عزلة عن هموم العمال في جدّهم وتفانيهم في المعامل والمزارع.

ومع ذلك تبقى الرحلة إلى (موسكو) فقيرة بعض الشيء، في مضمونها، وفي قيمتها الأدبية رغم أنها وصفت لنا جانبا من الحياة الاقتصادية والسياسية بالخصوص في مدينة (موسكو) التي لم يحدّثنا عن موقعها الطبيعي، ولا عن عدد سكّانها إبّان زيارته اياها، كما فعل (حوحو) واكتفى بانطباعاته عنها، في كونها مدينة مكتئبة لا تعرف فيها البسمة طريقها إلى الشفاه. وقد جاءت هذه الانطباعات في قالب مذكرات سجّل فيها الكاتب الأيام بتواريخها وما جرى فيها من نشاط، في التقاء المسؤولين أو في زيارات المصانع وبعض المعالم في المدينة.

رحلة (محمد الصالح رمضان) :

من الرحلات التي اتخذت وجهة غير (باريس) أيضا رحلة الأستاذ (محمد الصالح رمضان) إلى (فرصوفيا) عاصمة (بولونيا) سنة 1955 صحبة صديقه وزميله (هالي الحفناوي)(٭)ـــ رحمه الله ـــ في وفد صغير من (الكشافة الاسلامية الجزائرية) التي كان الكاتب من بين قادتها، وذلك ضمن وفد عام يتكوّن من مئة وثلاثين عضوا يضمّ عددا من جمعيات الشباب والطلبة وأعضاء من فرق رياضية وفنية من بينهم أيضا فريق الاذاعة الجزائرية.

(٭) هالي الحفناوي: (1911ـــ1964).

وكتب رحلته بعنوان «سوانح وارتسامات عابر سبيل)[1] متبوعا بعنوان فرعي بين قوسين هو (رحلة إلى المهرجان الخامس للشباب والطلاب في فرصوفيا 1955)( ) ورد تحته أيضا مايلي: (نبضات قلب في كلمات، وخطرات فكر في صفحات وتأملات شاعر في وقفات)( ) وهذه الأخيرة مأخوذة من التمهيد الذي حمل عنوانا خاصا هو «بين يدي هذه السوانح».

والرحلة تتكون من ثلاثة أقسام هي: (الرحلة إلى فرصوفيا): مدينة المهرجان الخامس) (من وحي الرحلة) يضاف إليها الاهداء إلى رفيقه المرحوم (الحفناوي هالي) في نصف صفحة، وتمهيد في ثلاث صفحات بعنوان (بين يدي هذه السوانح) ثم تقديم سريع بقلمي الأستاذين (حمزة بوكوشة) و(محمد جريدي)( ) في ثلاث صفحات.

ولم تنشر جريدة (الشعب) الاّ القسمين: الأول والثاني مع حذف فقرات أو سقوطها، وبعض التشويه في فقرات أخرى الأمر الذي يضطرّنا للاعتماد على المنشور والمخطوط معا، مع التنبيه لذلك عند كلّ إحالة، الأول لأنه بات في متناول القارىء والباحث ومن حقهما علينا الرّجوع إليه عند الضرورة، والثاني لما لم ينشر أو شوّهت بعض فقراته في النشر أو حذف بعضها، ومن واجبنا في البحث الإلمام به ومعالجته حتى لا يكون تناول الرحلة جزئيا أو ناقصا.

---

(1) وهي مخطوطة في ثمان وتسعين صفحة مرقونة في ثلاثة أقسام، نشر قسماها: الأول والثاني أخيرا في «الشعب» في 28 حلقة، ابتداء من العدد 7396، الصادر في 5 ذي الحجة 1407هـ (1 أوت 1987م) إلى العدد 7423 ليوم 13 الحرم 1408هـ (7 سبتمبر 1987م).

( ) في المخطوط نعثر على التاريخ (1955م) بالحبر مضاف داخل القوس وهو غير موجود في النّص المنشور في جريدة الشعب في هذا النص المنشور نجد بعد العنوان الرئيسي العنوان الفرعي هكذا: أو رحلة إلى مهرجان الشباب في فرصوفيا، وحرف (أو) هذا محذوف في المخطوط ووضع ما بعده بين قوسين.

( ) هذه الجمل موجودة في المخطوط المرقون، غير موجودة في النص المنشور.

( ) كلاهما من زملاء الكاتب وأصدقائه، الأول صديق له ومن أعضاء جمعية العلماء والثاني جار له زميل وهو شاعر.

ففي الاهداء يذكر أن الأستاذ (الحفناوي هالي) كان أحد أسباب كتابة الرحلة «خاصّة النفحات الشعرية والنفثات الصدرية التي أثارتها جولة قمنا بها ذات مساء على ضفاف نهر (الفستول) بفرصوفيا»(1) وبعد اشارة إلى المهرجانات السابقة يذكر تاريخ هذا المهرجان الخامس(*) من آخر جويلية حتى منتصف أوت 1955 وان كانت النهاية الفعلية في اليوم الرابع عشر منه بالضبط.

ثم يتطرق الكاتب إلى بعض الظروف الدولية التي وقع فيها مهرجان الشباب، منها توقّف الحرب (الفيتنامية) واندلاع الثورة الجزائرية 1954، وانعقاد مؤتمر (باندونغ) 1955 لاعلان الحياد(**) في صراع العملاقين (أميريكا) و(الاتحاد السوفياتي) لاقتسام مناطق النفود والسيطرة على العالم.

تبع هذا تقديم الأستاذ(حمزة بوكوشة) المقتضب الخاص بالجانب الشعري، تلاه انطباع (محمد جريدي) السريع عن السوانح التي رأى فيها «متعة للأديب والشاعر لما فيها من ألوان للفنّان وجمال للعاشق الولهان...ثرية بالحقيقة والخيال دالة على مواطن الحسن والجمال»(2).

حمل القسم الأول من الرحلة عنوان (الرحلة إلى بولونيا) بدأه الكاتب بالحديث عن الاستعداد للرحلة، ثم بداية السفر من (الجزائر العاصمة) يوم 25 جويلية 1955 على متن باخرة فرنسية في اتجاه (مرسيليا)، وبما أن الوقت كان ليلا فقد استسلم رفاقه للنّوم بينما مضى هو يتأمّل البحر الأبيض المتوسط، فذكّره بما كان له من دور بصفته همزة وصل في العلاقات الدولية،

---

(1) سوانح وارتسامات، محمد الصالح رمضان، ص 2، المخطوط.

(*) جرى تحت شعار (السلم والمؤاخاة) وهو مؤتمر عالمي؛ بدأ ينعقد بعد الحرب العالمية الثانية دوريا كل سنتين في عاصمة من عواصم البلدان الاشتراكية، أولا في (براغ 1947) و(بودابيست 1949) و(برلين الشرقية 1951) ثم (بوخاريست 1953م) التي احتضنت المهرجان الرابع.

(**) أنظر: الجذور التاريخية لعدم الانحياز، ادوارد كاردل (Edvard kadelj الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

(2) سوانح وارتسامات، محمد الصالح رمضان، المخطوط، ص 8.

ثم شرع يعرّض بالفكرة التي ترفض اعتباره حدّا طبيعيا فاصلا بين (الجزائر) و(فرنسا) تبعا لمنطق الاحتلال الفرنسي رغم اتّساع عرضه الذي يزيد عن (700 كلم) ثم يتصاعد الحسّ الوطني و(مرسيليا) تلوح من بعيد «هذه مرسيليا أكبر مدن فرنسا بعد باريس تبدو لنا من بعيد، وهي بوابة فرنسا في الجنوب على البحر الأبيض المتوسط، تقع شرقي نهر الرون وغربي ميناء طولون، ذلك الميناء العسكري العتيد الذي هجم علينا منه جيش الاحتلال الفرنسي سنة 1830 ومن هذين الميناءين: المدني والعسكري توالت علينا قوافل الاستعمار والاستغلال والاذلال كالجراد تستولي وتلتهم كلّ شيء بلا هوادة ولا رحمة»(1).

ثم يصف طبيعة المنطقة الجغرافية وهو يمرّ بها في القطار بعد مغادرة الباخرة إلى البرّ، ابتداء من (مارسيليا) ثمّ (طولون) و(كان) و(نيس) حيث تنهض فيه شخصية الفنان أمام المناظر الطبيعية السّاحرة، لجمالها وتنوّعها مرورا بالسّاحل اللازوردي (La Cote d'Azur) حتى الوصول إلى (ايطاليا) فيتحدث عنها، كما يتحدث عن (الريفيرا) الايطالية و(جنوة) وميناءها وهي «تتراءى لنا من بعيد وكأنها مسرح روماني محصور بين البحر والجبل»(2) وما كاد القطار يغادر (جنوة) حتى داهمت الكاتب الذكريات التاريخية القديمة والحديثة مما عرفته المنطقة عن اقتحام القائد القرطاجني (حنبعل)(*) المنطقة قديما ونشوء دولة الرّومان، وايطاليا الفاشية، واعدام (موسوليني)(**) فيها سنة 1945، وقد توقف الكاتب مع الوفد في مدينة (البندقية) للاستراحة بعض الوقت «رحنا نغتنم الفرصة السانحة نطوف ونتجوّل في أنحاء الميناء والمدينـة»(3)

---

(1) الشعب، عدد 7397، الصادر في 13 ذي الحجة 1407هـ (8 أوت 1987م).

(2) المخطوط، ص 14 (الحديث عن الريفيرا الايطالية، وجنوة، والنبذة التاريخية عن المنطقة في صفحات 14، 15، 16، 17، من المخطوط، لم ترد في المنشور في الجريدة).

(*) حنبعل: قائد قرطاجني، ذو مواهب عسكرية مذهلة، في التاريخ القديم، في حروبه مع الرّومان، ولد في قرطاجة (247 ق.م) لكنه هزم في احدى المعارك بعد (202 ق.م) فانتحر بعد ذلك ببضع سنوات.

(**) موسوليني (1883—1945م) مؤسس الحزب الفاشيستي في ايطاليا، تحالف مع هتلر في الحرب العالمية الثانية، فأعدم بعد الهزيمة.

(3) الشعب، عدد 7398، الصادر في 14 ذي الحجة 1407هـ (9 أوت 1987م).

مقدّما نبذة عن تاريخها حريصا على اشباع فضوله في المعرفة والاطلاع على وجوه حياة ومعالم، ولا يلبث عند استئناف الرحلة حتى يندمج في سحر الطبيعة، فيصف جمال المنطقة وجلال الطبيعة ذات التنوّع في مناظرها المختلفة، وحين دخول الأراضي النمساوية بالقطار يبدو الجهل بكل شيء في المنطقة، لكن الطبيعة بتنوّعها وجمالها تبقى حاضرة هنا أيضا، ولكن في لوحة تختلف عن سابق لها قريب في (ايطاليا) فيصف الكاتب القطار والطبيعة وصفا فيه تحليل وتعليل والقطار يخترق الجبال والغابات «هاهو ذا القطار يتلوّى في طريقه بين الغابات والأدغال، يخترق الجبال في أنفاق طويلة وقصيرة، ويقطع الأنهار والوديان عبر الجسور والقناطر، أو يسير حذوها في أخاديد طويلة وعميقة، ونحن نرى الجبال الشمّ الشوامخ، فيهولنا علوّها ونستعظم أمرها، لأننا نراها من تحت، ولو كنّا نراها من فوق على متن طائرة أو منطاد لكان نظرنا إليها يختلف، حيث يرى القطار من الأعالي أشبه ما يكون بيرقة صغيرة أو دودة أم الأربعة والأربعين لعظمة هذه الجبال»(1).

وقد وصف الكاتب حسن الاستقبال في (النّمسا) بأنه كان مطبوعا بالفرح والابتهاج الذي لم يره قبلا: «قدّمت لنا المشروبات والمرطبات وسط أهازيج الفرح والسرور الشيء الذي لم نره في الطريق الذي مررنا به، لا في ايطاليا ولا في فرنسا، فهذا أحد الفروق بين تلك الشعوب الغربية الديمقراطية وهذا الشعب الاشتراكي»(2) فبدأ يتحدث عن (النمسا) موقعا وتاريخا ونظاما «غير مرتبطة بأيّ حلف عكسري، فهي مستقلة استقلالا تاما، ومحايدة تماما مثل سويسرا...أقل البلدان الأوروبية بطالة وتضخّما واضطرابا...أخذت بأحسن مافي الاشتراكية من نظام وأعمال اجتماعية انسانية، وعملت بخير ما في الديقراطية من أسس دستورية وحريات شخصية في التفكير

(1) الشعب، عدد 7340، في 16 ذي الحجة 1407هـ (11 أوت 1987م).
(2) الشعب، عدد 7401 في 17 ذي الحجة 1407هـ (12 أوت 1987).

والتدبير والتسيير، ولم تلتزم بالحزب الواحد كما في في الاشتراكية الشرقية ولا بفوضى الديمقراطية الغربية المنحرفة»[1].

وتطّرد على هذا المنوال الانطباعات الايجابية عن البلد عموما انسانا وأرضا، وقد توقّف الكاتب للحديث عن العاصمة (فيينا) أيضا: موقعا ومكانة تاريخية، ثم يحدثّنا عند المغادرة عن جماعات من النمساويين ينضمّون إلى وفود المهرجان، فيمتطون القطار نفسه الذي أضيفت إليه بعض العربات، ويستأنف سيره وسط «غابات كثيفة وتلال خضراء زاهية ومراع ومزارع حتى دخول الأراضي التشيكوسلوفاكية»[2] فيتحدّث عن جانب من تاريخ (تشيكوسلوفاكيا) الحديث، كما يذكر أنهم أمضوا نصف النهار في العاصمة (براغ) متجوّلين في شوارعها موضع حفاوة وتكريم حيث يحلّون، ثم يغادرونها نحو (بولونيا) حيث لا تلبث المظاهر الطبيعية حتى تبدأ تختلف عن سابقتها، فيزداد الأفق اتّساعا والجوّ صفاء «فالمنظر يختلف تماما عن ذي قبل، فنحن في أكبر سهل بأوروبا،اتّسع الأفق أمامنا من كلّ جهة، وامتدّ السّهل الأخضر الفسيح بحقوله ومروجه التي لا نهاية لها، تتخلّلها البحيرات والغدران والمزارع وبعض القرى والمدن، وأرخي العنان للقطار فصار ينهب الأرض نهبا ويطوي المسافات طيّا»[3].

ثم ينصرف الكاتب للحديث طويلا عن الجانب التاريخي والجغرافي لبولونيا قديما وحديثا دون أن يهمل ذكر ثرواتها الطبيعية ولا بحيراتها التي تبلغ (أربعة آلاف) حتى الوصول إلى العاصمة (فرصوفيا) في يوم أحد آخر (جويلية) فيصف حسن الاستقبال وجودة التنظيم كما يصف المدينة وصفا جيدا لما أصابها من دمار الاحتلال الألماني (في الحرب العالمية الثانية) والحركة الدائبة لاعادة البناء ليل نهار، وهي تعيش جوّا من البشر والانشراح

(1) الشعب، عدد 7402، في 18 ذي الحجة 1407هـ (13 أوت 1987م).
(2) المخطوط، ص 30.
(3) المخطوط،ص 33.

«فالناس مسرورون منشرحون،وحركة البناء والتّعمير قائمة على قدم وساق لا تتوقف. وأول ما يصدم الزائر في فرصوفيا (وارسو) الأتربة والغبار المنتشر بكل مكان بسبب حركة البناء الدّائبة»(1) حيث بدأت تنهض مدينة جديدة تسرّ النظر دفاقة بالحياة الجديدة.

استأثر التاريخ الحديث والحركة العمرانية في هذه الوقفة باهتمام الكاتب حتى سها وربّما جعلنا أيضا نسهو تماما عن أمر المهرجان العالمي الجاري الذي قوامه نحو واحد وثلاثين ألفا.

وقبل أن يصف الكاتب أجواء المهرجان في القسم الثاني من الرحلة مضى يحدّثنا في نهاية هذا القسم الأول(*) عن العودة إلى (الجزائر) من (فرصوفيا) في الرابع عشر من شهر (أوت) مما نؤجل الحديث عنه حتى نفرغ من انطباعاته في القسم الثاني من الرحلة عن المهرجان الذي كان يضمّ عددا هائلا من شبيبة العالم الديمقراطية تحت شعار (السلام والصداقة بين الشعوب) أو(السلم والمؤاخاة) حيث تحدّث عن تواريخ المهرجانات السابقة والفائدة الكبرى من مثل هذه المهرجانات التي باركتها شخصيات فكرية غربية، فيرى أن الفكرة جيّدة تشجع الحوار وتعضد السلام، وتنّمي روح المودّة والإخاء في العالم «فشباب وشابات كل شعب يجسّدون ربيع البشرية الباسم؛ وهم آمال المستقبل السعيد للانسانية كلها»(2) وهم يلتقون لاشاعة السلام وادانة وسائل الدّمار.

---

(1) المخطوط، ص 37.

(*) مع التنبيه إلى أن الفصل بين قسم أول وقسم ثان غير وارد في النص المنشور بالجريدة، حيث تم الانتقال في الحلقة الثالثة عشرة من القسم الأول إلى القسم الثاني من دون أدنى ملاحظة أو فاصل، باستثناء تغيير طفيف في الحروف.

(انظر عدد 7408 من جريدة الشعب، الصادر في 25 ذي الحجة 1407هـ (20 أوت 1987م).

(2) الشعب، عدد 7409، الصادر في 27 ذي الحجة 1407هـ (22 أوت 1987م).

ثم يتوقف في هذا القسم الثاني يحدّثنا عن المهرجان وانشطته الثقافية والفنية المختلفة في المسارح والقاعات الكبرى ودور السينما والساحات العمومية، وما حظي به المشاركون الضيوف من ترحيب وودّ واعتبار يمنحهم مواطنة بولونية متميّزة في المطاعم والأسواق وركوب الحافلات، فأسهم ذلك في اشاعة بشر ملأ القلوب والعيون في هذا المهرجان الذي قال عنه: انه يعجز عن وصفه أيّ واصف مكتفيا في الوقت نفسه من جهته بوصف مااستطاع التعبير عن احساسه به، كما بدا شيء من ذلك في صورة مجملة له: وصفا وتقييما حين قال: «قصارى من يريد وصف المهرجان أن يكون كالنحلة أو كالفراشة في ربى ومروج شاسعة خضراء مزهرة، تنتقل من زهرة إلى أخرى، وحتى هذا لو تيسّر لانسان لما أمكنه أن يعطي صورة حقيقة للمهرجان، لأن عشرات الحفلات واللقاءات تقع في وقت واحد وفي أماكن متعدّدة ومتباعدة، وإذا كان هناك حفل أو مهرجان ينطبق عليه القول المعروف: انه يفوق الوصف أو يعجز عنه التعبير فهو حتما هذا المهرجان العظيم»(1).

مع ذلك استطاع الكاتب أن يصف الحشود البشرية من (البولونيين) وهم يرحّبون بحرارة بالمشاركين في المهرجان الذين كانوا في استعراضهم الأول بالخصوص كنهر هادر زاخر، فاستطاع الكاتب بوصفه الجيد أن يعطي صورة واضحة مجملة عن ضخامة الحدث وكثافة المهرجان وما أشاعه في المحيط من فرحة غامرة طيلة خمسة عشر يوما، فبعد «الافتتاح الرّسمي انطلقت أعمال المهرجان تتوالى كل يوم وليلة في سائر أرجاء المدينة التي كانت تعجّ بأصناف البشر وتضجّ بحركاتهم وأصواتهم وآلاتهم طيلة أسبوعين» وأثبت الكاتب برنامج كل يوم من النشاطات خلال الأسبوعين(°).

(1) الشعب، عدد 7410، الصادر في 28 ذي الحجة 1407هـ (23 أوت 1987م).

( ) ثبت هذا البرنامج فيما يبدو من نصّه نقل عن دفتر أو دليل خاص بالمهرجان ممّا يوزّع في مثل هذه اللقاءات، و لم يرد في النّص المنشور بجريدة (الشعب) لكنه ورد في الصفحات (49، 50، 51) من المخطوط.

أثناء هذين الأسبوعين في (فرصوفيا) استمتع الكاتب ــ خاصة رفقة صديقه هالي ــ بالاطلاع على الحياة العامة في مدينة (فرصوفيا) وغيرها في الاتّصالات مع عناصر من شباب العالم، فحدّثنا عن اللقاءات مع «الشبيبة الديمقراطية الفرنسية التي شرحنا لها المشكل... الاستعماري... ولقاءات أخوية ممتعة مع الشباب البولوني»[1] اضافة إلى اللقاءات العفوية مع الاخوة العرب الذين لم يكن بعضهم يعرف موقع (الجزائر) ويحسبها جزرا أو أرخبيلا، غير أن المؤكد هو أنّ كل تلك اللقاءات كان «يسودها صدق اللهجة وحبّ المودّة والتعرّف على حقائق الأمور رغم الايديولوجيات المتباينة أحيانا والعقائد المختلفة في الغالب»[2].

ويخصّ الكاتب هنا الوفود الجزائرية التي تكوّن في النهاية وفدا واحدا ببعض الحديث: نشاطها وتركيبتها التي منها الوفد «الكشفي الصغير الذي أنتمي إليه ــ وهو أقلّ الوفود الجزائرية عددا وأقلّها أهمية ــ فلم يكن مكلفا بشيء سوى الانسجام والوئام في النظام العام، لذلك كان أفراده أحرارا يتجوّلون كيف يشاءون ويشاركون حيث يريدون أو لا يشاركون».

ثم يعرّج الكاتب على بعض النشاطات التي شاهدها مثل (الرقص الأوروبي) الذي قال عنه «لا فرق بين شرقيه وغربيه، أساسه النط والقفز **واللف والدوران**»[1].

في حين أن «الرقص الشرقي في أصوله الأساسية هادىء حالم لطيف، يعبّر عن أسرار الشّرق وفلسفته بحركاته وايماءاته وهو أقرب ما يكون إلى رقصنا الحضري والبدوي على السواء، وكذلك الغناء والموسيقى الشرقية الأصيل منها والمستحدث الا ما مسخه التقليد والتجديد البليد»

---

(1) الشعب، عدد 7411، الصادر في 28 ذي الحجة 1407هـ (24 أوت 1987م).
(2) الشعب، عدد 7413، الصادر في 1 من المحرم **1408**هـ (26 أوت 1987م).
(3) الشعب، عدد 7414، الصادر في 2 من المحرم **1408**هـ (27 أوت 1987م).

وقد أبدى ضيقا بصخب الموسيقى الغربية معلّلا من وجهة نظره اللجوء إلى الجلبة والحركة في الرقص الأروبي «لعلّ السبب في ذلك أن سكّان المناطق الباردة بحاجة إلى كثرة الحركة لجلب الدفء ودفع البرد والتجميد».

كما يتحدث قليلا عن (الاشتراكية) البولونية، والأسرة ومساهمة المرأة في الحياة العامة، وفي أعمال كانت مثار دهشته يومئذ، لكونها «عندنا من اختصاص الرجل، مثل سياقة الحافلات الكبيرة وعربات الميترو وسيارات الأجرة»(1) ويتوقف هنا في زحمة عمل كل من المرأة والرجل إلى أمر الأطفال الذين تتكفّل بتربيتهم مؤسسات خاصة منها دور الحضانة مما يحرمهم حنان الأبوين، فتضعف بذلك الرابطة الأسرية، كما يصف تراجع الحس الديني السريع أمام الاكتساح الشيوعي.

ثم يتحدث الكاتب عن يوم العطلة الأسبوعية (الأحد) حيث يكثر (البولونيون) التّودّد للزوّار، ويبالغون أفرادا وجماعات يطلبون توقيعات أو عناوين أو مرافقة أو يدعون إلى تناول مشروب، فالتقى الكاتب في يوم (أحد) صحبة رفيقه (هالي) وهما يتجوّلان قرب نهر (الفستول) في (فرصوفيا) فتاتين أختين تجيدان الفرنسية لأنهما عاشتا زمنا في (فرنسا) فعرضتا رغبتهما في المرافقة للمعرفة، فيكشف الرجلان لهما عن وجه مصغّر للسياسة الفرنسية كما يصف الكاتب ذلك في بضع فقرات منها قوله يصف جانبا من الموقف «بينما كنّا واقفين أمام بركة كبرى نتأمل الدببة البيضاء والسّمراء والبنية وهي تتهاوش وتغوص أو تخرج من الماء تقدّمت فتاتان شقراوان كأنهما توأمتان، سألتنا احداهما بلسان فرنسي مبين: هل تتكلمان الفرنسية ؟ قلنا: نعم، ولم يخامرنا شك في أنهما ليستا من فرنسا لأن شقرتهما واضحة كأهالي الشمال الأروبي، ورغبتا منا أن نسمح لهما بالتحدث معنا ومرافقتنا، فلم نمانع،

(1) الشعب، عدد 7416، الصادر في 5 من المحرم 1408هـ (30 أوت 1987م).

وقد لاحظنا على وجهيهما سمات الجدّ والصدق والبراءة، ومع ذلك توجّست أنا... من يدري فالجوسسة لا تعرف جنسية، وكما سألتانا عن هويتنا وعن اسمينا ووطننا سألناهما من تكونان ؟...نحن شقيقتان نشأنا في فرنسا التي هاجر إليها أهلنا وقت الحرب وكنّا صغيرتين...وسرنا نتجوّل معهما بلا كلفة ولا حرج على ضفّة النهر، وفي المتنزهات والساحات نتجاذب أطراف الحديث. اطلعنا من خلال ذلك على كثير من الحقائق والمعلومات التي تجري في هذا العالم الجديد كلّ الجدة بالنسبة لنا، كما أطلعناهما على أحوالنا وأوضاعنا مع الاستعمار الفرنسي، فدهشتا، ولاحظنا لهما أن الفرنسي في بلاده شيء وفي مستعمراته شيء آخر، وان الحرية والأخوة والمساواة شعارات فرنسية للاستهلاك العالمي، قد تطبق في بلادهم مع أولادهم واخوانهم، أما في الخارج وفي المستعمرات بالخصوص فشيء آخر»(1).

وهذا الموقف في هذه الجولة كان نبعا لجزء من (السوانح والارتسامات) الشعرية بظلالها الرومانسية كما يرد في القسم الثالث من هذه الرحلة.

ويتابع الكاتب وصف جولاته في هذا الاطار رفقة صديقه في الساحات العامة، ولزيارة بعض المعالم في المدينة، مثل الدور التاريخية، والمتحف الوطني وقصر الثقافة الذي أحس أمامه ببعض الانبهار وهو يراه ينتصب «شامخا عملاقا في قلب العاصمة لايدانيه بنيان في بولونيا أو في غيرها فيما أقدّره من حيث الاتساع والارتفاع، ومن حيث كبر الحجم وروعة الهندسة والاتقان في كلّ شيء»(2).

---

(1) الشعب، عدد 7418، الصادر في 7 من المحرم 1408هـ (1 سبتمبر 1987م).
(2) الشعب، عدد 7419،الصادر في 8 من المحرم 1408هـ (2 سبتمبر 1987م).

ثم يعرّج الكاتب في خضم المشاعر المختلفة على ذكر المجازر التي ارتكبها (ستالين)(*) في الاتحاد السوفياتي) خلال سنتي (36—1937) ومجازر (هتلر)(**) في 1943 على حدّ سواء، ومجازر الاستعمار الفرنسي في (الجزائر) خاصة في شهر ماي 1945م.

وعند الاقتراب من نهاية الحديث في القسم الثاني من الرحلة تتكثّف مشاعر الكاتب، فيعبّر عن احساسيه وخواطره أكثر، وقد بات مشحونا بشتى الانفعالات حتى المتناقضة منها، مما أطلق لسانه بالشعر بشكل لم يسبق له مثيل كما قال، فيعلن ذلك بودّ شاعر يتلقى التشجيع من صديقه (الحفناوي هالي) فبدا أن الجوّ الجديد وصفاء الذهن مع بعض البشر هي من العوامل الأساسية التي تفتق الذهن فتزيح كابوسا عن فكر المرء وتطلق لسانه من عقاله، حيث أعرب الكاتب هنا أيضا عن حسّ أديب يثور للصورة القبيحة المؤذية في شكل حطام ودمار، ويطرب للصورة الجميلة واللفتة الظريفة والمناخ المترع بشرا وجمالا وسلاما، كما عبّر عن ذلك في هذه المقتطفات وغيرها «كيف يتسنى لمن يحبّ الهدوء والسكينة مثلي ويجنح للانفراد والعزلة أن يقول أو يكتب في مهرجان الهرج والمرج الذي يشبه يوم الحساب، يرى الناس سكارى وماهم بسكارى، ولكنّهم حيارى من كثرتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم،وتباين طبائعهم وسلوكهم، لكن على الرغم من ذلك كانت قريحتي أخصب منها في أي يوم، وكانت شاعريتي أكثر انتاجا منها في أيّ وقت، وقد يكون من أسباب ذلك وجود شاعر معي في هذه الرحلة، وقد يكون مبعث الشعر أيضا في هذه الرحلة

(*) جوزف ستالين (1879—1963م) من رجال الدولة في الاتحاد السوفياتي، حيث صار في 1943 قائدا عاما لجيوش الاتحاد السوفياتي، ونسبت إليه مجازر جماعية أصابت خصومه بالخصوص.

(**) هتلر (1889—1945م) أشهر شخصية نازية في ألمانيا، تولى الحكم في ألمانيا سنة 1934، وتزعم الحزب الألماني الوطني، وأعلن الحرب العالمية الثانية، وعند هزيمته انتحر سنة 1945م.

سببا عاطفيا صرفا لم يسبق لي أن رأيت مثله في حياتي، فحيثما اتجهت وجدت آثار الحرب صارخة مثيرة في هذه المدينة المنكوبة...فإن الانسان لا يملك مع هذه المناظر المثيرة والخواطر والأحاسيس الجياشة زماما لنفسه وعواطفه أن تتحرّك أو تثور ضد الظلم والطغيان من أيّ كان، وحيثما كان...وكذلك مظاهر الفرح والبهجة والسرور الطاغية التي يتبادلها شباب العالم من كل جنس ومن كل دين في هذا المهرجان الصاخب...كنت بين هذه العوامل المتناقضة المختلفة من الفرح والحزن والبهجة والأسى والخراب والتشييد»[1] وقد صوّر شيئا من هذا بوضوح في قصيدته (فرصوفيا) التي ترد في القسم الثالث من هذه الرحلة.

وبانتهاء المهرجان انطلقت الوفود العالمية عائدة إلى بلدانها، فعاد الكاتب ضمن وفده بالقطار إلى (تشيكوسلوفاكيا) وكانت العودة في هذه المرحلة عبر نفس الطريق حتى (فيينا) ومنها أخذوا القطار «المتجه غربا إلى سويسرا في الصباح الباكر»[2] فعبروا (النمسا) من أقصى شرقها إلى أقصى غربها «بين سلاسل من جبال الألب الغربية الشامخة التي يكسو الثلج قممها في عزّ الصيف....شاهدنا في طريقنا مراعي خضراء زاهية عليها كثير من قطعان الماشية وأحراشا وغابات وقليلا من المزارع والفلاحين» فوصف الكاتب الطبيعة في (سويسرا) كما ذكر المدن التي مرّوا بها ولم يتوقفوا الا في (جنيف) التي أمضوا بها ثلاث ساعات، وبعد وصف مقتضب لكن دالّ انصبّ على بعض المظاهر فيها انصرف للحديث عن الجانب التاريخي لـ(سويسرا) الحديثة التي اقترن اسمها بالحياد «التام الدائم في النزاعات الدولية منذ 1815»[3].

---

(1) الشعب، عدد 7423، الصادر في 13 من المحرم 1408هـ (7 سبتمبر 1987م).
(2) الشعب، عدد 7406، الصادر في 23 ذي الحجة 1407هـ (13 أوت 1987م).
(3) الشعب، عدد 7407، الصادر في 24 ذي الحجة 1407هـ (19 أوت 1987م).

ومن (جنيف) انطلق الوفدُ مستأنفا رحلة العودة عبر (فرنسا) عن طريق (ليون ـــ مرسيليا) أي غير الطريقَ الأول في الذّهاب إلى المهرجان، فيعطي الكاتب في (ليون) لمحة تاريخية ـــ جغرافية مختصرة جدا عن المنطقة والمدينة الثالثة في (فرنسا) ذات الموقع الاستراتيجي، كما يتحدّث عن الوصول إلى (مرسيليا) حيث قضى الجميع الليلة انتظارا للرجوع في اليوم التالي على متن طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، فيذكر أن لا أحد اهتم بهم في (مرسيليا) فكان الاهمال والصمت يلفّهم باستثناء الحزب الشيوعي الفرنسي الذي اقتنص الفرصة فالتقاهم وسألهم عن مشاهداتهم كي يوظف ذلك لخدمة الحزب.

حدثنا الكاتب في القسمين: الأول والثاني عن بداية الرحلة إلى المهرجان في 25 جويلية(*) وافتتاحه في الواحدوالثلاثين منه حتى الرابع عشر، ثم العودة من (فرصوفيا) حتى (مرسيليا) برّا ومنها إلى (الجزائر) جوّا، فانتهت بذلك الرحلة في الثامن عشر من شهر (أوت) فماذا يضيف الكاتب اذن في القسم الثالث الذي أسماه «من وحي الرحلة» ؟

أول ما يذكره فيه على شكل تمهيد: أن هذه الرحلة تعتبر رحلته الثانية إلى (أوروبا) بعد الأولى التي كانت إلى (اسبانيا) في 1954 «مع نخبة من قادة الكشافة الاسلامية الجزائرية لا يتجاوز عددهم الاثنى عشر»[1] يومئذ، وقد تضمن هذا القسم قصيدتين طويلتين وملحقا، القصيدة الأولى بها مدينة (فرصوفيا) المحطّمة، وصف جمالها وفعل الآثمين في الحرب بها، وعهدها الجديد، وتاريخها، وقصر الثقافة فيها ولسان حاله، كما وصفه نثرا في القسم الثاني، فذكر أقسامه ومعارجه وطوابقه إلى آخر ما هنالك من مناظر تستعيد بعض الصّور التي مرّت في القسم النثري.

(*) وان انطلقت من مقر سكنه في الرابع والعشرين حسبما ذكر.

(1) المخطوط، ص 74.

أما القصيدة الثانية فهي بعنوان «شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب بوارسو سنة 1955»[1] يصف فيها حالة حب غزت نفس صديقه (الحفناوي هالي) كما تخيلها الكاتب بعد لقاء الفتاتين البولونيتين على ضفة النهر ذات مساء من يوم أحد في (فرصوفيا) فكيف تخيل الكاتب ذلك ؟

هي مجرّد تخمينات استنتجها الكاتب من الموقف، فوصفها وصفا شفافا، حيث بدا له أن صديقه الشاعر تأثر بجمال الفتاتين ولطفهما، فزعم له أنه اخترع جهازا لجسّ العواطف ورصدها وجرّبه عليه وهو نائم مساء ذلك اليوم بعد فراق الفتاتين «ففي ذلك المساء عندما أرخى الليل سدوله وأخلد الشاعر الأديب للراحة واستسلم للنوم، بدأ يحلم ويستعرض مامرّ عليه في تلك العشية، ركّبت له الجهاز ليسجّل ما يدور بخلده ويهفو له قلبه وتتطلّع له نفسه من أمان عذاب، مصحوبة بمختلف الأحاسيس وشتّى الهواجس والوساوس ممّا جبل عليه حسه المرهف وطبعه الحساس، فنجحت المحاولة وسجّل الجهاز تقدّما باهرا في دراسة هذا الجانب الخفي من نفسية شاعرنا الأديب، وتصوير مشاعره وتخيلاته، وأحسب أنه جسّ أنفاسه وسبر أغوار نفسه، وقاس درجة حرارته...وها أنا الآن أسلّم هذه الصورة الحية الناطقة لذلك التسجيل النادر في شريط واف ظريف لقصة أدبية ممتعة...فليعذرني صديقي ورفيقي في الرحلة إذا لم تعجبه بعض المناظر والحالات في الفيلم...هي مناظر وحالات مرّت على الجهاز فسجّلها»[2].

هذه المناظر والحالات هي التي تجسّدت في القصيدة (شيخ من صحراء الجزائر) التي تخللتها عناوين فرعية يعبّر كلّ واحد منها عن مضمون

(1) المخطوط، ص 87.
(2) المخطوط، ص 74.

المقطع، بدأت بعنوان (شيخ يتصابى وآخر يتزمت) ثم (الحبّ وأثره) (مهرجان فرصوفيا) (على ضفاف الفستول) (الغيد والغلمان) (حوار وحيرة) حيث يبدأ هنا في وصف صلب القصة التي يقول في أجزاء منها :

هذا الشباب الغضّ واللّطف الذي يسبي العقول بسحره الفتّان
ربّاه كم للحسن من أثر على إنسانك المفتون بالنسوان
وتأبّطتنا ثم شقّت نفسها بل قلبها شطرين في اطمئنان
يا ويلنا كيف السّبيل أنقتدي بالكاعب الرعبوب في إذعان
ونصير كالجديين بين جآذر مستسلمين كأودع الخرفان
واحسرتا نفسي وحيرة صاحبي أأشق قلبي مثلها ولساني
وعلمت أنّي ان أبيت لقاتل شخصا بريئا للهوى ناداني
أهلا وسهلا بالبلاء ومرحبا بالامتحان لمستوى ايماني

وهذه الأبيات التي تصف جانبا محدودا جدا من المشاعر التي تخيلّها الكاتب ــ الشاعر في نفس صاحبه هي من فقرات مختلفة، في (حوار وحيرة) (اهتداء وعتاب) و(كل منا بين اثنين) ويختم القصيدة بفقرة عنوانها (توبة وانابة الشيخ) منها:

رحماك ربّي لا تؤاخذ من صبا(*) رحماك، كم للحبّ من سلطان
أنت الجميل وكلّ ما أبدعته حقّا جميل فاتن أغراني

وهي قصيدة طويلة جميلة في مئة وبيتين (102) من صفحة سبع وثمانين حتى اثنتين وتسعين، قدم لها الكاتب بتمهيد نثري عن الجهاز الذي «اخترعه» لجس حال صاحبه: أحاسيس وهواجس، وبعث له بالتمهيد المؤرّخ في (15 سبتمبر 1955) بعد الرجوع من الرحلة.

(*) «صبا يصبو صبوة، مثل شهوة، مال إلى الشيء، يميل ميلا»، من شرح الكاتب نفسه في هامش الصفحة 92.

والقصيدة على مستوى جيد فيما زخرت به من الصور والفكاهة في وصف ما تخيله الكاتب يدور في نفس صديقه، كما هو بشكل ما انعكاس لما كانت تمور به نفسه هو من مشاعر وانفعالات مختلفة في علاقتها بالحدث.

أما آخر موضوع في هذا القسم فهو الملحق بعنوان (التعريف ببولونيا) عن موقعها وتسميتها ومساحتها، والسكان والمواد الطبيعية، ونظام الحكم فيها، وعاصمتها وشعارها وعلمها، والتقسيم الاداري فيها، ومكانتها الدولية. وهي معلومات ذكر أنه أخذها من كتيب ذي طابع سياحي بعنوان (بولونيا: وقائع وأرقام) غير أنّ أهمّ شيء في هذا القسم الثالث هو القصيدتان لما صوّرتاه من مشاعر صاحب الرحلة وهو يصف حال مدينة (فرصوفيا) وحال رفيقه في الرحلة بعد جولة مسائية في ذات يوم أحد بالمدينة على ضفاف نهر (الفستول).

ان رحلة (محمد الصالح رمضان) إلى (فرصوفيا) أغنت تجربته بعلاقاته ومشاهداته في تلك الفترة المبكّرة (1955م) فاستمتع بالرحلة واستفاد منها، وأسهم بالجهد الممكن في التعريف بوطنه وقضيته حين كانت ثورة التحرير الجزائرية (54ـــ1962م) تدخل الشهر التاسع من عمرها، كما استطاع بحسّ الأديب ورجل الفكر أن ينقل لنا وصفا في معظمه كثير من الحيوية للطريق خاصة في الذهاب من (مرسيليا) حتى (فرصوفيا) ولأجواء المهرجان، ومشاعره الخاصة أثناء ذلك كله.

وكما كان كثير الوصف للمناظر الطبيعية وبعض المواقف الانسانية فإنّه كان كثير الاهتمام بالجانب الجغرافي والتاريخي بالخصوص، خاصة فيما يتعلّق بموقع (ايطاليا) وبعض مدنها وحروبها، وكذا (فرصوفيا) خاصة و(بولونيا) عامة، وما فاته من معلومات في أثناء الحديث عن (بولونيا) عموما في صلب الرحلة استدركه في الملحق بالقسم الثالث للتعريف بها: وطنا وموارد وسياسة،

حتى بدا هذا الاهتمام بالجانب الجغرافي والتاريخي دروسا فيهما لا مجرّد انطباعات في نسيج الرّحلة تفيد القارىء وتمتعه ولا تجهده، فعل ذلك للتعريف بالبلد وتاريخه لافادة قارئه، وهو ما كشفه حين جاء الحديث عن (فرنسا) فقال «لم أعرّف بفرنسا كما فعلت مع الدّول التي مررنا بها، لأنّها معروفة لقرائنا أكثر من تلك الدول»(1).

وهذا لم يمنعه من وصف المعالم والمواقع والمسالك وصفا عامّا في سياق أدبي ــ جغرافي كما نرى في العودة عبر الأراضي الفرنسية «من جينف عدنا إلى فرنسا عبر طريق (ليون مارساي)(*) وهو غير الطريق الذي انطلقنا في الذهاب من مرسيليا...هذا الطريق الذي نسلكه الآن هو أهمّ طريق طبيعي بين سويسرا وفرنسا يمرّ بـ(ليون) ثالث المدن الفرنسية...ويبدو الطريق أحيانا مسدودا بين ليون ومرسيليا لوجود تلال (الماسيف سنترال) وجبال (الفوج Voge)(**) من جهة، وبين تلال وجبال الفوج والجورا(***) من جهة أخرى، ولكنّه هام جدا تخترقه أهم الخطوط الحديدية الفرنسية (خط باريس ليون مرسيليا)(****)ويتفرّع منه خطوط أخرى تربط ما بين فرنسا وسيويسرا، وايطاليا، فهو الشريان الحيوي الكبير لحركة النقل والمرور بفرنسا، بذلك صارت مرسيليا أكبر موانيء فرنسا وأعظم منفذ لتجارتها مع الخارج، وهي محطة هامة للتجارة الدولية». وهذا الجنوح إلى الوصف

---

(1) الشعب. عدد 7408، الصادر في 26 ذي الحجة 1408هـ (20 أوت 1987م).

(*) أنبه إلى أنني أنقل الكلمات حسبما رسمها الكاتب، فهو هنا لم يفصل بين كلمتي (ليون) و(مرسيليا) وقد كتب هنا (مرساي) وكتب في مواقع أخرى (مرسيليا) وأنا أحترم ذلك، ولم أتدخّل حتى لاضافة فواصل في مواقع كان ينبغي أن تكون فيها الا ما قد يكون جاء سهوا نادرا.

(**) لم تحصر كلمة «الفوج» بين قوسين في المنشور، كما لم ترد فيه بالحرف اللاتيني، وقد وردت هكذا في المخطوط بين قوسين. انظر: ص 43 من المخطوط.

(***) (Le Jura) سلسلة جبال ذات تنوّع بغاباتها وأوديتها وشلالاتها، موطن العلامة الفرنسي المعروف (باستور Pasteur) 1822ــ1895م) انظر:

—Dictionnaire Encyclopédique Larouse, V.I. p.768. ed. 1979.

— Le Grand atlas universalis de geographie, p.63, Paris, 1984.

(****) لم يرد أيّ فاصل مابين أسماء هذه المدن، لا في النص المنشور ولا في المخطوط.

الجغرافي المطعّم بحسّ أدبي كثيرا ما تآزر مع الوصف الأدبي الخالص كما نرى في هذه الفقرة عند وصف الطريق في الذهاب بعد المرور بكل من (نيس) و(موناكو) هكذا مررنا بالساحل اللازوردي مرور الكرام نتمتّع بالنظر إليه من القطار، فنرى حمرة سطوح منازل المدن وبياض جدرانها، بين خضرة المزارع والغابات والأحراش، وبين زرقة البحر والسماء، في يوم مشمس منعش، والقرى الصغيرة والمباني المنتشرة في ذلك الساحل الأخضر، فتتخيلها قطعا من الجواهر المختلفة الأشكال والألوان، منثورة على بساط سندسي من القطيفة الخضراء، ياالجمال المنظر الطبيعي الأخّاذ.»(1)

مع ذلك يمكن أن نقول: أن هناك بعض التقصير في نقل انطباعات تفصيلية عن العلاقات اليومية في الحياة العامة، في جزئياتها المنظورة بسلبياتها وايجابياتها، فاكتفى الكاتب غالبا بالأمور العامة، وقليلة هي الأمور الصغيرة والخاصّة التي حظيت بعنايته، خاصة في (فرصوفيا) حتى بدا أنّ الكاتب شغله الاستمتاع بأجواء المهرجان فيها فوصف ما عنّ له في حينه، وحرص في النهاية على الافادة العامة بأمور تاريخية جغرافية، اقتصادية وسياسية.

هذه الملاحظة تجرّنا إلى القول: إن الكاتب أخضع من البداية عمله إلى خطة مسبقة، فهو لم ينطلق يصف رحلته من بدايتها إلى نهايتها على نسق واحد يقتفي وصف ما يلفت نظره أو يريد التعريف به بشكل مركز دائما من بداية الرحلة وأثناءها وحتى نهايتها، بل أخضعها إلى خطة اقتضت تجزئتها إلى ثلاثة أقسام: وصف في الأول وصفا عاما الطريق والمدن خاصة الايطالية والسويسرية والتشيكوسلوفاكية، وعند الوصول إلى (فرصوفيا) سرعان ما أجّل الحديث عن (بولونيا) والمهرجان وشرع يصف طريق العودة إلى الجزائر. ثم يعود في القسم الثاني ليصف (بولونيا) وما أصابها من دمار، ووجهها الجديد، ومهرجانها الصاخب الذي ملأ الأجواء مرحا وحبورا.

(1) الشعب، عدد 7397 الصادر في 13 ذي الحجة 1407هـ (3 أوت 1987م).

وأثناء ذلك تحدث قليلا عن بعض الجوانب التاريخية والجغرافية والسياسية كما تحدث عن انطباعاته العامة، ومن بينها انطباعه عن دمار (فرصوفيا) ونهوضها، وقصر الثقافة العملاق ولقاء الفنانين البولونيين في زحمة الأفكار والانطباعات المختلفة، فلم يدرج قصيدته في وصف (فرصوفيا) النّاهضة من الدّمار بأكثر من صورة مشرقة مثل قصر الثقافة في هذا القسم، كما لم يدرج فيه قصيدته عما أثارته الفتاتان في نفس صاحبه (هالي) كما تخيّل ذلك، بل أجلهما ليدرجهما في قسم ثالث تحت عنوان «من وحي الرحلة» أورد فيه القصيدتين مع مقدمة توضّح خاصة بشكل مفصّل فكرته التي أوحت إليه بقصيدته «شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب بوارسو سنة 1955» تبعهما تعريف بـ(بولونيا) نجد في آخره ملاحظة تفيد أن التعريف استقاه من كتاب أو بالأحرى نشرة سياحية اعلامية بعنوان «بولونيا وقائع وأرقام» مطبوعة في (1970م).

وهذه الاشارة تجرنا أيضا إلى ملاحظة مهمة وهي أن تاريخ تحرير الرحلة يذكر 1955/19/15م) لكننا نجد حديثا عن أمور بين (بولونيا) و(الجزائر) حدثت بعد استقلال (الجزائر) كالحديث عن علاقات الصداقة والتعاون بين (بولونيا) و(الجزائر) التي «ما انفكت تتطوّر وتتوطّد باطراد من سنوات، وتمخّض عنها توقيع عدة اتفاقيات بين البلدين في ميادين الاقتصاد والاجتماع والثقافة والفنّ والرياضة»[1] كما أن هناك حديثا عن (تشيكوسلوفاكيا) في واقع متأخر مثل «الحكم فيها اليوم يقوم على أساس دستور 1960/7/11 كدولة موحّدة»[2].

بل هناك ماهو أكثر تحديدا في فترة متأخرة «هناك أسبوع صداقة ومودّة بين مدينتي براغ والجزائر ينظّم سنويا فيما بين 12 و19 جوان في اطار التوأمة بين العاصمتين، صارت هذه التظاهرة تقليدا قائما من سنة 1965»[3] وغير هذا كثير مما هو مبثوث في ثنايا الرحلة. وهذا يعني

(1) المخطوط، ص 96.
(2) المخطوط، ص 97.
(3) المخطوط، ص 33.

باختصار أن الرحلة بقيت مادتها الأساسية مسودّة مدة طويلة، وعند التحرير في فترة متأخرة أو في عدة فترات أضاف إليها الكاتب ما رآه مفيدا للقارىء من الجوانب التاريخية والسياسية بالخصوص، اضافة إلى بعض الأفكار والملاحظات. أو ربما سبق له تحريرها النهائي الأول ثم أخضعه للمراجعة تنقيحا واضافة ما بدا له فيه اثراء للرّحلة وافادة للقارىء.

لكن المهم أن هذه العملية نجا منها الجانب الأدبي العام في مسار الرحلة، فبقيت الانطباعات والملاحظات تحمل حرارة الحدث وتعكس احساس صاحبها وانطباعاته المختلفة عن الطبيعة والانسان ورؤاه في كثير من الأشياء المختلفة في العلاقات الانسانية، وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها، وهي أن لم توح باعتمادها على مذكرات يومية تسجّل تتابع الأيام فقد أوحت معظم فقراتها بأنها كتبت في يومها أو في فترة قريبة من ذلك اليوم، لكنها أخضعت للتّحوير عند الترتيب تبعا للتقسيم الذي لجأ إليه الكاتب في تجزئة الرحلة إلى ثلاثة أقسام.

والرحلة أولا وأخيرا هي رحلة استطلاعية سياحية أدبية ناضجة بطابعها الفكري وظلاله السياسيةعلى مستوى فني جيد. لم تكتب لمجرد التسلية الخالصة والتسجيل العشوائي لمعلومات تاريخية وجغرافية مشتّتة، بل جاءت هذه المعلومات نفسها سريعة مركزة، وغالبا في صميم الرحلة ضمن سياق أدبي عام( ) كان مفعما بكثير من المشاعر والوقفات المختلفة: الفكرية والعاطفية الجيّدة بأبعادها السياسية والشخصية والاجتماعية وغيرها.

( ) هذا ينسحب عمّا ورد في ثنايا الرحلة، أما «التعريف ببولونيا» في نهاية القسم الثالث الأخير ضمن صفحتين ونصف من المخطوط، فهو مجرد ملحق يتمم معلومات ولا يكتسي الصفة الأدبية.

رحلة (مالك بن نبـــي) :

رحلة (مالك بن نبي) إلى (باريس) سنة (1930م) تضمّنها كتابه (الطالب)[1] وهو الجزء الثاني من (مذكرات شاهد القرن) وفيها صوّر مختلف المراحل التي مرّ بها في تطوّر صلاته بمدينة (باريس) منذ حطّ رحاله فيها صباح يوم من شهر (سبتمبر 1930م) فتنقّل في البداية كأيّ طالب غريب عن المحيط بين الفنادق بحثا عن فندق لا يتضرّر منه جيبه حتى انتهى إلى فندق متواضع في (باب سان دونيس) في شارع اكتشف أنه وكر لبنات الهوى ممّا آذى حسّه «فكانت دعوتهم تقرع أذني كلّما خرجت من الفندق أو عدت إليه. هكذا استقبلتني (باريس) بوجه بناتها الطائشات الكاسيات العاريات العارضات لزينتهن وعرضهنّ دون أيّ شعور بالاثم»[2].

هذه الصورة التي آذت حسّه فعكّرت نفسه من البداية ليست بالضرورة وحدها صورة (باريس) ذات الوجوه الأخرى المختلفة التي تتطلّب وقتا للتعرّف، وهو ما انطلق فيه الكاتب متردّدا حذرا منسجما نفسيا مع جوّ الخريف في انتظار الامتحان والدراسة «الخريف يحدّث النفوس بالوداع والحنين، وربّما كان هذا الشعور يلتئم مع وضعي في تلك الفترة الانتقالية بين ماض قريب ومستقبل لازال غامضا، لقد بدأت بحياتي فرتّبتها في انتظار يوم امتحان الدخول إلى معهد الدراسات الشرقية»[3].

ووضعه هنا يعكس بوضوح صورة عن وضع أي طالب أجنبي يحلّ بباريس مبكرا قليلا، فتكون له الفرصة للتعرّف على بعض وجوه الحياة، في خطوات يكون فيها كثير من الاكتشاف والخطأ والصواب معا، كما يتداخل فيها مقت مظاهر واعجاب بأخرى في حركة تبقى في حاجة إلى وقت وجهد لمعرفة الأشياء والحياة خاصة بالنسبة لواحد من الريف أو من بلد لا يزال متخلفا، في مختلف أنماط حياته العامة.

(1) مذكرات شاهد القرن، الطالب، مالك بن نبي، دار الفكر، ط 1، بيروت 1970م.
(2) المصدر السابق، ص 10.
(3) المصدر السابق، ص 11.

وقد بدأت معاناة الكاتب هنا ابتداء من أنفاق (الميترو) وحركة المرور في الساحات الكبرى والشوارع حيث يصف الكاتب ذهوله في أحد المواقف بميدان (كونكورد) المعروف فيقول «ذهبت لاكتشافه ذات عشية عند الغروب في ساعة يكتظّ فيها مرور السيارات بسبب الخروج من العمل، وهاهي المصابيح تضيء بنورها الكهربائي محيط الميدان الفسيح دون أن تزيح الظلام المخيّم على وسطه تماما، فعزمت أن أعبر إلى الناحية الأخرى، ولم أكن على خطّ مرور المارة فانتظرت فحسب أن ينقطع سيل السيارات من ناحيتي، وانطلقت في فضاء الميدان الشاسع، فلم أقطع الاّ ستة أو سبعة أمتار حتّى رجع السيل وطوّقتني السيارات من كلّ جانب، خط يسير أمامي وخط ورائي، لا يترك كل خط الا قدر القدمين لهذا الرجل المذهول الذي يبدو للناظر أنه امرؤ يريد الانتحار، كما يبدو أن سائقي باريس لا يحبون من يأتي ليلقي بنفسه تحت عجلاتهم، فكانت كلّ سيارة تتجنبني قدر الإمكان»[1].

ثم يمضي في (باريس) الصّاخبة يبحث عن طريقه إلى معرفة وجوه من حياتها، كما يبحث عن سبل ترتيب حياته الاجتماعية لمتابعة الدراسة، حتى انتهت به ذات يوم خطواته إلى (ناد) يحمل اسم «الوحدة المسيحية للشباب الباريسيين» حيث لفت نظره على بابه سعر زهيد لوجبة طعام من دون أن يفهم ما ترمز إليه حروف أبجدية سوداء كبيرة على بابه، فوجد أن ثمن الوجبة يلائم جيبه، فلم يتردّد في الدخول حيث أدرك اسم النادي أو (الوحدة) التي تدعى أيضا (جهورية تريفيز) وطريقة الانتساب التي تتمّ باستمارة تحرّر، يحدّد فيها دين المرء «وأصبحت هكذا عضوا مسلما في (الوحدة المسيحية) وما كان الأمر كهذا أن يكون عاديا في سجلات المنظمة...ولكنني شعرت أن الشاب البشوش الذي دلّني زاد اهتماما بأمري منذ تلك اللحظة، اهتمام تخالطه المودة والفضول،

(1) مذكرات شاهد القرن، الطالب، مالك بن نبي، ص 15.

فتقدم ليطلعني على مرافق المنظمة، فاتبعته ونحن نتجاذب الحديث، يسألني عن الجزائر والاسلام وأسأله عن تفاصيل الحياة في هذا المحل. كانت هذه الوحدة تدار وتنظم شؤونها طبقا لضرورات شباب يدرس أو يعمل بعيدا عن بيوت الأهل»(1).

في هذا الوسط بدأ يتفتّح وعيه على كثير من المشاكل ذات الطابع الرّوحي، حيث لا تغيب من جهة أخرى «شاردة ولا نادرة عن ملاحظة المسؤولين، وفي اليوم الثاني وربما اليوم الثالث بينما أتناول قهوتي بعد الغذاء إذا برجل شاب يقف إلى جانبي مبتسما: أراك منعزلا، أليس لك بعد أصدقاء ؟ ذلك الرجل هو السيد هنري نازيل الذي يدير مع زوجته اللطيفة روحيا وماديا شؤون جمهورية تريفيز»(2) فيثني الكاتب على (نازيل) الذي عرّفه باثنين صارا صديقين له أحدهما جزائري «اعتنق المسيحية وهو طفل يرتع مع أقرانه في جبال القبائل»(3) فاندمج في المجموعة رغم أنه بقي أغرب عناصرها لكونه مسلما جزائريا. و(نازيل) في انطباعات الكاتب عنه هو مسؤول المحل وصديق الجميع من رواد الوحدة، يلتفّون حوله بودّ ظاهر، فيغمرهم بالتحيات مما جلب احترام صاحب الرحلة واعجابه وتقديره أيضا «كانت هذه الألوان الاجتماعية غريبة عنّي بأنسها وبساطتها، لم أعهدها حول عالم من علمائنا ولا زعيم من زعمائنا»(4).

وصف الكاتب محيط هذه الوحدة الاجتماعي بما فيه من أنس ولطف انساني وتوادد سمته البساطة والتواضع، ربّما هو ما اعتبر تأثيره شديدا فيه، وقد كان مطبوعا على التقوقع عن نفسه، ولا يرى في رجال الدين والعلم عموما في وطنه السلوك الاسلامي الحميد الأصيل في الاقتراب من حياة الناس وعونهم، وفهم معاناة الأفراد واقامة صلات المودّة والرحمة بينهم.

---

(1) المصدر السابق، ص 19.
(2) المصدر السابق، ص 21.
(3) المصدر السابق، ص 22.
(4) المصدر السابق، ص 23.

هكذا بدأت تتكثف انطباعات الكاتب في انتظار امتحان الدخول إلى (معهد الدراسات الشرقية) وما أن أقبل على الامتحان ثم فرغ منه حتى اكتشف رسوبه، بل استدعاه (المدير) وأبلغه استحالة نجاحه، فكانت كلماته أشبه بأمر يعلن تنفيذ حكم الاعدام «فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي»(1).

لكنه سرعان ما وجد في (مدرسة اللاّسلكي) ضالته، فغيّرت مجرى اتجاهه تماما كما عبّر عن ذلك بقوله: «غيرت جذريا اتجاهي الفكري، إذ أنّها أسكنت في نفسي شيطان العلوم» (2) فالتحق بها طالبا جادا، كما انطلق يوثّق صلاته في الحيّ اللاّتيني، فتتعمّق معرفته بالمجتمع؛ ويبدأ وعيه السياسي يتسع وينضج أكثر، خاصة أنه طفق يربط صلات بأصدقاء من (الجزائر) و(تونس). من منبع هذا الوعي راح يتابع بعض النشاطات المختلفة، كما مضى يتابع أخيرا استعدادا باريسيا لاقامة معرض المستعمرات «إشادة بالعهد الاستعماري وبلوغه الأوج»(3). فقرّر باقتراب الصيف البقاء في (باريس) لمشاهدة المعرض «الذي أصبح مجال ملاحظاتي وتأمّلاتي عن (الشعوب المقيّدة وعن الصور الكاريكاتورية التي تعطى عنهم، خصوصا عن الشعوب الاسلامية»(4)

وهكذا صار الكاتب مع مرور الأيام والشهور واحدا من سكان (باريس) فما لبث حتى اندمج في نشاط سياسي طالبي خاصة مع أبناء المغرب العربي، وقد بدأت تكشف له الأيام بمرور الشهور عن وجوه مختلفة للحياة في (باريس) كما بدأت تكشف له عن الوجه الأكثر بشاعة

(1) المصدر السابق، ص 27.
(2) المصدر السابق، ص 31.
(3) المصدر السابق، ص 44.
(4) المصدر السابق، ص 49.

للاستعمار الفرنسي العنصري البغيض الذي لا تغمض له عين في ترصّد الحسّ الوطني في نفوس المغاربة والجزائريين منهم بالخصوص وملاحقته ليحول دون تأثيره، كما يوصد الأبواب أمام المواطن الجزائري لقهره وإذلاله لتفتح على مصراعيها للأوروبي لسيادته ورفاهيته. فقرار المدير في (معهد الدراسات الشرقية) في (باريس) لم يكن يختلف عن موقف المدير لشؤون الطرق في (تبسة) قبل سنة الذي حرمه من استغلال امكاناته ووسائله، فيصف الكاتب انطباعه هذا بعدما أعلن له مدير (المعهد) استحالة قبوله في معهده «أدركت في تلك اللحظة نفسها ما سيتبع عبارات المدير من نتائج عملية، دون أن أحلّلها، إذ لم أكن بعد قد اكتسبت خبرة هذا التحليل الذي يريني اليوم بكل وضوح درجة القرابة بين هذه العبارات وما قاله لي قبل سنة مدير شؤون الطرق بمدينة تبسة عندما سألته عن شروط المساهمة في المزايدة التي تجري كلّ سنة تحت اشرافه لتصليح الطرق أو لفتح طرقات جديدة في الناحية، وقد اهتممت حينئذ باستغلال وسيلة نقل كانت لدي استطيع بها نقل مواد الطرق من أحجار وغيرها. ولكن عوض أن يدلي الّي بالمعلومات المطلوبة أدلى إلّي سيادته بنصيحة:

ــ ألا تبيع ما عندك من وسائل نقل إلى مسيو كانبون أو مسيو سبيتري فإن المزايدة بين أيديهما.

واليوم بعد أربعين سنة أرى بكل وضوح أنّ الرجلين، المدير المتواضع لشؤون الطرق بتبسة والمدير المحترم لمعهد الدراسات الشرقية، إنما كانا يتكلمان لغة واحدة، لغة الاستعمار»(1).

وصف الكاتب في رحلته هذه بداية احتكاكه بالمحيط في (باريس) وتطوّره، فلم تنقض بضعة شهور حتى وثق صلاته واستقرّ في دراسته بمدرسة (اللاسلكي) ثم بدأ يتوغل في الهموم السياسية والفكرية مشحونا بمعاناة وطنه، فمضت رحلته الثقافية تتخذ توجّها سياسيا ملحوظا بمرور

(1) المصدر السابق، ص 25.

الأسابيع، في ملاحظته السياسة الفرنسية عن كثب والنشاط السياسي للطلبة الجزائريين والعمال أيضا، وما يصله من أصداء نضالية في (الجزائر).

والاهتمام الثقافي والسياسي كان متوازيا أو متكاملا مع اهتمامه الاجتماعي بجوانب مختلفة من الحياة في (باريس) في البيوت وفي الشارع نفسه ممّا يمثّل وسطه الجديد، فوصف جوانب مختلفة من حياة الباريسيين وأفكارهم، مقاهيهم ومطاعمهم وأسواقهم وشوارعهم، وأناقة الباريسية التي تتأذّى حتى من عصافير مدينتها نفسها، كحال تلك التي وصفها تطلق صرخة فزع مدوية في أمسية خريفية و«قد أصابتها فوق شعرها أو فوق معطفها الجميل فضالة ألقاها عصفور من أعلى الشجرة. العصافير الباريسسية هي بكلّ جدّ (أقبح سكان باريس) ينشرون الذعر على أرصفة المدينة وفي حدائقها عندما يتخلصون ممّا في بطونهم، خصوصا فوق رؤوس السيدات.

كانت تلك العشيات الخريفية من فترة انتظاري الدخول لمعهد الدراسات الشرقية خصبة جدا في الانطباعات من كلّ نوع، تلك الانطباعات التي كونت بالنسبة إلي المعلومات الأولية عن وسطي الجديد»[1] وهي معلومات ازدادت كثافة وتطوّرا ووضوحا بعد مرور أسابيع ثم شهور، وقد انصرف بمرورها اهتمامه من طالب يفكر في فتح مكتب محاماة بـ(تبسة) بعد سنوات الدراسة في (معهد الدراسات الشرقية) إلى طالب في مدرسة (اللاسلكي) مسكون بحبّ العلوم، ثم سرعان مابدأ يبعده طموح جديد أيضا عن هذه المدرسة في اتجاه علمي آخر من العلوم الانسانية مثل الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع تحت تأثير زميل له جزائري في فرع الفلسفة يدعى (حمودة بن الساعي): «عندما تعود إلى اليوم بعض ذكريات تلك الفترة أدرك أنني على أية حال أدين لحمودة بن الساعي باتّجاهي ككاتب متخصّص في شؤون العالم الاسلامي[2].

(1) المصدر السابق، ص 25.
(2) المصدر السابق، ص 54.

ورغم أن الكاتب حرّر الرحلة في (1969م) بعد نحو أربعين سنة من حدوثها فإننا نلمس بوضوح حرارة الاحساس وصدق التعبير عن كثير من القضايا والمواقف ودقة الوصف في مواضع لمنظر أو تصرّف أو حركة، واتّسم هذا الوصف في مواقع كثيرة برونق أدبي ودقّة في نقل المشاعر وتجسيد المشاهد والمواقف وعرض الآراء. ويبدو لذلك أنه اعتمد في الكتابة أحيانا نقاطا وملاحظات مكتوبة، ربّما كان يسجلّها أثناء الرحلة أو بعدها بقليل، فاسترشد بها في الصياغة بعد نحو أربعين سنة ولم يكتب كلّ شيء من الذاكرة.

والرحلة في النهاية بقدر ما عكست هموم طالب جزائري ومطامحه وإحباطاته واهتماماته في محيط دراسي اجتماعي طلاّبي قد عكست أيضا من بعض الجوانب هموم وطن ومعاناته في ليل الاستعمار الفرنسي ممّا انعكس كثير من جوانب منه أيضا على أفراد وجماعات في داخله وخارجه.

رحلة (سعـــد الله) :

رحلة (أبي القاسم سعد الله) هنا كانت إلى (باريس) التي وصلها يوم 26 فيفري 1987م لالقاء محاضرة في ندوة بعنوان «نجم الشمال الافريقي والحركة الوطنية الجزائرية» بعد خمسين سنة من اعلان حركة النجم المطالبة باستقلال الجزائر منذ سنة 1927م وهي ندوة نظمها (المركز الثقافي الجزائري) في (باريس) الذي وجّه له الدّعوة، فكتب رحلته تلك بعنوان «في ملتقى النجم بباريس»(1)

وقد قبل الدعوة ــ كما ذكر ــ على أساس أن ذلك واجب وطني «قلت في نفسي: ان مسار حركة النجم يمتد من حوالي 1920 إلى 1954م. فجذوره هي حركة (الأمير خالد) وغصونه هي: حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات وثمرته هي ثورة التحرير المظفرة «فاختار» العامل الديني في الحركة الوطنية الجزائرية» وقد وصف الكاتب الجمهور الذي حضر الندوة، فكان من أكثر من جيل، مع رصد جيد لطبيعة الحاضرين

(1) جريدة الشعب، 21 شوال 1407هـ (18 جوان 1987م).

وانتماءاتهم «فيهم العجائز الذين أبيض شعرهم وصلع رأسهم، وفيهم الشباب الذين لا ينفكّون عن التعبير عن ةولائهم لأساتذتهم الفرنسيين، وفيهم الوطنيون الذين عاصروا الارهاق الاستعماري وحلموا وهم في غياهب السّجون باليوم الذي تشرق فيه شمس الحرية على بلادهم، وفيهم الشيوعيون الذين لا يرون في الدنيا الاّ اللّون الأحمر، ولا يفهمون من الانسان الاّ أنه حيوان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» فيوصف ذهابه إلى (الحيّ اللاتيني) المعروف حيث بادر بتسجيل اعجابه بوفرة الانتاج الثقافي: كتبا وصحفا ومجلاّت مثل وفرة الحرية في (فرنسا).

أما أعمال (الملتقى) أو (الندوة) فقد بدت في انطباعات الرّحالة: فرنسية علمانية من بدايتها إلى نهايتها، لا علاقة لها بالجزائر، فاللغة فرنسية ولم يرتفع صوت العربية الا في بحثه وبحث زميل له هو (قنانش)(*) فاختفى وجه (الجزائر) حتى من خلال ماجرت به العادة من افتتاح بالبسملة واختتام بالسلام عليكم، فلا قرآن ولا حتى دقيقة صمت ترحما على الشهداء: «كان ملتقى علمانيا بداية ونهاية ومحتوى» وقد اختلفت مستويات البحوث اختلافا كبيرا، مثل اختلاف مستويات الباحثين: العريقين في البحث والتأليف وحديثي العهد به ممّن لم تتعدّ كلماتهم مستوى تلاميذ المدرسة الثانوية، كحال إيطالية شيوعية تحاول أن تكون مستشرقة. كما تعدّدت أهداف حضور البعض ومشاربهم، حيث يسجّل الرحالة انطباعات مختلفة غلب عليها الجانب السلبي عن بعض الباحثين الجزائريين فيقول: «من الباحثين الجزائريين من ينتسب بالموقع إلى الجزائر وبالقلب إلى فرنسا، ومن هؤلاء بعض الباحثين الذين جاؤوا من وهران، فهم في الواقع قدموا صورة غير مشعة عن مستوى البحث المعمول به الآن، إنهم لا ينتسبون إلى الجامعة الجزائرية ومواصفاتها التعليمية و«التربوية والتوجيهية» فاتّخذ الكاتب من ذلك مناسبة ليبرز تبعية عمياء من بعض (الباحثين) عندنا إلى (فرنسا) والفكر الاستعماري قلبا وقالبا.

(*) صاحب كتاب «الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين» (1919—1939) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

وصف الكاتب جوّ الملتقى الذي كان يجري بأكثر من خلفية، أهمّها أنه بدا ملتقى فرنسيا بأموال جزائرية، يسوده الفكر الفرنسي الاستعماري، وحنين أبناء المدرسة الفرنسية الاستعمارية إلى ذكريات الشباب في العشرينات والثلاثينات، كما أن بقاء التبعية للمدرسة الفرنسية الاستعمارية برزت حقيقة واضحة بشكل مخز في الملتقى، بل ان الكاتب شكّك في أمر أكثر من وجه ذهب من (الجزائر) شكّك خاصة في صلته بالبحث والثقافة والجامعة الجزائرية بالخصوص «لاحظت أنّ من بين الذين ذهبوا من الجزائر من لا نعرف له هوية، وإنما هو من أولئك الصنف الذي يعيش بيننا متحرّكا بالليل ساكنا بالنهار، لقد ذكّرني أحدهم (بليون روش) ذلك الرجل الفرنسي الذي تظاهر بالاسلام واختار اسم عمر وتجسّس على الأمير عبد القادر حتى عرف كل سراره، ثم هرب إلى العدو».

وقد خرج الكاتب في رحلته هذه.. إضافة إلى ماسبق — بانطباعات مختلفة، منها ماهو ذو طابع ثقافي صرف ومنها ماهو عام. نذكر ماهو دالّ في وصفه وضعا من جهة، وموقفه من جهة ثانية، ومن ذلك انطباعه عّما هنالك من تركيز في الملتقى بخلفية استعمارية «على دور الفرنسيين في الحركة الوطنية الجزائرية، ويتمثل ذلك التركيز في النقاط التالية:

دور النخبة الجزائرية التي تبنت أساليب وتقنيات ولغة الفرنسيين...دور الشيوعيين الفرنسيين في تنشيط وايقاظ الجزائريين وتبنّي مطالبهم والدفاع عن قضاياهم...ولا يفرّق هؤلاء بين الشيوعيين الفرنسيّين الجزائريين، دور المرأة الفرنسية في تكوين وتنشيط القادة الجزائريين، فزوجات مصالي وعباس وسعدان وابن نبي الخ فرنسيات لهنّ ضلع في توجيه وبناء شخصية ازواجهن».

وقد تأثر الرّحّالة وهو يصف جوّ الملتقى لموقف اعتبرة مفاجأة الملتقى بالنسبة له «مافوجئت به حقا هو أن أحد المناضلين الجزائريين الذين ظلوا طيلة حياة النجم في المهجر يتعرّضون لكل أنواع الاضطهاد والذين

كانوا يحلمون بالجزائر الحرة المستقلة، هذا المناضل العجوز المتقاعد له ابن متجنّس بالجنسية الأميريكية، وقد اختار الاقامة في بلاد العم سام بدل بلاد الحاج محمد. وقد جاء الابن لملاقاة والده المناضل في العاصمة الفرنسية بدل العاصمة التي عمل الوالد طيلة حياته لكي تكون رمزا للحرية والجهاد... وجدت هذه الحادثة مأساة حقيقية».

هكذا رصد الكاتب أشغال الملتقى الذي حضرته وجوه مختلفة في الأعمار وفي المستوى العلمي وفي النيات الرابضة بالخصوص وراء البحوث التي دار معظمها في فلك غربي استعماري بمنهج فرنسي ولغة فرنسية وفكر استعماري، يجعل لفرنسا فضلا على (الجزائر) حتى في استقلالها ووجودها ومستقبلها أيضا، وهي الانطباعات السلبية الواضحة عن ملتقى يجري في مركز جزائري ممّول من خزينة جزائرية بعملية صعبة ما تنفك تتدفّق بـ(سخاء) رهيب في غير وجهتها الصحيحة، عرضة للعبث بأيدي فئة لا يربطها بالجزائر غير الهوية الشكلية على (جواز سفر)(1) ومع ذلك كان الكاتب شديد الرفق بهذا المركز في آخر انطباع له مغلف بالعتاب المرّ وهو يقول «فالمركز الثقافي الجزائري...قلعة من الجزائر تعيش في باريس، وعلى عاتق القائمين عليه مهمة صعبة وهي السّهر الدائم حتى لا يتحوّل المركز إلى قطعة (مهاجرة) مقطوعة الجذور والأصول».

وقد بدا في انطباعات الكاتب مسار هذا الملتقى ذي الطابع (الوطني) في غير الخط الصحيح فاتّسمت هذه الانطباعات بسلبية، فأبدى الكاتب ضيقه

---

(1) هذا هو الاحساس الذي يشعر به من يدخل (المركز الثقافي الجزائري) في (باريس) بينما كل المراكز الثقافية في (باريس) خاصة العربية تحس فيها حين تدخلها بجو البلد الذي تنتمي إليه، الا (المركز الثقافي الجزائري) كأنما هو مركز يدار في الخفاء فرنسيا انطلاقا من (الجزائر) نفسها، لتعيين مسؤوليه وموظفيه وانتهاء بندواته ونشاطه ودعواته، فكلّ عناصره أو معظمهم على الأقل خاصة في مناصب المسؤولية هم ممّن يربطهم بفرنسا الولاء الثقافي والفكري العميق اضافة إلى الولاء العائلي، فالزوجة فرنسية مثلما أن الثقافة فرنسية.

بمختلف السلبيات كما أبدى ضيقه بمدينة (باريس) نفسها بطبيعتها الخانقة كما بدت له، فهي ليست في مستوى (نيويورك) ولا (اسطنبول) ولا (القاهرة) رغم عزيزة حبّ الاطلاع التي كانت تتجدّد لديه كلّما حط رجاله فيها سائحا أو باحثا، وهذا لا ينفي جاذبيتها في الثقافة وفي غيرها أيضا كما عبّر بلغة أدبية مرحة عن جولة قصيرة مع زميل قبل افتتاح الملتقى فراقته وفرة الكتب والمجلاّت والحرية وغيرها» «كانت تجذبنا أشياء عديدة، فنقول للنفس: اصبري وتجمّلي فقد ولّى أطيب العمر، وذهبت لذّات العيش، ولم يبق الاّ العزاء والسّلوان».

خلاصـــــة :

هكذا نلاحظ في هذا الفصل أن (باريس) كانت محطّة معظم الرحّالين، ثم تلتها (موسكو) فـ (بولونيا) و(الصين) الشعبية.

وقد اطّرد توجّه الرّحالين الجزائريين إلى (باريس) منذ مطلع القرن العشرين بكثافة بدءًا برحلة (ابن الفغّون) التي صحب فيها وفدا رسميا على نفقة الحكومة الفرنسية، فأشبع (فرنسا) عموما و(باريس) والحكم فيها خصوصا إطراء نتيجة الاعجاب بالقوة الفرنسية، وحضارة (فرنسا) ولخدمة (فرنسا) الاستعمارية في الوقت نفسه في (الجزائر) المحتلة محذّرا بشعارات الثورة الفرنسية التي أكّد الشيخ (ابن العابد) أنها شعارات غير قابلة في سياسة المحتلين للتحويل إلى (الجزائر) التي سلبت أرضها وقهر انسانها ودّمرت معنوياته، فبات الفقر حليفه.

ثم جاءت رحلة (ابن باديس) التي وصف فيها جانبا من الاجواء الخاصة بالرحلة في وفد (المؤتمر الاسلامي) الي (باريس) لعرض مطالب سياسية على السلطة الفرنسية هنالك وقد وصف (مالك بن نبي) ذلك المؤتمر بأكبر «انتصار حقّقه الشّعب الجزائري على نفسه أولا، ثم على القوى التي تسعى لابقائه في الوحل... كنت واثقا من أنّ الظّرف رجّ الاستعمار رجّا وأنّه دقّ في معسكره ساعة خطيرة[1]»

(1) مذكرات شاهد القرن، الطالب، مالك بن نبي، ص 223.

ولكن هذا الانتصار الذي تحدث عنه الكاتب سرعان ما أجهضته دسائس الاستعمار وغدر الخونة من أتباع الاحتلال وعملائه «فتبخرت في لحظة تلك الوحدة المقدسة التي ضمت في وصف واحد كل القوى الشعبية بعد ربع قرن من سير حثيث نحوها».

وقد عبّر بعد ذلك (محمود بوزوزو) في انطباعاته عن البرلمان الفرنسي) بوضوح حيث اهتدى الى نتيجة واضحة خلاصتها أنه لا خير يرجى من الاحتلال الذي لا يزال ينظر إلى الجزائريين أناسا قصرا، يحرمهم من حقهم في الرأي في الوقت الذي يذر الرماد في العيون بفتح باب لتمثيلهم في البرلمان،وهو ما يدخل في سياسة الاحتلال الخاصة التي أعطى عنها (مالك بن نبي) انطباعا واضحا في وصف جانب من خطط المحتلين الفرنسيين في اضطهاد الانسان الجزائري في داخل الوطن وفي (باريس) نفسها، حيث لاحظ التنسيق الكامل بين رجال الادارة ورجال الاحتلال سياسيين وعسكريين، حيث تتكامل أعمالهم ويدقّ التنسيق بينهم في كل ما يخدم الاحتلال الفرنسي على المدى القصير والطويل، ومن هذا الواقع حرم من دخول (معهد الدراسات الشرقية) كما حرم من فرص غيره مثلما حرم أبوه تبعا لمواقفه هو نفسه من العمل واضطهد حتى آخر حياته.

وأكمل (أحمد توفيق المدني) جانبا من حرص على تعقُّب رجال الحركة الوطنية واليقظة الفكرية في (الجزائر) أما (الابراهيمي) فقد أنصبّت رحلته على وصف معاناة المغترب الجزائري في (فرنسا) مهاجرا بعيدا عن الأهل والوطن مهدّدا في عقيدته ولغته وأخلاقه والمصير الغامض لأبنائه معه في المهجر، وجهود (جمعية العلماء) في تخفيف هذه المعاناة خاصة في جانبها اللغوي والديني والاجتماعي.

وكل هذه الرحلات كانت قبل الاستقلال والرحلة الوحيدة هنا إلى (باريس) بعد الاستقلال هي رحلة (سعد الله) التي أبرزت من جهة الجهد

(1) المصدر السابق، ص 233.

المستمر لهيمنة (فرنسا) على (الجزائر) لغويا وفكريا وسياسيا، ومن جهة أخرى انقلاب الموقف من الاحتلال، حيث بدا انزواء الحسّ الوطني الجارف نسبيا في مناصبة المحتلين العداء وبروز تيار التبعية. الذي يريد الابقاء على تبعية (الجزائر) لـ(فرنسا) فكرا ولغة وسياسة واقتصادا طبعا، وهيمنة الأخيرة على الأولى في كل شيء في النهاية.

وبعيدا عن (باريس) تبرز الصورة الايجابية للاتحاد السوفياتي في رحلة (حوحو) عن الانسان عموما في العمل والجد والانضباط خصوصا،وهي صورة تجد لها امتدادا جزئيا في رحلة (المدني) الذي يضيف صورة أخرى، لكنها سلبية عن النظام الشيوعي الذي يجدّ فيه العامل البسيط ويكدّ بينما يعيش رجال الحكم وحاشيتهم وأسرهم حياة بذخ على الطريقة الغربية التي يعيشونها في حياتهم الخاصة ويفضلونها، ويناصبونها العداء في خطابهم السياسي وبرامجهم الشيوعية، ونهجهم مع مواطنيهم. وليس مصدر الانطباع موقفا سلبيا معلنا من الشيوعية بل بدا نتجية تأذ من ضروب النفاق السياسي والاجتماعي، بدليل أنه في رحلته الصينية أثنى على النظام الشيوعي هنالك، ووصف زعيم الحزب (ماوتسي تونغ Mao-Tsé-Tong) بالمفكّر العملاق، وأعطى انطباعات جيدة عن حزم الانسان الصيني وانضباطه.

أما رحلة (محمد الصالح رمضان) إلى فرصوفيا) قد عكست توقا إلى عالم جديد، توقا إلى الحرية والاستقلال، وحبّا للطبيعة، مثل حبّ العدالة والعلاقات الانسانية في دفئها وسلامها التي نحسّها في كل مكان الا في (فرنسا) ومعها، فوصف واقع البلد وانسانه وطبيعته، كما وصف الكثير من مشاعره وأشواقه وآمال وطنه وتوقه إلى حريته واستقلاله.

وخلال ذلك اختلفت مستويات الوصف بين الرحالين ومواقع التركيز، مثلما اختلفت موضوعات الرّحلة التي غلب على بعضها الجانب السياسي (ابن باديس) و(المدني) وعلى بعضها الآخر الجانب الثقافي (ابن نبي)

و(سعد الله) و(الابراهيمي)، كما كان بعضهااستطلاعيا سياسيا (ابن الفغون) و(بوزوزو) وبعضها الآخر يكاد يكون استطلاعيا بحثا (ابن العابد) و(حوحو) و(رمضان) مع اختلاف أيضا في طبيعة الاهتمامات العامة التي تميزت بها رحلة الشيخ (رمضان) حيث الاهتمام الواضح بالجانب الجغرافي والتاريخي، ونظم الشعر: في وصف (فرصوفيا) وبعض المعالم العمرانية والمواقف الاجتماعية بطابعها الانساني.

لكنها جميعا أعطت صورة عمّا كان يشغل الكاتب الجزائري من هموم واهتمامات عامة في ترحاله، تدخل تحتها عناصر كثيرة وجزئيات مختلفة تتكامل كتكامل انفعالات المرء وتطوّرها من موقف إلى آخر حسب الظرف والمؤثر الخارجي، غير أن الحسّ الوطني برز جامعا مشتركا بين جميع الرحالين في رحلاتهم باستثناء رحلة (ابن الفغون) إلى (باريس) التي تمت برغبة من (فرنسا) لتلميع صورتها لدى الجزائريين وغيرهم وهو جانب لم تهمله يوما الاستراتيجية الفرنسية حتى اليوم في الابقاء على مكاسبها والقبض باصرار وعناد على مكاسب الولاء لها: سياسة وثقافة وفكرا وانتماء حضاريا في النهاية.

فهـــارس وملاحـــق

أولا: تراجم الكتاب :

1 ــ الابراهيمي، محمد البشير (1889 ــ 1965)

ولد الكاتب في قرية (أولاد ابراهم) ولاية (سطيف) يوم 14 شوال 1306هـ (14 جوان 1889م) ونشأ في قريته حيث قام بتربيته وتعليمه شقيق أبيه الأصغر، فلازمه حتى وفاته (1903م) بعد ما ختم عليه بعض الكتب وهو على فراش الموت.

انتقل إلى (الحجاز) مرورا بالقاهرة للالتحاق بوالده في (المدينة) حيث استقر وعكف على القراءة والتعليم، فيذكر أنه في هذه الفترة بدأ ذهنه يتفتح على الحياة العامة، في السياسة وفي غيرها، فصار له رأيه في السياسة العثمانية يومئذ.

وانتقل إلى (دمشق) سنة (1916م) ومعه والده حيث عانى متاعب مادية، زالت بعد استقراره أستاذا للآداب العربية في المدرسة السلطانية الأولى الوحيدة هناك.

ثم عاد إلى (الجزائر) في (1920م) فعمل مع غيره أمثال (ابن باديس) لاعداد مناخ صحي، من أجل نشاط علمي ديني اصلاحي، حتى كانت سنة(1931) التي أسست فيها (جمعية العلماء) فكان نائبا لرئيسها (ابن باديس) حتى سنة 1940 فأسندت إليه رئاستها بعد وفاة (ابن باديس) وهو في السجن بقرية (آفلو) حيث زجّ به في (10 أفريل 1940) بدعوى خطره على الأمن العام، فقضى فيه ثلاث سنوات، ثم أعاده الاستعمار إلى السجن مرة ثانية في (27 ماي 1945) بعد حوادث (8 ماي) في الشهر نفسه، فقضى في السجن العكسري بكل من مدينة (الجزائر) و(قسنطينة) أحد عشر شهرا، خرج بعدها للنضال مع رجال الجمعية لاعادة فتح المدارس التي أغلقتها سلطة الاحتلال.

ثم انتقل إلى (القاهرة) في (مارس 1952م) في رحلة (اسلامية) للمشاركة في أعمال خيرية ينهض بها دعاة هناك كما قال، وللتعريف في نفس الوقت بالجزائر، فزار (باكستان) و(العراق) و(الحجاز) و(سوريا) و(الأردن) و(القدس) وغيرها، وبقي هناك في خدمة الثورة التحريرية بعد اندلاعها في (1 نوفمبر 1954) ولم يعد إلى (الجزائر) الا سنة (1962) بعد الاستقلال، حيث كانت وفاته في (19 ماي 1965م).

هكذا، كانت حياته عامرة بالنشاط المتميز بالجهد الثقافي، فقام بالتدريس بعض الوقت في (الجزائر) وخارجها،وألقى المحاضرات العديدة والأحاديث الاذاعية المختلفة، كما كتب مئات المقالات الأدبية والصحفية.

أهم ما ترك من ذلك آثاره، في أربعة أجزاء، نشر في حياته الجزء الثاني فقط منها سنة (1961) بعنوان عيون البصائر) وأعيد طبعه مع الأجزاء الأخرى بعد وفاته.

ـ المراجـــع:

ـ آثار محمد البشير الابراهيمي، أربعة أجزاء، الشركة الوطنية للنشر واولتوزيع (الجزائر).

ج 1 سنة 1978م.

ج 2 سنة 197i م.

ج 3 سنة 1981م.

ج 4 سنة 1985م.

ـ الشيخ الابراهيمي يكتب على نفسه، حديث له صدر في الخمسينات بمجلة (المصور) المصرية، أعادت جريدة (الشعب) الجزائرية نشره في العددين: 8559 ـ في 5 ذي الحجة

1411هـ (20 ماي 1991) 8565 ـ في 12 ذي القعدة 1411هـ (27 ماي 1991).

ـ شخصيات جزائرية، د. عمر بن قينة، (ص 43ـ54) البعث (الجزائر) 1403هـ (1983م).

ـ صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993،

2 ـ بوكوشـــــة حمزة (1907م)

اسمه الحقيقي (حمزة شنّوف) ولد في (وادي سوف) سنة (1907) درس في (بسكرة) حيث كان أبوه يتعاطى التجارة، ثم انتقل إلى جامع (الزيتونة) في (تونس) وتخرّج منه سنة (1930) بشهادة التّطويع، وعاد إلى (الجزائر) ليعمل في مدارس (جمعية العلماء) في (دلس) و(قسنطينة) ومدينة (الجزائر).

وتعرّض للاعتقال سنة (1957) بعد اعلان الثورة الجزائرية سنة (1954م) أما بعد الاستقلال (1962) فقد عمل أستاذا للعربية في التعليم الثانوي، كما تابع الدراسة في الحقوق، فأحرز على شهادة (الليسانس) في الميدان سنة 1971م وعمل اثر ذلك مستشارا في مجلس القضاء الأعلى، وفتح مكتب محاماة في بيته.

وهي شاعر وناقد وكاتب مقال أدبي وصحفي خاصة في البصائر، بسلسلتيها الأولى والثانية. كما نهض برئاسة التحرير في جريدة (المغرب العربي) الأسبوعية التي صدر أول عدد منها في (1937م) له مقالات عديدة في الثقافة والسياسة والأدب والدين، كما أن له بحوثا لم تطبع وديوانا شعريا لا يزال متردّدا في الافراج عنه إلى المطبعة (حتى نهاية 1991م).

ـ المراجـــــع :

ــ البصائر، سلسلة أولى، عدد 23، في 22 ربيع الأول 1335هـ (12 جوان 1936م).

ــ البصائر، سلسلة ثانية، عدد 263 في 20 شعبان 1373هـ (23 أفريل 1954م).

ــ المغرب العربي، سنة أولى، عدد 4، في 8 ربيع الثاني 1356هـ (18 جوان 1937م)

ــ صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، عمر بن قينة، مخطوط، ديوان المطبوعات الجامعية.

ــ جلسة مع الكاتب في بيته ظهرا يوم 23 ديسمبر 1989م.

3 ــ ابن باديس، عبد الحميد (1889 ــ 1940م)

ولد في (قسنطينة) يوم 5 ديسمبر 1889م) في أسرة يتصل نسبها بـ(المعزّ بن باديس) الصنهاجي من رجال الدولة الصنهاجية، وتتلمذ في المدينة نفسها على (حمدان لونيسي) بالخصوص، ثم انتقل إلى (تونس) سنة (1908) للدراسة في جامع (الزيتونة) حيث ظفر بشهادة التحصيل (التّطويع) في السنة الدراسية (1911ــ1912) ودرّس نحو سنة كمساعد في (الزيتونة) ورجع إلى (الجزائر) سنة (1913)، سافر على أثر رجوعه إلى (الحجاز) لأداء فريضة الحج، ثم عاد ليعكف على التدريس ويسهم في الحركة الصحفية ونشر الفكر الاصلاحي، فأسّس جريدة (المنتقد) سنة (1925) وخلفتها بعد التعطيل جريدة (الشهاب) سنة (1925) التي حوّلها إلى مجلة شهرية سنة (1929).

وقد شرع يقود الحركة الاصلاحية التي اشتدّ ساعدها بعد تأسيس (جمعية العلماء) في (5 ماي 1931) وأسندت إليه

رئاستها، فمضى يناضل باستماتة حتى أدركه الأجل في (16 أفريل 1940م).

وقد ترك أثرا واضحا في جيله وبعده بمحاضراته ودروسه وخطبه ومقالاته ومواقفه المختلفة، واخلاصه لوطنه وتفانيه في خدمته، مضحيا بكل شيء في سبيله.

ومن أهم ما جمع له من آثار بعد وفاته: مجموعة (ابن باديس حياته وآثاره) في أربعة أجزاء، من تصنيف (عمار الطالبي) نشر مكتبة الشركة الجزائرية، للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، الجزائر، 1388هـ (1968م) و(تفسير ابن باديس) جمع (محمد الصالح رمضان) و(توفيق شاهين) عدة طبعات في (مصر) و(لبنان) منذ سنة 1964.

ـ المراجـــع :

ـ ابن باديس حياته وآثاره، تصنيف عمار الطالبي،مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968.

ـ ابن باديس رجل الاصلاح والتربية، سلسلة للجميع، عمر بن قينة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

ـ شخصيات جزائرية، د. عمر بن قينة، البعث، الجزائر، 1983.

ـ صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

ـ ترجمة حياة خاصة بالأستاذ (محمد الصالح رمضان) نسخة من مخطوط مصور لدي.

4 ــ ابن نبي، مالك (1905 ــ 1973م).

ولد في (قسنطينة) سنة 1322هـ (1905م) وانتقل مع أسرته إلى (تبسة) حيث تابع تعليمه الذي واصله في الثانوية الفرنسية في (قسنطينة) التي بدأ يحتك فيها بالحركة الاصلاحية.

ثم بـ(مدرسة اللاسلكي) في (باريس) للحصول على شهادة مساعد مهندس في الكهرباء، وفي العاصمة الفرنسية بدأ تفكيره يتّسع ويغرق أكثر في الهمّ الوطني والانساني ليشمل التفكير في شؤون العرب والمسلمين عامة، فقام بعدة رحلات في العالم، واستقرّ في (مصر) ابتداء من سنة (1956) وعاد بعد الاستقلال إلى (الجزائر) فعيّن مديرا للتعليم العالي حتى سنة (1967م) حين استقال كي يتفرّغ للكتابة حتى وفاته سنة 1393هـ (31 أكتوبر 1973م) بمدينة (الجزائر).

وقد خلّف تراثا فكريا زاخرا في مختلف القضايا، خاصة قضايا العالم الاسلامي والعالم المتخلّف، فكان من أهمها:

ــ شروط النهضة، دار الفكر، ط3، دمشق، 1969.

ــ فكرة الافريقية الآسيوية (ط2) دار الفكر، دمشق، 1971.

ــ آفاق جزائرية، مكتبة النهضة، الجزائر، من دون تاريخ، صدر في الستينات.

ــ مذكرات شاهد القرن، جزآن، دار الفكر، دمشق، 1969ــ1970.

ــ المسلم في عالم الاقتصاد، دار الشروق، بيروت، 1976.

المراجـــــع :

ــ مذكرات شاهد القرن، جزآن.

ــ مجلة الثقافة، (الجزائر) عدد 18 ديسمبر ــ جانفي 1973.

ــ شخصيات جزائرية، د. عمر بن قينة، البعث، الجزائر، 1403هـ (1983م).

5 ــ ابن قينــة، عمر (1944ــ)

ولد في قرية (أمجدل) ولاية (المسيلة) سنة (1944) حيث بدأ تعليمه بقراءة القرآن، حصل على الليسانس من جامعة (الجزائر) سنة (1972) وعلى (ديبلوم الدراسات المعمقة) سنة (1976) وعلى دكتوراه الطور الثالث سنة (1982) وعلى دكتوراه الدولة، سنة 1992.

عمل في مختلف مراحل التعليم منذ سنة 1963 حتى عيّن أستاذا مساعدا في معهد الأدب العربي بجامعة (الجزائر) سنة 1978م فأستاذ مكلّفا بالمحاضرات، سنة (1987) فأستاذا محاضرا سنة (1993م)، كتب في عدة جرائد ومجلات في (الجزائر) وخارجها، في الوطن العربي، وفي (باريس)، كتب المقالة الأدبية والنقدية، كما كتب في القصة والرواية.

من أهمّ أعماله :

ــ الديسي، حياته وآثاره وآدبه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

ــ أشكال التعبير في القصة الليبية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

ــ الريف والثورة في الرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

ــ جروح في ليل الشتاء (قصص) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

ــ غيمة واحدى عشر قصة (قصص) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984.

ــ أسماء وعبد الخوف، في الزمن العربي (قصص) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

6 ـــ الجلالي، محمد بن العابد (1890ـــ1967)

ولد في مدينة (أولاد جلال) سنة (1890م) فحفظ القرآن على أبيه كما تلقى تعليمه الأولي، ثم انتقل إلى (قسنطينة) فتتلمذ على (ابن باديس) وشرع يوطّد صلاته بالوسط الثقافي والاصلاحي ثم السياسي، فاشتغل بالتدريس، كما التحق سياسيا بعد حوادث (ماي 1945) بحركة انتصار الحريات الديمقراطية، والتحق جنديا بالثورة بعد اعلانها في 1954 وقد أسرته قوات الاحتلال، عاد بعد الاستقلال إلى موقعه النضالي في التعليم، حتى آخر لحظة من العطاء، وقد داهمته آلام الأمراض، فتوفي يوم (2 فيفري 1967).

فكان التعليم والكتابة ميدان جهاده الأساسي، فعلّم في مدينة (العلمة) ابتداء من 1925 ثم في (قسنطينة) سنة (1930م) في مدرسة التربية والتعليم التي أسسها (ابن باديس) (1930) ثم مدرسة (بسكرة) بعد الحرب العالمية الثانية، التي تولّى أيضا ادارتها، فمدرسة (عين مليلة) التي عاد إليها بعد الاستقلال معلما ومديرا ثلاث سنوات، حتى عجز عن العمل.

بدأ نشاطه الثقافي في (المنتقد) و(الشهاب) جريدة ومجلة، وأصدر أول عدد من جريدته (أبو العجائب) سنة (1934م، كتب مقالات مختلفة في الدوريات الجزائرية، كما يعتبر من كتاب القصة القصيرة، كثيرا ما وقع باسم مستعار هو «رشيد».
من انتاجه المنشور على شكل كتاب :
ــ تقويم الأخلاق، الجزائر، 1927م.
ــ الأناشيد المدرسية، تونس، 1939م.

ـ المراجـــــع :

ـ المقالة الصحفية الجزائرية، د. محمد ناصر، ج: 2، ص 222،
ـ مجلة لمحات (الجزائر)، عدد 2، سنة 1، الجزائر، 1968.
ـ مجلة الثقافة (الجزائر)، عدد 82، يوليو ـ أغسطس 1984م.
ـ صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، د.عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993.

7 ـ حوحو، أحمد رضـا (1911 ـ 1956م)

ولد في (سيدي عقبة) ولاية (بسكرة) سنة (1330هـ ـ 1911م) حيث حفظ القرآن وبدأ تعليمه بالعربية والفرنسية، وتابعه في (سكيكدة) ثم في (الحجاز) سنة (1934) حين انتقلت أسرته إلى هناك حيث بدأ انتاجه الأدبي يظهر.

عاد إلى (الجزائر) سنة 1946 فأقام في (قسنطينة) وعمل في صفوف (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) واستأنف الكتابة بالمشاركة في الصحف الجزائرية خاصة (البصائر) وأصدر جريدة (الشعلة) التي كان ينشر فيها مقالات مختلفة، مناهضا في جميع الحالات ومن كلّ المواقع بقلمه الاستعمار الفرنسي، متصديا لبعض الآفات الاجتماعية والسياسية، مشاركا في حركة الاصلاح بمقالاته وقصصه ومسرحياته حتى أعلنت الثورة الجزائرية (1954) فكان من أوائل من امتدت اليهم يد البطش الاستعماري، فأختطف من بيته ليلا في شهر مارس (1956م) وأعدم، فكان واحدا من أشهر الكتاب الشهداء. خلف عشرات المقالات، اضافة إلى كتبه التي منها بالخصوص:

ـ غادة أم القرى (قصة طويلة) الجزائر، 1947، أعادت المؤسسة الوطنية للكتاب نشرها، في طبعة ثانية، الجزائر، 1983.

ـ صاحبة الوحي (قصص) 1954م، أعادت نشره مصوّرا المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

ـ مع حمار الحكيم (مقالات قصصية) سنة (1953) ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

ـ نماذج بشرية (مقالات قصصية) 1955م، أعادت طبعه ثانية (موفم) للنشر، في مجموعة بعنوان (غادة أم القرى وقصص أخرى) ضمته مع (غادة أم القرى) و(صاحب الوحي) في سلسلة (الأنيس).

موفم للنّشر، الجزائر، 1989م.

ـ المراجـــع:

اضافة إلى كتب المؤلف السابق ذكرها، نذكر مايلي:

ـ دراسات في الأدب الجزائري الحديث، د. أبو القاسم سعد الله، ص 85ـ94، ط 3، المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الدار التونسية للنشر، 1985.

ـ مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 17، سنة 1393هـ (1973).

ـ فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبد الملك مرتاض، ص 491، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

ـ صوت الجزائر في الفكر العربي الحدث، د. عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993.

8 خير الدين، محمد (1902ـ1994) :

ولد بمدينة (فرفار) ولاية (بسكرة) في شهر ديسمبر (1902م) حيث حفظ القرآن الكريم، وانتقل إلى (قسنطينة) سنة 1916م لمتابعة تعليمه العام في الثقافة العربية خاصة على الشيخ (ابن زقوطة) ثم سافر إلى (الزيتونة) في (تونس) سنة 1918 التي

حصل فيها على شهادة التطويع في جوان (1925) عاد بعدها إلى (الجزائر) للاسهام بجهده في التعليم الحرّ، اضافة إلى الامامة ووعظ الناس، وهو الميدان الذي اتّسع بانشاء (جمعية العلماء).

وقد انخرط في صفوف الثورة المسلحة بعد اندلاعها (1954) فعيّن ممثّلا لجبهة التحرير في ـ(المغرب الأقصى) وعضوا في المجلس الوطني الأول للثورة في (طرابلس) سنة (1958) وعين بعد الاستقلال (1962) نائبا في أول برلمان جزائري سنة (1963) وسرعان ما ساءت علاقته بالنظام خاصة بعد (1969) التي بلغت أوجها في (1976) عندما وقّع بيانا مناهضا للنظام مع (فرحات عباس) و(ابن يوسف بن خدة) و(الحسين الأحول) ففرضت عليه الاقامة الجبرية كما فرضت على الثلاثة الآخرين.

في هذه الفترة عكف على كتابة مذكراته التي أصدرها في جزأين اثنين آخر الثمانينات بعد الافراج عنه في أوائل الثمانينات، ولمّا تُجمع مقالاته التي صدرت له قبل الثورة خاصة في (البصائر).

ـ المـراجـــع :

المعلومات مستقاة من الجزأين معا من مذكراته، من صفحات مختلفة، اضافة إلى صفحة الغلاف بقلمه.

9 ـ دبّوز، محمد علي (1919 ـ 1981) :

ولد في مدينة (بريان) ولاية (غرداية) في (1377هـ ـ 1919م) فدرس على شيوخ المنطقة في المدينة، وفي (معهد الحياة) بـ(القرارة) وانتقل بعد ذلك في (1941) إلى (تونس) فدرس في كلّ من جامع (الزيتونة) و(الخلدونية) لكنه لم يمكث سوى سنة واحدة، فانتقل إلى (مصر) سنة (1942) حتى (1948) عاد فيها إلى (الجزائر) واعتكف مؤلفا ومدرّسا خاصة في معهد (الحياة).

وابتدأ الكتابة والتأليف في فترة مبكرة من مطلع الخمسينات، فكتب مقالات مختلفة في (البصائر) وغيرها. وأهم أعماله المنشورة ثلاثة كتب:

ــ تاريخ المغرب الكبير، في ثلاثة أجزاء، 1968م.

ــ نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة في ثلاثة أجزاء، في عدة تواريخ.

ــ اعلام الاصلاح في الجزائر، في خمسة أجزاء، في تواريخ مختلفة.

تضاف إلى هذه آثار أخرى مخطوطة «تتمثل في مقالات أدبية ورسائل تاريخية ومسرحيات وبحوث أدبية واجتماعية وتاريخية(*)».

ــ المراجـــع :

ــ معظم المعلومات مستقاة من ابن المؤلف، وهو الأستاذ (دبوز ابراهيم بن محمد) الذي استلمت منه تعريفا كتبه في جلسة جمعتنا، في (سبتمبر 1991م).

10 ــ رمضـــان، محمد الصالح (1914ــ)

ولد الكاتب الشاعر في (القنطرة) ولاية (باتنة) يوم 24 أكتوبر 1914(**) حيث تلقى تعليمه الابتدائي في العربية والفرنسية،

(*) من تعريف مختصر كتبه لي ابن المؤلف الأستاذ (دبوز بيوض ابراهيم) أثناء لقاء جمعنا في بيت الأستاذ الدكتور محمد ناصر.

(**) ــ ذكر (السائحي) تاريخ 1916 وهو خطأ. انظر: روحي لكم، محمد الأخضر عبد القادر السائحي، ص 119، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م. كما يرد خطأ آخر في بطاقة تعريف الكاتب يحدد تاريخ ميلاده في 1913م، وهذا الخطأ الأخير نتج عن خطإ في المطبوعات الخاصة في مصالح الحالة المدنية في البلدية، فقد كان للكاتب أخ أكبر حمل اسم (محمد) بعد أقل من عشرة شهور، وولد بعد الكاتب فاطلق عليه اسمه (محمد) مكمّل بصفة (الصالح) التي لا تتسع لها الخانة في المطبوعات البلدية. فوقع الخطأ. صححت هذا في مكالمة هاتفية مع الكاتب يوم 14 جانفي 1990، وبلقاءات تالية شاهدت في يوم منها (1991/11/11) بطاقة تعريفه في قصر الثقافة حيث كان يعمل مستشارا للوزير.

ثم تابع تعليمه العربي على يد (ابن باديس) في (قسنطينة). ثم عينه (ابن باديس) في مطلع (1937) معلما في مدرسة (التربية والتعليم) التي أسّسها سنة (1930) كما أسند إليه تدريس ساعتين يوميا في مدرسة (سيدي بومعزة) بمدينة (قسنطينة) في السنة نفسها وولاّه مرشدا لفوج (الرّجاء) في (الكشافة الاسلامية الجزائرية) مع تكليفه صيفا بالتجول لصالح مجلة (الشهاب).

ثم عمل معلّما ومديرا لمدرسة (جمعية العلماء) في (غليزان) سنة (1943) ثم مدير لمدرسة (دار الحديث) في (تلمسان) سنة (1946)(*) ومفتّشا عاما للتعليم العربي الحر وعضو المكتب الدائم للجنة التعليم العليا سنة (1953) انخرط بعد اندلاع الثورة عضوا في (جبهة التحرير) فكان عضو المحكمة المدنية للجبهة بمدينة (الجزائر) وهمزة وصل في بريد الولايتين الثانية والسادسة خلال 1956ـ1957م.

أما بعد الاستقلال فقد شغل منصب مدير التعليم الديني بوزارة الأوقاف من (1062) حتى 1964 حين التحق بوزارة التربية الوطنية أستاذا في اللغة العربية، حتى احالته على المعاش (التقاعد) سنة (1980).
خلال ذلك كله كان له نشاط متعدّد الجوانب، وهو عضو في (جمعية العلماء) قبل الاستقلال، وعضو (المجلس الاسلامي الأعلى) ابتداء من سنة 1980 أو غير ذلك.

(*) ــ يذكر (عبد الملك مرتاض) تاريخ 1944، انظر (فنون النثر الأدبي في الجزائر)، ص 512، والصحيح الرقم اعلاه بناء على كلام المترجم له نفسه..

أما في مجال الكتابة والتأليف، فقد تنوعت كتاباته، منها في (الجغرافيا):

ـ جغرافية الجزائر والعالم العربي، ط.1، دار الكتاب، الجزائر، 1964. وفي (الأدب).

ـ ألحان الفتوة، (شعر) للكشافة، ط 1، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1953.

ـ الخنساء، مسرحية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

ـ الناشئة المهاجرة، مسرحية، ط 1، مطبعة ابن خلدون، تلمسان (الجزائر) 1949.

إلى آخر ما هناك من أعمال مطبوعة ومخطوطة، اضافة إلى المقالات الأدبية المختلفة قبل الاستقلال وبعده.

ـ المراجـــع :

ـ تعريف خاص في صفحتين مطبوعتين، استلمته من الكاتب، اضافة إلى عدة جلسات ومكالمات هاتفية.

ـ روحي لكم، محمد الأخضر عبد القادر السائحي، ص 119، 120. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

ـ تطوّر النثر الأدبي في الجزائر، عبد الملك مرتاض، ص 512، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

ـ صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، د. عمر بن قينه ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993م.

11 ـ سعد الله، أبو القاسم (1930ـ)

ولد في (قمار) ولاية (وادي سوف) سنة 1930 حيث حفظ القرآن، وتلقى مبادىء العربية، ثم سافر سنة (1947)

إلى (تونس) للدراسة في جامع الزيتونة) الذي حصل فيه على الأهلية (1951) والتحصيل (التّطويع) سنة (1954م) عاد بعدها إلى (الجزائر) في (نوفمبر 1954م) للتعليم في مدارس (جمعية العلماء) غير أنه لم يلبث سوى سنة واحدة حتى شعر بغربة خانقة في (الجزائر) المستعمرة «فوطن بلا حرية هو سجن رهيبٌ لأهله»(1) فغادرها إلى (مصر) في أكتوبر (1955م) حيث التحق بكلية (دار العلوم) طالبا، وحصل على الليسانس في اللغة العربية وآدابها، ثم سافر إلى (أميريكا) في نوفمبر (1960) للدراسات العليا، فحصل في جامعة (مينيسوتا) على الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة (1962) وعلى الدكتوراه سنة (1965م) في التخصص نفسه.

عاد بعد ذلك إلى (الجزائر) ليعمل في الجامعة المركزية، وقد واصل نشاطه الثقافي الذي بدأه منذ كان طالبا في (تونس) ينشر في الصحف الجزائرية والعربية عموما.

وقد تنوّعت كتاباته في الأدب والتاريخ والسياسة، وفي الابداع: شعرا وقصة، فأنتج في ذلك نحو ثلاثين كتابا، من بينها:

ـــ الحركة الوطنية الجزائرية، ثلاثة أجزاء، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهـرة، 1969ـــ1977م.

ـــ تاريخ الجزائر الثقافي، جزآن، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

ـــ تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

---

(1) منطلقات فكرية، د. أبو القاسم سعد الله، ص 47، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـــ تونس، 1396 (1976).

ــ شعوب وقوميات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

ــ ثائر وحب (شعر) دار العلم للملايين، بيروت، 1967.

ــ الزمن الأخضر (شعر) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م وقد ضم هذا الديوان قصائد ديوانه الأول (النصر للجزائر الذي نشر في (مصر) سنة 1957م.

ــ سعفة خضراء، قصص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

ــ المراجــــع :

ــ منطلقات فكرية، د. أبو القاسم سعد الله، ص 44ــ64، الدار العربية للكتاب، ليبيا ــ تونس، 1976م.

ــ الشعر الجزائري الحديث، د. محمد ناصر، ص 678، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1985.

هذا اضافة إلى الملاحظات العامة المستقاة من مؤلفاته المختلفة التي ذكرت والتي لم تذكر هنا.

ــ حديث هاتفي، تكرّر مع المؤلّف عدة مرّات.

12 ــ سعدي عثمان، (1930ــ)

ولد في (دوار ثازبانت) ولاية (تبسة) سنة 1930، تلقّى تعليمه الابتدائي في المدرسة الفرنسية، و(مدرسة البنين والبنات) التابعة لجمعية العلماء في (تبسة) ثم التحق بمعهد (عبد الحميد بن باديس) في السنة الأولى التي افتتح فيها (1948م) وكان من تلاميذه الذين رشحوا لبعثة الجمعية للدراسة في (القاهرة) التي التحق بجامعتها سنة 1952م فكان من بين أساتذته (طه حسين) وتخرّج منها بشهادة الليسانس في الأدب (1956م).

ثم حصل على (الماجستير) في 1979 وعلى دكتوراه الدولة سنة 1985م في (جامعة الجزائر).

عمل أثناء الثورة في مكاتب جبهة التحرير، رئيس البعثة الدبلوماسية الجزائرية في (الكويت) خلال (62ـ1964م) ثم سفيرا في (العراق) و(سوريا) حتى 1977م، وقد انتخب نائبا في (المجلس الشعبي الوطني) مرتين، كما كان عضو (اللجنة المركزية) لجبهة التحرير مدة عشر سنوات، وترأس (جمعية الدفاع عن اللغة العربية) التي كان من بين أعضائها المؤسسين في (ديسمبر 1988م) التي تأخر الاعتراف بها إداريا واعتمادها إلى (سبتمبر 1989).

وهو من الكتاب الجزائريين القوميين الذين دافعوا باستماتة عن هوية الوطن والأمة التي غدت لغتها وتاريخها عرضة للعبث والاستهتار بين أيدي شرذمة (فرانكوفونية) تحميها السلطة في السرّ دائما، وفي العلانية أيضا أحيانا.

من أعمال الكاتب :

ــ قضية التعريب في الجزائر، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 1، بيروت، 1967م.

ــ تحت الجسر المعلّق، مجموعة قصصية، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

ــ عروبة الجزائر عبر التاريخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

ــ الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، دار النهضة، وزارة الثقافة، بغداد، 1984.

ـ المراجـــع :

ـ كتابات مختلفة للكاتب.

ـ حديث هاتفي مطوّل، يوم 31 جانفي 1992.

13 ـ الغسيري، محمد المنصوري (1912ـ1974)

ولد في قرية (غسيرة) ولاية (باتنة) حيث بدأ تعليمه وتابعه في بسكرة ثم في (قسنطينة) بالجامع الأخضر على (ابن باديس) الذي سرعان ما عيّنه مع الشيخ (محمد الصالح رمضان) (1937) معلما في مدرسة (التربية والتعليم) و(سيدي بومعزة) في الوقت نفسه في مدينة (قسنطينة) ثم مديرا لمدرسة (الارشاد) في (سكيكدة) سنة (1947) حيث صمد في موقعه هذا يدرّس، وينشّط (الكشافة) ويحاضر ويكتب مقالاته المختلفة ويعلن آراءه. وبعد اندلاع ثورة التحرير (1954) انخرط عاملا في صفوف (جبهة التحرير) فلم يلبث حتى صار ممثّلها في (دمشق) سنة (1957م). أما بعد الاستقلال (1962) فقد اختار البقاء في الميدان الدبلوماسي، فعمل سفيرا للجزائر في عدة أقطار عربية بالمشرق، حيث كان من الدبلوماسيين الشرفاء الذين لم يمارسوا الانحرافات المختلفة ممّا «كانت تشيعه (غلمان) الخارجية الجزائرية الذين ألقت بهم الصدف والأحلاف السياسية لأهمّ المناصب ليسيئوا للوطن في الداخل وفي الخارج»(1).

فناضل من موقعه هذا بحسّه الحضاري العربي الاسلامي، حتى أدركته الوفاه سنة 1974م.

أما آثاره فهي مقالات مختلفة في اللغة والدين والتاريخ، والأدب، تضمّنت معظمها جريدة (البصائر) في سلسلتها الثانية.

(1) صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، د. عمر بن قينة، ص. 289، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993م.

ـ المراجــع :

ـ البصائر، سلسلة ثانية، مجموعة أعداد، ابتداء من عدد 20 في 7 ربيع الأول 1367هـ (19 جانفي 1948م) حتى عدد 276 في 24 شوال 1373هـ (25 جوان 1954م).

ـ أحاديث مع (محمد الصالح رمضان) في 22 نوفمبر 1989 و21 ديسمبر 1989 ثم 11 نوفمبر 1991م.

ـ فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبد الملك مرتاض، ص 515ـ516، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

ـ صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، د. عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993م.

14 ـ فضــلاء، محمد الطاهر (1918ـ)

ولد في زاوية (سيدي موسى) بـ(بني وغليس) دائرة (سيدي عيش) حيث حفظ القرآن على والده المدّرس بالزاوية في المنزل كسائر اخوته، كما درس عليه العربية ومبادىء الفقه، وفي السنة الخامسة عشرة انتقل إلى (قسنطينة) للدراسة على (ابن باديس) حتى فرغ بعد ثلاث سنوات للتدريس في مدارس (جمعية العلماء) حيث بدأت المعاناة مع ادارة الاحتلال الفرنسي، حتى انتهى إلى السجن (1946) التحق بالاذاعة الجزائرية للاشراف على (فرقة مسرحية) وأسّس سنة (1949) فرقة (هواة المسرح العربي الجزائري) فقدمت عدة مسرحيات، منها مسرحية بعنوان (الصحراء) مثلت في (طرابلس) بـ(ليبيا) في (21 نوفمبر 1954) أثناء الرحلة إلى مصر).

له عدة مقالات، اضافة إلى عشرات المسرحيات التمثيلية. كما أن من أعماله المنشورة:

ـــ التزييف والتحريف في حياة كفاح، مطبعة (البعث) قسنطينة (الجزائر) 1982م.
ـــ دعائم النهضة الوطنية، البعث، قسنطينة (الجزائر) 1984م.

ـــ المراجـــع :

ـــ بعض أعمال الكاتب:
ـــ مقابلة في 1991/11/24م.
ـــ ترجمة خصّني بها في سبع صفحات.
ـــ مكالمة هاتفية، في 1992/1/29م.

15 ـــ المدني، أحمد توفيق (1889ـــ1983)

ولد في يوم 24 جمادى الثانية 1317هـ (1 نوفمبر 1899) بـ(تونس) لأسرة جزائرية هاجرت إلى هناك بعد 1871، فدرس في (الزيتونة) كما نمّى معارفه بنفسه في اللغة والدين والتاريخ والأدب، وشرع في فترة مبكرة يشترك في النشاط السياسي في (تونس) فأبعدته السلطات الفرنسية إلى الجزائر، سنة (1925) حيث استقرّ واستأنف نشاطه الثقافي والسياسي، وصار عضوا في (جمعية العلماء) ابتداء من سنة (1951م) فعيّن في الهيئة الادارية بناء على رغبة شباب الجمعية للاستفادة من كفاءته(*). فكان من الشخصيات البارزة في الجمعية، وقد أسهم اسهاما جيدا بقلمه خاصة في جريدة (البصائر) حتى

(*) وهو موقف ناتج عن تقدير الكاتب واحترامه،وحرص على مكانة الجمعية برجال ذوي كفاءة فكرية.
ـــ أنظر: جريدة (الشعب): ملاحظات جديدة حول كتاب توفيق المدني، محمد الصالح رمضان، عدد 4472 الصادر في 14 ربيع الثاني 1398هـ (23 مارس 1978).
ـــ لقاء مع صاحب هذا المقال في (قصر الثقافة) يوم: 1991/11/18، من الساعة (16,00) حتى (17,30).

(1956م) حين أمرته جبهة التحرير بالسفر إلى (القاهرة) ليكون عضوا في الوفد الخارجي لـ(جبهة التحرير الوطني) ثم صار عضوا في الحكومة المؤقتة حتى الاستقلال، فأسندت إليه حينئذ وزارة الأوقاف، كما عيّن بعد انقلاب (19 جوان 1965) سفيرا، وبهذه الصفة ختم نشاطه السياسي حيث يبدو أنّه كان دائما بعيدا عن المناورات الكبرى في الصراع الدّامي على السلطة والتكالب على المسؤولية بكل الوسائل المشروعة وغيرها. لكنه من ناحية أخرى بقي جمّ النشاط في الكتابة والتأليف، ولم تصرفه عن ذلك المسؤوليات المختلفة، حتى وفاته سنة (1983م) في (الجزائر) وقد أنجز ثلاثة أجزاء من مذكراته، ولم يصدر الجزء الرابع منها الخاص بما بعد (1962)، كما وعد بذلك في مقدمة الجزء الأول منها، وخاتمة الجزء الثالث.

على امتداد العمر الزاخر بالنشاط السياسي والفكري ترك عدة أعمال من أولها:

ــ كتاب الجزائر، سنة (1931) وأعيد طبعه مرّة ثانية، في المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ــ المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، (1945م) أعادت المؤسسة الوطنية للكتاب طبعه ثانية، الجزائر، 1985. ومن آخر أعمالــــه :

ــ هذه هي الجزائر، القاهرة، 1956 للتعريف بالجزائر أرضا وتاريخا وثورة.

ــ مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، تحقيق، في سلسلة (ذخائر المغرب العربي) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

ــ حياة كفاح (مذكرات) في ثلاثة أجزاء، 76ــ1982م.

تضاف إلى هذا عشرات المقالات المختلفة، في عدة جرائد ومجلّات على امتداد أكثر من ستين سنة من الكتابة.

ـ المراجـــع :

ـــ حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج: 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

ج: 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ج: 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

ـــ المقالة الصحفية الجزائرية، د. محمد ناصر، م 2، ص 225، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.

ـــ جريدة الشعب، عدد 4472 في 14 ربيع الثاني 1398هـ (23 مارس 1978م).

ـــ لقاء خاص مع (محمد الصالح رمضان) قصر الثقافة، الجزائر، يوم: 1991/11/18.

16 ـــ الميلي، مبارك محمد الهلالي (1897ــ1945)

ولد في مدينة (الميلية) سنة (1897م) حيث تلقّى تعليمه الأول، وكان من رعيل الحركة الاصلاحية ابتداء من عشرينات هذا القرن بعد حصوله على شهادة التطويع في (جامع الزيتونة) وعضوا بارزا في (جمعية العلماء) منذ تأسيسها، فنهض بالمسؤولية فيها كما كتب مقالات مختلفة في الصحف الاصلاحية، وبشكل خاص في السلسلة الأولى من جريدة (البصائر) وكذا (الشهاب)، حتى وفاته (1945).

أمّا أهمّ آثاره فهو كتابه (تاريخ الجزائر في القديم والحديث) في جزئين، صدر الجزء الأول سنة (1929م) وصدر الجزء الثاني سنة (1932م) وقد أكمل ابنه (محمد) مشروع أبيه بجزء ثالث، سنة (1964) اتبع فيه منهج أبيه أداء لدين كان يشعر به تجاهه في متابعة مشروعه. يضاف إلى هذا كتاب (الشرك

ومظاهره) سنة (1937) الذي نشر في ثلاث عشرة حلقة قبل ذلك، بجريدة (البصائر) تحت العنوان نفسه سنة (1936).

إلى جانب هذا هناك مقالات مختلفة في الاصلاح والتاريخ والدين.

ــ المراجــــع :

ــ البصائر، سلسلة أولى، سنة أولى، الأعداد: 5، 6، 9، 10، 11، 12، 13، 15، 16، 20، 22، 25، سنة 1354ــ1355هـ (1936م).

ــ المقالة الصحفية الجزائرية، د. محمد ناصر، م 2، ص 225، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ ــ 1978م.

ــ نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، محمد علي دبوز، ج: 3، ص 250، بيروت، 1969م.

ــ فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبد الملك مرتاض، ص 503، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

17 ــ ناصر ، محمد (1938ــ)

ولد في (القرارة) ولاية (غرداية) سنة (1938) حيث تلقّى تعليمه حتى نهاية المرحلة الثانوية، انتقل بعدها إلى جامعة (القاهرة) حيث حصل على شهادة (الليسانس) في الأدب العربي سنة (1966م) وقدّم رسالته لدكتوراه الطور الثالث في جامعة (الجزائر) سنة (1972) حيث باشر التدريس، في (معهد اللغة العربية وآدابها) وحضّر في المعهد نفسه دكتوراه الدولة، فحصل عليها سنة (1983).

وهو من أنشط أساتذة الجامعة في الاشراف على البحوث الجامعية، وفي الكتابة والتأليف، فنشر مقالات مختلفة في عدة دوريات، كما صدرت له عدة كتب، منها على الخصوص:

ـــ المقالة الصحفية الجزائرية، نشأتها، تطوّرها، أعلامها، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.

ـــ رمضان حمود الشاعر الثائر، المطبعة العربية، غرداية (الجزائر) 1978.

ـــ أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984.

ـــ الصحف العربية الجزائرية (1847ـــ1939) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

ـــ مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، المطبعة العربية، غرداية، (الجزائر) 1984.

ـــ الشعر الجزائري الحديث اتّجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1985.

ـــ أغنيات النخيل (ديوان شعر) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

ـــ البراعم الندية (شعر للأطفال) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

ـــ المراجـــع :

ـــ الشعر الجزائري الحديث، اتّجاهاته وخصائصه، د. محمد ناصر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1985.

هذا اضافة إلى المعلومات المستقاة من ملاحظاتي، المستمدة أساسا من كتابات هذا الأديب ومؤلفاته المختلفة.

18 ــ الورتلاني، الفضيل بن محمد الحسنين (1900ــ1959)

ــ ولد في بني ورتلان) ولاية (سطيف) فحفظ القرآن في مسقط رأسه حيث تلقى مبادىء العربية والعلوم الاسلامية، انتقل بعدها إلى (قسنطينة) سنة (1928م) حيث تتلمذ على (ابن باديس) وأصبح مساعده في التدريس، ومتجوّلا لصالح مجلة (الشهاب) ابتداء من سنة (1932) ومرافقا لابن باديس في بعض رحلاته بالوطن، مشاركا بقلمه في كل من (البصائر) و(الشهاب) بروح وطنية متوثبة، وشعور ديني ملتهب. ولامكاناته الفكرية ومعارفه العلمية الدينية وقدرته على الخطابة واجادة الاتصال أو فدته (جمعية العلماء) إلى (باريس) سنة (1936) لنشر فكرها الاصلاحي، وتعهد شؤون المغتربين الدينية، فأنشأ مراكز للتعليم والتهذيب حتى مشارف (1940) حين غادر (باريس) إلى (مصر) فرارا من مكائد الاستعمار الفرنسي وبطشه، فالتحق بـ(جامع الأزهر) للدراسة، وانطلق في الوقت نفسه يخدم القضية الجزائرية، وقضايا المسلمين عموما، فأسس مثلا سنة (1942م) (اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر) كما أسس سنة (1944) (جبهة الدفاع عن شمال افريقيا) ثم مكتب (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في ((القاهرة) (1949م) الذي استقبل فيه الشيخ (محمد البشير الابراهيمي) سنة (1952م) وقد صار عضوا في تنظيم حركة (الاخوان المسلمين) حتى اتهم بالمشاركة في محاولة انقلابية في (اليمن) قتل فيها (يحي حميد الدين) إمام اليمن (1869ــ1948م) فقبض عليه هناك ثم أفرج عنه مع من شملهم العفو الذي سخر منه (الابراهيمي) في مقالة نشرها في (البصائر)(*) معرّضا بالنظام القائم على الهوى لا على القانون.

(*) مما قاله (الابراهيمي) في مقاله...«رأينا في ملوك العرب معروف، ومن رأينا في الكثير منهم أنّ كلّ ما يصدر منهم من عقد ونقض وعفو ومؤاخذة فهو ناشىء عن خطرات الوساوس الفردية، لا عن بواعث من المصلحة العامة، وأنهم عدموا القوانين المقيدة، فاستحكمت فيهم النزعات المطلقة» (البصائر) عدد 174، سنة 1951.

ــ أنظر أيضا (عيون البصائر) الابراهيمي، ص 687، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.

ولم تعلن الثورة الجزائرية (1954) حتى أعلن مساندته لها، وعمله في صفوف جبهة التحرير، فعمل في وفدها الخارجي في (القاهرة) بهمة عالية وجدّ واخلاص، لا يعرف مللا ونفاقا اعتاده السياسيون بينهم في علاقاتهم وعملهم، الأمر الذي أزعج بعضهم في (الوفد الخارجي) لـ(جبهة التحرير) في (القاهرة) من الذين يؤثرون الرّاحة في «صالونات»السياسة، حتى وصفه أحدهم بالوباء(*)، فأجهد نفسه غير عابىء بأكثر من داء كان يستوطن جسمه، مؤجلا العلاج، معجلا بالمبادرة في ميدان العمل والنشاط، حتى تمكن منه الداء فصرعه في أحد مستشفيات (تركيا) حيث كانت وفاته في (12 مارس 1959).

ـ وقد خلف وراءه عشرات المقالات والأحاديث الصحفية في مختلف الدوريات جزائرية، وعربية، واسلامية عموما، وأوروبية أيضا، ضمّ جانبا قليلا منها كتابه «الجزائر الثائرة» الذي نشرته احدى الجمعيات الدينية، في بيروت.

ـ المراجـــع :

ـ الجزائر الثائرة، الفضيل الورتلاني، ط 2، بيروت، 1383هـ (1963).

ـ عيون البصائر، محمد البشير الابراهيمي، ص 687ـ690، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.

ـ حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج: 3، ص 121، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

(*) انظر رأي أحد هؤلاء السياسيين في (الورتلاني) في كتاب (حياة كفاح) أحمد توفيق المدني، ج: 3، ص 121، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (1982).

ـ مجلة (الارشاد) عدد: 3 سنة أولى، شعبان، 1410هـ (مارس 1990م).

ـ جريدة (السلام) عدد 130، في 23 رمضان 1411هـ (8 أفريل 1991م).

وعدد 161، في 29 شوال 1411هـ (5 ماي 1991م).

ثانيا ــ فهرس الرحلات في الكتب والدوريات :

أ ــ فهرس الرحلات في الكتب :

اسم الكاتب	عنوان الكتاب	عنوان الرحلة	الصفحة	الطشفوحة
1 ــ الابراهيم، محمد البشير	ــ عيون البصائر ج 2	ــ تحية غائب كالآيب	487ــ482	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1971.
» » »	آثار محمد البشير الابراهيمي ج3	رحلتنا إلى (باريس)	265ــ263	ش.و.ن.ت. ط.1، الجزائر 1981.
» » »	آثار محمد البشير الابراهيمي ج4.	رحلتي إلى الأقطار الاسلامية	59ــ09	ش.و.ن.ت. ط.1، الجزائر 1985.
2 ــ بيريس، هنــري	مجموعة نصوص	ذكر سفر بحرا من الجزائر إلى مستغانم	64ــ60	كلية الآداب، الجزائر، 1958.
3 ــ ابن باديس، عبد الحميد	ابن باديس، حياته وآثاره، ج 4	للتعارف والتذكير	305ــ297	الشركة الجزائرية للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر 1968.
» » »	» » »	جولة صحافية	307ــ306	» » »
» » »	» » »	في بعض جهات الوطن	316ــ308	» » »
» » »	» » »	رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية	324ــ317	» » »
» » »	» » »	إلى قالمة	341ــ337	» » »
» » »	» » »	في تونس العزيزة	329ــ325	» » »

اسم الكاتب	عنوان الكتاب	عنوان الرحلة	الصفحة	الناشر
4 ــ خير الدين، محمد	مذكرات ج 1	الرحلة في طلب العلم	73	المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
» » »	» » »	الرحلة إلى قسنطينة	73ـ75	» » » »
» » »	» » »	الرحلة إلى تونس	76ـ80	» » » »
» » »	» » »	زيارتي لمدينة ورقلة	272ـ274	» » » »
» » »	» » »	في المغرب الجزائري	275ـ283	» » » »
» » »	ج 2	السفر إلى المغرب	179ـ186	» » » »
5 ــ سعد الله، أبو القاسم	تجارب في الأدب والرحلة	رحلتي إلى المغرب	203ـ234	م.و.ك. الجزائر 1983.
» » »	» » »	رحلتي إلى الجزيرة العربيـــة	235ـ255	» » » »
» » »	» » »	زيارة لخنقة	257ـ264	» » » »
» » »		سيدي ناجي		
» » »	في الجدل الثقافي(•)	في مجمع الخالدين	5ـ27	دار المعارف للطباعة والنشر تونس 1993(•)
» » »	» » »	في أعماق الأوراس	53ـ74	» » » »
6 ــ الفغون، محمد بن الحسن القسنطيني	ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس	الوفد الجزائري من رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريس	95ـ107	المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.
7 ــ المدني، أحمد توفيق	حياة كفاح ج 2	أول العهد بالجزائر العاصمة	24ـ25	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977.

(•) استلمت هذا الكتاب من المؤلف شاكرا، بعد انجاز هذا البحث، وقد ضمّ رحلاته الأخرى التي وردت في الصحف كما سيأتي.

اسم الكاتب	عنوان الكتاب	عنوان الرحلة	الصفحة	الناشر
المدني، أحمد توفيق	ـ حياة كفاح ج 2	سفر بحث واستطلاع	103—99	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1977.
» » »	» » »	في الغرب الجزائري	126—116	» » »
» » »	» » »	يوم 8 ماي	383—380	» » »
» » »	حياة كفاح، ج 3	ولسوف يعطيك ربك فترضى	61—49	» » 1982
» » »	» » »	في باريس	107	» » »
» » »	» » »	أول يوم في القاهرة	122—115	» » »
» » »	» » »	في طرابلس	146—140	» » »
» » »	» » »	مقابلة الملك ادريس السنوسي	166—162	» » »
» » »	» » »	وفد السودان	201—188	» » »
» » »	» » »	في كاراتشي	206—202	» » »
» » »	» » »	مؤتمر الخريجين بدمشق	208—206	» » »
» » »	» » »	سفر إلى ليبيا	276—275	» » »
» » »	» » »	أيام عامرة بدمشق	302—298	» » »
» » »	» » »	مقابلة مع ملك ليبيا	305—302	» » »

اسم الكاتب	عنوان الكتاب	عنوان الرحلة	الصفحة	الناشر
» » »	حياة كفاح ج:3	حجّ وحاجة	311ــ309	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982
» » »	» » »	إلى طرابلس من جديد	321ــ320	» » »
» » »	» » »	في لبنان	356ــ354	» » »
» » »	» » »	في بغداد	358ــ356	» » »
» » »	» » »	في الكويت	359ــ358	» » »
» » »	» » »	في العربية السعودية	363ــ359	» » »
» » »	» » »	في الأردن	361ــ359	» » »
» » »	» » »	في تونس	367ــ366	» » »
المدني، أحمد توفيق	حياة كفاح، ج 4	في اندونيسيا	374ــ367	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982.
» » »	» » »	في ماليزيا	377ــ375	» » »
» » »	» » »	مهمة...في سوريا	384	» » »
» » »	» » »	في ليبيا من جديد	391ــ390	» » »
» » »	» » »	بغداد المنتقمة	394ــ391	» » »
» » »	» » »	تنظيم الأمور بتونس	407ــ406	» » »
» » »	» » »	الرحلة العربية الكبرى	445ــ411	» » »

اسم الكاتب	عنوان الكتاب	عنوان الرحلة	الصفحة	الناشر
المدني، أحمد توفيق	حياة كفاح، ج 4—	في بلاد العمالقة الصيــن	456—450	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982
» » »	» » »	في موسكو	459—456	» » »
» » »	» » »	مهمة إلى موسكو	540—538	» » »
» » »	» » »	في عدن	541—540	» » »
» » »	» » »	في الخرطوم وبغداد	542—541	» » »
» » »	» » »	في تلمسان	557	» » »
8 — مالك بن نبي	مذكرات شاهد القرن، ج 1 (ترجمة: القنواتي)	في فرنسا(*)	276—248	دار الفكر، بيروت 1969
» » »	» » »	إلى آفلوا(*)	328—305	
» » »	مذكرات شاهد القرن، ج 2 (الطالب)	النزول في باريس	37—09	دار الفكر، بيروت، 1970
» » »	» » »	العودة إلى الجزائر	97—81	» » »
» » »	» » »	العودة إلى باريس	101—97	» » »
» » »	» » »	عودة إلى الجزائر	138—118	» » »
» » »	» » »	في باريس	213—209	» » »
9 — رمضان، محمد الصالح	سوانح وارتسامات	سوانح وارتسامات	96—3	مخطوط.

(*) استوحينا العنوان من مضمون الرحلة هنا في هذا الجزء.

ب ــ فهرس الرّحلات في الدوريات :

في مجلة: الشهاب ــ قسنطينة (1929ــ1939)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
للتعارف والتذكير	(مدن جزائرية)	عبد الحميد ابن باديس	ج 7 م 5	ربيع الأول 1348هـ (أوت 1929)
» » »	» » »	» » »	ج 9 م 5	جمادى الأولى 1348هـ (أكتوبر 1929)
جولة صحافية		» » »	ج 7 م 6	ربيع الأول 1348هـ (أوت 1930)
في بعض جهات الوطــن	(مدن جزائرية)	» » »	ج 11 م 7	رجب 1350هـ (نوفمبر 1931)
» » »	» » »	» » »	ج 12 م 7	شعبان 1350هـ (ديسمبر 1931)
ثلاثة أيام في بسكرة		» » »	ج 2 م 8	شوال 1350هـ (فيفري 1932)
رحلتنا إلى العمالة الوهرانية	(عدة مدن)	» » »	ج 8 م 8	ربيع الأول 1351هـ (أوت 1932)
رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة قسنطينة	(عدة مدن)	الفضيل الورتلاني	ج 7 م 10	ربيع الأول 1353هـ (جوان 1934)
تموز		رشيد (ابن العابد الجلالي)	ج 5 م 11	جمادى الأولى 1354هـ (أوت 1935)
في القطار		» » »	ج 9 م 11	شوال 1354هـ (جانفي 1936)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
في باريس	بعد الملاقاة	« « «	ج 10 م 11	ذو القعدة 1354هـ (فيفري 1936)
في سبيل الوحدة	في تونس العزيزة	« « «	ج:5 م:13	جمادى الأولى 1356هـ (جويلية 1937)
مع الوفد الاسلامي الجزائري	مشاهدات وملاحظات	عبد الحميد ابن باديس	ج:7 م:12	رجي 1355هـ (أكتوبر 1986)

في جريدة البصائر ـ الجزائر، السلسلة الأولى (1935 ـ 1939)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
رحلات وفد جمعية المسلمين الجزائريين (بعمالة قسنطينة وما يلاحظ فيها)	إلى عين مليلة	الفتى القبائلي (الفضيل الورتلاني)	16	2 صفر 1353هـ (1936/4/24)
» » » »	سطيف ـ عنابة	» » »	17	9 صفر 1355هـ (1936/5/1)
» » » »	قالمة...دار الافراح	» » »	18	16 صفر 1355هـ (1936/5/8)
» » » »		» » »	19	23 صفر 1355هـ (1936/5/15)
سير الجمعية وأعمالها	حياة الاصلاح في البلدان التي زرناها	مبارك الميلي	28	27 ربيع الثاني 1355هـ (1936/7/17)
» » » »	» » »	» » »	29	5 جمادى الأولى 1355هـ (1936/7/24م)
» » » »	» » »	» » »	30	12 جمادى الأولى 1355هـ (1936/7/31م)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
سير الجمعية وأعمالها	حياة الاصلاح في البلدان التي زرناها	مبارك الميلي	31	19 جماد الأولى 1355هـ (1936/8/7م).
وفد المؤتمر الاسلامي.. يؤم أم العواصم باريس		محمد بن الحاج	30	12 جمادى الأولى 1355هـ (1936/7/31م)
سير الجمعية وأعمالها	وفود جمعية العلماء في القطر	فرحات بن الدراجي	35	2 رجب 1355هـ (1936/9/18م)
مع الوفد الاسلامي الجزائري	مشاهدات وملاحظات	عبد الحميد بن باديس	38	23 رجب 1355هـ (1936/10/9)
طواف وفد المؤتمر الاسلامي في عمالة وهـــران	(عدة مدن)	مصطفى بن حلوش	41	14 شعبان 1355هـ (1936/10/30)
في قالمة		عبد الحميد بن باديس	109	21 صفر 1357هـ (1938/10/22).

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
من وحي البرلمان الفرنسي	ـــ	محمود بوزوزو	11	5 ذي الحجة 1366هـ (1947/10/20)
» » »	ـــ	» »	13	26 ذي الحجة 1366هـ (1947/11/10)
» » »	ـــ	» »	15	17 محرم 1367هـ (1947/12/01)
أربعون يوما في المغرب	ـــ	حمزة بوكوشة	31	2 جمادى الثانية 1367هـ (1948/4/12)
الجمعيات الجزائرية في المغرب		» »	32	9 جمادى الثانية 1367هـ (1948/4/19)
رحلة مدرسية	ـــ	سليمان الصيد	234	15 شوال 1372هـ (1953/6/26)
مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الاسلامية الجزائرية	ـــ	محمد المنصوري الغسيري	240	2 محرم 1373هـ (1953/9/11)
» » »	ـــ	» »	241	12 محرم 1373هـ (1953/9/25)
وطنـــي	ـــ	عثمان سعدي	251	12 ربيع الثاني1373هـ (1953/12/17)
عدت من الشرق	في طرابلس	محمد المنصوري الغسيري	250	5 ربيع الثاني 1373هـ (1953/12/11)
» » »	في كنانة الله مصر	» »	252	26 ربيع الثاني 1373هـ (1954/1/1)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
عدت من الشرق	في مصر كنانة الله	محمد المنصوري الغسيري	253	3 جمادى الأولى 1373هـ (1954/1/8)
» » »	مظاهر التدين في مصر	» » »	254	10 جمادى الأولى 1373هـ (1954/1/15)
» » »	الجزائريون في مصر	» » »	256	23 جمادى الأولى 1373هـ (1954/1/29)
» » »	في البلاد العربية السعودية	» » »	257	1 جمادى الثانية 1373هـ (1954/2/5)
» » »	» » »	» » »	258	8 جمادى الثانية 1373هـ (1954/2/12)
» » »	» » »	» » »	259	15 جمادى الثانية 1373هـ (1954/2/19)
» » »	» » »	» » »	260	22 جمادى الثانية 1373هـ (1954/2/26)
» » »	» » »	» » »	261	29 جمادى الثانية 1373هـ (1954/3/5)
» » »	» » »	» » »	262	6 رجب 1373هـ (1954/3/12)
» » »	» » »	» » »	263	13 رجب 1373هـ (1954/3/19)
» » »	» » »	» » »	266	6 شعبان 1373هـ (1954/3/19)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
عدت من الشرق	في البلاد العربية الاسلامية	محمد المنصوري الغسيري	267	13 شعبان 1373هـ (1954/4/16)
» » »	» » »	» » »	268	20 شعبان 1373هـ (1954/4/23)
» » »	» » »	» » »	271	12 رمضان 1373هـ (1954/5/15)
» » »	» » »	» » »	273	26 رمضان 1373هـ (1954/5/28)
» » »	في سوريا ولبنان	» » »	274	10 شوال 1373هـ (1954/6/11)
» » »	الخاتمة	» » »	276	24 شوال 1373هـ (1954/6/25)
وقفة في دار الرافعي وعلى قبره	ــــ	محمد علي دبوز	334	6صفر 1375هـ (1955/09/23)
» » »	ــــ	» »	336	20 صفر 1375هـ (1955/10/7)
» » »	ــــ	» »		
» » »	ــــ	» »	337	27 صفر 1375هـ (1955/10/14)
» » »	ــــ	» »	340	25 ربيع الأول 1375هـ (1955/11/11)
» » »	ــــ	» »	342	9 ربيع الثاني 1375هـ (1955/11/25)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
وقفة في دار الرافعي وعلى قبره	الخاتمة	» »	343	16 ربيع/2/ 1373هـ (1955/12/2)
» » »	—	» » »	347	16 جمادى/2/1375هـ (1955/12/30)
ولسوف يعطيك ربك فترضى	(عدة عناوين)	أحمد توفيق المدني	344	23 ربيع/2/ 1375هـ (1955/12/9)

في جريدة: الشعلة ـ قسنطينة (1949ـ1951م)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
عدت من الاتحاد السوفياتي	ـــ	أحمد رضا حوحو	40	23 ذي الحجة 1369هـ (1950/10/5)
» » »	ـــ	» »	41	30 ذي الحجة 1369هـ (1950/10/12)
» » »	حدائق التثقيف	» »	43	14 محرم 1370هـ (1950/10/26)
» » »	التعليم، كلية الزراعة	» »	44	21 محرم 1370هـ (1950/11/2)
» » »	الطفل، دور الأطفال	» »	45	28 محرم 1370هـ (1950/11/9)
» » »	الحركة الكشفية	» »	46	5 صفر 1370هـ (1950/11/16)
» » »	» »	» »	47	12 صفر 1370هـ (1950/11/23)
» » »	النظام الاشتراكي في بلاد السوفيات	» »	48	19 صفر 1370هـ (1950/11/30)
» » »	المتاحف في موسكو	» »	50	11 ربيع/1/1370هـ (1950/12/21)
» » »	مصلحة اللحوم بموسكو	» »	53	16 ربيع/2/1370هـ (1951/1/15)
» » »	معرض ستالين للسيارات	» »	54	1 جمادي/1/1370هـ (1951/2/8)

في مجلة: الحياة، سلسلة جديدة، الجزائر (1954ـ)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
الكشافة الجزائرية في مصر	ـــ	محمد المنصوري الغسيري	01	مارس / أفريل 1954م
حول رحلتنا إلى الشرق	ـــ	محمد الطاهر فضلاء	03	ماي/جوان 1955م

في جريدة: المقاومة (1956 ــ 1957)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
كنت بالقاهرة	ـــ	مشاهد	03	30 ربيع/1376/2هـ (1956/12/3)
من مذكرات مجاهد	ـــ	مجاهد، الجندي الأول	13	22 رمضان 1376هـ (1957/4/22)
» » »	ـــ	» »	15	20 شوال 1376هـ (20 ماي 1957)
» » »	امرأتان وجريح	» »	16	4 ذي الحجة 1376هـ (1957/6/3)

في مجلة: الثقافة ــ الجزائر (1971 ــ 1989)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
رحلتي إلى المغرب	ـــ	د. أبو القاسم سعد الله	18	ذي القعدة ذي الحجة 1393هـ (ديسمبر ــ جانفي 1973)

في جريدة: الشعب ـ الجزائر (1963ـ)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
في ملتقى النجم بباريس	ـــ	د.أبو القاسم سعد الله		21 شوال 1407هـ (1987/6/18)
سوانح وارتسامات	بدء الرحلة	محمد الصالح رمضان	7396	5 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/1)
» » »	مرسيليا الساحل	» »	7397	13 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/8)
» » »	ايطاليا البندقية	» »	7398	14 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/9)
» » »	ـــ	» »	7499	15 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/10)
» » »	جبال الألب الشرقية	» »	7400	16 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/11)
» » »	الستار الحديدي	» »	7401	17 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/12)
» » »	ـــ	» »	7402	18 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/13)
» » »	فرصوفيا	» »	7404	21 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/16)
» » »	فرصوفيا في الماضي القريب	» »	7405	22 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/17)
» » »	العودة من فرصوفيا	» »	7406	23 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/18)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
سوانح وارتسامات	ــــ	» »	7408	24 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/19)
» » »	ــــ	» »	7409	25 ذي الحجة 1487هـ (1987/8/20)
» » »	مهرجان الشباب والطلاب	محمد الصالح رمضان	7409	27 ذي الحجة 1407هـ (1987/8/22)
» » »	ــــ	» »	7410	28 ذي الحجة 1407هـ (1987/3/23
» » »	ــــ	» »	7411	29 ذي الحجة 1407هـ (1987/3/24)
» » »	ــــ	» »	7413	1 محرم 1408هـ (1987/8/26)
» » »	ــــ	» »	7414	2 محرم 1408هـ (1987/8/27)
» » »	المرأة عديلة الرجل	» »	7416	5 محرم 1408هـ (1987/8/30)
» » »	الديانة في بولونيا	» »	7417	6 محرم 1408هـ (1987/8/31)
» » »	في حديقة الحيوانات	» »	7418	7 محرم 1408هـ (1987/9/1)
» » »	جولات ــ قصر الثقافة	» »	7419	(8 محرم 1408هـ (1987/9/2)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
سوانح وارتسامات	—	محمد الصالح رمضان	7421	11 محرم 1408هـ (1987/9/5)
» » »	—	» »	7423	13 محرم 1408هـ (1987/9/7)
فلسطين في مصر	—	د. أبو القاسم سعد الله	7841	8 جمادى/1409/2هـ (1989/1/16)
صيف في سوف	—	» »	8086	30 ربيع/1410/1هـ (1989/10/30)
يوميات قاص في تونس	—	د.عمر بن قينة	8128	20 جمادى/1410/1هـ (1989/12/18)
» » »	—	» » »	8129	21 جمادى/1410/1هـ (1989/12/19)
مقاطع من رحلة جنوبيـة	—	» » »	8271	12 ذي القعدة 1410هـ (1990/6/5)
» » »	—	» » »	8272	13 ذي القعدة 1410هـ 1990/6/6)
» » »	—	» » »	8273	14 ذي القعدة 1410هـ (1990/6/7)
» » »	—	» » »	8274	16 ذي القعدة 1410هـ (1990/6/9)
في ثنايا الجنوب الوديع	—	» » »	8350	16 صفر 1411هـ (1990/9/6)
» » »	—	» » »	8370	11ربيع/1411/1هـ (1990/12/30)

في جريدة: السلام ــ الجزائر (1990ــ)

عنوان الرحلة العام	العنوان الفرعي	الكاتب	العدد	التاريخ
أوراق ثقافية من عمان	الصحابي الجليل مازن بن غضوبة	د. محمد ناصر	18	11 جمادي/1/1411هـ (1990/11/27)
» » »	جسور للمحبة والتعاون	» » »	19	12 جمادي/1/1411هـ (1990/11/28)

ثالثا: فهرس الاعـــلام :

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

رابعا: فهرس الأماكن والبلدان

ج

ق

ن

و

ي

خامسا: فهرس الجمعيات والهيئات والمنظمات والمؤسسات:

أ

ب

ج

د

ز

ك

م

ن

سادسا: فهرس المصادر والمراجع

أ ــ المصـــادر

المصادر المطبوعة :

1 ــ الابراهيمي، محمد البشير:

ــ عيون البصائر، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1971.

ــ آثار محمد البشير الابراهيمي، ج 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 1981.

ــ آثار محمد البشير الابراهيمي، ج 4، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 1985.

2 ــ بيريس، هنـــري :

ــ مجموعة نصوص، كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1378هـ (1958)

3 ــ ابن باديس، عبد الحميد

ــ ابن باديس حياته، وآثاره، ج 4، الشركة الجزائرية للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 1968.

4 ــ خير الدين، محمـــد :

ــ مذكرات، جزء 1 و2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

5 ــ سعد الله، أبو القاسم:

ــ تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

6 ــ الفغون، محمد بن الحسن القسنطيني وآخرون :
ــ ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، تقديم وتحقيق: خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت، 1979م.
7 ــ المدني، أحمد توفيق:
ــ حياة كفاح، ج 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.
ــ حياة كفاح، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977.
ــ حياة كفاح، ج 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
8 ــ ابن نبي، مالك:
ــ مذكرات شاهد القرن، ج 1، (ترجمة مروان القنواتي) دار الفكر، بيروت، 1969.
ــ مذكرات شاهد القرن، الطالب (ج 2) دار الفكر، بيروت، 1970م.

المصادر المخطوطة :

9 ــ رمضان، محمد الصالح :
ــ سوانح وارتسامات، مخطوط.
10 ــ عمر بن قينة:
ــ من هوامش رحلة إلى طرابلس (1979م) مخطوط.

الدوريات:

1 ـــ جريدة البصائر، (السلسة الأولى) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من 2 صفر 1355هـ (24 أفريل 1936م) حتى 21 صفر 1357هـ (22 أكتوبر 1938م).

2 ـــ جريدة البصائر، (السلسلة الثانية)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من 5 ذي الحجة 1366هـ (20 أكتوبر 1947م) حتى 23 ربيع الثاني 1375هـ (9 ديسمبر 1955م).

3 ـــ مجلة الثقافة، ذو القعدة ـــ ذو الحجة 1393هـ (ديسمبر ـــ جانفي، 1973م).

4 ـــ مجلة الحياة، مارس ـــ أفريل 1954م وماي ـــ جوان 1955م.

5 ـــ جريدة السلام: 11 ربيع الأول 1411هـ (1990/11/27) و12 جمادى الأولى 1411هـ (1990/11/28).

6 ـــ جريدة الشعلة، من 23 ذي الحجة 1369هـ (1950/10/5) إلى جمادى الأولى 1370هـ (1951/2/8م).

7 ـــ جريدة الشعب، من 21 شوال 1407هـ (1987/6/18) إلى 11 ربيع الأول 1411هـ (1990/12/30).

8 ـــ مجلة الشهاب، من ربيع الأول 1948هـ (أوت 1929م) حتى جمادي الأولى 1356هـ (جويلية 1957م).

9 ـــ جريدة المقاومة، من 30 ربيع الثاني 1376هـ (1956/12/3م) إلى 4 ذي الحجة 1376هـ (1957/6/3م).

ب ـــ المراجـــع :

كتب عامـــة :

1 ـــ الابراهيمي، محمد البشير:

ـــ عيون البصائر، (ج 2)، (ط:2) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م.

ـــ آثار محمد البشير الابراهيمي، ج 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
ـــ آثار محمد البشير الابراهيمي، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

2 ـــ إمام، د. ابراهيم :
ـــ دراسات في الفن الصحفي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971.

3 ـــ أحمد جمعة، دكتور محمد كامل:
ـــ الأسلوب، سلسلة دراسات في النقد، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1963م.

4 ـــ اسكندر، فايـر:
ـــ النقد النفسي عند أ. ريتشاردز، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ.

5 ـــ اسكاربيت، روبيــر:
ـــ سوسيولوجيا الأدب، ترجمة: انطوان عرموني، عويدات، بيروت ـــ باريس، 1978م.

6 ـــ بلحميسي، مولاي:
ـــ الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

7 ـــ بامية، عايدة أديب :
ـــ تطوّر الأدب القصصي الجزائري، ترجمة: د. محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

8 ـــ بريت، ر.ل:
ـــ موسوعة المصطلح النقدي، المجلد الثالث، ترجمة: د. عبد الواحد لؤلؤة، ط 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

16 ــ ابن قينة، عمر:
ــ الديسي: حياته وآثاره وآدبه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
ــ شخصيات جزائرية، البعث، قسنطينة (الجزائر) 1983.
17 ــ ابن نبي، مالك:
مذكرات شاهد القرن، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة مروان القنواتي، دار الفكر،دمشق، 1969.
ــ مذكرات شاهد القرن (الطالب) سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، 1970م.
ــ شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، 1969.
ــ آفاق جزائرية، ترجمة: الطيب الشريف، مكتبة النهضة، الجزائر، بدون وتاريخ.
18 ــ حسني، د. محمود حسين:
ــ أدب الرحلات عند العرب، المكتبة الثقافية الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.
19 ــ حسن، د. زكي محمد:
ــ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ ــ 1981م.
20 ــ حاج صادق، محمد:
ــ المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للادريسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
21 ــ حزب جبهة التحرير الوطني:
ــ المشروع التمهيدي للميثاق الوطني، الجزائر، بدون تاريخ،
ــ الميثاق الوطني، المعهد التربوي الوطني، الجزائر، 1976.

9 ــ بيريس، هنــــري :
ــ مجموعة نصوص في الانشاء الأدبي، والأوصاف والأسفار، مكتبة معهد الدروس العليا الاسلامية، جامعة الجزائر، 1378هـ ــ 1958م.

10 ــ ابن باديس، عبد الحميد :
ــ ابن باديس: حياته وآثاره، اعداد وتصنيف عمار طالبي، مكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ط 1، 1388هـ ــ 1968م.

11 ــ ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي:
ــ رحلة ابن بطوطة، سلسلة أدب الرحلات، بيروت، 1968م.

12 ــ ابن حمادوش، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري:
ــ رحلة ابن حمادوش الجزائري، تقديم وتحقيق وتعليق: د. أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1988.

13 ــ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد:
ــ رحلة ابن جبير، موفم للنشر، سلسلة الأنيس، الجزائر، 1988.

14 ــ ابن سالم الوردي، علي:
ــ الرحلة الاندلسية، تحقيق عبد الجبار الشريف، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر) الدار التونسية للنشر (تونس) 1984م.

15 ــ ابن الفغون، محمد بن الحسن القسنطيني:
ــ ثلاث رحلات جزائرية: تقديم خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.

22 ــ حوحو، أحمد رضا :
ــ غادة أم القرى، وقصص أخرى، موفم للنشر، سلسلة: الأنيس، الجزائر، 1989م.

23 ــ خير الدين، الشيخ محمد:
ــ مذكرات، جزآن، 1990م.

24 ــ دبوز، محمد علي:
ــ نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 3، المطبعة التعاونية، دمشق، 1965.
ــ أعلام الاصلاح في الجزائر، ج 1، مطبعة البعث، قسنطينة (الجزائر) 1394هـ 1974م.

25 ــ دودو، د. أبو العيد:
ــ الجزائر في مؤلفات الرّحالين الألمان (1830 ــ 1855) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.

26 ــ ركيبي، د. عبد الله:
ــ تطوّر النثر الجزائري الحديث، ط 2، الدار العربية للكتاب، ليبيا ــ تونس، 1398هـ ــ 1978.
ــ الشعر الديني الجزائري الحديث، ط 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ ــ 1981م.

27ـ رونوقـن، بيير:
ــ الموسوعة التاريخية الحديثة، تاريخ القرن العشرين، ترجمة: د. نور الدين حاطوم، دار الفكر الحديث، بيروت، 1385هـ 1965.

28 ــ رويه، ريمون:
ــ نقد الايديولوجيات المعاصرة، سلسلة (زدني علما) ترجمة: عادل العوا، ط 1، عويدات، بيروت، 1978م.

29 ـ الزركلي، خير الدين:
ـ معجم الأعلام، ج 6، دار العلم للملاين، ط 5، بيروت، 1980م.
30 ـ الزيات، أحمد حسن:
ـ دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، 1967م.
31 ـ ستولنيتز، جيروم:
ـ النقد الفنّي، دراسة جمالية وفلسفية، ترجمة: د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، بيروت، 1981م.
32 ـ سابايارد، د. نازك:
ـ الرحالة العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، مؤسسة نوفل، بيروت، 1979.
33 ـ سعد الله، د. أبو القاسم:
ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث، دار المعارف مصر، بدون تاريخ.
ـ شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، ط 3 (منقحة) الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ الحركة الوطنية الجزائرية، جزآن (2ـ3) معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ط2، القاهرة، 1987م.
ـ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج 1، سنة 1978، ج 2، سنة 1986م.
ـ تاريخ الجزائر الثقافي، جزآن، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ ـ 1981.
ـ دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر) الدار التونسية للنشر (تونس) 1985.

ــ منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ليبيا ــ تونس، 1976م.

34 ــ سويف، د. مصطفى:
ــ الأسس النفسية للابداع الفّني، منشورات جماعة علم النفس التكاملي، دار المعارف، مصر، 1970.

35 ــ السائحي، محمد الأخضر عبد القادر:
ــ روحي لكم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

36 ــ سلمان، د. نور:
ــ الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، 1981م.

37 ــ صالحي، أحمد:
ــ مناسك الحج والعمرة، وزيارة المدينة المنوّرة، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

38 ــ الطهطاوي، رفاعة:
ــ تخليص الابريز، في تلخيص باريز، مع دراسة وتعليق د. محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.

39 ــ عبد الناصر، جمال:
ــ وثائق ثورة يوليو، تقديم حسين زهوان، موفم للنشر، سلسلة الأنيس، الجزائر، 1988.

40 ــ العبدري، محمد:
ــ الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة (الجزائر) بدون تاريخ.

41 ــ عباس، د. احسان:
ــ فنّ الشعر، ط 3، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.

42 ــ العربي، اسماعيل :
ــ تاريخ الرحلة والاستكشاف في البرّ والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

43 ــ الغليمي، د. محمد طلعت:
ــ جامعة الدول العربية، سلسلة الكتب القانونية، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، 1974م.

44 ــ فضلاء، محمد الطاهر:
ــ التحريف والتزييف في حياة كفاح، دار البعث قسنطينة (الجزائر) 1982م.

45 ــ فوبليكوف، د. ر. وآخرون:
ــ تاريخ الأقطار العربية المعاصرة 1917ــ1970، ج 2، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، معهد الاستشراق، ترجمة ونشر دار التقدم، موسكو، 1976م.

46 ــ فهيم، د. حسين محمد:
ــ أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، رقم 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شوال: 1409هـ ــ يونيو 1989م.

49 ــ القروي، محمد:
ــ حادثة جوية على الاستطلاعات الباريسية، تحقيق الشاذلي بويحي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1979.

50 ــ كراتشوفسكي، أغناطيوس يوليا نوفتش:
ــ تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1962.

49 ـ كارل، ادوارد:
ـ الجذور التاريخية لعدم الانحياز، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.
50 ـ الكاملي، أبوراس محمد:
ـ أبو اسحاق ابراهيم اطفيش، مطبعة (الشهاب) قسنطينة (الجزائر) 1966م.
51 ـ كنطابلي، عبد الله بن محمد:
ـ حول قرية مدن جزائرية أقيمت على قصص حبّ، جمعية التراث (غرداية) المطبعة العربية، غرداية (الجزائر) 1990م.
52 ـ مؤنس، د. حسين :
ـ ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، مصر، 1980م.
53 ـ المدني،أحمد توفيق:
ـ كتاب الجزائر، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
54 ـ مرتاض، عبد الملك:
ـ فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931ـ1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988م.
55 ـ المسعودي، علي بن الحسين:
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، موفم للنشر، سلسلة الأنيس، الجزائر، 1989م.
56 ـ الميلي، مبارك بن محمد الهلالي:
ـ تاريخ الجزائر في القديم والحديث، جزآن، الشركة الوطنية للنشر والتعوزيع، الجزائر، 1396هـ ـ 1976م.

57 ـــ ناصر، د. محمد:
ـــ المقالة الصحفية الجزائرية، مجلدان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.
ـــ الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1985م.
ـــ مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، جمعية التراث (غرداية) المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالرغاية، (الجزائر) 1989م.

58 ـــ ناصف، د. مصطفى:
ـــ الصورة الأدبية، ط 3، دار الأندلس، بيروت، 1983م.

59 ـــ هلال، د. محمد غنيمي :
الأدب المقارن، ط 3، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1973.

60 ـــ الورتلاني، الحسين بن محمد السعيد:
ـــ نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق وتقديم محمد بن أبي شنب، مطبعة بيرفونتانا، الجزائر، 1326هـ 1908م.

61 ـــ الورتلاني، الفضيل:
ـــ الجزائر الثائرة، ط 2، بيروت، 1383هـ ـــ 1963م.

62 ـــ الوزان، الحسن بن محمد:
ـــ وصف افريقيا، ترجمة: د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983.

63 ـــ ويليك، رنيه، وأوستن وارين:
ـــ نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مطبعة خالد الطرابشي، سوريا، 1972م.

64 ـــ يونس، د. عبد الحميد:
ـــ الحكاية الشعبية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، بدون تاريخ.

مراجـــع مخطوطة:

65 ـــ ابن قينة، عمر:
ـــ صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث.

66 ـــ ناصر، د. محمد:
ـــ مكانة الاباضية في الحضارة الاسلامية.

مقابـلات :

1 ـــ مع حمزة بوكوشة، في 1989/12/23م.

2 ـــ مع محمد الصالح رمضان، في 1989/11/22م.
(مكالمة هاتفية) في 1989/12/21م.
في 1990/01/14م.
في 1991/11/11م.
في 1991/11/18م.

3 ـــ مع محمد الطاهر فضلاء، في 1991/11/24م
(مكالمة هاتفية) في 1992/01/29م.

تراجم خاصة مخطوطة :

ـــ ترجمة خاصّة بالشيخ (محمد الصالح رمضان) بقلمه، في صفحتين مرقونتين على الآلة الكاتبة، تغطي مختلف مراحل حياته العامة، حتى 1991،

ـــ ترجمة خاصة بالشيخ (محمد علي دبوز) بقلم: ابنه (دبوز بيوض ابراهيم محمد) في أربع بطاقات مخطوطة لدى.

ـــ ترجمة خاصة بالشيخ (محمد الطاهر فضلاء) بقلمه،مخطوطة لدي، في نحو سبع صفحات.

دوريـــات :

ــ الارشاد، عدد 3، في شعبان 1410هـ (مارس 1990).

ــ البصائر، السلسلة الأولى، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عدد 5 في 6 ذي الحجة 1354هـ (31 جانفي 1936م) حتى عدد 25 في 6 ربيع الثاني 1355هـ (26 جوان 1936م).

ــ البصائر، السلسلة الثانية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عدد 20 في 7 ربيع الأول 1367هـ (19 جانفي 1948م) حتى عدد: 276 في 24 شوال 1373هـ (25 جوان 1954).

ــ الثقافة، وزارة الاعلام والثقافة، عدد 17 و18، سنة 1973.

ــ الثقافة، وزارة الاعلام والثقافة، عدد 18، سنة 1973.

ــ الثقافة، وزارة الاعلام والثقافة، الجزائر، عدد: 82 سنة 1984.

ــ كل العرب، ياسر هواري ــ باريس، 1985.

ــ لمحات، اليونسكو، الجزائر، عدد 2، سنة 1968.

ــ المغرب العربي، بلّة محمود، ربيع الثاني 1956هـ (جوان 1937م).

ــ السلام، الجزائر، عدد 130، رمضان 1411هـ (أفريل 1991م).

ــ السلام، عدد 161، شوال 1411 (ماي1991).

ــ الشعب، الجزائر، 8559، 5 ذي القعدة 1411هـ (20 ماي 1991م).

ــ الشعب، عدد 8565، 12 ذي القعدة 1411هـ (27 ماي 1991م).

ــ الشهاب، ابن باديس، قسنطينة، ج 5، م 12، في جمادى الأولى 1355هـ (أوت 1936م).

مراجع بلغة أجنبية :

— Ibn Battûta, voyage d'ibn battûta, collection Unesco d'oeuvres représentation et notes de Vincent Monteil, T,1, Paris, 1979.

— Moreau, François, l'image littéraire, position du problème, société d'édition d'enseignement supérieur, paris, 1982.

— Gamoudi Mohamed, Sulaymân Al-Bârûni, (Histoire d'un Ibâdite du Jrbal Nafûse 1873-1940), Université de la Sorbonne nouvelle, Paris, III, (Bibliothèque de Droit) 1983.

— Révolution Africaine, Alger, n° 274, mai, 1968.

— Encyclopédique Larousse, V.I, Paris, 1979.

— Le grand Atlas universalis de géographie, p. 63, Paris, 1984.

فهرس الموضوعـــات

تنويه: الكتاب من مصورات الأخ (عبدلي نجيب بن عبد الله) أحسن الله إليه. وقمنا نحن فقط بتنسيقه وفهرسته وخفضنا من حجمه.

أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية ـ بن عكنون

الجزائر